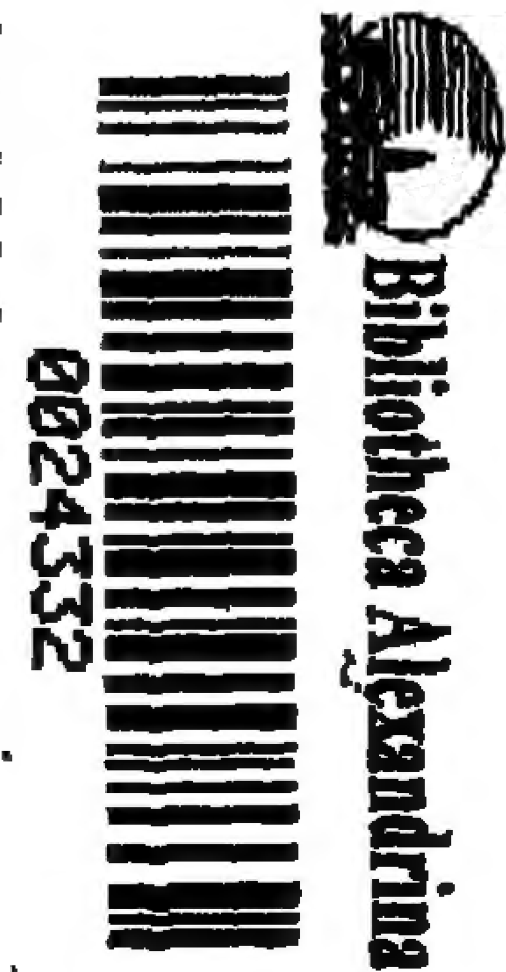
دكتور
جاد طه
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر



الناشر
دار الفكر العربي

دكتور
جاد طه
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

معالم
تاريخ مصر الحديث والمعاصر

الناشر
دار الفكر العربي

الفصل الأول
الحملة الفرنسية على مصر

مقدمة

فى السنوات الاخيرة حاصرنى تاريخ مصر ، فبالاضافة الى عملى كأستاذ بالجامعة تم اختيارى كعضو فى لجنة التنسيق العليا للمتحف القومى للحضارة المصرية .وكان على أن أرأس مجموعة عمل تقوم بالمرور على كافة متاحف مصر الحديثة (المتحف الحربى ـ المتحف الزراعى ـ متحف السكة الحديد ـ متحف قناة السويس ـ متحف التعليم ـ متحف البريد ـ متحف الركايب ـ متحف الامير محمد على ـ متحف الجوهرة ومتحف الرى ... الخ) وذلك تمهيدا لكتابة السيناريو الخاص بالحضارة المصرية الحديثة للمتحف القومى للحضارة ، والذى سيقام بأرض المعارض بالجزيرة

وبالاضافة الى اعمالى فى لجنة التنسيق العليا فى ذلك المتحف ، أصبحت عضوا بمجلس ادارة المتاحف التاريخية والاقليمية وهكذا أصبحت عاكفا على دراسة الحضارة المصرية الحديثة وبطريقة يومية .

وتلفت حولى فوجدت مؤلفات زملائى الاساتذة عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر تملأ الاسماع والابصار . ولكن كتاباتهم متخصصة جدا ككتاب عن أحد الزعماء أو عن أحد الاحزاب أو عن فترة قصيرة جـدا من تاريخ مصر السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى . وكذلك كانت كتبى أنا أيضا .

وهكذا برزت فى مخيلتى فكرة هذا الكتاب ... معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر . وقد قسمت هذا الكتاب الى فصول ... فى الفصل الاول تكلمت عن الحملة الفرنسية على مصر وكيف أن هذه الحملة كانت تمثل تقدم ثلاثة قرون عاشتها أوربا بعد عصر النهضة أمام تخلف ثلاثة قرون عاشتها مصر تحت الحكم العثمانى ، وكان اللقاء حافلا بطبيعة الحال مما أعد المصريين للتغيير .

وفى الفصــل الثانى عصر محمد على تكلمت عن مؤسس مصر الحديثة. والواقع أن الكتابة عن محمد على ليست أمرا سهلا لانه بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدأ الكتاب يهاجمون مؤسس مصر الحديثة ، ولكن المؤرخ هــو كالقاضى من القضية لا يميل ولا ينحاز وهكذا كان لابد من اعادة النظر ، والكتابة كتابة موضوعية تعطى للرجل حقه وتحاسبه اذا كان قد أخطأ . لقد شيد محمد على امبراطورية مصرية كبرى شملت الجزيرة العربيــة والسودان والشام وكانت مصر هى قلب هذه الامبراطورية . وجند المصريين الذى حاربوا فى اليونان وقرب خط الاســتواء وفى جبال اليمن وفى صحارى الجزيرة العربية مؤكدين أنهم خير جند الارض . وبالنسبة للمجال الزراعى شيد محمد على القناطر المختلفة ومنها القناطر الخيرية التى تعتبر أول قناطر فى العالم بهذا الحجم وبايد مصرية لزراعة المحاصيل الصيفية ، وهى بحق قناطر الخير . كما شق الترع ومنها ترعة المحمودية التى احيت مدينـــة الاسكندرية بعد وصول الماء العذب اليها مباشرة من النيل . كما انه أضاف غلات الى المحصولات الزراعية كالقطن ... الذهب الابيض وعماد الاقتصاد لوطنى .

وفى مجـــال الصناعة أقــام صناعات كبرى .. ثمانية عشر مصنعا للنسيج ومصانع النحاس والحديد والزجاج والمصانع الحربية . والمتحف الحربى يحفظ لنا بعضا من المدافع والبنادق التى صنعت فى مصر مع بداية القرن التاسع عشر .. والكلام عن محمد على لا ينتهى فهناك التعليم والبعثات وانشاء كلية الطب والهندسة ثم انشاء الصحافة وتشكيل المجالس المختلفة ، كل ذلك يجعل المؤرخ المنصف يقول كمــا عنون الكاتب الانجليزى هنرى دودويل كتابة عن محمد على « قصة محمد على أو مؤسس مصر الحديثة » كما أن ابراهيم باشا ابن محمد على هو قائد عسكرى عالمى بكل المعايير شئنا ام لم نشأ ومعاركه فى الشام والجزيرة العربية والمورة تدرس حتى الآن فى بعض المعاهد العسكرية العالمية والعليا . أن هذه الفترة التى امتدت من ١٨٠٥ ــ ١٨٤٩ هى فترة عظيمة ومزدهرة فى تاريخ مصر بصفة عامة .

ويتناول الفصل الثالث عصر اسماعيل وهو عصر التحديث ، فقد عادت بعثات محمد على من الخارج بعد أن نهلت من الغرب علومه وفنونه وبدأت

تؤثر فى مصر ومنهم على مبـارك أبو التعليم ورفاعة رافع الطهطاوى أبو الترجمة والخديوى اسماعيل نفسه كان تواقا لتحقيق النقلة الحضارية فى مصر ، فنشر التعليم وانشأ المدارس لتعليم الابناء ، وشيد الكبارى ككوبرى قصر النيل وأقام دار الكتب ووضع أساس المتحف المصرى وشيد القصور الخديوية والبساتين ، وفى عصره افتتحت قناة السويس للملاحة وأقيمت دار الاوبـرا ٠

وقد خصصنا الفصل الرابع لقناة السويس لخصوصية هذا الموضوع وكيف أن فكرة المشروع بدأت منذ عهد الحملة الفرنسية على مصر الى ان وافق الوالى سعيد باشا على شقها ، وتم افتتاحها فى عصر اسماعيل سنة ١٨٦٩ ٠ وكيف أن انجلترا وقفت تتحين الفرص للاستيلاء على هـذا الشريان المـائى الخطير والذى يصـــل أهم بحرين عـالميين البحـر المتوســط الهند ٠ وكل هذا ادى الى احتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢ ٠

اما الفصل الخامس فيتحدث عن الثورة العرابية وكيف ن الصحافة المصرية فى عصر اسماعيل وكذلك رجال البعثات ، هذا بالاضافة الى مجىء رجل يعد دولة وحده الى مصر وهو السيد جمال الدين الافغانى ، واقامته بها لمـدة سبع سنوات من سبعينات القرن التاسع عشر ويكفى أن نذكـــر اسماء مثل محمـد عبده ٠ المويلحى ـ اديب اسحق ـ البارودى ـ سعد زغلول لنعرف مدى تاثير هذا الرجل ٠

وهكذا اندلعت ثورة عرابى وســـط هذا المناخ سنة ١٨٨١ واضطر الخديو توفيق الى الامر بتشكيل وزارة وطنية أصبح الفلاحـون فيهـا وزراء وقادة لاول مرة ٠ ولكن بريطانيا انتهزت فرصة الخلاف بين عرابى والخديوى توفيق واحتلت مصر ، وران على مصر صمت عميق ٠

وفى الفصل السادس ناقشنا اليقظة المصرية بعد السبات ٠ فقد وقف الزعيم مصطفى كامل يندد بالاستعمار ويستغل حادثة دنشواى ويكتب فى الصحافة العالمية ضد الانجليز وكان بحق كما عنون عبد الرحمن الرافعى كتابة عنه باعث الحركة الوطنية بعد الاحتلال ٠

واذا كان مصطفى كامل قـد قضى سـنة ١٩٠٨ ، فان زميله محمد فريد حمل المشعل من بعده مضحيا بكل شىء من أجل مصر وكان بحق أيضـا كما عنون عبد الرحمن الرافعى كتابة عنه رمز الاخلاص والتضحية ٠٠٠ ما أحوجنا اليوم للتعرف على هذه الزعامات ٠ وفى الفصل السابع ثورة ١٩١٩ والتى اندلعت عقب نهاية الحرب العالمية الاولى ، لأن المصريين ذاقوا الامرين من هذه الحرب ، وسئموا وعود الانجليز بالجلاء ، فكانت الثورة التى أجبرت الانجليز على اصدار تصريح الاستقلال فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ٠

أما الفصل الثامن فيتكلم عن مصر المعاصرة ويتعرض بايجاز لاهم موضوعات هذه الفترة حتى سنة ١٩٥٢ ٠

ولم ارد أن اكتب تاريخ ثورة يوليـو السياسى الآن لقـلة الوثائق المنشورة والمتاحة الخاصة بالثورة ، وكثرة الكتابات الصحفية ، والكتابات المتعارضة للمسئولين ، ولأن مرجل الحوادث لم يهدأ بعد ٠ ويعرض الفصل التاسع لبعض موضـوعات مصر المعاصرة الحضـارية فهو يعطى صـورة سريعة لاهم متاحف مصر الحديثة وهى دراسة تقدم لاول مرة ٠ فقد أفزعنى حقا قلة المترددين على هذه المتاحف ٠ ومن المناسب هنا أن نركز على أن هذه المتاحف تعد سجلا للحضارة المصرية الحديثة التى هى نتاج واستمرار للحضارة المصرية على مر العصـور ٠

وتجدر الاشارة الى اننى سرت فى هذا الكتاب متبعا التسلسل الزمنى للموضوعات ، ومع ذلك فاننى فى بعض الفصول آثرت طريقة الوحدات فى الكتابة أى انهاء الموضوع كله ، حتى تكون الصـورة واضحـة ٠

والله ولى التـوفيق

أ ٠ د ٠ جـاد طـه

مصر الجديدة فى ٢٩ يوليو ١٩٨٥ ٠

« من أحب وطنه ... أحب تاريخ وطنه »

ظلت دولة المماليك مسيطرة على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب حتى نهاية القرن الخامس عشر ٠ وكان لاكتشاف البرتغاليين لطريق راس الرجاء الصالح وتحويلهم لطرق التجارة العالمية على حساب مصر ٠ ولقد حاولت مصر رغم المفاجاة أن تدفع هذا الهجوم ، وأن ترسل السفن الى البحر الأحمر ، والقوات العسكرية الى اليمن لكى تمنع استيلاء البرتغاليين على عدن أو دخولهم البحر الأحمر وتهديدهم لموانى الحجاز ٠ وبذل السلطان الغورى كل ما فى وسعه ، الا أنه لم يحقق نتائج حاسمة (١) ٠

وهكذا تمت السيطرة البرتغالية على مياه الهند ، فى نفس الوقت الذى ضعفت فيه امكانيات مصر العسكرية ، وتدهورت تجارتها ، وحرمت من مورد أساسى من مواردها ٠

واذا كان بعض الكتاب ينسب سوء أحوال مصر ابتداء من القرن السادس عشر الى الحكم العثمانى فان الواقع يؤكد أن هذا الحكم وصل الى مصر بعد تحول طرق التجارة العالمية عنها ٠

وكانت منطقة الشرق الادنى تضم فى ذلك الوقت ثلاث قوى رئيسية هى قوة الاتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى والبلقان والثانية هى قوة الصفويين فى فارس والثالثة هى قوة المماليك فى مصر والشام والحجاز ، وكان التنافس واضحا بين كل من هذه القوى ، خاصة بين العثمانيين

---

١ - لمزيد من التفصيلات انظر دكتور جاد طه - سياسة بريطانيا فى جنوب الجزيرة العربية - الطبعة الثانية - دار الفكر العربى ١٩٨٤ - ص ٢٠ - ٢٥ ٠

السنيين والصفويين الشيعة . لقد استولى الصفويون على العراق سنة ١٥٠٨ فى عصر الشاه اسماعيل الذى جعل المذهب الشيعى مذهبا رسميا لدولته ، مما أدى الى سوء العلاقات مع العثمانيين السنة ، وهكذا قاد سليم الاول قواته نحو الشرق ، وهزم القوات الفارسية فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤ ، ودخل عاصمتهم تبريز .

واعتبر العثمانيون أن واجبهم الأول يتلخص فى الدفاع عن العالم الاسلامى من الاخطار الخارجية ، واعتقدوا انهم أقدر من دولة المماليك فى الدفاع عن المنطقة ، وخاصة ضد الغزو البرتغالى . واستخدم العثمانيون السيف وسيلة لتوحيد الشرق الأدنى بأقاليمه فى دولة واحدة .

وهكذا سار سليم الأول على راس قواته صوب سوريا التى كانت تابعة لدولة المماليك ، وانتصر العثمانيون فى معركة مرج سنة ١٥١٦ على قوات السلطان الغورى الذى فقد فى المعركة ثم هجموا على مصر وانتصروا على المماليك مرة ثانية فى موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ ، واصبح العثمانيون بذلك أكبر قوة موجودة فى العالم الاسلامى (١) .

وارتكز نظام الحكم العثمانى فى مصر على عدة أسس ، فهناك الوالى الذى كان يعين لمدة عام واحد فى اغلب الأحوال ، وأدى ذلك الى اهتمام الولاة بجمع الأموال فى هذه الفترة القصيرة ، خاصة وأنهم أصبحوا يشترون المنصب قبل توليهم اياه ، كما انهم اضطروا فى نفس الوقت الى الانصراف عن المشروعات العمرانية والانتاجية ، والتى تتطلب متابعة لاتمامها .

ولما كان الوالى هو ممثل السلطان فى مصر ، فقد زودته الدولة بسلطات كبيرة ، وجعلته حاكما مطلقا فى ولايته .

ومع خوف الدولة من ان يعلن الولاة استقلالهم ، انشات الى جانبهم الديوان الذى كان يتالف من كبار ضباط الحامية العسكرية وكبار العلماء

---

(١) دكتور جلال يحيى ودكتور جاد طه ـ العرب فى التاريخ الحديث دار الكتب الجامعية ١٩٧٤ ص ١٤ ، ١٥

والتجار • والى جانب الوالى والديوان أضاف العثمانيون قوة ثالثة وهى قوة المماليك ، كنوع من تحقيق التوازن بين القوى •• قوة الوالى وقوة الديون وقوة المماليك ، حتى لا تستبد احداها بالسلطة •

والواقع أن تحول طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب كان سببا أساسيا فى تدهور الاحوال فى مصر ، وجاء نظام الحكم العثمانى لكى يؤدى الى مزيد من التدهور •

لقد أخذ الولاة يهتمون بجمع الأموال ، واخذوا يهتمون بمظاهر الحكم أكثر من اهتمامهم بجوهره •"كما كان المماليك يعيشون حياة مترفة ، ويستغلون مئات القرى لحسابهم ، ورغم ذلك فانهم أهملوا الزراعة ، فقلت المحصولات ، وارتفعت الاسعار ، واجتاحت البلاد جماعات عديدة • وكان سليم الأول قد أبقى على الارض الزراعية فى يد الحاكم يوزعها على اتباعه أو يوزعها على الفلاحين نظير دفعهم الضرائب • وكانت الحكومة توزع الاراضى على الملتزمين الذين يتعهدون بتحصيل الضرائب نظر حصولهم على عقد الالتزام ، واصبح الملتزم مع الزمن يورث هذا الحق لابنائه • ومع تدهور الأحوال ، أصبحت الدولة لا تهتم الا ببيع الالتزام لمن يتعهد بدفع مبلغ معن للخزانة (١) •

وفى مثل هذه الظروف أهملت الزراعة والرى ، وزحفت الرمال على الارض الخضراء ، وتناقص عدد السكان ووصلت الصناعة الى مرحلة يرثى لها من الانحطاط ، وتدهورت التجارة الداخلية والخارجية • ومع السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر ، ومصر تعيش سنوات التخلف والتدهور حدثت المفاجاة •• مفاجاة الحملة الفرنسية على مصر والتى كانت تمثل تقدم ثلاثة قرون عاشتها أوربا منذ بداية النهضة فى مواجهة ثلاثة قرون من التخلف عاشتها مصر منذ تحول طرق التجارة العالمية والحكم العثمانى، وكان اللقاء حافلا بلا شك •

---

(١) دكتور جلال يحيى ـ دكتور جاد طه ـ المصدر السابق ص ٣٣ •

الحمــلة :

حاولت فرنسا النزول الى الميدان الاستعمارى بارســال قواتها الى كندا ، والى بعض الجزر فى الهند الغربية ، وسايرت فى ذلك الحركة الاستعمارية العامة التى اجتاحت كل أوربا ، وانتقلت من اسبانيا والبرتغال الى دول غرب أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر • ولكن بريطانيا نافست فرنسا فى الميدان الاستعمارى فى العالم الجديد ، وتمكنت من الاستيلاء على كندا ، ومن مضايقة فرنسا فى مستعمراتها ومراكزها الاستعمارية فى الهند والمحيط الهندى (١) • الا أن قيام الثورة الفرنسية تلقل الاوضاع والنظم السياسية والاقتصادية فى العالم ، ودخل بالتنافس البريطانى الفرنسى الى ميدان جديد •

وكان البريطانيون قد قاموا بعدة محاولات لاستخدام طريق البحر المتوسط الذى يمر عبر من الاسكندرية الى القاهرة فالسويس • لكى يواصلوا السفر فى البحر الاحمر ثم المحيط الهندى • وكانوا قد واجهــوا صعوبات متعددة أمامهم فى هذا الطريق ، أولها الباب العالى ، ثم البكوات المماليك فى مصر ، والاهالى العرب بصفة عامة ، اذ انهم كانوا لا يوافقون على حضور السفن الاوربية الى البحر الاحمر (٢) لان تجارب العرب مع البرتغــاليين الذين هاجموا موانى البحر الاحمـــر جعلت العرب يفكرون كثيرا قبل أن يسمحوا للاوربيين بالملاحة فى هــذا البحر •

ورغم كل ذلك فقد تمكنت الشركات الاستعمارية البريطانية من عقد اتفاقيات مع البكوات المماليك للمرور عبر مصر ، ومن هذه الاتفاقيات الاتفاقية التجارية التى عقدتها انجلترا مع محمد بك ابو الذهب ـ الذى كان قد تطلع الى الانفصال عن الباب العالى ـ وذلك من أجل تأمين سير السفن البريطانية

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٢٢ •

(٢) انظر د • جلال يحيى العالم العربى الحديث ـ المدخل ص ٨٤

فى البحر الاحمر (١) • وهذا يوضح اهمية العلاقات الودية - من وجهة النظر البريطانية - مع مصر ، وذلك بالنسبة لمواصلاتها مع الهند •

وكان لتقارير وكتابات رجال السياسة الفرنسيين ، الذين خدموا فى القسطنطينية أو القاهرة ، وكذلك الرحالة الذين زاروا مصر ، أكبر الاثر فى كشف القناع عن حالة الامبراطورية العثمانية من جهة ، وتوجيه أنظار مواطنيهم الى مصر احدى ولايات هذه الامبراطورية من جهة أخرى • وقد أقبل السياسيون على دراسة هذه التقارير وقراءة هذه الكتب باهتمام كبير ، عندما تجددت الرغبة فى الاستعمار (٢) •

قد اختارت حكومة الثورة الفرنسية الجنرال بونابرت قائدا لحملتها على مصر ، وزودت هذه الحملة القوية بكل ما يلزمها ، وأعطت قائدها سلطات واسعة فى التصرف • وقد وصل الاسطول الفرنسى الى سواطىء مالطة فى يونيو ١٧٩٨ ، وفى صبيحة يوم ١٩ يونيو غادرت الحملة مالطة فى طريقها الى الشواطىء المصرية • ولما كان بونابرت يخشى من مهاجمة الاسطول الانجليزى للاسطول الفرنسى أثناء تقدمه ، فقد عمد الى تغيير اتجاهه ، وأبحر صوب كريت بدلا من الابحار مباشرة صوب الاسكندرية وفى مياه كريت علم بونابرت أن نلسن Nelson أمير البحر الانجليزى كان لا يزال يجد فى اثره ، فاستمر فى سيره بكل سرعة الى الاسكندرية (٣) ، وتمكن من احتلالها ، ثم زحف بحملته عبر الدلتا حتى وصل الى القاهرة التى لم يصمد المماليك طويلا للدفاع عنها امام قواته (٤) ، وهكذا اصبح بونابرت فى موقف يهدد منه المواصلات البريطانية مع الهند (٥) •

ولم يقف الامر عند حد التهديد ، بل ان بونابرت أمر المسيو لسكاريس بالسفر الى بلاد العرب ليتفاوض مع القبائل العربية المختلفة حتى تسهل

---

(١) Hunter F.M. an occount of the British Settlements of Aden p. 162.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص٤٢ •

(٣) المصدر السابق ص ٨٤ - ٨٦ •

(٤) Harold Ingrams The Yemen p. 49.

(٥) H. Dorwell The Story of Nehmet Alior The founder of modern Egypt p. 56.

تقدم جيوشـه الى الهند (١) ٠

ورغم أن محاولات بونابرت هذه لتأمين طرق تقدم القوات الفرنسية الى الهند لم تكن لها من نتيجة ، فانها أوضحت خطورة الموقف حينذاك بالنسبة للمصالح البريطانية ، ونتيجة لذلك ، قامت قوة بريطانية باحتلال جزيرة بريم فى مضيق باب المندب بين خليج عدن والبحر الاحمر (١) وذلك باسم شركة الهند الشرقية ، وذلك حتى تعرقل هذه القوة أى تقدم فرنسى نحـو الهنـد ٠

الا ان الفرنسيين لم يظلوا فى مصر فى موقف يهددون منه المواصلات البريطانية مع الهند ، فقد جعل أنتصار نيلسون فى أبو قير فى إول أغسطس ١٧٩٨ موقفهم فى مصر صعبا ، كما أرسل السلطان العثمانى سليم الثالث فى نفس السنة سفنا عليها قوات تركية الى مصر (٢) ٠

وهكذا تمكن نلسون باغراقه لسفن الاسطول الفرنسى من قطع خطوط مواصلات الحملة الفرنسية مع فرنسا ، الا أن بونابرت واصل حملته التى حضر من أجلها ، وامر قواته بالزحف على سوريا مبتدئا بفلسطين ، واتصل فى نفس الوقت بالوهابيين فى الجزيرة العربية ٠ وقد تصدت بريطانيا بمساعدة الدولة العثمانية لهذا التقدم الفرنسى ، مما اضطر بونابرت فى النهاية الى العودة الى فرنسا ، وقد اضطرت الحملة الفرنسية نفسها الى الانسحاب من مصر والعودة الى أوربا بعد ذلك ٠

ولقد فشلت الحملة الفرنسية على مصر من ناحية فاعليتها فى ضرب بريطانيا فى الهند ، كما فشلت فى اقامة مستعمرة فرنسية فى مصر ، أما من حيث تأثير هذه الحرب الاستعمارية على المصريين كجزء من الشعب العربى، فان النتائج كانت ايجابية وكانت هامة ٠ فالواقع أن الحملة الفرنسية على

(١) سديدو ـ خلاصة تاريخ العرب (مترجم) ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ٠

(٢) Plafair R.L. A History of Arabia Felix or Yemen p. 122-123.

(٣) Carl Brocklemann The history of Islamic People p. 348.

مصر فتحت حقبة جـــديدة فى تاريخ العرب ، فقد أوضحت هذه الحملة أن سياسة العزلة التى فرضها العثمانيون على العالم العربى لا تصلح أن تكون خطا للمقاومة يحمى الوطن العربى من أطماع أوربا ٠

المقاومة المصرية ضد الحملة الفرنسية :

بذل الفرنسيون جهدهم عند احتلالهم الاسكندرية منذ ٢ يوليو ١٧٩٨ للتقرب من الشعب المصرى ، واتخاذ سياسة أطلق عليها السياسة الاسلامية، ولكن الاسكندرية مع هذا ظلت تبدى من ضروب المقاومة ما يستحق الاعجاب ويعتبر السيد محمد عبد الكريم (١) ـ كما تنعته المصادر ـ أو محمد كريم كما شاع بعد ذلك بطل المقاومة فى المرحلة الاولى من المواجهة ٠ وعندما شعر الجنرال كليبر قائد منطقة الاسكندرية حينذاك بمسئولية السيد كريم عن المقاومة الوطنية فى الاسكندرية وزعامته لها قام بالقبض عليه فى ٢٠ يوليو ١٧٩٨ (٢) وبعد ثمانية عشر يوما من الغزو ٠ وكتب كليبر فى ٢١ يوليو يخبر بونابرت فى القاهرة بنبأ القاء القبض على السيد وتعيين السيد محمد الغريانى خلفا له (٣) ٠

ثم أمر بونابرت بتشكيل محكمة عسكريه لمحاكمة الشريف محمد كريم برئاسة الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى وعند بداية الجلسة قال ديبوى « لقد أثبت التحقيق خيانتك للجمهورية (فرنسا) وانك قمت بتحريض الاهالى وســـكان البحيرة على الثورة ضدنا ، ورد عليه الزعيم

---

(١) السيد محمد عبد الكريم (محمد كريم) شريف النسب ولد على الارجح فى عام ١٧٤٥ ، وكان أبوه رجلا متدينا ، علم ابنه العلوم الدينية فى احد الكتاتيب بالاسكندرية ، ثم ارسله بعد ذلك الى الأزهر لاستكمال دروسه ٠ وبعد وفاة الوالد عمل السيد كريم وزانا (مهنة القبانة) ٠ واحبه الناس لامانته واشتهر ذكره فى الاسكندرية ورشيد ، وصارت له صلة بالامير صالح بك أمير الحج ٠ ويقول الجبرتى أن صالح بك قد قلد عثمان خجا أمر ثغر رشيد ، وقد سعيا لدى مراد بك الذى قلد محمد كريم أمـــر الديوان والجمارك بالثغر وتخويله السلطة به ٠ وهكذا كان الســـيد كريم بمثابة محافظ الاسكندرية عند وصول الحملة الفرنسية اليها ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ١٨٩ ٠

(٣) المصـــدر الســـابق ص ١٩٢ ٠

بثقة وهدوء » ان جمهوريتكم هى التى خانت مبادئها ... لقد اغتصبت وطنى ، وقتلت الناس بلا شفقة أو رحمة » ثم صاح الشريف فى قاعة المحكمة « ستؤكدون للعالم بموقفكم هذا ، وبمحاكمتكم لى أننا أمة تبغى الحرية ، وتضحى فى سبيلها بكل ما نملك ، وسوف يخلد التاريخ اسم كل مجـاهد » (١) .

وظل التحقيق مع السيد عدة أيام وهو ثابت لا يحيد عن موقفه ، وأخيرا أعلنت المحكمة قرارها بثبوت جميع التهم المنسوبة اليه وأنه خائن للجمهورية الفرنسية ورفع الامر الى بونابرت الذى أصدر قراره بالحكم باعدام الشريف . واظهر محمد كريم جلدا وشجاعة امام حكم الاعدام . وفى اليوم السادس من سبتمبر ١٧٩٨ تم تنفيذ الحكم رميا بالرصاص ، وأحدث مقتله تاثيرا سيئا لدى المصريين الذين اعتبروه شهيدا ، وانتظروا صابرين حتى تجىء فرصة الجهاد المقدس . ويمكن القول أن هذه الحادثة كانت من أسباب ثورة القاهرة الاولى ضد الحملة الفرنسية فى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وأن مقتل الجنرال ديبوى حاكم القاهرة الفرنسى أثناء هذه الثورة لنوع من القصاص لأن ديبوى كان رئيس المحكمة الفرنسية العسكرية التى حاكمت الشريف محمد كريم والذى انتهى أمرها بالحكم عليه بالاعدام .

ثورة القاهرة الأولى :

وهكذا احتل الفرنسيون القاهرة ، ووطدوا سلطتهم بها ، وأصدر بونابرت قرارا بانشاء الديوان الذى تالف من عشرة من المشايخ لمعاونته فى حكم البلاد (٢) . الا أن شعور اعضاء الديوان بأن سلطتهم استشارية وبان بعض القرارات الهامة تتخذ دون الرجوع اليهم ، أو تنفذ بطريقة مخالفة لما أبدوه من مشورة ، كان يدفعهم الى النظر الى السلطات الفرنسية على انها كانت تحتفظ لنفسها بالسلطة الفعلية (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٦ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٨ .
(٣) د . جلال يحيى - مصر الحديثة - ص ٣٨٤ .

ولقد تكاتفت عوامل كثيرة من أجل زيادة شعور المصرين بالانفصال عن الفرنسيين ، ولا شك أن قيام الثورة أكد استحالة ايجاد جو من التعايش السلمى بين الحكم الفرنسى لمصر الاسلامية وبين الشعب المصرى بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين • لقد كان الشعب فى القرن الثامن عشر يشكل مجتمعا دينيا اسلاميا ، ينظر الى الدولة العثمانية على أنها دولة الاسلام الكبرى وأن سلطانها هو سلطان المسلمين (١) •

ولا شك أن سلوك بونابرت مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم وقسوتهم ، فاذا به أشد منهم قسوة وظلما • فقد روى الجبرتى أنه فى يوم السبت ١٤ صفر ١٢١٣ (٢٨ يوليو ١٧٩٨) أى عقب أن استقر بونابرت فى العاصمة ببضعة أيام ، وعقب تاسيس الديوان بثلاثة أيام « •• اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة وهى خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الافرنج أيضا ، فسالوا التخفيف فلم يجابوا فأخذوا فى تحصيلها (٢) » •

ويجب أن لا ننسى هنا أن الفرنسيين كانوا يمنون أنفسهم قبل دخول القاهرة بالحصول على ثروات طائلة من أموال وأملاك المماليك ، ولكنهم لم يجدوا الشىء الكثير بعد دخولهم القاهرة ، خاصة وأن المماليك هربوا كل ما يمكنهم تهريبه معهم فى عملية خروجهم الى سوريا • كما أن تحطيم الاسطول الفرنسى فى أبو قير ، ومحاصرة الاسطول البريطانى للسواحل المصرية أدى الى توقف التجارة وسوء الاوضاع الاقتصادية ، وقطع اتصالات الحملة بفرنسا • وقد أدى ذلك كله بالفرنسيين الى ضرورة الحصول على موارد بطرق أخرى (٣) •

---

(١) د • عبد العزيز الشناوى - صور من دور الازهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر - من ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس - ابريل ١٩٦٩) - مطبعة دار الكتب ١٩٧١ •

(٢) الجبرتى - ح ٣ ص ١٢ •

(٣) د • جلال يحيى - المصدر السابق ص ٣٨٤ •

وقد ذكر مؤرخنا الجبرتى أن تقرير الضرائب الفادحة التى فرضها الفرنسيون هو الذى أدى الى نشوب الثورة . ففى يوم السبت ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ، عملوا الديوان واحضروا قائمة مفردات الاملاك والعقار. فجعلوا على الاعلى ثمانية فرانسه والاوسط ستة والادنى ثلاثة ، وما كان أجرته اقل من ريال فى الشهر فهو معافى ، وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتســاع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ، والصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخا للاعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص ليتميز الاعلى من الادنى ، وشرعوا فى الضبط والاحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط اسماء اربابها ، ولما اشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك (١) .

ونتوقف قليلا عند هذا النص ، ونتمعن فى كلمات مؤرخنا .. لقد تمادى الفرنسيون فى فرض القروض الاجبارية على جميع انحاء البلاد ، ففرضوا على تجار الاسكندرية ٣٠٠ر٠٠٠ فرنك ، وعلى تجـار رشـيد ١٠٠ر٠٠٠ فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠ر٠٠٠ فرنك وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ر٠٠٠ ريال نقدا و ٤٠ر٠٠٠ نوعا ، وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ر٠٠٠ ريال ، وعلى الاقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الاقاليم ١٠٠ر٠٠٠ ريال . ثم فرضوا على تجار خان الخليلى ١٠ر٠٠٠ ريال ووكائل الصابون ١٠ر٠٠٠ ريال ووكائل الفاكهة ٦ر٠٠٠ ريال والسقائين ١٥ر٠٠٠ ريال وتجار السكر ١٠ر٠٠٠ ريال وتجار الاقمشـــة الهندية بالغورية ١٥ر٠٠٠ ريال (٢) .

ومما زاد الامر سوءا أن الفرنسيين أخذوا يخرجون كثيرا من أصحـاب البيوت من بيوتهم ويحتلونها أو يهدمونها بحجة تحصين القاهرة . كما قاموا بهدم ابواب الحارات والدروب ، فاشـــتد قلق الناس من هدمها ، وتظننوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة ، وان كان الجبرتى لا يوافق على هذا الرأى ، فهو يشـير الى ذلك بقـوله

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥ .
(٢)عبد الرحمن الرافعى – تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٢٦٧ .

« .. فلما حصلت هاتان النكتتان انكمش الناس ثانيا وأرتجفت قلوبهم » (١) أي أن القول بأن الفرنسيين عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة هو مجرد مبالغة كبيرة جدا لا يمكن الموافقة عليها أو نكتة على حد قول مؤرخنا .. الا أن انتشار الاشاعة على أية حال أدى لى انكماش الناس وخوفهم ثم الى ثورتهم فى النهاية .

وزاد ظهور تشدد الفرنسيين وضوحا فى موقفهم من السيد محمد كريم الحاكم الوطنى لمدينة الاسكندرية ، الذى ثبتوه فى سلطته ، ثم حكموا عليه بالاعدام . وكان هذا العمل كفيلا باثارة نفوس المصريين ، وتقليل همة من يتعاون معهم من المصريين .

وكانت هناك اسباب اخرى اجتماعية تدفع المصريين الى عدم التجاوب مع الفرنسيين ، فرغم تظاهر الفرنسيين باحترام وعادات الأهالى وتقاليدهم ، فكانوا فى الواقع لا يأبهون بها كثيرا ، فظهرت دور الشراب ، والتفت بعض النسوة الساقطات حول الجنود بشكل يخدش من كرامة المجتمع الاسلامى المتزمت الذى كانت تعيشه مصر آنذاك ، ويكفى أن نورد موقف الجبرتى من هذه النقطة « .. لما حضر الفرنسيين الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم، وكانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لا بسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة السكارية معهم وحرافيش العامة فمالت اليهم نفوس أهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش » (٢) .

كان الرأى العام – اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير – مهيا للثورة ، وجاءت مسألة الضرائب لتكون سببا مباشرا لاندلاعها . وعلى أية حال فقد استسلم بعض الناس للامر الواقع، ورأى البعض ضرورة المقاومة « .. ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الامور ، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأمور لتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٣ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ١٦١ .

يقودهم ، واصبحوا يوم الاحد وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وعول جسيم ويقولون بصياح فى الكلام نصر الله دين الاســـلام » (١) :

ونتوقف هنا لحظات كى نتناول كلمات مؤرخنا بالتحليل فهو هنـا يأخذ على بعض المتعممين انهم لم ينظروا فى عواقب الامور ، وانهم لم يفطنوا الى قوة عدوهم ، ونستطيع بصفة عامة ان نتلمس انه لم يكن موافقا على قيام ثورة القاهرة الاولى بالطريقة التى قامت بها . كما يتضح من كلمات الجبرتى ان الحركة بدأت تلقائية بدون رئاسة او تنظيم ، وان كان بعض المؤرخين يؤكد ان لجنة الثورة اعدت لقيامها قبل بدئها . كذلك نتوقف عند كلمات الجبرتى الخاصة بتوصيف الثوار وبانهم من الغوغاء او الحشرات والزعر والواقع ان الجبرتى كان قاسيا فى وصفه هذا على الثائرين الذين كان منهم المحاربون والشهداء فى هذه الثورة الاولى ، الا انه يبدو ان الذى جعله يطلق عليهم هذه الالقاب المنفرة هو تاكده من عدم جدوى الثورة ضد القوات الفرنسية المنظمة والمسلحة بأعتى الاسـلحة آنذاك ، وكذلك لان الفوضى والسلب والنهب اللذين صاحبا بدء قيام الثورة جعلته ينفر من بعض القائمين بها ويلقبهم بهذه الالقاب المهينـة .

وفى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ تكونت للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها ومقرها الازهر ، وامتلات الطرق والشوارع بالناس حاملين الاسلحة قاصدين الى احياء الفرنسيين لمهاجمتها .

ويبدو ان السلطات الفرنسية لم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها فى أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم الى مركز الخانر الفرنسية فقتلوا الجنود والحراس . ولم يقدر الجنرال ديبوى - حاكم القاهرة الفرنسى - خطورة الموقف ، واكتفى بارسال بعض دوريات من الجند ، الا انه لم يلبث - عندما تبين خطـوره الموقف - ان مضى فى كتيبة من الفرسان قاصدا مركز الثورة ، الا ان الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صـارت كانها بحر يزخر بالناس ، واخـذ الجنرال

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥ .

ديبوى يشق لنفسه طريقا بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقطت الاحجار على الكتيبة من جموع الثوار . ولم يحسب حسابا لعواقب مواجهته هـذه الجموع الثائرة ، فهجم عليها على رأس فرسانه ، الا ان الثائرين اطبقوا عليه من كل جانب ، (١) وهنا انزعج ديبوى ، « وخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وتلك الاخطاط بالخلائق مزحومة فبادروا اليه وضربوه واتخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه » . والواقع ان مقتل الجنرال ديبوى زاد من حماسـة الثوار ، وانحازت الجموع الهادئة الى صفوف الثورة متشجعين بهذا النصر الاول ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف، واشتدت حمية القتال فى نفوسـهم واستولوا على معظم المواقع المحيطة بالقاهرة كباب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية ، « وهدموا مساطب الحوانيت وجعلوا احجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمـع عظيم من الناس » اما منطقـة مصر القديمة ومنطقة بولاق فلم تشتركا مع الثورة ، ويبرر الجبرتى ذلك بقربهما من ثكنات القوات الفرنسية .

وظل الثوار متحصنين وراء المتاريس . الى ان هاجمت قوة فرنسية بعض المتاريس التى كانت موجودة فى ناحية الداخلية ، وأمكن للقوة الفرنسية أن تبعد الثوار عن هذه المنطقة . الا ان الموقف تطور تطورا خطيرا ، اذ « زاد الحال وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد ، وامتدت ايديهم الى النهب والخطف والسـلب ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى والشوام والاروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والامانات وسبوا النسـاء والبنات ، وكذلك نهبوا (٢) خان الملايات وما به من الامتعـة والموجودات ، وأكثروا من المعايب ولم يفكروا فى العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين » .

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ ، أخذت القوات الفرنسية فى التجمع ، ثم بدا هجومها على الثوار فى الشوارع وخلف المتاريس ، وطفقت جمـوع

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٢٧٧ ـ ص ٢٧٩ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥ .

الثوار تحتشد فى حى الازهر ، ولامتنع بالجامع الاكبر خمسة عشر ألفا من أشد الثوار حماسة ، ودعموا المتاريس فى الطرق والازقة الموصلة اليه « وأما الافرنج فانهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين وأحروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات ، ووقفوا مستعدين ، وكان كبير الفرنسيين قد أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ، ومل من المطاولة . هذا والرمى متتلع من الجهتين وتضاعف الحال ضعفين حتى حضر وقت العصر وزاد القهر والنحصر . فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الازهر ، وحرروا عليه المدافع والقنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين » .

ويصور الجبرتى مدى تاثير ضرب المدفعية الثقيلة على الاحياء الوطنية سواء من الناحية المادية أو المعنوية ، فقد زاد الخطب وعظم الكرب ، فركب المشايخ يقصدون الجنرال بونابرت « ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع عسكره عن الرمى المتراسل ، ويكفهم كما نكف المسلمين عن القتال ، والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عابهم فى التاخير واتهمهم فى التقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وامر برفع الرمى عنهم » وعاد العلماء يبشرون الاهالى ويطمئنونهم ، وأما اهل الحسينية والعطوف الدرانبة فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمى المتتابع والقنابر والمدافع الى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الادوات . وعندئذ انتهت المقاومة ، وبدأ الفرنسيون فى الدخول فى شوارع القاهرة وأخذوا فى هدم المتاريس ، وسيطروا على الموقف .

ونجد الجبرتى - وهو القوى فى عقله ودينه - وقد اعتراه غضب شديد مما قام به الفرنسيون فى هذه المرحلة ، فتتفف وتشتد كلماته ، ثم يبدو وكانه كان يتلوى الما وحزنا لما قام به هؤلاء فى الجامع الازهر فيقول أن الافرنج دخوا المدينة كالسيل « أو جند ابليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلما باليقين أن لا دافع لهم لا كمين وتراسلوا ارسالا ركبانا ورجالا

ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقباته وعاثوا بالاروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب الخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها .. وشربوا الشراب وكسروا أوانيه والقوها بصحنه ونواحيه » (١) .

وأحاطت القوات الفرنسية بهذه المنطقة احاطة تامة ونهبت بعض المنازل بحجة التفتيش على الاسلحة .

ويؤكد الجبرتى أن الشوام وجماعة الاروام اتخذوا موقفا انفصاليا عن اخوانهم المصريين المسلمين وأنهم « اغتنموا الفرصة فى المسلمين وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين » فشكوا الى بونابرت أمر نهب ممتلكاتهم رغم أن عمليات النهب والسلب امتدت ايضا الى الكثير من ممتلكات المسلمين المجاورين كذلك .

ويبدو أن البحث عن حملة الاسلحة كان يتم بطريقة عنيفة جدا أغضبت الشيخ حتى أطلق على الفرنسيين اسم الكفرة « .. ويسالونهم عن السلاح وآلات الحرب ويدل بعضهم فيضعون على المدلول عليهم ايضا القبض .. وكثير من الناس ذبحوهم وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم » وواضح هنا الاتجاه الاسلامى سواء لدى الثوار أم لدى الشيخ الجبرتى نفسه .

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، فان الفرنسيين بدأو فى البحث عن المسئولين عن تدبير الثوره فطلبوا « الشيخ سليمان الجوسقى (٢) شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى وحبسوهم ببيت

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٦ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٧ .

البكرى » · كما انهم اتهموا غيرهم بتوزيع الاسلحة على الاهـــالى والقوا القبض عليهم ، ولم يستجيبوا لطلب المشايخ وتشفعهم وعلى راسهم الشيخ السادات فى أمر اطلاق سراحهم (١) · الا أن الامر انتهى حسب رواية الجبرتى الى قتلهم بالبنادق والقائهم من السور خلف القلعة · ويبدوا أن الفرنسيين خافوا من ثورة النفوس عند اذاعة أنباء قتل الشيوخ المذكورين فكتبوا أوراقا والصقوها بالاسواق تتضمن العفو والتحذير من اثارة الفتنة وأن من قتـــل من المسلمين فى نظير من قتل من الفرنسيين ·

ويبدو أن الناس كانوا قد اســـتكانوا - ولو مؤقتا امام قوة الحديد والنار ، لان الفرنسيين أخذوا من جديد فى احصـــاء الاملاك تمهيدا لفرض الضرائب عليها فلم يعارض فى ذلك معارض ولم يتفوه بكلمة (٢) كما انهم استمروا فى نزع أبواب الدروب والحارات الصغيرة ·

كما يوضح الجبرتى كيف أن الفرنســـيين استغلوا المكانة التى كان يتمتع بها المشايخ فى مصر ، فكتب الفرنســـيون « عدة أوراق على لســـان المشايخ وارسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخا بالاسواق والشـــوارع » واتخذت هذه الاوراق شكل نصيحة من كافة علماء الاســـلام بمصر الى المواطنين بعدم سماع الاشاعات والاتصال بالمخربين واثارة الفتنة (٣) ·

ثورة القاهرة الثانية :

الا أن القاهرة لم تظل صامتة فترة طويلة اذ انها لم تلبث أن ثارت ضد الفرنسيين مرة أخرى فى ٢ مارس سنة ١٨٠٠ ، وتفصيل الامر انه وقعت اتفاقية العريش بين العثمانيين والفرنسيين فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ والتى كانت تقضى بجلاء الفرنسيين من مصر ، « وورد الخبر بذلك الى مصر ، وفرح الناس بذلك فرحا شديدا » (٤) ·

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٨ ·
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٩ ·
(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٣٠ ·
(٤) الجبرتى ج ٣ ص ٨٣ ·

وهناك مسألة محيرة ، هل كان الجبرتى يكتب يومياته يوما بيوم فعلا ، أم أنه كان يكتب هذه اليوميات بعد وقوع هذه الاحداث بفترة ، أم أنه كان ينقح ما كتب وبعد ظهور النتائج ، بحيث جاءت كتاباته وكأنه كان عالما بما سوف يحدث فى الايام التالية أو انه كان محللا سياسيا يتوقع بصفة عامة بعض الاحداث التالية لانه نتيجة للاتفاق السابق بين العثمانيين والفرنسيين نظر المصريون الى الفرنسيين على أن خروجهم من البلاد أصبح وشيكا وأظهروا شماتتهم فيهم ، دون تمعن فى العواقب ، ويقول الجبرتى : « أما الدعايا وهمج الناس من أهل مصر فانهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيين بعين الاحتقار ، وأنزلوهم عن درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا فى عواقب الامور ولم يتركوا معهم للصلح مكانا حتى أن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الاطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف ••• وهم يجهرون ويقولون كلاما اقفى بأعلى اصواتهم يلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقولهم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان ونحو ذلك وظنوا فروغ القضية ولم يملكوا لانفسهم صبرا حتى تنقضى الايام المشروطة على أن ذلك لم يثمر الا الحقد والعداوة التى تأسست فى قلوب الفرنسيين وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس » •

وفى هذه النقطة ، يبدو أن الجبرتى كتب ناقدا عدم تبصر العامة بالامور وتسرعهم فى ابراز عواطفهم ، الا أنه فى ذلك حكم عليهم بما حدث بعد ذلك من أحداث ، فالعامة عبروا فى ذلك الوقت عن سعادتهم - بطريقتهم الخاصة فى التعبير - بقرب جلاء قوات الاحتلال الفرنسى ، وليس هذا عيبا فيهم ، بل هى الظروف الدولية التى جعلت الفرنسيين يتراجعون عن تنفيذ بنود اتفاقهم ، فقد كان السير سدنى سميث هو الذى توسط فى الاتفاق بين الفرنسيين والعثمانيين ، وكان أخوه سبنسر سميث هو الوزير المفوض البريطانى فى استانبول ، ووافق على مسودة الاتفاق بين الانجليز والعثمانيين ، وعلى أساس اعطاء جوازات مرور للقوات الفرنسية لتعود الى بلادها دون التعرض لها ، ولكن سرعان ما وصل اللورد الجن الى

استانبول سفيرا لبلاده (١) ، وأقنع الوزارة البريطانية بخطأ هذه السياسة ما دام في وسع الانجليز ن ياسروا ملقوات الفرنسية بدلا من أن تستخدمهم فرنسا من جديد فى معاركها فى القارة الاوربية ضد بريطانيا وحلفائها ٠

وكان الموقف خطيرا ، ففى الوقت الذى وصلت فيه طلائع الجيش العثمانى الى المطرية ، استمر الفرنسيون فى بيع امتعتهم والانسحاب الى الاسكندرية ، بدا أن السلطات البريطانية لا توافق على اتفاقية ـ العريش، الامر الذى اثر على تسلسل الحوادث ، فقد أضطر الجنرال كليبر الى اصدار الامر من جديد باعادة تحصين القلاع المحيطة بالقاهرة ، واستعد لملاقاة الجيش العثمانى الزاحف (٢) ، والعثمانيون لا يدرون عن هذه الاستعدادات شيئا ، ومكذا فوجيء العثمانيون بالهجوم الفرنسى ، وتمكن الفرنسيون من تحقيق بعض الانتصارات ، الا أن انتصاراتهم لم نكن كاملة ، اذ ستقوم القاهرة بثورتها الثانية ضدهم ، لأن « أهل مصر لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ، ولم يدركوا حقيقة الحال ، فهاجوا ورمحوا الى اطراف البلد ، وقتلوا اشخاصا من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا الى اصحابهم ، وذهبت شرذمة من عامة مصر ، فنهبت الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان عرضى الفرنساوية وخرج السيد عمر أفندى نقيب الاشراف والسيد أحمد المحروقى وانضم اليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر ، وكثير من العامة وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالازقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج ونجاوب بكلمات يقفوتها من اختراعاتهم » ٠

وكانت فرقة من الفرسان الاتراك قد انفصلت عن الجيش ، واتجهت صوب القاهرة بقيادة نصوح باشا ، وعجز الفرنسيون عن تعقبها . كما عجزوا عن منعها من دخول القاهرة ، وكان لوصول هذه الفرقة أثر كبير فى

---

(١) د ٠ محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ١٨٨ ٠

(١) د ٠ جلال يحيى ـ مصر الحديثة ص ٤٦٠ ـ ص ٤٦١ ٠

تغيير الموقف ، اذ انها ستزيد من حماس الجماهير ، وتشجيع روح الثورة نفوس الشعب ، وخاصة عندما قال « نصوح باشا عند ذلك للعامة ، اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم ، فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا ورفعوا أصواتهم (١) ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه .

وشرع أهل مصر مع العسكر فى اقامة المتاريس حول المدينة وبأطرافها وكذلك تحصين البلد على قدر طاقتهم ، « وبالجملة كل من كان فى حارة من أطراف البلد انضم الى العسكر الذى بجهته بحيث صـــار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الابواب والمتاريس والاسوار وبعض عساكر ان العثمانية وما أنضم اليهم من أهل مصر المتسلحين مكثت بالجمالية» وكان هذه القوة التى مكثت بالجمالية كانت كفرقة للامداد أو كقوة احتياطية، والجبرتى يرى هذا الراى ، ويوضح أنه « اذا جاء صـــارخ من جهة من الجهات أمدوه بطائفة من هؤلاء » .

كما أن الجبرتى يحدد موقفه من هذه الثورة بوضوح « .. وصـــار جميع أهـــل مصر أما بالازقة ليلا ونهارا وهو من لا يمكنه القتال وأمـــا بالاطراف وراء المتاريس وهو من عنده اغتنام وتمكن من الحرب » . ثم يصدر الجبرتى قراره ويصبح موقفه أكثر تحديدا « ولم ينم ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف » (٢) . والواقع أن العالم المتحفظ وقد تأثرت مشاعره بهذا التجمع الوطنى ، لم يستطع سوى أن يتخذ موقفا واضـــحا ومحددا ، فكل من تقاعس عن المشاركة فى هذه الاعمال الثورية والدفاعية فهو أما جبان أو ضعيف لا يستطيع المعاونة .

ولم يتوقف هذا التجمع الوطنى الاسلامى عند حد الاستعداد الحربى، بل « باشر السيد أحمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه واعـــانة بعضهم بعضـــا وفعلوا ما فى وســـــعهم وطاقتهم من المعونة » (٣) .

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٩١ .
(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٩٣ .
(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ٩٤ .

أن الجبرتى يبرز فى النص السابق تلك الروح المصرية الاصيلة ، روح التعاون أمام الاخطار والازمات ، فالناس على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية يجودون بأرواحهم وممتلكاتهم من أجل نصرة الوطن والدين ٠

أما فى بولاق ، فقد هاجم الثوار المعسكرات الفرنسية واستخدموا بعض مدافع العثمانيين التى كانت لهم فى المطرية ، ولم تكن بهذه المدافع قنابل فأستخدموا كرات الموازين الحديدية التى جلبوها من الوكالات والمحلات ، ثم أنشأ الثوار معملا للقنابل ومصنعا لصب الاسلحة ، وانتزعوا من المساجد الحديد والخشب ، وتطوع الحدادون والسباكون والنجارون وغيرهم للعمل فى هذه المصانع « وتحزم الحاج مصطفى البشتيلى وامثاله وهيجوا العامة وهبئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا وأول ما بدأوا به أنهم ذهبوا الى وطاق الفرنسيين الذى تركوه بساحل البحر وعنده حرسية منهم فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا الى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى للفرنساوية وأخذوا ما احبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد وقوى فى راسهم العناد » (١) ٠

الا أن الجنرال كليبر بدأ فى معالجة الثورة - من وجهة نظرة - باحكام الحصار حول المدينة الثائرة « ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج واشتد الحرب وعظم الكرب وأكثروا من الرمى المتتابع بالمكاحل والمدافع وأكثروا وأوصلوا وقع القنابر والبنبات » ولا شك أن هذا الحصار اثر على الحالة المعنوية للمصريين ، كما اثر كذلك على وجود المواد التموينية الضرورية « وعدمت الاقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات وارتفع وجود الخبز من الاسواق » (٢) ٠

وقد عمد الجنرال كليبر الى تنفيذ مخططه للقضاء على الثورة ، فمع الحصار سعى الى تفتيت عناصر الثورة وهى العثمانيين والمصريين وأمراء المماليك وبدأ بالعثمانيين ، فتفاوض مع زعمائهم على وقف القتال ، ثم عمد

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٩٥ ٠

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٩٦ ٠

كليبر فى نفس الوقت الى محاولة الاتفاق مع مراد بك الذى كان قد انسحب بقواته الى الصعيد ، وبعد ذلك اصبح فى وسع الجنرال أن يضيق الخناق على ثورة القاهرة ويقوم بأقتحام المدينة بالقوة المسلحة . وكانت احوال القاهرة قد ازدادت صعوبة مع استمرار الحصار وقوة ضرب المدفعية ، ويوضح الجبرتى مدى ما لاقاه المصريون من عناء فى هذه الفترة ، فقد « استمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب وشدة البلاء والكرب ووقوع البنبات على الدور والمساكن من التلاع والهدم والحرق وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف والجزع والهلع من القحط وفقد المأكل والمشارب وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ووقوف حال الناس من البيع والشراء » (١) .

وطلب كليبر المشايخ للتحدث معهم فى الامر ، وذكر لهم أنه يعطى الامان الكامل لاهل القاهرة على أساس خروج القوات العثمانية الموجودة فى المدينة ، وتوسط العلماء بين الفرنسيين والعثمانيين فى عقد الصلح . الا ان جماهير القاهرة انقلبت على العلماء « وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وانهم اخذوا دراهم من الفرنسيس . وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول » .

ومرة أخرى يحتد الجبرتى وتشتد كلماته على العامة وتعنف ، والعامة هم وقود الثورة ودعائمها ، وهم قد تم شحنهم ضد الفرنسيين ورفعت روحهم المعنوية ، ويذلوا النفس والنفيس من أجل انجاح ثورتهم ، وهم قد فسروا طلب الفرنسيين للمصالحة على أنه ضعف منهم ، كما كان الجميع يعتقدون بأن هناك قوات نجدة ستأتى للقاهرة ، كل هذا ويقوم العلماء بالتوسط فى الصلح ، لا شك أن ذلك العمل قد أثار العامة جدا وجعلهم يوجهون للعلماء أقذع الكلام . أما العلماء فهم أيضا قد تبين لهم الفارق الهائل فى التسليح بين الفرنسيين وبين قوات الثورة ، وأن الدائرة سوف تدور على الثائرين

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٨ .

وأن المسألة مسألة وقت ليس الا ، ومن ثم - وحقنا لدماء المسلمين - توسطوا فى الصلح بين العثمانيين والفرنسيين كمقدمة لحل المسألة كلها ٠

على ايه حال استمات أهل بولاق فى الدفاع عنها ، ويقدم الجبرتى تلك النهاية الدرامية للثورة « ٠٠ غيمت السماء غيما كثيفا وأرعدت رعدا مزعجا عنيفا وأمطرت مطرا غزيرا وسيلت سيلا كثيرا ٠ فسالت المياه فى الجهات وتوصلت جميع السكك والطرقات ٠٠ والفرنساوية هجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ولم يبالوا بالامطار لانهم فى خارج الافنية وهى لا تتأثر بالمياه كداخل الابنية ٠٠ ثم هجموا على بولاق من ناحية البحر ومن ناحية بوابة ابى العلا بالطريقة المذكور بعضها وقاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيين عليهم وحصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلُوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحه بالطرقات والازقة وأحترقت الابنية والدور والازقة » (١) ٠

وهكذا سيطر الفرنسيون على بولاق ، وأستمرت هذه المأساة من يوم ١٤ أبريل حتى يوم ١٧ ، أن منطقة بولاق لم تسلم ولم تنهزم ، ولكنها أحرقت وتم تدميرها ، ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل فرض الفرنسيون على أهل بولاق غرامة جسيمة بلغت قيمتها مائتى الف ريال علاوة على ثلثمائة الف على المتاجر ، وفرضوا على الاهالى أن يسلموا ما لديهم من مدافع وذخائر وغلال وحبوب ٠

واستولى الفزع على سكان القاهرة ، وانتهز كليبر هذه الفرصة وأمر بالهجوم العام على القاهرة فى ١٨ أبريل ، وبدأ الهجوم بتحضيرات من المدفعية على المدينة من كل جانب ، ومال العلماء مرة ثانية الى ضرورة السعى للوصول الى الصلح، واستمرت المفاوضات فى شروط التسليم حتى يوم ٢١ أبريل ، وأنتهى الامر بدخول كليبر القاهرة بعد انكسار الثوار والاتفاق على شروط التسليم ٠ الا أن هذا

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ١٠٢ ٠

التمادى فى سياسة القوة وفرض الغرامات سيكون عاملا فعالا فى أغتيال الجنرال فى النهاية ·

نتائج الحملة

١ ـ نتائج سياسية ·

وضعت الحملة الفرنسية مصر على مائدة السياسة الدولية ، لان مصر منذ مجيىء الحملة أصبحت بحكم موقعها الجغرافى المتوسط فى العالم، وسيطرتها على أكبر بحرين عالميين البحر الاحمر والبحر المتوسط ، أصبحت محط انظار الطامعين · ويأتى قيام بريطانيا بتحطيم الاسطول الفرنسى فى موقعة أبو قير دليلا على بريطانيا لم ترض بوجود قوى منافسة على الطريق التجارى العالمى بين الامبراطورية البريطانية وجوهرة التاج البريطانى أى الهند · ولم تتوقف بريطانيا عند حد تحطيم الاسطول الفرنسى ، ولكنها اشتركت مع الدولة العثمانية فى اجلاء الحملة الفرنسية عن مصر سنة ١٨٠١ · ورغم انسحاب الفرنسيين فعلا فى هذا التاريخ ، فان الاسطول البريطانى ظل محاصرا الشواطىء المصرية حتى عام ١٨٠٣ · ولما فشلت بريطانيا فى ايجاد حكم مملوكى تابع لها فى مصر ، فانها عادت وحاولت احتلال مصر سنة ١٨٠٧ فيما عرف بحملة فريزر والتى انتهت بهزيمة ساحقة للقوات البريطانية · وعندما شيد محمد على الامبراطورية المصرية فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وحطم بذلك الهيمنة الاقتصادية لبريطانيا فى المنطقة بعد أن شيد صرح الصناعة المصرية الحديثة ، فان بريطانيا حطمت هذه الامبراطورية ، وحددت سلطة الوالى المصرى الطموح بحكم مصر فقط وكذلك السودان مدى الحياة ، وذلك بتسوية لندن ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ·

وبعد شق قناة السويس سنة ١٨٦٩ قررت بريطانيا الاستيلاء على مصر ، لان القناة أصبحت تشكل مع البحرين المتوسط والاحمر أقرب طريق لمستعمراتها فى الهند . وانتهزت بريطانيا فرصة الخلاف بين الزعيم أحمد عرابى والخديو توفيق واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ ·

٢ ـ نتائج قومية :

من نتائج الحملة الفرنسية غير المباشرة ، أن المصريين ثاروا مرتين عندما تجمعوا فى حشود ثورية بزعامات مصرية خالصة • والتعاون بين الثوار وبين المقاتلين ضد قوى الاحتلال ، ولد شعورا خاصا بالقومية ظل يتفاعل على مر الزمن • كما أن اشراك بونابرت للمصريين معه فى حكم مصر أى فى الديوان كان بدء الشعور لدى المصريين بأنه فى امكانهم حكم بلادهم • كما أن استخدام اللغة العربية فى المنشورات الصادرة من قيادة الحملة للشعب المصرى ، والصحف التى كانت تصدر باللغتين العربية والفرنسية أدى الى تدعيم القومية المصرية العربية •

٣ ـ الآثار الحضارية •

(أ) المجمع العلمى المصرى •

كانت سياسة بونابرت قائمة على أساس دراسة طبيعة البلاد والوقوف على جميع مواردها حتى يجعل منها نقطة ارتكاز لتوسعاته فى الشرق ، ولذا أمر بانشاء المجمع العلمى ، فقد كان يعتقد أن آثار العلم أبقى من آثار الحروب ، ومصر تصلح أن تكون حقلا لتحقيق تلك الغايات ، خاصة وأن علماء الحملة قد شملوا كل التخصصات • ولذا أصدر بونابرت بعد دخوله القاهرة أمرا بانشاء مجمع للعلوم والفنون أهم اختصاصاته نشر العلوم والمعارف فى مصر ، والقيام بالبحوث والدراسات واصدار الكتب والنشرات • وقد تم بالفعل انشاء المجمع الذى ضم أربعة أقسام : الرياضيات ـ الطبيعة ـ الآداب والفنون ـ الاقتصاد ويضم كل قسم اثنا عشر عضوا •

واجتمع المجمع المصرى لاول مرة يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ • وفى الواقع قام أعضاء المجمع العلمى بمجهودات جليلة كشفت النقاب عن كثير من ثروات مصر الاقتصادية •

(ب) لجنة العلوم والفنون :

كان بونابرت قد اختار مونج لرئاسة هيئة العلماء الذاهبة

الى مصر (١) • وكان عـدد العلمـاء الذين حضروا الى مصر ١٧٥ عالمـا •

وقسمت لجنـة العلوم والفنون عنـد وصولهـا الى مصر الى ثلاثة أقســام : قسـم بالقاهرة برئاسـة مونج ، والثانى بالاسكندريـة وكانوا نحو خمسـة عشر عالمـا والقســم الثالث فى رشـيد وكانوا حوالى عشرين عالمـا • ولمـا استقر بونابرت فى القاهرة ، أرســل فى ٢١ أغسطس يطلب حضور جميـع العلمـاء الى القاهرة • فاستجاب مينو ، وأرســل العلمـاء الموجودين فى رشـيد ، ولكن كليبـر استبقى العلمـاء الذين كانـوا فى الاسكندرية بدعوى انشغالهم برســم خريطة الاسكندرية •

وتم تنظيم لجنة العلوم والفنون ، ووزعت الاعمـال علـى اعضائها ، وقبـل بدايـة شـهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ كـان قـد تم انشـاء مكتبة العلوم الطبيعية ومعمـل الكيميـاء ومكتبة التـاريخ الطبيعى ومرصـد علماء الفلك ، كمـا تم تشـييد الورش الميكانيكية التى زودت العلمـاء بالآلات والادوات التى احتاجوا اليها فى بحوثهم (٢) •

(ج) الآثــار •

اهتم علماء الحمـلة بالكشــف عن الآثار القديمة • وعندما أمـر بونابرت بعمــل تحصينات فى رشـيد ، تبين أن خير مكــان لانشاء هـذه التحصينـات هو موضع القلعة التى كانت تعرف باســم برج رشـيد • وعنـد الحفـر عثر بوشـار على حجـر رشـيد ، وهـو حجر من الجرانيت الاسود ارتفـاعه ٩٧٥ مليمترا وعرضـه ٧٣٢ ملمترا وسمكه نحو ٢٥٠ مليمترا •

وقـد وجـد المكتشـفون نقوشـا على واجهـة واحـدة عبـارة عن ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن بعض • أمـا النقوش العليـا فكانت اربعـة عشر سـطرا بالهيروغليفية ، يليهـا اثنـان وثلاثون ســطرا بالديموطيقية - كمـا عـرف فيما بعـد - أما

---

(١) دكتور فؤاد شكرى - عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسـيين ص ٦١٥ •

(٢) المرجـع السـابق ص ٦١٩ •

النقوش التى نلتها فكانت فى أربع وخمسين سطرا باللغة اليونانية القديمة · وقد أرسل هذا الحجر من رشيد الى القاهرة حتى يفحصه المجمع العلمى · وقضى العلماء بالقاهرة أسابيع طويله · حول الحجر يحاولون فك رموزه ·

وقد ظل الحجر فى مصر حتى جلاء الحملة ، وبذل مينو جهدا كبيرا لمنع الانجليز من الاستيلاء على حجر رشيد ولكن الانجليز اصروا على اخذه ، فنقلوه الى المتحف البريطانى وهناك نجح شامبليون فى فك رموزه ·

اما بالنسبة لآثار الصعيد فان ميفان دينون كان من اوائل علماء الحملة الذين تجولوا فى اتجاه الصعيد ، فقد رافق حملة الجنرال ديزية فى الصعيد نحو ثمانية اشهر يرسم ما يشاهده من معابد وتماثيل (١) · وقد رسم دينون آثار هرمو بوليس (الاشمونين) ومنفلوط وأسيوط كما زار آثار كوم امبو وادفو والاقصر والكرنك خصوصا مدينة هابو والرمسيوم ووادى الملوك ·

وقد أحضر دينون معه الى القاهرة مائتى رسم تشتمل الى جانب صور التماثيل والمعابد وما الى ذلك على رسوم نقوش هيروغليفية ، كما احضر معه بعض مجموعات أوراق البردى ·

(د) خريطة جاكوتان ·

اعتقد بونابرت انه من الاهمية بمكان وضع خريطة دقيقة ومفصلة لمصر ، وذلك لتحقيق أهدافه المرسومة بها · وانتشر العلما - بتعليمات منه - فى ربوع مصر لرسم الخرائط المفصلة · وبعد جهد جهيد ، أمر بونابرت فى ٢٨ يونيو ١٧٩٩ باجتماع العلما الجغرافيين فى مقر هيئة اركان الحرب ، وعهد الى جاكوتان بمسئولية رئاسة الفريق المسئول عن اعداد الخريطة (٢) ·

---

(١) - دكتور فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٦٣٧ ·
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٦٤٠ ·

وعندما حان وقت جلاء الحملة ، استطاع العلماء الفرنسيون أن يأخذوا معهم الى فرنسا هذه الخرائط التفصيلية ، وفرغوا من اعداد هذه الخريطة نهائيا فى ١٣ اكتوبر سنة ١٨٠٣ ٠

(هـ) كتاب وصف مصر ٠

يرجع الفضل الى كليبر فى ظهور هذا الكتاب ٠ فهو الذى دعا المجمع العلمى للاجتماع فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٧٩٩ حتى يمكن التفاهم فى شأن كتاب وصف مصر ٠ ولقى مشروع وضع الكتاب تاييدا شاملا ، وعندما عادت الحملة الى فرنسا ، تقرر أن تقوم الحكومة بنشر الكتاب على نفقتها ٠ وظهر أول اجزاء الكتاب سنة ١٨٠٩ وكتب الاهداء باسم الامبراطور نابليون ، ثم حالت الظروف السياسية دون نشر بقية اجزاء الكتاب ، فظهر آخر أجزاء هذه الطبعة فى سنة ١٨٢٢ ٠

وتتالف من تسعة مجلدات تشتمل على بحوث العلماء ومذكراتهم واحد عشر مجلدا آخر تحوى الرسوم ٠

وينقسم الكتاب الى ثلاثة اقسام هى : التاريخ القديم والتاريخ الحديث والتاريخ الطبيعى ٠ والواقع أن كتاب وصف مصر تعرض للجغرافيا والآثار وموارد الثروه الحيوانية والنباتية والمعدنية والتاريخ والمجتمع وما الى ذلك من فروع المعرفة ، ويعتبر اعظم آثار الحملة الفرنسية وابقاها على مر الايام ٠

(و) المطابع والصحافة ٠

هيات حكومة الادارة للحملة كل ما احتاجت اليه من آلات للطباعة (١)، ولذا فقد عهد بونابرت الى مونج باختيار المستشرقين والذين يحترفون فنون الطباعة العربية (٢) ٠ وتم جمع حروف المطبعة من باريس ،

---

(١) دكتور ابراهيم عبده - تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية ص ١٢ - ١٣ ٠

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٦٥٢ ٠

واستكملت لها الاحرف العربيــة من مطبعة البروبا جندا يروما ، وأصبح المستشرق مارسيل ، أحــد أعضــاء لجنة العلوم والفنــون — مسئولا عن المطبعة العربيــة (١) •

وقـد تألفت المطبعـة الرسميـة التى احضرتهـا الحملة معهــا الى مصر من مطبعة فرنسية واثنتين عربيتين وواحـدة يونانيـة وبالاضـافة الى المطبعة الرســمية كـانت هنــاك مطبعـة خاصــة لاحد المدنيين الذين رافقوا الحملة هـو مارك أوريل (٢) •

وبعـد أن استولى بونابرت على القاهـرة ، أمـر باحضار المطابع من الاسكندرية ، لاهمية الاعــلام أو الدعــاية بين ابناء الشــعب المصرى (٣) •

وكان بونابرت قـد عهد الى مطبعة مارك أوريل بطبع الصحيفتين اللتين تقرر اصدارهما فى مصر وهى صحيفة لوكوربيه دوليجبت Le Courrier De L'Egypte ولا ديكاد اجبسيين La Decade Egyptienne وكانت الصحيفة الاولى سياسية والثانية ادبية علمية تصدر كل عشرة أيام ، ثم انتهى بها الحال لتصدر كل شــهر •

وبالاضافة الى ذلك كانت هنـاك صحيفة التنبيـه التى كانت تصـدر باللغة العربية لنشر البيانات والاوامر ونشــاط الديون وأخبار العــالم والمقـاولات الادبيـة والاخلاقيـة •

واذا كان مارك أوريـل قـد باع مطبعـته وعـاد الى فرنســا فى ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، فان مينو استطاع ان يعيد المطبعة الرسمية الى فرنســا مع انســحاب الحملة •

والواقـع أن المطبعـة الرسميـة قـد حازت على اعجاب الكثير من المشايخ وأعضــاء الديوان وغيرهم من المصريين الذين زاروهـا ، وقرأوا الصحف والبيـانات المطبوعـة باللغـة العربيـة •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركـة القوميـة ج ١ ص ١٤٤ •
(٢) د • ابراهيم عبده المصدر السـابق ص ٣٦ •
(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى — عبد الله جاك مينو ص ٦٥٧ •

(هـ) المسرح ·

لم يكن فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر مسرح بالمعنى المفهوم ، الا انه مع عام ١٧٩٩ بدأ بناء مسرح الازبكية لتمثل عليه بعض فرق الفنانين مسرحيات فرنسية · وتشكلت بعد ذلك الفرقة المسرحية (الأوبرا) · وبذلك يرجع الفصل الى الفرنسيين فى انشاء المسرح فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ·

وخلاصة القول أن تاثير الحملة الفرنسية كان محدودا على المدى القصير ، وذلك لقصر الفترة التى عاشتها الحملة فى مصر ، ولكن بالنسبة للمدى الطويل فان الحملة هزت المفاهيم الفكرية والاجتماعية التى كان المجتمع المصرى يخضع لها ، وأوضحت للمصريين مدى التخلف الذى كانوا فيه تحت ظل الحكم العثمانى وأنه لابد لهم من مجاراة العصر والتعرف على العلوم الحديثة ، أى أن الحملة قد أقنعت المصريين او الصفوة المثقفة بضرورة التغيير ، وجاء مؤسس مصر الحديثة والى مصر العظيم محمد على ليستفيد من هذا الاعداد النفسى للتغيير ، ويبنى مصر الحديثة ·

الفصل الثانى

عصر محمد علي

تعتبر الفترة التى أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر حتى استقر الأمر لمحمد على فترة اضطراب فى مصر ، حيث تعددت القوى المتصارعة على السلطة ، فالاتراك العثمانيون عادوا للاستيلاء على البلاد ، أما المماليك فقد اعتبروا أنفسهم أصحاب مصر ، وكذلك ظل الانجليز محاصرين للسواحل المصرية ، وكانت لهم اليد الطولى فى اجلاء الفرنسيين عن مصر ، ووجدوا فى المماليك ركيزة لهم وسندا بالنسبة لتحقيق أهدافهم ، واهملت هذه القوى جميعا قوة الشعب المصرى التى بدأت فى الظهور ، ولم يدركوا أهمية هذه القوة ، ولكن محمد على أدرك هذه الاهمية وأتقن أن التقرب اليها ومصانعتها هو هو السبيل الى تحقيق آماله فى حكم البلاد . وقد اختلف المؤرخون فى تقديرهم لاعمال محمد على ، فمنهم من يراه مصلحا مستنيرا ، ومنهم من يراه انتهازيا كون لنفسه ولاسرته ملكا كبيرا من بعده . بل ان ما كتب عنه من مراجع وكتب تتناقض مع ظروف المرحلة ... فالكتابات عن محمد على قبل ثورة ١٩٥٢ كانت محايدة الى حد ما ، ولكن ومع قيام ثورة يوليو ، بدأ الكتاب يهاجمون الاسرة المالكة السابقة ... يهاجمون كل شيىء ، ولكن مع شيوع حرية الفكر وروح الديمقراطية وحرية ابداء الرأى يمكن ان نؤرخ للوالى العظيم دون خوف أو وجل ، ولتكن للحقيقة هى النبراس والاساس ، فالحقائق التاريخية هى بمثابة العبرة للشعوب حتى يمكن ان تتلافى اخطاءها السابقة وتتخذ من أيام عظمتها ومجدها شعاعا يضيىء لها الامل وييسر لها سبل التقدم والنجاح .

لقد تقلد محمد على باشا ولاية الحكم بارادة زعماء الشعب المصرى ، ونزولا على رأيهم فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، وقد ظلت هذه

الزعامة فى الميدان ، وبقيت قائمة عاملة فى السنوات الاولى من حكم محمد على (١) فكان لها اثر فعال فى تثبيت دعائم حكمه وتذليل العقبات التى وضعتها القوى المتصارعة فى طريقه .

يتبين مما سبق أن زعماء الشعب وعلى راسهم السيد عمر مكرم (٢) كان لهم نفوذ فى ادارة الحكومة ، وكانوا ملجأ الناس فى رفع المظالم ، وقد عظم نفوذ السيد عمر مكرم فى تلك السنوات مما لم يسبق له نظير من قبل ولاغرو ، فهو الذى أجلس محمد على على كرسى الحكم فى مصر ، وكان فى السنوات الاولى من حكمه أحد أركان الحكم فى مصر .

لقد استعان محمد على بالزعامة الشعبية - فى السنوات الاولى من حكمه - لارساء قواعد السلطة . وكان الوالى العظيم من أولئك الذين

---

(١) عبد الرحمن الرافعى . عصر محمد على - الطبعة الثانية ١٩٥١ مكتبة النهضة المصرية ص ١٦ .

(٢) ولد السيد عمر مكرم فى مدينة اسيوط فى أسرة شريفة تنتسب الى البيت النبوى الكريم ، ولسنا نعرف على وجه اليقين تاريخ ميلاده ، ولكن بعض الباحثين يرون أنه ولد فى عام ١٧٥٥ . ولما بلغ السيد مرحلة الشباب - أرسله أبوه الى القاهرة لاتمام تعليمه بالازهر الشريف ، وكانت له عناية بالقراءة ، واقتنى مكتبة كبيرة لا يزال جزء منها محفوظا فى دار الكتب المصرية يحمل اسمه . وبدا السيد حياته السياسية منذ سنة ١٧٩١ ، وأصبحت علاقاته بالولاة العثمانيين وثيقة وفعالة . وكان للسيد دور كبير ابان الحملة الفرنسية ثم الى غزة ، كما شارك السيد فى ثورة القاهرة الثانية وكان من زعمائها .

واثناء الحملة الانجليزية على مصر (فويزر) سنة ١٨٠٧ نظم السيد عمر مكرم المقاومة الشعبية ، وأمر بتعطيل الدراسة فى الازهر كى يتفرغ الاساتذة والطلاب للجهاد . واستمر السيد فى جهاده مما أدى الى علو مكانته وغيرة محمد على منه ، وقراره بابعاد السيد الى دمياط سنة ١٨٠٩ .

لمزيد من التفصيلات : انظر : دكتور عبد العزيز الشناوى عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية - أعلام العرب (٦٧) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ .

اصطلح المؤرخون على وصفهم بالحكام المصلحين المستنيرين ، وان كان قد شاب ذلك الاصلاح نوع من الاستبداد الضرورى لارساء قواعد الاصلاح

الحكومة والادارة •

كانت حكومة محمد على تشكل نوعا من الديكتاتورية المركزية مع شيء من الشورى التى كفلت وجودها تلك المجالس المتعددة التى انشأها محمد على لبحث المشروعات واعدادها قبل أن تعرض عليه • فهذه المجالس كان عليها أن تدرس كل المسائل بكل تفصيلاتها ، وكان الباشا يبدى عناية بالآراء التى تدمت فى الموضوع الواحد ، ولكن للباشا وحده الكلمة العليا فى النهاية ، ومن حقه المطلق تصريف الأمور •

وكان المجلس العالى هو أهم هذه المجالس ، وقد صدر الى الكتخدا محمد بك لاظ أوغلى امر تأسيسه فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٢٤ ، وكان يسمى باسماء كثيرة منها مجلس القلعة وديوان الخديوى ومجلس العموم • واختص المجلس بجميع الشئون الداخلية عدا المالية منها • وفى عام ١٨٢٥ صدرت لائحة المجلس الاساسية التى حدثت لها عدة تعديلات ، ونصت هذه اللائحة على أن يضم المجلس بعض « رجال الاقاليم المنتخبين » وكذلك عالمين من علماء الازهر واثنين من كبار التجار وكاتبين ، وشيخا عن كل مديرية ، علىأن يستبدل الجميع كل سنة •

وأخذ المجلس يعقد اجتماعاته السنوية ابتداء من ٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، وكان اجتماعه الاول برئاسة ابراهيم باشا فى سراى الروضه

وبالاضافة الى المجلس العالى كانت هناك عده مجالس أخرى كمجلس الصحة والاستباليات وديوان التجارة والمبيوعات وجمعية الحقانية وديوان الجهادية وديوان الابنية وغيرها ، وواضح من اسماء هذه الدواوين اختصاصات كل منها •

وفى يوليو ١٨٣٧ صدر قانون السياستنامه لتنظم شئون الحكومة الداخلية وتوزيع الاختصاصات بين الدواوين (الوزارات) وضم

هذا القانون مقدمة وثلاثة فصـــول ، اختص الفصـــل الاول منها ببيان « الترتيبات الاساسية » ، واختص الثانى ببيان « الاجـــراءات العملية » واقتصر الفصـــل الثالث على بيـان « قانون العقوبات » .

وكان قانون السياستنامه أول خطوة واسعة فى سبيل تنظيم الادارة والحكومة المصرية فى عهد محمد على وكـــان عند الدواوين (الوزارات) التى انحصرت فيها السلطة حسب التنظيم الجديد سبعة : الديوان العالى (الخديوى) وديوان الايرادات وديوان الجهادية وديوان البحـــر وديوان المدارس وديوان الامور الافرنكيـــة والتجارة المصريـــة وديوان الفابريقات .

على أنه على الرغم من وجود تلك الدواوين والمجالس كان محمـد عـلى مصدر السلطة العليا فى مصر ، وكان أسـلوبه مـــع رجـــال دولتـــه أسلوب الوالد المرشـد والحاكم المصلح يتوعد بالعقوبة المذنبين ، كمـــا يمنح المكـافاة للمخلصين فى أعمالهم على قاعـــدة الثواب والعقـاب ، وفى خطبته التى ألقـاهـا الوالى العظيم فى أعضـــاء مجلس المشـــورة ... « ولتعلموا انكم اذا لم تحولوا عن خصالكم القديمة من الآن فصـــاعدا ، ولـم ترجعوا عن طرق المداراة والماشـاة ولـم تقولوا الحق فى كل شـىء ، ولـم تجتهـــدوا فى طريق الاستواء ولـــم تسلكوا سبيـل الصواب لصيانة ذات المصلحة، فلا بد لى من أن اغتاظ منكم جميعـا ، واذا كنت موقنـــا بتقدم هذا الوطن العزيز على اى صورة كانت ، وملتزما فريضته عـــلى ، صرت مجبرا على قهـر كل من لـم يســلك هـذا الطريق المســـــتقيم اضطرارا ، مع حرقة كبدى وسيل الدموع من عينى ، فالـذى أرجـــوه من الخـــالق سبحانة وتعالى ان يجعل نصيحتى هذه مؤثرة فى قلوبكم حتى أشـــهد منكم حسن الحركـة آنا فآنا ، وأعاين ما تستحقونـــه من الخير ، وتقر عيناى بامتياز كل منكم حسب اقصى آملى (١) .

وواضح من تحليل الخطبة التى اوردنا جزءا صغيرا منهـا فلسفة حكم محمد على وبروز فكرة الثواب والعقاب بروزا واضحـــا ، وهو أمر

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى وآخرون ـ بناء دولة مصر محمـد على دار الفكـر العربى ١٩٤٨ ص ٢١ .

لازم لتقدم أى دولة فى أى وقت ٠

الحملة الانجليزيـة على مصر سنة ١٨٠٧

جردت انجلترا حملتهـا على مصر بقيـادة الجنرال فريزر فى مارس ١٨٠٧ ٠ وكانت انجلترا على اتفـاق مع محمد بك الالفى - أحـد زعمـاء المماليك - أن يؤيدها وينسق التعـاون معها لانهاء حكم محمـد على واعتلاء المماليك السلطة - تحت الوصاية البريطانيـة ٠

وهكذا تقدمت السـفن البريطانيـة فى منتصف مارس الى الاسكندرية وبعد مفاوضات صورية استسلم أمين أغا محافظ المدينة ودخل الانجليز الاسكندرية ليلة ٢١ مارس ٠ وأمين أغا كان ضابطا عثمانيا لان الحكومة التركية كانت تعتبر الاسكندرية حتى ذلك التاريخ تابعة لها مباشرة ، فكانت تعين حاكمهـا ٠

كانت الحملة الانجليزيـة مؤلفـة من أكثـر من ٦٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال فريزر ، وتتالف من فرقتين الاولى بقيـادة الجنرال ستيوارت والثانيـة بقيـادة الجنرال ويكوب وكـان محمـد على فى ذلـك الوقـت بالصعيد يقاتل المماليك ، فلمـا جاءته انباء الحملة اعتزم العـودة الى القاهرة ، وعمد الى مفاوضة المماليك حتى لا يحارب فى جبهتين ، وتـرك لهم حكم الصعيـد حتى يتفرغ لمقاومـة الحملة الانجليزيـة الاكثر خطرا ٠

كانت خطة الانجليز فى القتـال هى أن يزحف المماليـك على القاهرة فيحتلوهـا ، وأن يحتل الانجليز ثغور مصر ثـم يزحفوا الى الداخـل مستعينين بحلفائهم المماليك ٠

موقعـة رشـيد :

عهـد الجنرال فريزر الى الجنرال ويكوب بالزحف الى داخـل البلاد ، فتقـدم ويكوب على رأس الفى جندىيـوم ٢٩ مارس ١٨٠٧ قاصدا رشـيد ، فوصلهـا فى اليـوم التالى ، واخـذ يستعد لاقتحامهـا صباح

يوم ٣١ مارس • وكان محافظ رشـيد فى ذلك الوقت هو على بك السلانكلى ومعه قوة من سبعمائة رجل ، فعزم على مقاومة الجيش الانجليزى معتمـــدا على الحامية التى معه وعلى مشاركة الاهلى • وامـر على بك بان تتراجـع الحامية الى داخل المدينـة وان تعتصـم فى المنـازل •

وعندما تقـدم الانجليز يـوم ٣١ مارس ١٨٠٧ ، ولـم يجدوا أثرا للمقـــاومة ، اعتقدوا ان الحـامية قد اخلتها وان المدينـة ستسلم كمـا فعل محافظ الاسكندريـة ، فدخلوا شوارع المدينـة مطمئنين • ولكن بمجرد دخولهم أمر على بك باطـــلاق النـــار ، مما أدي الى هزيمـة الانجـــليز هزيمـة ماحقة وســـقط منهم ١٧٠ قتيلا من بينهم الجنرال ويكوب نفســه هـذا بالاضـــافة الى ٢٥٠ من الجرحى و ١٢٠ من الاسرى •

والواقع أن لاهالى رشيد النصيب الاوفر فى هزيمة الجيش الانجليزى لان حاميتها كانت من القلة بحيث لا تستطيع ان تصد الجيش الزاحف • وقد ملا هذا النصر المبين قلوب المصريين حماسة وفخرا وضعضع الهيبة التى كانت للانجليز فى نفوس الناس ، تلك الهيبة التى جاءت من انتصاراتهم السابقة على الجيش الفرنسى فى مصر وعلى الاساطيل الفرنسية ، كما أن هذا النصر جعل المماليك يفقدون الامل فى المساعدة البريطانية كمـا جعلتهم ينكمشون فى معاقلهم بالوجه القبلى •

وقد بادر على بك السلانكلى حاكم رشـــيد بعد الموقعة بارســـال الاسرى الانجليز ومعهم رؤوس قتلاهم الى القـاهرة اعلانـا للنصر •

معركـة الحمـاد :

أراد الجنرال فريزر ان يثأر من هزيمة جينســـه فى موقعـــة رشيد ، فكلف الجنرال ستيوارت بمهاجمة رشيد مرة ثانية • وكان محمد على قـد وصل الى القاهرة فى ١٢ أبريل سنة ١٨٠٧ ، ودبر احتياطاته من الهجوم الثانى للانجليز ، وعاونه السيد عمر مكرم والعلماء فى تدبير نفقات الاستعداد• وكانت فرق المقاومة المصرية تتكون من ٤٠٠٠ مقاتل من المشاة و ١٥٠٠ من الفرسان وسارت بقيادة طبوز أوغلى الى رشيد • أما القوات الانجليزية

بقيادة الجنرال ستيوارت فكانت نحو ٤٠٠٠ مقاتل ومسلحة بالاسلحه الانجليزية المتطورة ٠

وتقدم الانجليز من الاسكندرية الى رشيد فى ٣ ابريل ١٨٠٧ ، واحتلوا (الحماد) التى تقع جنوبى رشيد ٠ وفى صباح ٢٠ ابريل تقدمت طلائع الجيش المصرى من الفرسان نحو مواقع الانجليز فى الحماد ٠

وفى السابعة صباحا من يوم ٢١ ابريل ١٨٠٧ بدأت المعركة ، واستمرت ثلاث ساعات حمى فيها وطيس القتال ، وانتهت بهزيمة الجيش الانجليزى هزيمة ساحقة ، فقد فر الجنرال سيتوارت من الميدان ومعه بعض الجنود ، وبلغت خسائر الانجليز ٤١٦ قتيلا و ٤٠٠ أسير ٠

كانت معركة الحماد نصرا مبينا لمصر ، وأخذ محمد على يعد العدة للزحف على الاسكندرية وطرد الانجليز منها ، ولكن الانجليز آثروا الصلح مع القوات المنتصرة ، وتم انسحابهم فعلا من المدينة فى سبتمبر ١٨٠٧ بعد أن مكثوا بها زهاء ستة أشهر ٠

وكانت الاسكندرية فى ذلك الوقت تابعة تبعية مباشرة للباب العالى العثمانى ، ولم يكن للوالى المصرى أى نفوذ عليها ، ولكن بعد جلاء الأنجليز عنها سار اليها الوالى العظيم محمد على وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية لتصبح العاصمة الثانية للبلاد ٠

الامبراطورية المصرية فى عصر محمد على

محمد على والجزيرة العربية :

ظهرت الحركة الوهابية فى اقليم نجد ، وهو اقليم عربى بعيد عن سلطة الدولة ، ويمتاز أهله بحب الحرية والاستقلال ، وقد رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب انتشار البدع والمنكرات ، وتعظيم الناس للقبور والاضرحة والاحجار والاشجار ، وابتعادهم عن روح الاسلام الصحيحة وعن الوحدانية السليمة التى جاء بها ، اذ كانوا يستغيثون بالأولياء

وتنحون لهم النذور ، ويتشفعون بهم لجلب منفعة او لدفع ضرر (١) ٠

والواقع أن من بين العوامل التى اثرت فى تكوين شخصية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، شخصية تقى الدين بن تيمية الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، ورغم طول الفترة الزمنية التى تفصل بينهما ، فان الشيخ عكف على آثار ابن تيمية من كتب ورسائل وتتبعها ، وأخذ عنها ونسخ بعضها لنفسه ، بل ان المبادىء التى نادى بها الشيخ كانت هى نفس المبادىء التى سبقه اليها ابن تيمية بأربعة قرون ، فكلاهما نادى بالعودة الى الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ومقاومة البدع والخرافات التى الصقت بالاسلام ، فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تعتبر تطورا تاريخيا لدعوة ابن تيمية ٠

ويطلق بعض الكتاب على هذه الدعوة السلفية اسم المذهب كما يطلق عليها البعض الآخر اسم الوهابية الذى اشتهرت به ٠ والحقيقة أن استعمال هذين الوصفين للدعوة غير دقيق ، فهى ليست بمذهب جديد فى الاسلام حتى يصح اطلاق لفظ المذهب عليها ، بل ان صاحب الدعوة نفسه كان حريصا على أن يؤكد للناس أنه لا يدعوهم الى مذهب فى الاسلام ، ولذا نرى أن وصف الدعوة بالمذهب فيه مغالاة ، لان الشيخ لم يأت بمذهب جديد ، بل دعا الى تخليص سلوك المسلمين مما علق به من بدع وخرافات ٠

أما وصف الدعوة بالوهابية ، فقد أطلقه عليها خصوم الشيخ حتى يبرهنوا للناس أن المبادىء التى يدعو اليها بدعة جديدة خارجة على مبادىء الاسلام ٠ أما أتباع الدعوة فاطلقوا على انفسهم الحنابلة أو الموحدين أو السلفيين ٠

وقد أثارت هذه الدعوة السلفية ــ ولا تزال تثير ــ جدلا كثيرا ، والحقيقة انها لم تأت بجديد فى الدين الاسلامى ، ولم تكن خارجة

---

(١) د ٠ جمال الدين الشيال ــ الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديث ص ٥٠ ٠

على مبادئه ، بل انها دعوة سلفية سنية ، فصاحبها وأتباعها يؤمنون بمذهب أهل السنة والجماعة · والواقع أن المبادىء التى نادى بها الشيخ كانت كلها مبادىء قديمة وجديدة فى الوقت نفسه ، قديمة لكونها لم تخرج عن تعاليم الاسلام ولم تأت فيه بجديد ، وجديدة لان الاسلام الصحيح أصبح غريبا على النفوس فى ذلك الوقت فرأى الناس أن انكار أفعالهم التى يقومون بها ، ودعوتهم الى أصول الدين التى أصبحت بعيدة عن نفوسهم ، رأوا فى ذلك شيئا جديدا عليهم · ولم تكن رغبة الشيخ تستهدف تعديل العقائد التى جاء بها الاسلام أو اعطاء التعاليم الاسلامية تفسيرا جديدا ، وانما هدف أولا وقبل كل شىء الى محاربة البدع والعودة بالاسلام الى اصله الصادق ·

ويعتبر دخول الامير محمد بن سعود فى عام ١٧٤٥ فى الدعوة السلفية النواة الاولى فى صرح الدولة السعودية الاولى (١) ، التى تمكنت من السيطرة على الحجاز ومدت سيطرتها الى الحرمين الشريفين (٢) ، وتطلعت الى ضم الشام والعراق :

وكان العثمانيون منذ أن استولوا على الحجاز فى القرن السادس عشر قد اتخذوا من جدة قاعدة لحكمهم هناك ، واستمر الحجاز تابعا لهم الى أن استولى عليه السعوديون · ولما وصلت الامور عند هذا الحد ، أيقن السلطان العثمانى سليم الثالث أنه ينبغى القضاء على حركة الوهابيين التى أظهرت عداءها الصريح تجاه السلطة العثمانية (٣) ·

وقد اضمر محمد على طويلا رغبته فى الاستيلاء على الجزيرة العربية ، الا أن الباب العالى الذى كان يشك فى الاطماع الكامنة وراء هذه الرغبة ، لم يشجع تحقيق هذا المشروع على يد هذا الوالى الطموح (٤)

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – الدولة السعودية الاولى ص ٣٠ – ٤٠ ·

(٢) Playfair R.L. op. cit., p. 127

(٣) Richard H. Sanger. The Arabian Penisula p 27

(٤) H. St. Philby. Arabia p. 92.

الا أن خطر الوهابيــة أخـذ فى التزايـد ، فبعـد أن استولوا على مكة والمدينة ، تقدم السعوديون الى أرض اليمن ، وانضمت اليهم بعض القبائل التى خرجت عن طاعة الامام المنصور (١) دعاه الى طلب معاونة السلطـان العثمانى ووالى مصر لصـد هجوم السعوديين فوعـده بالمساعدة (٢) .

وقـد تبين للسلطـان العثمانى محمود الثانى اهميــة اعادة الاستقرار الى الحجاز والقضـاء على تلك الحركـة الخارجة على الخلافـة الاسلامية . وكحقيقـة واقعة ، فان الجزيرة العربيـة لـم تكن فى ذلـك الوقت من المناطق الغنية التى يجب على السلطنة أن تضحى بالكثير من أجلهـا ، الا أن بقـاء هذه البـلاد فى يد الخليفة العثمانى كان أمرا مرغوبا فيه حتى تتحقق الناحيـة الروحية لخلافته ، وحتى لا يكـون هنـاك مجـال للشـك فى قدرته على حماية الحرمين الشريفين . الا ان الدولة العثمانيـة كـانت تقاسى فى ذلك الوقت من مشـكلات داخليـة خطيرة (٣) ولم يجـد السلطان تحت يـده القوة اللازمـة للقضـاء على تلك الحركـة المناوئة للخلافة ، مما اضطره الى انّ يلجأ الى والى مصر ، وكلفه بالقيام بتلك المهمة سنة ١٨٠٧ ، ثم كرر طلبه فى العامين التاليين (٤) .

وقد قاسى الامـام على منصور فى عـام ١٨٠٤ من وطأة السعوديين للذين سلبوه بضعة من خيرة الاقاليم التابعة له (٥) ، كما نهبوا الحديدة واللحية وحمعوا دخـول بيت الفقيه ، وارسلوا عملاءهم الى المخا ليخبروا أهلهـا بانهم سـوف يكونون هناك فى مـدى اشـهر قليلة ، الا أنهم عندما قدموا اليهـا لم يتمكنوا من دخولهـا ، واستعصت عليهم أسوارها ، وبذا لم يتمكن السعوديون من التسلط على الساحل اليمنى كله وبالتالى

---

(١) عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى ـ تاريخ اليمن ص ٢٥٥ .
(٢) د . احمـد فخرى ـ اليمن ، ماضيهـا وحاضرها ص ١٥٩ .
(٣) ساطع الحصرى ـ صفحة من تاريخ العرب ص ٤٨ .
(٤) Bury, G. Wyman, Arabia Infelix or the Turks in Yemen p. 13.
(٥) C.U. Aitchflison, A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neigbouring countris eVol. XI P. III.

على تجارة المنطقة (١) ٠

ونحن ان ندرس بالتفصيل معارك السعوديين الكثيرة والتى انتهت بهم الى تلك السيطرة على مناطق شاسعة من الجزيرة العربية ، بـــل اننـــا تعرضنـــا لهـــا بايجـــاز شـــديد فقط لكى نوضح الاسباب التى أدت بالسلطان الى أن يكرر طلبه الى محمـــد على فى ١٠ سبتمبر ١٨١٠ بان يجرد حملـــة لمحاربة هذه الدعوة الخارجة على الخلافة (٢) ٠

وقد اضطر السلطان الى طلب تنفيذ هذه العملية من محمد على رغم شكوكه فى نوايـــا هذا الوالى الطموح - لان التهديد الوهابى كان قد اتخذ شكلا خطيرا حتى أنه أصبح من الضرورى اتخاذ اجراءات فعالة لتلافى حدوث أية نتائج أشد خطورة ، وفى نفس الوقت ، فان محمـــد على كـــان قـــد شيد لنفســـه فى مصر مكانة راسخة ، والباب العالى لا يضيره أن يقحم هـــذا الوالى القوى فى مشروع يستحوذ على كل مجهوداته ويبعده عن طريـــق الخيـــانة ٠ كمـــا أن هـــذا الوالى اذا منى بالهزيمـــة ، فـــان ذلـــك سيكون فى مصلحة السلطة العثمانيـــة التى بمكنهـــا اخضاعه بعد ذلك ، ومن ثـــم تطورت الامور ، وصدرت اليه التعليمـــات باتخـــاذ الخطوات اللازمـــة لسحق الحركـــة الوهابيـــة ٠ وقـــد اهتم محمـــد على بذلك المشروع بعزيمـــة صادقـــة (٣) ، الا ان الامـــر من جانبه لم يكن مجرد طاعة منه لســـيده الســـلطان للقضـــاء على تلك الحركـــة الخارجة على الخلافـــة ، بـــل ان المسأله كانت أعمق بكثير ، فان ذلك الوالى كـــان همه الاكبر موجها نحو المصرية ، وبصفة رئيسية عن طريق التجارة ، ولما رأى أن انجلترا هى الدولة البحرية الكبرى التى تمر أساطيلها وتجارتها فى كل البحار فانه تقرب منها وامـــد النقط الانجليزيـــة فى البحـــر المتوســـط بالقمـــح اللازم لهـــا أثنـــاء الحـــروب النابليـــونيـــة ٠ ووصـــل محمد علـــى الى محمـــد على الى أبعد من ذلـــك بان قـــدم اقتراحـــات الى حكومـــة الشركة فى الهند للعمـــل على تشجيع التجارة معها ٠ وقـــد كانت هـــذه الاقتراحات

---

(١) Playfair R.L. op. cit., p. 128

(٢) عبد الرحمن الرافعى - تاريخ الحركـــة القوميـــة وتطور نظـــام الحكم فى مصر - عصر محمـــد على ص ١١٥ ٠

(٣) H. Et, Philby. op. cit., p.p. 92-93

من الاهميــة بمكان ، حتى أنهــا كانت كافيــة لان يرســل بلزونى كمبعوث بريطانى الى القاهرة ، حيث وقعت معاهدة بين الطرفين فى عام ١٨١٠ ، وقــد نصت هــذه المعاهدة على أنه يجب أن تشــكل أسس المعاملة مــع الهند ، وأنه فى حالة حدوث حرب بين انجلترا وتركيــا ، فان الباشـــا لن يقوم تحت اية ظروف باهانة الرعايا البريطانيين أو الاستيلاء عــلى ثروات بريطانية ، وأن يقــوم الباشــا باعــادة الهاربين من الســفن البريطانيــة حتى ولو كانوا ممن يعتنقون الاســلام ، وأن يمــر المسافرون ومعهم امتعتهم الشخصيــة فى الاراضى المصريــة دون دفــع ضرائب ، وأن تمــر القوافل التجاريــة بسلام ، وتحت الحراســة من والى السويس ، وان الضرائب الجمركيــة لا تزيــد عن ٣ ٪ ٠ الا أنــه لــم يتم التصديق على هــذه المعــاهــدة ، وليس من شــك فى أن ذلك حــدث خوفــا من أن يؤدى عقدهــا الى تدهور العلاقــات البريطانيــة مــع تركيــا (١) ٠

فمحمد على بدون شك لــم يقم بهــذه الحملة ارضــاء للباب العالى فقط بــل لا نجاز اهــداف اخــرى ، فقد رأى أنه اذا ما نجح حيث اخفقت السلطنة واستطــاع بقوة جيشــه أن يقضى على السعوديين ، وأن يستخلص منهم الاراضى المقدســة ، فان ذلك سوف يؤدى الى توطيــد مركزه وعلـــو مكانته حيال العالم الاسلامى والباب العالى فلا يفكــر فى عزله أو تغييره ٠

وفى سبتمبر ١٨١١ شقت الحملة المصريــة طريقهــا الى الجزيرة العربية ، فتقدمت قوات الخيالة بالطريق البرى عبر العقبة الى ينبع (٢) ٠ ميناء المدينة ، حيث وصلت قوات المشــاة بقيادة طوسون نفســه بالطريق البحرى فى اكتوبر من نفس الســنة ٠ وتم الاستيلاء على ينبع بلا مجهود كبير ، وتابع الجيش المصرى زحفه نحو الداخل وواجه الجيش أول مقاومــة له فى بدر ، وبدا يعانى من الاقــامة فى منطقــة قاحلة ، وتقــدم الجيش فى الوادى حيث تجمــع البدو فى واحة لمواجهته ، وكــان ضيق الوادى وبالاعلى المصريين ، وسيطر السعوديون على الموقف ، وانسحب طوسون وجيشـــه الى ينبع ٠ ولــم يكن أمــامه ســـوى البقــاء فيهــا فى انتظــار وصـــول

---

(١) H. Dodwell op. cit., p. 57

(٢) Philby : op. cit., p. 93

امـدادات جديدة (١) ٠

وعلى أية حال ، فعندما شعر طوسون مـرة أخـرى بقوته ، تقـدم الى المدينـة وحاصرهـا مـدة شهرين الى أن سلمت فى النهاية سـنة ١٨١٢ (٢) كمـا ان عبد الله قائـد الجيش السـعودى فى الحجـاز قـام بالانسـحاب من مكة التى سقطت فى أيـدى المصريين بقيـادة مصطفى بك صهر محمـد على ٠ وهكذا خرجت المدن المقدسـة من سـيطرة السعوديين وظلت كذلك أكثـر من قرنين من الزمـان ٠

وبدا أنه من الصعب على الدولة السعوديـة أن تحافظ على تماسكها ، كمـا أن الزعيم نفسـه كان مريضـا ، وكان الوقت ملائمـا لاعدائه كى يبذلوا مجهودا مضاعفـا ضـده ، فخـرجت مدن الحدود السوريـة عن السلطـة السـعودية ، وتشجعت القبائل الواقعـة فى الجزيرة العربية ، وانتشرت الاضطرابات فى تخوم نجـد نفسـها ، وعندمـا بدا أن نهاية السعوديين قـد أصبحت قريبة ، قرر محمـد على أن يديـر العمليـات بنفسـه فى الحجاز ، وبعـد ان ترك مسئولية الحكم لولديـه اسـماعيل وابراهيم ، ترك القاهرة الى السويس ومنها الى جدة (٣) ٠

الا أن نفوذ محمـد على لـم يكن آمنـا تماما فى الجزيرة العربيـة ٠ حقيقـة لقـد احتلت قواته المدن الساحلية فى الحجاز وعسير بلا صـعوبة كبيرة ، الا ان المناطق الداخليـة كانت لا تزال فى ايـدى السعوديين ٠ الا انه فى أول ما يـو ١٨١٤ مـات سعود فجأة فى الدرعية ، ومـات معه الامـل الاخير فى بقاء الدولة السعوديـة التى بذل الكثير من أجل اقامتهـا والتى استطـاع هـو وحـده السيطرة عليهـا (٤) ٠ ولم يتفق ابنـاؤه الثلاثة فيما بينهم على كيفيـة حكم دولتهم (٥) ٠

---

(١) Dodwell : op. cit., p. 43.

(٢) Philby : op. cit., p. 93

(٣) Playfair : op cit., p. 130

(٤) Philby p. 95 - 96.

(٥) Dodwel : op. cit., p. 45.

وهاجم طوسون نجد الا أن مواصلاته مع المدينة كانت تقطعهـا اغارات السعوديين ، وبقى طوسون على غير اتصـال بوالده الذى كـان فى الواقـع قـد عـاد الى مصر • وتحت هـذه الظروف وافق طوسون على اجراء مفاوضـات ، وتم توقيـع معاهـدة وافق فيهـا عبد الله بن سعود على الاعتراف بسلطة السلطـان العثمانى ، وتعهـد بزيارته زيـارة وديـة ، وكان على طوسون فى مقابـل ذلك أن ينسحب من كل أراضى الوهابيين ، وأن يكـون لنجـد اتصـال حـر مـع الحجاز (١) •

وقد هاجم محمـد على هـذه المعاهدة ، الا انه فى نفس الوقت ارسل تهديدا بأنه سوف يهاجم الدرعية نفسـها ، الا اذا تقـدم عبد الله الى الآستانة حسب شروط المعـاهدة . الا أن عبد الله تغاضى عن هـذا التهديـد وكرس نفسـه لتأكيـد سيطرته على قبائله وتقويـة عاصـمته بالأسوار والمدافـع والمؤن لمواجهـة الحصـار (٢) •

وعند وصول محمـد على الى مصر عين ابراهيـم باشـا لقيـادة الجيش فى الجزيرة العربيـة (٣) • وبعـد عـدة معارك ظهـر ابراهيم بقواته فى ٦ أبريل ١٨١٨ بالقـرب من عاصمـة السعوديين ، وارتفـع الستار عن الفصـل الاخير من نهاية الدولة السعوديـة الأولى • وتوجه عبد اللـه ابن سعود بنفسه الى ابراهيم باشـا طالبا انهـاء القتـال كى يحمى أتباعه، وقـد استقبله ابراهيم باحترام كبير كبطل منافس سـاعة الهزيمـة ، وأرسله الى العاصـمة العثمانيـة حيث ضربت عنقه فى سانت صوفيـا ، وضاعت بذلك الدولة السعوديـة (٢) •

ساعدت الاوضـاع الداخليـة والقوى الخارجيـة على اقامـة دولة مصر الحديثة فى أوائل القـرن التاسـع عشر • ونجحت هـذه الدولة فى توطيد الأمن وضرب الاقطـاع ، ومـد نفوذهـا على كل منطقـة الشرق الادنى

---

(١) Philby : op. cit., p. 98
(٢) Dodwell : op. cit., p. 46.
(٣) Playfair : p. 133.
(٤) Philby p. 98 - 102.

وكان بعض البكوات المماليك - من الذين نجوا من مذبحة القلعة - قد تمكنوا من الفرار الى شمال السودان ، ومن تدعيم نفوذهم فى جنوب مصر ، فنظرت اليهم كخطر يهدد أمنها وسلامتها • ولقد تمكنت مصر بفتحها للسودان من القضاء نهائيا على قوة المماليك واستعدت بعد ذلك لوضع أسس جديدة لبنيانها الاجتماعى والاقتصادى •

وقد انتهت الحروب ضد الحركة الوهابية باسناد ولاية الحجاز الى ابراهيم الابن الاكبر لمحمد على ، وأصبح أبناء الجزيرة العربية يجندون فى القوات المصرية ، وساعد ذلك بالتالى على زيادة الاندماج بين ابناء هذين الاقليمين داخل وحدة ادارية واحدة •

السودان وسوريا :

أما تجربة السودان ، فقد سارت مع حملات توغلت فى هذه البلاد وضمتها الى مصر • وكما حدث فى الجزيرة العربية ، بدأ السودانيون يشتركون فى وحدات الجيش المصرى ، وزاد التقارب بين أبناء هذين الاقليمين العربيين ، وسهلت الادارة الموحدة شئون التجارة •

أما تجربة سوريا ، فقد دعمت هذه الوحدة الادارية الجديدة فى منطقة الشرق الادنى ، وأصبحت حدود الدولة الجديدة تمتد من جبال طوروس الى اعالى النيل ، ومن حدود ليبيا الى أعالى الفرات • وبدت هذه الامبراطورية فى شكل عربى واحد من ناحية السكان على الاقل • وكان بالمرستون يعتقد ان محمد على له أطماع واسعة فى بناء امبراطورية عربية تضم كل البلاد التى تتكلم العربية ، والغالب أن الوالى كان يعتنق مثل هذه الرغبة ، فان الاستيلاء على سوريا والحجاز والسودان جعله فى موقف قد يسمح له بتنفيذ هذا المشروع الضخم ، وبقيت فقط العراق والخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية كى يمكنه أن يحقق مثل هذا التوسع فى الشرق العربى (١) •

---

(١) H. Dodwell op. cit., p. 125.

ومن وجهة النظر البريطانية ، فان أهداف الباشا كانت تتلخص فى أن يرسل فرقة من قواته من اليمن للاستيلاء على عدن وميناثها العظيم الذى يتحكم فى مدخل البحر الاحمر ، وبعد ذلك تتقدم القوات المصرية الى حضرموت المقسمة بين العديد من الامراء والشيوخ الضعاف ، وبعد ذلك تتقدم قواته الى عمان ، وأخيرا الى مسقط والمنطقة الواقعة فى الجانب الجنوبى الغربى من الخليج العربى ؛ بحيث يصبح بعد ذلك سيدا على كل شبه الجزيرة العربية ، وبعد أن يتم له ذلك ، فان الاستيلاء على بغداد سوف يكون امرا سهلا (١) • والواقع ان وثائق عابدين لم لم تؤكد هذا التصور البريطانى ، الا انه بالنسبة لهذا المالى الطموح ، فإن هذا التصور قد يبدو امرا محتملا •

الا انه من وجهة نظر أخرى ، فاننا اذا تتبعنا الخطوط التى سار عليها محمد على ، لوجدنا انها كانت تهدف القسطنطينية عاصمة الدولة ومقر الخلافة الاسلامية ، بدلا من محاولة اتمام الوحدة العربية بالسير صوب بغداد مثلا •

ولقد كانت تجربة الدولة المصرية الحديثة فى العالم العربى تجربة عميقة ، وخاصة بالنسبة للسياسة التى انتهجتها تجاه الرعية من جهة ، ونظرا لما حققته من جهة أخرى فى الميادين الثقافية والفكرية • اما السياسة التى سارت عليها الادارة ، فكانت تتلخص فى المساواة بين كل سكان الامبراطورية فى الحقوق والواجبات أمام القانون •

وعندما تعقدت الامور بين محمد على وسلطان تركيا واستحكم النزاع بينهما وثارت الحرب طلبت الحكومة البريطانية من محمد على

---

(١) India Office Library Political and Seeret Library B-8 ، Confidentiel, Memorandum on the Turkish Claim to reignty over the Eastern shores of the Read Sea and the whole of Arabia, and the Egyptian Claim to the Whole of the Western shores of the same Sea, including the African Coast from Suez to Cape Gurdfui, Printed for the use of the Foreign Office, Hertslet, March, 1874 p. 2.

اجلاء الجيوش المصرية عن الجزيرة العربية ، فاجاب محمد على بأنه « سيضع هذا الطلب موضع النظر » الا أن الامور تطورت بسرعة ، وانتهزت بريطانيا فرصة الازمة التركية المصرية (١٨٣٩ - ١٨٤١) فادعت أنها حامية للسلطان ضد محمد على وانتهت الامر بتدخل قواتها فى سوريا واضطرار محمد على اثر ذلك الى الانسحاب من كل الأراضى التى ضمها الى مصر ٠

التعليم فى عصر محمد على :

يعتبر الاهتمام بنشر التعليم هو الواجهة المضيئة لعصر محمد على فقد عنى الباشا بالتعليم على اختلاف درجاته ويتبين من مقارنة تاريخ المنشآت العلمية أنه عنى أولا بتأسيس المدارس العالية وايفاد البعثات ثم اهتم بعد ذلك بالتعليم الابتدائى ٠

المدارس العالية :

مدرسة الهندسة ببولاق : انشئت أول مدرسة للهندسة سنة ١٨١٩ بالقلعة ، وهى بذلك اول مدرسة عالية انشئت فى عصر محمد على ٠ وكان التعليم فيها بالمجان ، كما كانت الحكومة تؤدى رواتب شهرية لتلاميذها ٠ وفى بادىء الامر كان الاساتذة من الاجانب ، ولكن مع الوقت بدأ الاساتذة المصريون العائدون من الخارج فى المساهمة فى التدريس ٠

وفى سنة ١٨٣٤ انشا محمد على مدرسة اخرى للهندسة فى بولاق ، وكانت هذه المدرسة العالية من اجل وأنفع المدارس التى انشأها والى مصر العظيم ٠

مدرسة الطب :

انشا محمد على أول مدرسة عالية للطب فى مصر سنة ١٨٢٧ فى أبى زعبل على مقربة من المستشفى العسكرى هناك ، حتى يمكن تدريب الطلاب بهذا المستشفى ٠ واختارت الدولة فى بادىء الامر مائة من طلاب الازهر للتعليم بهذه المدرسة ، وتولى ادارة المدرسة والمستشفى الدكتور كلوت بك ، فاختار لها نخبة من الاطباء الاوربيين ومعظمهم من الفرنسيين ٠ ولما

كان الطلاب يجهلون اللغة الفرنسية لغة الدراسة وتلافى بهذه المدرسة العالية، فقد عين مترجمون لترجمة المحاضرات من الفرنسية الى العربية . وتلافى هذا النقص ، الحق بالمدرسة قسم لتعليم اللغة الفرنسية للطلاب .

وبعد خمس سنوات من انشاء المدرسة تخرجت (الدفعة) الاولى منها . وتم توزيع الخريجين على المستشفيات وكتائب الجيش . كما ارسل اثنى عشر خريجا الى الخارج فى بعثات لأكمال دراساتهم العليا فى تخصصات الطب المختلفة ، وعين ايضا ثمانية معيدين بهذه المدرسة العليا .

واخذ عدد طلاب المدرسة فى الزيادة عاما بعد عاما لتلبية حاجات المجتمع المصرى ، وحاجات جيش مصر العظيم .

وفى سنة ١٨٣٧ تم نقل مدرسة الطب الى قصر العينى لتكون فى داخل العاصمة ، وحتى تؤدى هى والمستشفى الملحق بها الخدمات للمواطنين .

كما الحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة حتى تتعاون المدرستان فى تحقيق الخدمات الطبية للمجتمع المصرى (١) .

مدرسة الألسن :

وافق محمد على على اقتراح رفاعة رافع الطهطاوى (٢) . بانشاء مدرسة الالسن ، وتم انشاؤها بالفعل فى سنة ١٨٣٦ ، واختير لها سراى الالفى بالازبكية وعرفت فى أول الامر بمدرسة الترجمة ثم اطلق عليها مدرسة الالسن . وفى سنة ١٨٣٧ اصبح رفاعه هو ناظر هذه المدرسة،

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على الطبعة الثالثة ١٩٥١ - مكتبة النهضة المصرية ص ٤٦٨ - ٤٧١ .

(٢) ولد فى عام ١٨٠١ فى اقصى صعيد مصر وتلقى العلوم الدينية ودخل الازهر ، ثم تخرج منه ، وصحب البعثة العلمية الاولى من بعثات محمد على ، وارتحل الى معاهد العلم فى باريس ، فزادت معارفه ولكنه ظل محتفظا بشخصيته متمسكا بدينه . ثم عاد الى مصر ليضطلع بالنهضة العلمية تأليفا وترجمة وتعليما ، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر . وعاش حتى عصر اسماعيل . ومن اهم انجازاته انشاء مدرسة الالسن، وان كانت شهرته انه بحق هو أبو الترجمة فى مصر وقدر رحل رفاعة سنة ١٨٧٣ .

وكان عدد التلاميذ فى العـام الاول خمسـين تلميذا ثـم ازدادت الاعـداد فى السنوات التاليـة ٠

ويعتبر بعض المؤرخين أن هذه المدرسـة هى بمثابـة أكاديمية لنشر الثقافة فى مصر ، فقد كانت تدرس فيها اللغات الاجنبية وخاصة الفرنسية والايطالية والانجليزية والفارسية والتركية ، هذا بالاضافة للآداب العربية والتاريخ والجغرافيـا ٠

كما نشأ الباشا العديد من المدارس التجهيزية (الثانوية) ، كمـا أكثر من انشـاء المكاتب الابتدائيـة فى الاقاليم ، حتى بلغ عدد هذه المكاتب فى عام ١٨٣٦ سبعة وستين مكتبا هذا عدا الكتاتيب القديمة (١) ٠

البعثـــات :

الحقيقة أن الاصل فى تلك البعثات وأسبابها ترجع كما ذكر استاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الى أن محمد على أخـذ عن أوربا علومها ، ونظمها التعليمية والاقتصادية وفنونها الحربية والبحرية ، واستدعى منها المدرسين والنظار لمدارسه والضباط والمدرسين لجيشه وأسطوله والصناع والمهندسين لمصانعه ، ومن ثم اضطر محمد على الى الاعتماد على الاوربيين الذين أصابوا فى ذلك الوقت قصب السبق فى التطور الصناعى ٠ الا ن محمد على كان يرى أنه من الحكمة عدم استمرار الاعتماد على الاجانب وابقـاء اهل البلاد من المصريين والاتراك بمعزل عن الاشتراك فى انهـاض بلادهم فبدأ يرسل الى أوربا نفرا من التلاميذ الاتراك والمصريين ليأخذوا مباشرة من علوم الغرب وفنونه ويحذقوا لغاته وتجاربه ، حتى اذا عـادوا الى مصر كانوا له اعوانا ومساعدين يقلدهم ادارة المصـانع والمدارس والدواوين ويجلسـهم مجالس التعليم ، ويطلب منهم ترجمة الكتب النافعة ، وبعبارة أخرى يطلب منهم أن يكونوا - كما أصبح كثير منهم فعلا - قادة النهضة الحديثة فى البلاد (٢) ٠

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى وآخرون - بناء دولة مصر محمد على - ص ٩٦ ٠

(٢) د ٠ أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ ٠

ولا شك أن هذه البعثات كانت لها انطباعاتها العميقة على المجتمع المصرى فقد صحبها نشاط كبير فى نواح ثقافية مختلفة كبده ظهور الصحافة المطبوعة (١) .

ولقد نبغ كثيرون من أعضاء هذه البعثات ، فمنهم على مبارك الذى نستطيع أن نلقبه بأبى التعليم كذلك رفاعة رافع الطهطاوى الذى يمكننا أن نلقبه بأبى الترجمة وغيرهم كثيرون .

ولقد قدم اعضاء البعثات هؤلاء خدمات جليلة للدولة ، ولا شك ان الثمرة الحقيقية التى جناها المجتمع المصرى من هذه البعثات هى الاستغناء عن الاجانب وإحلال أعضاء البعثات فى أماكنهم : لان محمد على لم تكن تعنيه كثيرا ثقافة المبعوثين وجنسياتهم وأعمارهم بقدر ما كانت تشغله فكرة الاستغناء عن الاجانب (٢) .

ولكن سرعان ماخبا ضياء هذه البعثات على يد عباس ، الذى استدعى الطلبة المبعوثين فى بعثات خارجية فور تولية السلطة مباشرة (٣) ، وجاء سعيد ليطفىء الشعلة التى أضاءت على المجتمع المصرى فى مطلع القرن التاسع عشر ، فأبدى عدم اهتمام بشئون التعليم والغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) (٤) ، وزاد الطين بلة باعتماده بصفة اساسية على الاجانب فى كل المجالات .

على أن التعليم فى مصر نال نصيبا كبيرا من العناية والاهتمام على يد اسماعيل فقد أعاد تاليف ديوان المدارس ، كما اهتم بانشاء المدارس وخصوصا المدارس العليا كمدرسة المهندسخانة ومدرسة الحقوق وغيرها ، ولم يكتف اسماعيل بذلك بل ارسل عددا ضخما من البعثات التعليمية الى

---

(١) Dodwell : op. cit., p. 239.

(٢) د . أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤٢٣ .

(٣) أمين سامى ، تقويم النيل ، المجلد الاول من الجزء الثالث ص ٧٢

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، الجزء الاول ص ٤٤ - ٤٥ .

أوربا وخصوصا الى فرنســـا ، فضلا عن السماح لعدد كبير من المدارس الاجنبيه بممارسة نشاطهـا التعليمى فى مصر ٠

المطـــابع والصحـــافة :

كانت « مطبعة صاحب الســعادة » او المطبعة الاميرية فى بولاق اول مطبعة انشئت فى عهـد الوالى العظيم ، وقـد تأسست سنة ١٨٢٠ ٠ ولكنها بدأت عملهـا سنة ١٨٢٢ ٠ وكان الغرض من انشــائهـا هو طبع الكتب المدرسية والعسكرية ٠ ومع مضى الوقت ازداد عدد المطابع فى مصر وصارت تنشر بالاضــافة الى الكتب المدرسية كتبا فى الآداب والفنون ٠

وبالنسبة للصحافة ، فقـد اصدر الباشــا امره بانشــاء الصـــحيفة الرسمية (الوقائع المصرية) باللغتين العربية والتركية فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ ٠ وكان الغرض من انشــائهـا كما جـاء فى العدد الاول هو نشر اوامر وتعليمات ديوان الخديوى وكذلك اخبار (الامبراطورية) المصرية ٠

واعتبارا من سنة ١٨٤٢ تقرر أن يعهد الى رفاعة رافع الطهطاوى بترجمة بعض ما يرد فى الصحف الاجنبية علاوة على الاوامر الحكومية ٠

الجيش والبحـرية :

رأينا فيما سبق كيف أسس محمد على امبراطورية شاسعة ضمت تقريبا كل العالم العربى ماعدا المغرب العربى والعراق ٠ وهذه الرقعـــة الشــاسعة املت على الوالى الطموح انشــاء جيش قوى مدرب للسيطرة على ممتلكاته ٠ وكان الباشــا يدرك تمام الادراك أن انتصارات جيشه انما ترجع الى رقابته الصارمة والى اشراف ابنائه ومنهم ابراهيم باشـــا العظيم ، ولهـذا كله لم يكن محمد على راغبا فى انشــاء جيش كبير فحســب ، بل كان فى نفس الوقت معنيا بتدريب هذا الجيش على احدث النظم ، ومن تم سمى الجيش الذى شرع فى تكوينه بالنظام الجديد ٠ ولم يكن الامـر سهلا أمام محمد على بل كان الطريق مفروشا بالاشـــواك ٠ فعندما اراد تطبيق « النظام » عارض العلماء هـذا الامر (أغسطس ١٨١٥) رغبة فى

القضاء على « بدعة النظام الجديد » • ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل انهم تآمروا على حياة الباشا وقد ذكر الجبرتى كثيرا من اخبار تلك المؤامرات •

وكانت المشكلة الاولى التى صادفت الباشا هى مشكلة الحصول على المدربين الاكفاء واتجه هو مباشرة الى أوربا . وكان عدد كبير من الضباط الفرنسيين قد أصبح بلا عمل بعد توقف الحروب النابليونية ، فقرر الباشا استخدام جماعة منهم ، كما استخدم بعض الايطاليين والاسبان • وكان أقدرهم جميعا هو جوزيف سيف الذى اشترك فى حروب نابليون العديدة ثم قدم الى مصر سنة ١٨١٩ ليعمل فى خدمة محمد على •

وحوالى سنة ١٨٢٠ أنشئت مدرسة المشاه ووضعت تحت قيادة سيف ، وانتقى محمد على تلاميذها من بين افراد أسرته ومن المماليك ، وكان عددهم نحو ٤٠٠ طالب • وفى اكتوبر ١٨٢١ نقلت هذه المدرسة الى أسوان وهناك شرع سيف فى اعداد المدرسة من جميع النواحى كانشاء الثكنات الصالحة للايواء والمستشفى • ولما فشلت عملية تجنيد السودانيين ، اعتزم الباشا تجنيد المصريين ولكن الصعاب واجهت هذا المشروع •• لان الطبقة الارستقراطية رأت أن الجندية مهنة نبيلة يحط من قدرها أن تصبح فى متناول الفلاحين ، كما زعموا أن وضع السلاح فى أيدى الفلاحين انما هو تسليمهم الاداة لطرد « العثمانى » ولكن الباشا مضى فى طريقه غير عابىء بتلك الآراء ، فأقبل على تجنيد المصريين ، ونجحت التجربة نجاحا لم يكن يتوقعه أحد ، وسرعان ما احب الفلاحين الجندية ، وأصبحوا يرون أنه من دواعى فخرهم أن يعتبروا أنفسهم من جنود الباشا العظيم • وهكذا تمكن سيف فى عام ١٨٢٣ من ان يشكل ستة آلايات من المشاه طبقا للتكتيك الفرنسى من هؤلاء الفلاحين • وفى نفس ذلك العام (١٨٢٣) قرر الباشا ان ينتقل الجنود الى مكان قريب من القاهرة •

أما بالنسبة للفرسان ، فان القائد الفاتح ابراهيم باشا العظيم وأحد القادة العظام على المستوى العالمى فى التاريخ الحديث كان معجبا تماما بقوة الفرسان الفرنسية وتنظمها ابان حرب المورة • وعند عودة

القائد العظيم (ابراهيم باشا) الى مصر أبلغ والده ما شاهده من فاعلية تلك القوة فقرر الباشا تنظيم قوة الفرسان المصرية ، وكلف بولان دى تارلبه - وهو احد قدامى الفرسان الفرنسيين - بانشاء هذه القوة • واقبل تارليه على عمله الجديد فى همة ونشاط ، وذلك الباشا كل الصعاب فابتاع الخيول من الشام ، وتكفلت المصانع المصرية بتسليح الفرسان •

وفى عام ١٨٣٠ امكن تشكيل سبعة آلايات فرسان مصرية • ولما كانت هذه الآلايات فى حاجة الى مزيد من الضباط ، فقد انشئت مدرسة الفرسان سنة ١٨٣١ فى الجيزة بسراى مراد بك القديمة •

وقد استدعى تنظيم قوة الفرسان العناية بالطب البيطرى • وأدى هذا الى تاسيس مدرسة الطب البيطرى فيما بعد •

أما بالنسبة للمدفعية ، فان الباشا استخدم ضابطا اسبانيا قديما هو سجويرا ليكون مسئولا عن هذا السلاح • وقد اقنع سجويرا ابراهيم باشا باهمية اعداد الضباط قبل تدريب الجنود ، وهكذا أسست مدرسة للمدفعية فى عام ١٨٣١ • ولكن الخلافات بين سجويرا الاسبانى وسليمان باشا الفرنساوى أدت الى بعض المشكلات • ورغم هذا كانت المدفعية من أقوى الاسلحة التى استعان بها القائد الفاتح ابراهيم باشا فى فتوحاته المختلفة •

هذا بالاضافة الى فرق المهندسين والخدمة الطبية وما الى ذلك •
وكان من اثر العناية بالجيش أن ارتفع عدده من ٢٤٫٠٠٠ سنة ١٨٢٤ الى ١٥٠٫٠٠٠ سنة ١٨٣٩ (١) •

البحرية :

من الصعب ان نفصل موضوع البحرية المصرية فى عهد محمد على عن اهتمامات الباشا الاقتصادية والعسكرية التى أوجبت ذلك النشاط الكبير فى هذا القطاع •

---

(١) د • محمد فؤاد شكرى وآخرون بناء دولة مصر محمد على ص ١٨٠

الا أنه كان أمام محمد على صعوبات جمة لانشاء البحرية ، أولها أن مصر لم تكن فى تلك الفترة من أوائل القرن التاسع دولة بحرية ، كما أنها كانت تفتقر الى القوة البشرية اللازمة لهذه العملية بصفة عامة من بحارة ومدربين وصناع وما الى ذلك كما ان المواد اللازمة لصناعة السفن لم تكن متوفرة ، هذا الى عدم استعداد ميناء الاسكندرية فى ذلك الوقت لاستقبال السفن الكبيرة ، ولكن الباشا استطاع بالعزيمة والمثابرة ان يذلل كل هذه الصعوبات متدرجا من شراء سفن اسطوله من الدول الاوربية الي التوصية بصنعها فى الخارج لحسابة الخاص الى انشائها فى دار الصناعة التى شيدها بالاسكندرية ٠

وكانت البداية (١٨١٠ - ١٨٢١) عبارة عن تلبية احتياجات الباشا السريعة الى قوة بحرية فى البحر الاحمر ، وذلك لتنفيذ حملته الى الجزيرة العربية والتى سبق الكلام عنها ، وكان هذا الاسطول صغيرا ، ولكنه كان كافيا لنقل الجنود الى مسرح العمليات ٠

واذا كان الغرض الاساسى من اسطول البحر الاحمر هو النواحى الحربية والسياسية ، فان اسطول البحر المتوسط الذى انشىء فى نفس الوقت كان الغرض منه اقتصاديا ، لان الباشا كما سوف نرى سيحتكر تجارة الصادر والوارد ، وبالتالى سيطر على كل تجارة النقل النهري والبحرى لذلك كان من المتوقع أن يؤدى هذا النشاط التجارى الكبير الى حتمية انشاء اسطول ٠ وفى سنة ١٨١٧ كان الاسطول المصرى فى البحر المتوسط يتألف من خمسة عشر سفينة كبيرة ثم زادت عليها سفينتان اشتراهما الباشا من النمسا ٠٠٠ ويقول ديران فيل مؤرخ البحرية المصرية فى عصر محمد على « لو فكر الانسان فى حال الاسكندرية قبل عشرين سنة ، حين هبط الفرنسيون مصر ، دهشته النتيجة الباهرة التى انتهت اليها ولم يكن خلق النشاط سوى احد الباشاوات العثمانيين - محمد على - نجح فى ان يجعل اسمه مشهورا وسلطانه ملموسا حتى فى بحار نائية كبحر الشمال وبحر البلطيق » (١) ٠

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٣٤ ٠

وانتقل الباشا الى المرحلة التالية من مراحل بناء الاسطول (١٨٢١ - ١٨٢٧) والتى بدأ يطلب فيها من دور الصناعة الاوربية بناء سفن خاصة لاسطوله الحربى ، ويبدو أن السبب فى هذا هو محاولة الباشا معاونة الدولة العثمانية فى اخضاع كريت وقبرص واخماد ثورة المورة • وعندما خرج اسطول مصر من الاسكندرية سنة ١٨٢٤ لملاقاة سفن الثوار اليونانيين فى مياه رودس ، كان يتألف من واحد وخمسين سفينة حربية و ١٤٦ ناقلة جنود تحمل ١٨٫٠٠٠ جندى •

على ان الباشا لم يلجأ الى الموانى الفرنسية وحدها فى صنع السفن التى تألف منها اسطوله الاول ، بل لجأ كذلك الى الموانى الايطالية كالبندقية وشكلت هذه السفن الاسطول المصرى الذى تحطم فى معركة نفارين البحرية •

أما الفترة الزاهية من عمر البحرية فى عصر محمد على (١٨٢٧ - ١٨٤٨) فانها تعد بالفعل الفترة التاريخية للبحرية ، فقد اتفق المؤرخون على أن كارثة نفارين كانت بداية القوة البحرية الحقيقة فى عصر محمد على ، ذلك أن تلك الهزيمة البحرية لم تنل من قوة شكيمة الباشا العظيم ، فبعد عامين من العمل الدائب (١٨٢٩) تكون الاسطول المصرى الحربى من ٢٩ سفينة ونحو الف مدفع وحوالى عشرة آلاف من رجال البحرية • والجديد فى المسألة ، ان الباشا أيقن أن بناء البحرية يجب أن يتم فى مصر ذاتها حتى لا يقع تحت تسلط القوى الاوربية المختلفة وكذلك لتوفير النفقات لان الدول الاوربية بالغت فى اسعار تلك السفن • لذلك قرر الباشا سنة ١٨٢٨ أن يصنع سفن اسطوله فى مصر • وأولى هذه المسألة عناية فائقة ، لانها تحتاج الى المهندسين والمدربين وفن الصناعة والملاحة والاخشاب وبدأ الباشا باستقدام بعض الخبراء الفرنسيين للقيام بالتدريب • أما دار الصناعة اللازمة فقد أمر الباشا بأنشائها بالاسكندرية ، وكان يشرف على العمل فى هذه الترسانة الحاج عمر رجل تقدمت به السن واكتسب من الخبرة بالمران ما جعله موضع اعجاب الباشا حتى لقد اثنت عليه الوقائع المصرية بمناسبة صنع « سفينة الفركطون (الفرقاطة) » ونزولها الى البحر فى ٩ فبراير ١٨٣٠ •

اما الورش والمصانع التى انشئت بهذه الترسانة البحرية ، فكان عددها ١٠٥ وذلك بالاضافة إلى خمس عشرة ورشة للذخيرة والمهمات الحربية .

اما الاخشاب اللازمة لبناء السفن فقد جلبها الباشا من آسيا الصغرى وردوس وانجلترا وفرنسا وسوريا .

وكان فى برنامج الباشا - الى جانب صنع السفن - العمل على توسيع وتطوير ميناء الاسكندرية ، ولهذا احضر الباشا من الخارج الآلات اللازمة لتوسيع الميناء وتعميقه .

واعتبارا من سنة ١٨٣٣ اوصى الباشا ان يصنع فى انجلترا اول سفينة مصرية بخارية وكان استخدام البخار فى تسيير السفن لازال اكتشافا حديثا .

ولم يفت محمد على انشاء الاحواض اللازمة لاصلاح السفن بالاسكندرية على ان هذا الاسطول اخذ فى الضمور منذ عام ١٨٤٢ نتيجة للصعوبات المالية التى احاقت بمصر نتيجة لحروبها مع تركيا .

تطور الصناعة فى عصر محمد على

الصناعة المصرية قبل محمد على

١ - الصناعة تقليدية :

لم تكن الصناعة المصرية فى نهاية القرن ١٨ فى حالة متازمة خصوصا وان صناعة النسيج من القطن والحرير والتى كانت أهم فروع الصناعة كانت فى وضع حسن بحيث كان انتاجها يكفى الحاجيات المحلية بل ويصدر بعضه . الا ان الاساليب الصناعية كانت تقليدية عاجزة عن مجاراة الصناعة الاوربية مما ادى بالصناعة المصرية الى التصنيع فى مطع القرن ١٩ ابان غزو الصناعة الاوربية للاسواق المصرية ، وخاصة بعد الحرب النابليونية .

ومع ذلك لم تقم الدولة العثمانية بأية محاولة قصد مواجهة الخطر الذى يهدد صناعتها - وجاءت المحاولة الجديدة الوحيدة على يد محمد على الذى حاول أن ينتقل بمصر من اقتصاد الكفاف الى الاقتصاد المركب (١) ٠

ومما يدلنا على أن مصر عرفت صناعة متقدمة الى حد ما هو ما قام به السلطان سليم من نقل أمهر الصناع الى عاصمته عند فتحه لمصر اذ لم يبق بها سوى بعض الصناعات البسيطة مثل غزل القطن والكتان بالمغازل اليدوية وضرب الارز وطحن القمح وعصر الزيت ، وحسب ما ورد عند الدكتور محمد فؤاد شكرى (٢) أن أهم الصناعات التقليدية تتمثل فى صناعة النسيج وصناعة الحصر وعمل الاوانى الفخارية ، ولهذه الاوانى فى عالم التجارة مكانه ملحوظة بحيث تصنع الجرار الكبيرة كما تصنع آنية صغيرة يطلق عليها اسم « برداق » وتنضح المياه من خواص هذه الجرار وتلك الآنية اتى لا يستغنى عنها أى منزل ، وللبرادق فائدة كبيرة اذ تقوم بتبريد المياه اذا عرضت لتيار الهواء ٠ ولا يقدر هذه المزية حق قدرها الا من عاش فى بلد لا ثلج فيه ولا جليد على حد تعبيره ٠

اما الطريقة المتبعة فى صنع الاوانى الفخارية فى « قنا » فتتمثل فى « خلط تراب الفخار بالرماد بنسبة ٤ الى ١ وبفعل المياه تحلل الذرات القلوية التى يحتويها الرماد فيؤدى ذلك الى احداث كثير من المسام لا تراها العين ولكنها تساعد عملية الترشيح » (٣) ٠

ولم تكن هذه الصناعات اليدوية لتكفى حاجيات البلاد بل كانت الدولة تقوم باستيراد ما يلزمها من الخارج خاصة ما كانت تحتاج اليه الطبقات العليا من كماليات ٠

---

(١) دكتور عبد العزيز الدورى - مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى - بيروت ١٩٧٨ ص ١٣١ ٠

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - بناء دولة مصر محمد على ص ٤٣٤

(٣) المصدر السابق ص ٣٢٦ ٠

ولا نهمل جانبا آخر من جوانب الصناعة وكان متقدما فى مصر وضعف أيام العثمانيين الا وهو صناعة البناء ، فالمبانى صغر حجمها وقلت الزخارف بها ولم تراع الدقة والاتقان فى صناعتها ويرجع سبب ذلك الى قلة الثروة من جهة وتقهقر الصناعات من جهة ثانية .

على أى حال ، فقد مارس أرباب الصناعات التقليدية نشـــاطهم فى كثير من النجاح والتوفيق مع انهم لم يحتاجوا الى كثير من الذوق والمهارة وكان هناك عدد كبير من الصائغين يؤدون عملهم على أحسن وجه وبنحـو يدعو الى الفخر والاعتزاز ، فهذه الصناعات موجودة منذ زمن بعيد وتعتمد على استخدام الايدى فى صنع المواد الخام دون الحاجة الى الاستعانة بما حدث من تقدم آلى ضخم .

٢ - نظـــام الطوائف :

كان أصحاب الصناعات يقسمون حسب مهنهم أو حرفهم الى طوائف، ونقابات وهذه هى القاعدة التقليدية المألوفة فى الشرق بأسره فى تنظيم أرباب الحرف والصناعات الا انهم كانوا يمثلون فئة اجتماعية قليلة الافراد خاصة فى ظل حكم المماليك ، وبدأ نطاقها يتسع لكونها كانت ترحب بكل من أراد الانتماء اليها . فالحرفيون فى ظل المماليك كانوا من الفئات الاجتماعية القليلة التى كانت مفتوحة لانتماء الافـــراد من خارجها فالطوائف الحرفية فى مصر كانت فعلا ميدانـــا لنوع من التحرك الاجتماعى اذ كانت تتغذى الى حـــد مـــا من الفقراء المهاجرين من الريف الى المدن أو الذين كانوا يفقدون مركزهم فى التجارة أو الادارة أو الســـلك الدينى .

وكان انتماء الحرفيين الى طائفتهم يجعلهم يمارسون نشاطهم كلـــه ويحيون آمنيين ومحميين بظلها وخاضعين لنظمهـــا وحسب ماورد عند الدكتور أحمد عزت عبد الكريم (١) انه لم يكن من السهل ان يتحول الفرد من طائفته الى طائفـــة أخـــرى اذ جرت العادة أن ينشأ ابن الفلاح فلاحا وابن الصانع

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم - دراسات فى تاريخ العـــرب الحديث - دار النهضة العربية بيروت ١٩٧ ص ٢٢٢ .

صانعا وابن العالم عالما ولبس ثمة ما يدعو ابن الريف ومقتضيانه الى ان يهجر قرينه لى المدينة ٠

ولم تكن الدولة العثمانية تتدخل لترسم سياسة معينة لاعمالهم اذ تقنع ببقاء كلمة السلطان فى مصر واسعة يذكر على منابرها مما اتاح لهم ادارة شئونهم وفقا لتقاليدهم ونظم طوائفهم ٠ غير ان ذلك ادى الى انقسام القطر الى وحدات اقتصادية متعددة تكاد تكون كل واحدة منها تكفى نفسها حتى لا تضطر الى الاعتماد على ما يرد اليها من خارجها ٠ الا ان هذا النظام سوف يعرف انحلالا وتفسخا بعدما كان قوام النظام الصناعى فى المدن ، الامر الذى ساعد محمد على على تنفيذ سياسة الاحتكار على الصناعات الصغيرة عن طريق فرض قيود على ارباب الحرف وترتيب المواد الخام اللازمة لعملهم ثم وضع يده على انتاجهم بعد اتمامه فاصبحوا مجرد اجراء بعد ان كانوا اصحاب عمل ٠ فما هو هدف محمد على من نظام الاحتكار ؟ ٠

٣ ـ نظـام الاحتكـار :

بعدما صار محمد على المالك الوحيد لاراضى مصر ثم التاجر الوحيد لحاصلاتهـا ، صار الصانع الوحيد لصنائعها ٠ والظاهر انه راى الاحتكار مما يعود بالنفع على الحكومة باعتباره يفتح بابا جديدا للربح فاتجه الى احتكار الصناعة (١) ٠

ويذكر الجبرتى طرفا من احتكار هذه الصناعات فى حوادث سنة١٢٣٢هـ موافق سنة ١٨١٧ فيقول : « قام الباشا بضبط انوال الحياكة وكل ما يصنع بالمكوك وما ينسج على نـول أو نحوه من جميـع اصناف من ابريم أو حرير أو كتان الى الخيش والحصير فى سائر الاقليم المصرى طولا وعرضا، قبلى وبحرى من الاسكندرية ودمياط الى اقصى بلاد الصعيد والفيوم » (٢) ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ـ ط ٣ ، ١٩٥١ ص ٦٣٢

(٢) عبد الرحمن الجبرتى ـ المصـدر السابق ج ٣ ـ دار الفارس بيروت ص ٧٥٠ ٠

كما وصف أيضا احتكار الحكومة للصابون وتجارته والبلح بأنواعه والعمل وصناعة الخيش والقطن والتلى الذى ينسج من أسلاك الذهب والفضة للتطريز والمناديل والمحارم وغيرها من الملابس وصارت الحكومة هى المالكة لكل صناعة البلاد ٠

فى الحقيقة إن النظام الاقتصادى المتطور الذى كان محمد على يرغب فى تحقيقه وتنفيذه ، اقتضى منه ان يحتكر جميع انواع الصناعات القائمة فى البلاد (١) ٠

وفى تقرير الكولونيل « كامبل » وكيل الملك البريطانى وقنصله العام فى مصر وملحقاتها والذى ارسله الى الدكتور « بورنج » من القاهرة فى ١٨ يناير ١٨٣٨ يقول بأن احتكار الصناعة يتسبب فى فقر الصانع وتجريده من املاكه ولو حدث أن اظهر القناصل العامون - الذين كانوا فى مصر آنئذ - الحزم فى معارضة هذه الاحتكارات واحتجوا بصفة جدية فى هذا الموضوع لالغيت جميعها الغاء تاما أو جزئيا غير أن كثيرين منهم كانوا يشتغلون بالتجارة وكان الباشا صاحب الفضل الكبير عليهم (٢) ٠

وبعد هذه المرحلة أى مرحلة ضبط الحكومة للصناعات القائمة وخاصة الغزل والنسيج بدأت مرحلة جديدة فى السياسة الاقتصادية وهى مرحلة الانقلاب الاقتصادى الا ان المشكلة الكبرى التى كانت تعانى منها مصر فى النصف الاول من القرن الماضى كانت مشكلة النقص فى الايدى العاملة نتيجة لقلة سكان مصر آنئذ وانتشار الاوبئة وانعدام العناية بالصحة ، فى الوقت الذى احتاج فيه مشروع التنمية والتوسع الاقتصادى الى الاعداد الوفيرة من المصريين ٠

وكان محمد على يرى ان الصناعة الحديثة الكبرى هى مصدر قوة كل دولة اذ ان امداد الجيش والاسطول بحاجتيهما من السلاح والعتاد والملابس والسفن ومواد وغيرها يقتضى حتما الاخذ بسياسة التصنيع

---

(١) انظر الموضوع الخاص بالتجارة فى عصر محمد على ٠
(٢) د ٠ محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٧٠٧ ٠

وفعلا قام بتنفيذ سياسته على الرغم مما اعترضه من العقبات للحيلولة دون ذلك حيث كان يدرك أن مصر كانت تملك كثيرا من المواد الاولية التى تحتاجها الصناعات الاجنبية وكان يعز عليه كما ورد فى بعض الوثائق « أن يشترى الاوربيون قطننا ويدفعون عليه جمركا ونولونا ، ثم يشغلونه ويأتون بالمصنوع منه بنفقات اخرى من النول والجمرك ويبيعونه بأثمان ارخص من مصنوعاتنا » (١) ٠

الواقع أن سياسة التصنيع انرت تأثيرا سيئا على الصناعات التقليدية وعجزت هذه الاخيرة عن استعادة نشاطها بعد انهيار النظام الصناعى الكبير نظرا لفقدها لكثير من مقوماتها وللخبرة الفنية التى كانت معتزة بها ولنظام الطوائف الذى كانت محتمية فى ظله ٠

وأهم من ذلك أنها لم تعد وحدها قادرة على تلبية مقتضيات المجتمع الجديد الذى تطور بسرعة خلال القرن ١٩ واصبحت عاجزة عن الصمود أمام منافسة المصنوعات الاوروبية باثمانها الرخيصة وانتاجها الضخم ٠ فما هى مظاهر التجديد التى طرأت فى الحقل الصناعى ؟ ٠

محمد على والصناعة

ادرك محمد على أن الصناعة الحديثة الكبيرة عماد الدولة القوية ومصدر قوتها السياسية والعسكرية ولكى ينشىء قوة عسكرية ضخمة فى البر والبحر كان لا بد له من الأخذ بسياسة التصنيع لاعداد جيشه واسطوله بما يلزم من السلاح والعتاد والملابس والسفن ومواد البناء وغيرها ، وكان يقدر رخص الأيدى العاملة فى مصر وقدرة الحكومة على تمويل المشروعات الصناعية الكبيرة من أرباحها فى عمليات التجارة ٠ اما ماعدا ذلك من عقبات كصعوبة التعدين والخبرة الفنية فقد تغلب عليها ، وذلك باحضار العمال من انجلترا وفرنسا وايطاليا لقاء أجور عالية ، هذا فضلا عن شراء الآلات من جميع الانواع ، وتعتبر الصناعات الحربية من أعظم منشآته الصناعية ٠

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم ـ المصدر السابق ص ٢٤٩ ٠

١ - الصناعات الحربية :

أثمرت سياسة التصنيع ثمرتها فانشئت فى القاهرة والاسكندرية وكثير من مدن الاقاليم مصانع لانتاج الاسلحة المختلفة من بنادق ومدافع ورصاص ومصانع الطرابيش والجلود ودور الصناعة البحرية ٠

ولا يخفى ما فى ذلك من المصاعب لضرورة جلب الفحم والحديد والأخشاب والآلات من الخارج ، ولانه ايضا يلزم المصريين زمن طويل وخبرة فنية كبيرة حتى يصلوا الى درجة يمكنهم معها ان ينافسوا اعمال أوربا ، الا انه قاوم كل هذه الصعوبات و « سخر وفقا للعادة الشرقية القديمة جميع النجارين والبنائين لينشئوا اسطولا واشترى جميع الخشب المستورد باسعار محددة ٠ والحق أن سياسته الجمركية التى استشعر جمهور الاهليين شدة وطاتها بسبب انصبابها على السلع المستوردة من البلدان الاسلامية الاخرى بأكثر واثقل من انصبابها على السلع الاوربية ما لبثت ان ادت الى ارتفاع لا يطاق فى نفقات المعيشة » (١) ٠

ان تاسيس المصانع فى مصر يرجع الى عام ١٨١٦ حيث انشا الباشا مصنعا للغزل والنسيج بالخرنفش ، وفى عام ١٨١٨ أقام مصنعا ضخما فى بولاق لصنع المنسوجات « وشرع عمال من مصانع فرنسا وبلجيكا يقومون بمحاولات جديدة ٠ وقد ادى موت البعض وعزوف البعض الآخر عن المشروع الى وقف العمل والكف عن تعليم التلاميذ غير ان الباشا لم يفرغ من اعداد جيش قائم حتى اراد أن يلبس الجنود مما تنسجه بلادهم (٠٠٠) وفى كل قسم من اقسام المصنع ملاحظ يوجه العمال ٠ ويتقاضى العامل اجرة بنسبة ما يقوم به من عمل فيتناول ٧٠ بارة عن الذراع (الاسلامبولى) الذى يتم نسجه بعد أربع وأربعين « طرحة » وينسج العامل ذراعين فى الشتاء ونحو ٣ أذرع

---

(١) كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلامية ط ٦ بيروت ص ٤٥٦ ٠

فى الصيف » (١) ٠

عمل محمد على على تحويل جزء كبير من قلعة الجبل الى دار صناعة حيث يشتغل فيها مئات من المصريين فى صب المدافع المعدات للجنود والذخيرة كما أنشأ ترسانة القاهرة لنفس الغرض تنتج عجلات وعربات للمدافع وكذلك صناديق الذخيرة وحدوات الخيل والسيوف والبلط وركائب السرج والابازيم والآلات التى يستعملها حملة البلط والنساقون وغيرهم ويبلغ عدد العمال ٨٠٠ عندما يكون العمل قائما على قدم وساق ٠٠

وهناك قسم آخر لصنع المسامير والاقفال والامشاط وعربات النقل وصناديق الادوية وغيرها ، ثم قسم ثالث لصنع السرج وقرب الماء واطقم الخيل وصناديق الخرطوش وغيرها ٠ ويشتغل فى هذا القسم الف عامل ويقوم نحو اربعين عاملا بصنع نحو خمسين زوجا من احذية الجيش فى اليوم الواحد ٠ ولكل قسم مراقب ووكيل وموظفون كما أن هناك مراقبين ومراجعين للحسابات يمنحون جميعا رتبا عسكرية ٠

اما اسطول الباشا فنشأته كشأن مصانعه سواء بسواء أى انه كان ينقصه الاساس المتين بمعنى انه لم يكن فى الاستطاعة الاحتفاظ به فى حالة الاستعداد الا اذا سهر مؤسسة على مراقبته ورعايته بنفسه لان الاسطول لم يرق فى اعين فئة من الجيش ، وقد وقف هذا الاسطول مكتوف اليدين فى مياه الاسكندرية طيلة فترة الحرب السورية القصيرة الاجل وقد حرمه القبطان باشا من فرصة اداء المهمة التى لم ينشا الاسطول الا لادائها (١) ٠

ولقد أنشأ محمد على أول اسطول ايام حربه مع الوهابيين بغرض نقل الجنود من السواحل المصرية الى بلاد العرب وقد افاده

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٤٤٣ ٠

(٢) هنرى دودويل — محمد على مؤسس مصر الحديثة ترجمة أحمد عبد الخالق واخر ص ٢٥٥ ٠

فيمـا بعـد عندما كان يحافظ بـه على السفن التجاريـة الذاهبـة الى الشرق من القراصـــنة • وعلى مـر الايـام راى ضروره بقـاء الاسطول فى البحـر المتوسط لحمايـة السفن التجاريـة من قراصنة اليونان • وقبـل نشوب حـرب اليونان اشترى بعض السفن من البندقيـة ومرسيليـا وصنـع بعضهـا الآخـر هنـاك على حسابه ، غير ان معظم أسطوله حطم فى هـــذه الحـرب فى واقعـة « نوارين » ولمـا علم محمـد على ما للاســـطول من الفائدة بعـد هذه الواقعة أسس دار صناعة بحرية بالاســكندرية (١) • وبنى فيهـا مصـانع خاصـة لفتل الحبـال وصناعـة الحديد وعمـــل الصوارى والقلوع وكل ما يلزم للسفن وانشـا فيهـا ايضـا مدرســة بحريـة اعدهـا لتدريب عـدد من الشـبان المصريين على العلوم والمعـارف اللازمـة لضباط البحريـة ، وكان المنوط بـه انشـاء هـذه السفن المهندس البحرى « سيريزى » امـا ادارة المدرســة فكانت فى يـد المسيو « بيسون» وقـد ترقى فيمـا بعـد الى رتبة امير البحـر للاســطول المصرى وعمـل الرجلان على ترقية العمـارة البحريـة الى درجـة جعلتهـا فى صــــف سليمـان باشـا منظم الجيش البرى • وقـد بلغ عـدد المراكب البحرية فى عـام ١٨٣٢ ثلاثين قطعـة تحمـل ١٣٠٠ مدفـع وفيهـا من العساكـــر البحرية ما لا يقـل عن ١٢٫٠٠٠ جندى •

٢ – صـناعـة النسيج والغزل :

لما كانت مصر غنيـة فى انتـاج القطن والكتـــان والصوف فـــان الباشـا خطط لنسج وغزل هاته المواد تلبيـة لحاجـة البلاد الاستهلاكية خصوصـا. وأن جوميـل الفرنسى كان قـد نجح فى زراعـة القطن الى جانب انخفاض الاجـور وبالتالى التكاليف ، فكانت أولى المصـانع التى انشـأهـا مصـنع الخرنفس الذى تاسس سـنة ١٨١٦ (٢) واستدعى له عمالا فنيين من فلورانسـا بايطاليـا تخصصوا فى غزل خيـــوط الحرير لصناعـة القطيفـة والساتان الخفيف • وبعـد قليـل من الــزمن نقلت الانوال الخاصـة بصناعة الحريـر الى مصنع اخـر ووضعت محلهـــا

---

(١) انظـر صفحة ٥٧ وما بعدهـا •

(٢) عبد الرحمن الرافعى – المصدر السابق ص ٥٨٨ •

مغازل للقطن وآلات لصنع الاقمشة القطنية فركب بها مائة دولاب للخيوط السميكة الى تسعة للخيوط الرفيعة وهى النسبة المتبعة عادة فى مصانع الغزل ، والى جانب هذا المصنع كان للقطن ثمانية عشر مصنعا فى المنصورة ودمياط ، رشيد ، المحلة الكبرى ، زفتى ميت غمر ، بنى سويف فوه ، دمنهور ، السيدة زينب وغيرها ، لكن اهمها مصنع مالطة الذى اكتسب اسمه نتيجة كثرة العمال المالطيين الذين كانوا يشتغلون فيه - ويشكل هذا المصنع بالاضافة الى صناعة الخيوط القطنية - مبيضة ترسل اليها المنسوجات على اختلاف انواعها لتبييضها .

وعهد بادارته الى جوميل ، وكان فيه من دواليب الغزل ٢٨ دولابا و ٢٤ « عدة » وآلات تجهيز القطن وتدور هذه الآلات كما فى مصنع الخرنفش بواسطة ١٤ طنبورا تحركها عدة يجرها ثمانية من الثيران ، وكل دولاب يشتغل عليه رجل و ٣ أطفال يعقدون الخيوط التى تقطعها حركة « العدة » ويبلغ عدد الانوال فى مصنع مالطة مائتى نول تنسج خيوط القطن ويصنع منها البافتة والبصمة والباتست والموسلين وفيها ورشة تضم عمالا من مختلف الحرف معدين لاصلال آلاتها واصلاح مصانع الوجهين البحرى والقبلى .

على اى حال ، يعتبر مصنع مالطة مركز العصب لجميع المصانع الاخرى ، فادارته معقدة ، فهناك عدد من الكتبة الاقباط يمسكون الحساب ، كما أن هناك صرافا يقبض الاموال من « الخزينة» ويدفعها لمن يقومون بالعمل .

والى جانب القطن انشأت الحكومة مصانع لغزل الصوف ونسجه الا ان الصوف المصرى كان لا يصلح لاى نوع من المنسوجات الناعمة ، لان تشبعه بغبار ملىء بالملح كان يكسبه صلابة وجفافا ، ولكن يبدو على الرغم من ذلك ان المنسوجات التى تصنع من هذا النوع من الصوف ملائمة كل الملائمة لملابس الجند لان صناعتها متينة متداخلة الخيوط ، وذلك فضلا عن اتقانها .

واهم مصانع لغزل الصوف مصنع بولاق الذى تأسس سنه ١٨١٨ وبدات الحكومة تجلب من مديريات المنيا والفيوم والبحيرة حـير ما ذنتجه دصر من انواع الصوف (١) ، وكانت تعمل منها ملابس البحارة وأعطية النيم ويستعمل لهذا الغرض الصوف السميك الوارد من الوجه القبلى وبلغت انواع النسيج الصوفى الموجود منها من قبل وما انشىء فى ذلك العصر (٤٠٠٠) نول (٢) ٠

اجتهد محمد على فى تربية دودة القز ليستغنى بانتاجها عن الحرير الذى يأتى اليه من الخارج فزرع اشجار التوت بشكل وافر وحفر السواقى لريها فبلغ ما جمع من الحرير سنة ١٨٣٣ عشرة آلاف اقة تقريبا بعد ان استقدم عددا كبيرا من الاخصائيين ، فلقى المصنع الذى اقامه الخرنفش نجاحا كبيرا مما ادى الى تشجيع هذه الصناعة ٠

كما تاسس مصنع فى القاهرة على مقربة من الجهة المعروفة ببركة الفيل ، « حيث استقدم الباشا من القسطنطينية منذ البداية بعض الارمن الذين يجيدون صنع الحرير والمنسوجات الحريرية الموشاة بالذهب مما يصنع مثله فى تركيا والهند ، (٠٠) واصبح فى المصنع فى المصنع ١٦٠ نولا ، لنسج الحرير من خيوط بيروت المصنوعة من الذهب والقطن (٣) ٠

على العموم ، تطورت معامل الغزل والنسيج لدرجة اصبحت معها تصدر جزءا من غزل القطن الى شمال البحر المتوسط والشام وبلاد العرب ٠

٣ ـ صناعات اخرى :

وفى سنة ١٨١٨ اسست الحكومة فى احد مراكز مديرية اسيوط يدعى « الزيزهون » مصنعا لصناعة السكر يماثل مصانع السكر فى حزر الانتيل كما انشات مصنعين آخرين لنفس الصناعة احدهما فى ساقية موسى والثانى فى الروضة (مركز ملوى) ٠

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٤٤٤ ٠
(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٦٥٣ ٠
(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٤٤٣ ٠

وبلغ انتاج الزيزمون سنة ١٨٣٣ ، ٢٠١٩٥ اقنطارا من السكر الخام ، لكن استيراد السكر المكرر من معامل أوربا منذ سنة ١٨٢٦ أضر بانتاج معمل الزيزمون وفضل الناس السكر الوارد من أوربا لجودته ورخص اسعاره (١) ٠

اما مصانع النيلة فقد انشئت فى شبرا شهاب والعزازنة ، ومبت غمر والمنصورة ومنوف والاشمونين وبركة السبع والمحلة الكبرى والجيزة وابو تيج وملوى ومنفلوط وطهطا واسيوط والفشن ، وهذه المصانع تستنفذ سدس محصول القطر المصرى وكانت النيلة ترسل من المصانع الى القاهرة حيث تبيعها الحكومة ، وتصدر منها للخارج بعد استنفاذ حاجة المستهلكين ٠

ولم يقم الباشا باستيرادها من الخارج لانها كانت تزرع فى مصر ، ولكن الصبغة المأخوذة من مادتها كانت رديئة النوع واضطر محمد على الى استخدام بعض الصناع لتعليم « ابناء العرب » وسائل الصناعة واساليبها من البنغال بالهند ٠

ومنذ سنة ١٨٣٥ رأى الباشا ان يترك الاشراف على اعداد النيلة لمشايخ القرى على شريطة ان تتسلم الحكومة جميع المادة المستخرجة منها مهما كان نوعها بثمن قدره ٣٠ قرشا للاقة الواحدة ٠

أما مضارب الأرز فكانت تديرها الثيران ، ومع هذا فقد كلفت الباشا مبلغا يربو على ضعف ما كان يتكلفه انتاج الأرز نفسه ، حتى أن توماس جالوى ابن المهندس الانجليزى Gallaway اتفق مع الباشا على أن يستبدل مضارب الارز الموجودة بمضارب غيرها تستخدم البخار ، منها واحد فى رشيد وآخر فى الزيزمون (٢) ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى المصدر السابق ص ٦٠٠ ٠
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المعهد السابق ص ٨٤ ٠

ولعل متاعب استخدام الثيران والرغبة فى توفير النفقات هى التى جعلت الباشا - على ما ذكره الجبرتى فى حوادث ذى القعدة ١٢٣١ هـ الموافق لاكتوبر ١٨١٦ - بأن « يأخذ قبل ذلك بفكرة تقدم بها شخص من ابناء البلد يسمى حسن جلبى عجوة » ابتكر بفكره صورة دائرة وهى التى يدقون بها الارز وعمل لها مثالا من الصفيح تدور باربعة ثيران ، وقدم ذلك المثال الى الباشا فاعجبه وانعم عليه بدراهم وأمره بالسير الى دمياط وان يبنى بها دائرة ويهندسها برأيه وبمعرفته واعطاه مرسوما بما يحتاجه من الاخشاب والحديد ، ففعل وصح قوله ثم فعل اخرى برشيد وراج امره بسبب ذلك » (١) ٠

ولتزويد المصانع بالآلات اللازمة عمدت الحكومة الى انشاء معمل لسبك الحديد فى بولاق وضع تصميمه المستر جالويه المهندس الميكانيكى الانجليزى ، الذى كان يشتغل فى خدمة الحكومة وكان يتولى رئاسة العمل فيه رئيس انجليزى يساعده خمسة من العمال الانجليز وثلاثة من المالطيين وأربعون تلميذا مصريا موزعين على جميع اقسام المسبك ورئيسه القائد أدهم بك ، ونظام الأجور مقيد بما ينتجه العمال ٠ بل انهم على اختلاف طوائفهم يقيدون فى المصنع بفئات ثابتة ، يحددها الناظر او من يليه فى المرتبة ، وقلما تقوم المنافسة بين للعمال لان المتفوق لا يلقى على تفوقه جزاء ، اما العقوبة البدنية والسجن فمما يقضى به نظام المصنع ، وتتراوح الاجور بين قرش واحد وثمانية قروش فى اليوم ٠ وقد انفق محمد على على بناء المصنع ٠٠٠ ر ٥٠٠ ر ١ قرش ٠ وكان من الممكن صب خمسين قنطارا من الحديد المصهور فى اليوم الواحد بخمسين قنطارا من الفحم (٢)

وتجدر الاشارة الى مصنع آخر انشىء خصيصا لصناعة الواح النحاس التى تبطن بها السفن » وتولى ادارته المستر جالوى الميكانيكى الانجليزى يساعده اربعة رؤساء عمل ، اثنان للاسطوانه وثالث

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى - المصدر السابق ص ٥٣٦ ٠

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٤٥٩ ٠

لمراقبة الآلة البخاريـــة ، والرابـــع للسبك وتنقية النحاس من المواد العزيبة، وكان فى المصنـــع عشرون عامـــلا مصريـــا من العمـــل الفنيين موزعين عـــلى الاعمـــال المختلفـــة منهم واحـــد للسبك وثلاثة للاسطوانـــة يشتغلون فى اخراج الواح النحـــاس ، وعملية السبك الواحـــدة تقتضى ٣٥ قنطارا من النحـــاس والاسطوانـــات تخـــرج كل يـــوم من سبعين الى مائة لـــوح من النحاس مختلفـــة المقـــاس والسبك » (١) ٠

الى جانب هـــذه الصناعـــات هنـــاك صناعـــات اخـــرى كصناعـــة الزجـــاج ودبـــغ الجلود والصابون والورق والمـــواد الكيماويـــة وغيرها ٠

كان يشتغل فى الصناعـــة من ٠٠٠ ر٣٠ الى ٠٠٠ر٤٠ عـــامل ، وبلغ مجموع ما دفعته الحكومـــة فى الصناعـــة حتى عـــام ١٨٩٨ حـــوالى ١٢ مليون قرش ، وحاولت فى نفس الوقت اعـــداد اناس مدربين تدريبـــــا حديثا ، فعملت على ارســـال حوالى ثلثمائة مبعوث الى أوربـــا وأدخـــل اضعـــاف هؤلاء فى المدارس الحديثة التى انشئت لدراســـة الطب والهندســـة والكيمبـــاء اضافة الى الكليـــة العسكريـــة والكليـــة البحريـــة ٠

وهكذا حاول محمـــد على ان ينفذ برنامج تصـــــنيع محدد وحصل على المال اللازم من اربـــاح احتكـــارات التجارة ومن الضرائب والقروض الاجبارية ويعود نجاحه بصفة اساسية الى الحماية الاداريـــة للصناعـــات ٠

لكن نجاحه لـــم يدم بفعـــل الضغط الاوربى بمعونـــة البـــاب العالى الذى ازال هـــذه الحماية الاداريـــة للصناعـــات وعرض الصناعـــة الناشئة الى منافســـة الصناعـــة الاوربيـــة وبالتالى الى انهيارهـــا ، فلم يكن محمـــد على حرا فى فرض الرسوم على الواردات ، بـــل كان مقيـــدا باتفـــاقيـــات البـــاب العالى مع الدول الاوربيـــة ونتيجـــة ضغط بريطانيـــا فى سبيـــل حريـــة التجارة وضمان اسواق لتجارتهـــا عقـــد البـــاب العـــالى معاهدة ١٨٣٨ التجارية « بالتـــا ـ ليمـــان » معهـــا ، وهـــذه المعـــاهدة فتحـــت

---

(١) عبد الرحمن الرافعى المصدر السابق ص ٥٩٩ ٠

البـاب امـام التجارة الاوربيـة لقـاء رسم قدره ٥ ٪ فقط ، فكانت ضربة قاصمة لنظـام الاحتكـار .

وحاول محمـد على تجاهلهـا أول الامـر ، لكن القـوات الاوربية ضربت قواته بصفـة نهائيـة بعـد عام ١٨٤٠ ، وهكـذا تعرضـت صناعاته للمنافسـة الاوربية فبدأت تضعف بعـد وفاته .

نتائج حركـة التصنيـع
فى عصر محمـد على

نجحت اصـلاحـات محمـد على الصناعية نجاحـا امكن معـه سـد حاجيات الدولة خاصـة فى الميدان العسكرى وعملت على تطويـر البـلاد سياسيا واقتصـاديـا واجتماعيا وفكريـا ، غير أن هـذه الصناعة كانت تكلف الحكومـة نفقـات معتمدة على مرافق الانتـاج الاخـرى من الزراعة والتجارة التى كانت تدر عليهـا ارباحـا مكنتهـا من تعويض خسارتهـا فى الصناعة فى المراحل الاولى .

١ - على المستوى السياسى :

ان مقتضيـات الصناعة بمصر ارغمت محمـد على على الاخذ بالحكومة المطلقـة وتنظيم ادارتهـا تنظيمـا يسـاعد على استمراريـة خطواتـه الاصلاحية ، ومن هنا جاءت ، فكرة تاسيس بعض المجالس أو الدواوين التى كان يرجـع اليهـا محمـد على قبـل الشروع فى تنفيذ مشروعاته ، ورئيس هـذا الديوان يلقب كتخدا بك او كتخـدا باشـا وهو بمثابة وكيـل الباشا او نائب ولـه سلطة واسعة المدى فى كافـة شئون الحكومـة .

وفى سـنة ١٨٢٩ الف محمـد على نواة لنظـام الشـورى وهى مجلس الشورى ، يتالف من كبـار موظفى الحكومـة والعلماء واعيـان القطـر برئاسـة ابنه ابراهيم باشـا .

ومن قرارات هـذا المجلس أنه قرر أخـذ ١٠٠ فـلام من كل ثمن من اثمـان القـاهرة وبولاق ومصر القديمـة وجملتهم ١٠٠٠ غـلام لتشغيلهم .

بالاجرة فى مصانع الحكومة وكذلك قرر اخذ الصالحين للعمل من المتسولين للالتحاق بهذه المصانع وأن ترتب لهم أرزاق يومية وبعد تعليمهم الصناعة ترتب لهم اجور يومية ، ولهذا القرار قيمته فى تعليمهم الصناعة ومحاربة البطالة (١) .

أدت نشأة الحكومة الجديدة بوظائفها واداراتها وهيئاتها الى ان اصبح الفرد يواجه الحكومة فى كل خطوة يخطوها منذ مولده حتى وفاته ، فالحكومة لا تطلب منه المال فقط وانما تسوقه للجيش أو للمدرسة او للمصنع ، وتنظم عمله فى الحقل تنظيما دقيقا لا تكاد تدع له حرية فى العمل أو التصرف ، وهكذا ذابت فى ظل النظام الجديد الهيئات والطوائف المختلفة التى كانت تنظم المصريين فى الريف والحضر وفقدت اختصاصاتها وامتيازاتها فتحولت الدواوين والادارات الجديدة التى نهضت لسد الفراغ الذى خلفه انهيار الطائفية لتحل محلها فكرة القومية الواحدة ووقف المصريون جميعا امام الحكم الجديد آحادا يلتمسون منه التوجيه بل وينتظرون لقمة العيش فى المصنع او الحقل او فرقة الجيش أو المدرسة او الديوان (٢) .

وقد ذكر حسين مؤنس فى كتابه « الشرق الاسلامى فى العصر الحديث » (٣) ان اكثرية الاوربيين كانوا ينتظرون افلاس محمد على بين آونة وأخرى ولكنه لم يكن يلبث حتى يخيب ظنونهم ويتخلص من اثقال الضائقات التى تهبط عليه ، ففى سنة ١٨٢٧ مثلا ابهظته تكاليف حرب المورة وهبط النيل سنتين متتاليتين فتبادل القناصل التهانى بالفراغ امره فاذا به يضاعف همته فى انشاء المصانع والاحواض فى الاسكندرية (...) وليس ادل على شرقية محمد على واساليبه من انه لم يضع لماليته ميزانية أو شيئا يشبه الميزانية الا بعد زمن طويل - بل كان يضع ما يرد اليه من المال فى خزائنه ، وينفق

---

(١) عبد الرحمن الرافعى المصدر السابق ص٦١٩ .

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم - المصدر السابق ص ٢٦٤ .

(٣) دكتور حسين مؤنس - الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ط ٢ ، ١٩٣٨ ص ١٦٢ .

منه بغير حساب مكتوب على اسلوب الحكام الشرقيين من قديم الزمان ولكنه اجتهد دائما فى أن يكون منصرفه اقل من ايراده وظل على ذلك حتى وضع لـه وزير ماليته بوغوص بك حسابا منظما كالمتبع فى أوربا بمعاونة الفرنسى « جومار »

ظل محمد على الى اواخر ايامه والنزعة الاوتوقراطية متمكنة من نفسه ولم يكن لاعيان الاسكندرية رغبة فى ارسال اولادهم الى باريس للتعليم فاستعاض عنهم بابناء البوابين وما شاكلهم من ابناء الطبقة الدنيا . « ولم يكن الباشا الحاكم الاوتوقراطى بحكم الميراث فقط بل كان كذلك بحكم البيئة أيضا . واذا استثنينا العنصر الاوربى الضئيل القديم الحيثية ويتخلل فيه القناصل العموميون ، وبعض التجار الانجليز والفرنسيون وشرذمة الموظفين الفرنسيين الذين كانوا يعملون فى الادارة المصرية - نقول اذا استثنينا هؤلاء لألفينا الباشا انما يعيش فى وسط شعب لم يكن يتوسع ولا يرغب فى شىء من الادارة الاوتوقراطية . ونحن نعلم ان الحاكم الاوتوقراطى هو دائما بمعزل عن شعبه . على ان محمد على لم تكن تفصله عن شعبه سلطته الغير المحدودة فحسب ، بل كانت تضاف اليها سياسته ونواياه . ولهذا قال مرة للدكتور بورنج الذى هبط مصر لوضع تقرير عن سير الحركة التجارية فى سوريا ومصر ما معناه « ارجو الا تحكموا على اعمالى بمقاييس المعارف عندكم بل ينبغى ان تفرقوا بينى وبين ما يخيم حولى من الجهل المطبق ، فبينما توجد لديكم طائفة من الاذكياء النابهى الذكر لا اكاد اجد حولى من يفهمنى ويعمل على تنفيذ اوامرى ، وكثيرا ما يخدعنى الناس وأنا اعلم انهم يخدعوننى . ولست أعدو الحقيقة اذا صرحت أننى كنت وحيدا طيلة حياتى أو على الاقل الشطر الاكبر منها . » وكان يظهر فى خلال حكم محمد على من اعمال صالحة من صنع الباشا نفسه دائما وبالعكس كانت الاعمال السيئة فى الاغلب من عمل اشخاص اضطر الى استخدامهم لعدم وجود من يفوقونهم علما وذكاء . وقد كانوا من الموظفين الذين لا يتعففون عن ارتكاب الموبقات لاشباع شهواتهم فى الحصول على المال . والى هذه الحقيقة اشار الباشا مرة فى حديث له اذ قال : « عندما هبطت أرض مصر كانت البلاد بربرية

وهمجية لاقصى حد وهى لا تزال كذلك ليومنا هذا على اننى برغم ذلك مازلت ارجو أن تكون أعمالى قد حولتها الى احسن مما كانت عليه ، فلا ينبغى أن تجزع اذا لم تجد فى هذه الاقطار شيئا من المدنية المعروفة فى الاقطار الاوربية ... » (١) .

فى الحقيقة ان ثلاثين سنة من حكمه قد أحدثت فى البلاد انقلابا سياسيا معدوم النظير ولكن لا يفوتنا ان جيلا واحدا لا يكفى لتترك آثار دائمة ونتائج ثابتة .

٢ — على المستوى الاقتصادى :

يقول هنرى دودويل فى هذا الصدد : « ان معظم مظاهر النشاط الصناعى قامت على أساس فكرة سقيمة (٢) مختلة ولذلك سرعان ما دب دبيب الفشل فى المصانع العديدة فاهملت الاتها وتركت اجزاؤها المتحركة (...) وان الباشا انفق ما لا يقل عن اثنى عشر مليونا من الجنيهات على هذه المصانع وعلى الآلات التى جهزت بها وقد ذهبت كل هذه الاموال سدى » .

أما الدكتور محمد فؤاد شكرى (٣) فيقول ان المصانع لم تزد شيئا من موارد البلاد وكان من الاحسن لو استخدم ذلك القدر نفسه من رأس المال فى الزراعة وجهود العمال فى الشئون الفلاحية، وكان محمد على يبرر تصرفاته بما لجأت اليه الدول الاخرى من تقدم ورقى ضاربا الامثال بانجلترا وفرنسا تاييدا لحجته ، هذا الى ان المساوىء التى تنجم عن ادخال الصناعة تسرا اقل فى مصر منها فى بلد آخر لان الخسارة تقع على عاتق الخزانة لا على عواتق المستهلكين .

ويضيف قائلا بان المصنوعات الاجنبية كانت ترد الى البلاد بعد ان تدفع ضريبة آسمية قدرها ٣ ٪ ولكن الضريبة فى الواقع

---

(١) هنرى دودويل المصدر السابق ص ٢١٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٤٤٥ .

كانت اقل من ذلك كثيرا مما يفسر ان مصنوعات مصر كانت تباع بنفس السعر المنخفض الذى تباع به المصنوعات الأوربية ٠

ولا بد من الاشارة هنا الى ان المنسوجات القطنية هى وحدها التى عادت بالضرر على الواردات حيث ان انجلترا انقصت مقدار ما ترسله من هذه الاصناف والانواع الواطئة منها خاصة ، اما انواع الموسلين الهندى وكانت شائعة الاستعمال فيما مضى أصبحت أنذارك لا يرد شىء منها ٠

وكم حاولت انجلترا بواسطة مبعوثها ان تقنع محمد على بتخليه عن سياسته الصناعية فيقصر اهتمامه على الارض الزراعية تاركا امور الصناعة ان حذقوا اسرارها ٠ وكان محمد على يدرك ان مؤسساته الصناعية تكلفه كثيرا لاسباب وعوامل مختلفة منها ما يتعلق باستحالة اتخاذ وسائل الحماية التى عرفتها الامم المستقلة فى دور التصنيع ، فقد كان مقيدا بالرسوم الجمركية التى حددتها المعاهدات التجارية بين الباب العالى والدول الاوربية ٠

على كل ، لا بد من ذكر التاثيرات التى طرات على اقتصاد البلاد بفعل سياسة التصنيع بما فى ذلك الزراعة والصناعة التقليدية وكذلك على التجارة ، ذلك لان مشروعات التنمية الاقتصادية فى الزراعة والصناعة لا بد ان تكملها سياسة تجارية نشيطة ترمى الى (تتجير) الزراعة من ناحية وحماية الصناعة المصرية من ناحية أخرى ٠

فعلى المستوى الزراعى لم تعد الزراعة مقصورة على انتاج المواد الغذائية اللازمة للسكان وانما أصبحت تنتج المواد اللازمة للنهضة الصناعية الحديثة كما تنتج فائضا من المواد يصدر الى الخارج فيجلب النقد الاجنبى الى داخل البلاد مما يعين على زيادة مقدرتها الشرائية وعلى تمويل المشروعات الكبيرة التى بدأ تنفيذها ، وبذلك خرجت الارض المصرية من النطاق المحدود الذى فرض عليها حتى القرن ١٩ وهو اعاشة الناس واداء مرتبات الجند الى نطاق اوسع فتصبح

الدعامة القوية للتجارة الخارجية والصناعات فى مصر فتحولت مصر بذلك من النظام الذى يقوم على التخصص والانتاج لسوق أوسع نطاقا ، وهى السوق المصرية عامة والسوق الخارجية ايضا ٠

ويذكر الجبرتى (١) فى حوادث جمادى الاولى سنة ١٢٣٢ هـ الموافق لسنة ١٨١٧ انجاز الحكومة لعمارة السواقى فى مكان ملائم لغرس اشجار التوت بهدف تربية دودة القز واستخراج الحرير فيقول: « انشأ الباشا عمارة السواقى بالارض المعروفة براس الوادى بناحية شرقية بلبيس قيل انها تزيد على الف ساقية ، وهى سواقى دواليب خشب تعمل فى الارض التى يكون منبع الماء فيها قريبا واستمر الصناع مدة طويلة فى عمل آلاتها عند بيت الجبجى ، وهو بيت الرزاز الذى جهة التبانة بمقرب المحجر وتحمل على الجمال الى الوادى هناك المباشرون للعمل المقيدون بذلك وغرسوا بها اشجار التوت الكثيرة لتربية دود القز واستخراج الحرير كما يكون بنواحى الشام وجبل الدروز » ٠

وكانت الحكومة تضع يدها على اكثر محصولات البلاد وخاصة المحصولات ذات الصلة بالاسواق الخارجية وحركة التصنيع ٠

أما على مستوى الصناعات الصغيرة فقد اثرت سياسة التصنيع الجديدة عليها تاثيرا سيئا بحيث امر محمد على بضبط وتقييد المشتغلين بها ورتب لهم المواد الخام اللازمة لعملهم ثم وضع يده على انتاجهم بعد اتمامه فاصبحوا اجراء بعد ما كانوا أصحاب عمل وكذا الشأن بالنسبة للفلاحين والفلاحات فى القرى الذين كانوا يعملون فى الغزل ، ومما ساعد محمد على على تنفيذ سياسة الضبط بالنسبة للصناعات الصغيرة انحلال الطوائف التى كانت تدعم النظام الصناعى فى المدن ٠

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى – المصدر السابق ص ٥٥٥ ٠

لم تعد الصناعات التقليدية قادرة على تلبية الحاجات الجديدة والأذواق الجديدة للمجتمع المصرى فى تطوره السريع فى القرن ١٩ ولم تعد قادرة على الصمود لمنافسة المصنوعات الاجنبية بانتاجها الجمعى واثمانها الرخيصة .

٣ - على المستوى الاجتماعى :

جرت تغييرات هامة فى الحياة الاجتماعية فى مصر بفضل انفتاح مصر على العالم الاوربى أيام حكم محمد على كما هو معلوم الذى حكم فى الفترة ما بين ١٨٠٥ الى ١٨٤٩ حيث كان يتطلع الى الاستفادة من منجزات الغرب العلمية والتقنية فى إنشاء جيش واسطول حديثين ، الامر الذى كان يتطلب تغييرا جذريا لمجمل حياة المصريين ، وقد جرت تحولات معينة تحت التاثير الاوربى واساسا فى المعيشة والملبس والاساليب خاصة للذين تسنى لهم اكثر من غيرهم مخالطة الاوربيين، وفى هذا الصدد يقول كلوت بك (١) « منذ وقت معين اخذ الكثيرون من الوجهاء فى محاكاة الاوربيين حتى فيما يتعلق بتناول الوجبات الغذائية (...) واخذوا يستعملون صحوننا واكوابنا وفى السنوات الاخيرة ظهر الكثير من اثاثنا فى بيوت الوجهاء والأثرياء » .

فى الواقع أن الاصلاحات عملت على نقض كثير من الامور المألوفة العتيقة والمساس بالعادات والخزعبلات المتاصلة وتحميل الشعب اعباء جديدة ، وحسب كلام كلوت بك فان الشعب لم يكن منصرفا عن المساعدة فى تنفيذ الاصلاحات وحسب ، بل كان يعارضها بشتى الوسائل ، وكان الناس يسعون الى مقاومة تعليم الاطفال فى المدارس العلمانية التى افتتحها الباشا والتى كانت بدعة بالنسبة للمصريين ، وأما الذين ساعدوا محمد على فى تحقيق الاصلاحات فقد كانوا فى غالبيتهم يفعلون ذلك على غير ارادتهم ، وكانوا يخدمون الباشا شخصيا وكانوا خداما له .

---

(١) آن ريفلين الفكر الاجتماعى والسياسى الحديث ترجمة بشير السباعى ١٩٧٨ ص ٢٤ .

كان المصريون ينظرون الى تلك المصانع ، كما ينظر الانسان الى كارثة نزلت بساحته ، ولما كانوا يعتبرونها سجونا لا اقل ولا اكثر ، فقد امتنعوا عن العمل بها واضطر الباشا الى استخدام القوة حتى يجمع العدد الكافى من الايدى العاملة ، كما صار يستخدم فى هذه المصانع صغار السن ممن لا يصلحون للخدمة فى الجيش ، ولم تكن النساء بمنأى عن الصناعة اذ كانت توزع على القرويات مقادير معينة ويضيق به ذرعهن فقد كن يعمدن الى شتى الحيل للتخلص منه ولو ادى الامر الى احداث عاهات فى ايديهن • على ان اشتراك النساء فى الجهد الصناعى لم يقف عند حد العمل فى المنازل ، فقد كان فريق منهن يشتغل فى المصانع الى جانب الرجال تحت اشراف دقيق • .

اما عن حالة العامل فى المصنع فقد ذكر محمد فؤاد شكرى (١) • تقريرا لاحد المهندسين الميكانيكيين الانجليز كتبه فى فبراير سنه ١٨٣٨ : « ... اذا رفض الرجال العمل فالسوط حاضر ، ومن ثم كانوا يمضون الى عملهم والحقد يملا صدورهم ، وفى كل مصنع يشتغل به ٥٠٠ عامل ما لا يقل عن خمسة اشخاص او ستة ينهمكون على الدوام فى البحث عن الغائبين ، وعلى الرغم من شدة تيقظهم فقلما يتكامل العدد قط » ويستمر فى حديثه قائلا بأن مدير اى مصنع لا يهمه ان تزيد اجور العمال أو تنقص كما لايهمه توفر المواد الضرورية فى المصنع أو عدم توفرها ، فكل ما يشغل باله انما هو مرتبه وتفادى توجيه اللوم اليه ، كما ان العامل لا يلقى أى تشجيع لذلك يستوى لديه أن يؤدى عمله أداء حسنا أو سيئا ، يذهب الى عمله فاتر الهمة وكل ما يعنيه ان يقترب الليل حتى يغادر المصنع •

وفى راى لوتسكى (٢) ان سياسة التصنيع الجديدة عملت على خلق طبقتين متناقضتين ، طبقة متضررة تتمثل فى البروليتاريا الصناعية وطبقة مستفيدة منها تتمثل فى الطبقة التجارية التى كانت

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣٤ •

(٢) لوتسكى - تاريخ الاقطار العربية الحديث ترجمة دكتوره عفيفة البستانى ص ٦١ ، ٦٢ •

ملتزمة ابتيـــاع البضـائع المحتكرة بالجملـة وجباية الضرائب ، يقـول لوتسكى : « وكنتيجة لانشـاء عـدد كامـل من المشــاريـع الصناعيـة الكبيرة والمتقدمـة بالنسبة لذلك العهـد ، ظهـرت لاول مـرة فى مصر البروليتاريـا الصناعية » ٠

وكان العمـال المصريون يعيشـون فى ظروف صعبة جـدا عن اخوانهم الاوربيين ، وكان المصنع المصرى بتنظيمـه الداخلى يذكـر الى درجـة ما بالعمـل اليدوى الاقطاعى وحتى بالقـرى العسكرية ذات النظــام الحديدى ٠ وكان العمـال المرتبطون بالمصـانع منظمين فى فصـائل وسرايا وكتائب وهم يخضعون الى امراء وملزمون باجراء التمارين العسكرية بعد الانتهـاء من العمـل وكانوا يعيشـون فى الثكنـات ويعملون فى الثكنات ويعملون فى المصـانع نتيجة التجنيـد الاجبارى ويستلمون اجورا زهيدة ، وتشير معطيات ميزانيـة عـام ١٨٣٣ الى ان مصروفـات الجيش كانت قـد بلغت ٢٨ مليون فرنك ونفقـات محمـد على الشخصية ٣ر٥ مليون بينمـا دفـع لنفقـات المصـانع واجور العمـــال ٢ر٧٥ مليون فرنـــك لا اكثـر

وفى الوقت الذى كانت فيه الاحتكـارات تحكم على الفلاحين والحرفيين بالجوع ، كانت تدر بايرادات طائلة على الحكومـة المصرية متيحـة لها امكانية تشكيل جيش جديد ، كمـا اغنت التجار الذين التزموا ابتيــاع البضـائع المحتكرة بالجملة وجباية الضرائب ٠

واصبح الكثيرون من الفلاحين والحرفيين غير قادرين على تحمـل الظلم الظالم فتمردوا ولاذوا بالفرار الى سوريـا المجاورة الا أن الحكومة المصرية تمكنت من استعادتهم » ٠

فى نظرى انه يجب ان ناخـذ آراء لوتسكى بكثير من الحـذر حيث نراه يبالغ حينمـا يقول بان مصروفـات الجيش ونفقـات محمـد علـى تفوق بكثير ما كان ينفقه على المصـانع واجور العمـــال ، صحيح ان حكمه كان مطلقـا وهـذا عيب كبير فى سياسته لكن الدافـع الذى دفعه الى اللجوء الى مثـل هـذه السياسة هو عـدم وعى الشـعب المصرى ٠ بالخدمة الوطنية ونفوره من الاصلاحـات ٠

اما عن الاحتكارات فقد رأى فيها خير وسيلة لتحتين نظام اقتصادى متطور يفتح له بابا جديدا للربح ولم يكن يهدف ابدا الى تجويع الشعب المصرى وشراء الطبقة التجارية باعتبارها الطبقة الوحيدة التى استفادت من الاحتكارات ، وقد راينا ان محمد على انفق كل ما فى الخزينة من اموال بهدف انشاء المصانع باعتبارها الطريق الوحيد الذى يوصل الى التقدم والرقى الذى تشهده الدول الاوربية ففى رأى محمد على ان الشعب الذى يريد الثراء يتعين عليه ان ينتج بنفسه كل ما هو فى حاجة اليه حتى يستغنى عن الواردات الاجنبية •

- اما محمد فؤاد شكرى (١) فيقول بان السياسة الجديدة عادت على المصريين بمكانة رفيعة ومكاسب مادية ولكنهم لم يرتقوا الى مستوى الفهم لافكار خدمة الوطن ، ومع ذلك فان تعزيز اقتصاد البلاد ومبادرات محمد على الثقافية وسياسته التوسعية الناجحة وما الى ذلك قد غرست فى أفئدة انصار الجديد التزيهين الذين كانوا يتميزون باتساع مداركهم بالنسبة الى عصرهم والذين لا شك فى أنهم كانوا لا يزالون قلة ، غرست فيهم بذور الوطنية المصرية التى سرعان ما انتجت بواكير النزعة القومية •

على أى حال ، جنت مصر من وجود الاوربيين اجل الفوائد ، وليس الأمر مقصورا على ما أدوه من خدمات مباشرة بما لديهم من علم ودراسة ، فان المامهم الواسع بجميع ما ادخل من ضروب الاصلاح ، اشاع نوعا من التسامح ازاء تلك الآراء التى اخذ أثرها ينتشر انتشارا سريعا بين الشعب •

وصحيح انه كان من النتائج التى اسفر عنها انتشار العلم والخبرة بالآلات بين المصريين انهم اخذوا يعتقدون انهم اصبحوا فى غنى عن مساعدة الفرنجة وان ما تعلموه منهم كان لتمكينهم من السير وحدهم وان شيئا قط لا يمكن أن يعوق تقدمهم المطرد ولكن ليس هناك ما هو اوهى أساسا من هذه الفكرة ، ذلك بانه على الرغم من نشوء

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٢٨ •

طبقة من العمال تستطيع أن تدير المصانع الهامة تحت اشراف الاوربيين فان كل ما تم سوف يسرع اليه الخراب والدمار اذا تركوا وشأنهم ، وقد أجريت هذه التجربة فى كثير من المصانع انتهت بنتائج وخيمة ذلك بانهم لم يستطيعوا احراز ما تتطلبه الادارة من كفاية واستعداد، ففيهم ذكاء ولديهم استعداد للعمل تحت اشراف من يفوقهم علما ومعرفة ولكنهم يفتقرون افتقارا شديدا الى تلك التفوق العلمى الذى تستلزمه ادارة المشروعات الكبرى ادارة رشيدة .

على كل ، فقد نتج عن الاصلاحات حدوث تغيير فى الآراء المألوفة ويتمثل ذلك فى الموقف الجديد من الفلاح والذى نجده عند محمد على بحيث أمر المدير العام للمانيفاتورات بتحسين معاملته : « لا ينبغى الاستهانة بالفلاح كما لو كان عدوا ، فاننا كلنا مدينين برفاهيتنا للفلاح وحده ، ولذا ينبغى توفير اسباب الراحة له ورفع اجوره كى يعمل برضى » (١) .

ومحمد على باعرابه عن رايه هذا يبدو انه كان فى مستوى أرقى من مستوى الاقطاعيين المصريين بل وغير المصريين .

وقد ترتب على الاصلاحات ان انجذب الى التعليم الفلاحون والحرفيون فقد كانوا يوفدون الى الخارج للتعليم وكانوا يقبلون فى المدارس فتشكل من بينهم جيش واسطول حديثان ، وهكذا اتجه العامة الى المعارف وان كان ذلك على غير ارادتهم .

الصناعة المصرية بعد عصر محمد على

هبطت الصناعة المصرية كثيرا بعد وفاة الوالى نتيجة لتغيير الرسوم الجمركية والتى فتحت باب التجارة للسلع الاجنبية التى غزت الاسواق ونافست الصناعة المحلية حتى قضت عليها او كادت ، فتحولت الصناعات

---

(١) هـ . أ ريفلين — المصدر السابق ص ٣٠ .

الكبيرة الى صناعات صغيرة ، وهجر العمال مصانع الدولة بعد اغلاقها وشرعوا ينشئون مصانع صغيرة تفتقر الى رؤوس الاموال .

واستمر هذا الركود فى عصر سعيد الذى اهتم بالانتاج الزراعى ، وبتحسين حالة الفلاح ، والقاء العبء عن اكتافه برفع الضرائب المتأخرة عليه وزيادة حقوقه فى ملكية الارض . وقد اعرض سعيد باتجاهه هذا عن الصناعة ، فلم يهتم بها ، ولم يشجعها التشجيع الذى يبعث فيها الحركة والنشاط .

ــ واستمر ركود الصناعة المصرية فى بداية عصر إسماعيل ، ولكن إسماعيل حاول محاولة ثانية النهوض بها ، وسلك فى توجيهاته طرقاً ساعدت على هذا النهوض ، بيد انه كان محصوراً فى دائرة ضيقة لم تسع كما كان الحال فى عصر محمد على . فقد توسع اسماعيل فى زراعة قصب السكر بعد ان هبطت اسعار القطن بعد انتهاء الحرب الاهلية الامريكية واقام المصانع بالوجه القبلى لصنع السكر وتكريره ، وبذل فى بنائها واعدادها اموالا كثيرة ، وجلب لها المهندسين من الخارج، ودرب المصريين على ادارتها ، وقد ارتفعت كميات السكر المصدرة الى الخارج ، غير ان الحكومة وجدت أن هذه المصانع تستدعى انفاق الكثير من الاموال لانها كانت فى طور الانشاء ،و كانت الازمة المالية قد استحكمت ، فاضطرت الى الغاء كثير منها .

كما لجأ اسماعيل الى احياء كثير من الصناعات التى اندثرت بعد وفاة محمد على كمصانع دبغ الجلود فى الاسكندرية ومصانع الورق ، الا ان هذا النشاط الذى دب فى عصر اسماعيل ظل متأثرا بالتعريفات الجمركية التى تركت الباب مفتوحا للمنافسة الاجنبية ، فقضى على الكثير من الصناعات .

وبعد عصر اسماعيل استمر ركود الصناعة ، حتى اذا ما جاء الاحتلال البريطانى خضعت الصناعة للسياسة التى رسمها الانجليز ؛ وهى ان تظل مصر بلدا زراعيا وسوقا للصناعات البريطانية (١) .

---

(١) دكتور أمين مصطفى عفيفى ـ تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ـ الانجلو ١٩٥١ ص ١٠٠ .

تطور الزراعة فى مصر
فى عصر محمد على

فى اواخر القرن الثامن عشر كانت الزراعة فى مصر تسير على طريقة الالتزام ، وكان الالتزام عبارة عن ضيعة أو قرية أو عدة قرى تسلمها ادارة الروزنامة بالنيابة عن الحكومة لشخص ما ، بعدما تتفق معه على الثمن ، أو أن يتقدم باكبر عطاء اى بالمزايدة فيعجل الملتزم بدفع ضريبة الارض كلها او بعضها على سنة أو أكثر ، فى حين يتولى هو بنفسه جمع الضرائب من الفلاحين بمساعدة سلطات الحكومة وغالبا ما كانت « توجه الروزنامة أيضا خطابا الى اعيان وسكان الضيعة تطلب فيها من الفلاحين طاعة الملتزم وان يدفعوا له قيمة الضرائب المحددة فى شروط الحجة » (١) .

وهكذا يتضح لنا أن ملكية الدولة للارض أصبحت خلال القرن الثامن عشر شكلية فقط ، اذ أصبح الالتزام فى الظاهر شبيها بالملكية الخاصة ، وان لم يكن فى الواقع للملتزمين سوى حق الانتفاع .

اما الفئة التى كانت تحتكر هذا النظام فهم بعض الموظفين الاتراك ومشايخ العرب بالصعيد الا انه « فى اواخر القرن الثامن عشر كان أكثر الالتزام يعطى لاعضاء من البيوت الملوكية » . (٢) فازداد نفوذ هؤلاء وتقوت شوكتهم وكثرت مظالمهم فادى جشعهم المتزايد الى الشطط فى فرض الاتاوات وجباية الضرائب دون رقابة أو قيد أو ادنى حماية لحقوق الفلاح ، فغدوا بذلك اصحاب الحكم المطلق فى اطار التزاماتهم .

هذا ولم تكن هناك قاعدة اساسية متبعة لتوزيع اراضى الالتزام بين الناس بالقسط ، بل كان الحق لمن كثرت ثروته وعظم جاهه واستطاع إن يقدم أكبر قسط من المال .

---

(١) دكتور عمر عبد العزيز — دراسات فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر ص ١٨٧ .

(٢) دكتور عبد العزيز الدورى — المصدر السابق ص ١١٥ .

وبهـذا انقسـم الشعب المصرى الى فئتين ، فئـة قليلـة تمثـل الطبقة الحاكمـة وتتركب غالبـا من المماليك والملتزمين الذين تركزت ثروة البـلاد بيدهم ، وفئة عريضـة تمثـل الطبقـة المحكومة ، وتتكون من ابنـاء الشعب المصرى وقـد كانت هـذه الطبقـة الاخيرة تتالف من عـدة فئات اجتماعيـة اذكـر منهـا التى تهمنـا هنـا بالخصوص وهى طبقـة الفلاحين •

وضعية المزارعين والزراعـة قبل مجىء محمد على الى الحكم :

لقـد كانت حالة المزارعين مزرية جدا نظرا لمـا كانوا عليـه من الفقر والجهل والاضطهاد ، ولمـا عانوه من جراء نظـام الالتزام الـذى اصبحوا بموجبه عبارة عن اداة سهلة بين أيـدى الملتزمين يسيرونهم وفق ارادتهم •

أمـا حالة الزراعـة فكانت هى الاخرى فى تدهـور مستمر « وتأخـر بسبب حرمان البلاد من منشات الرى والصرف تضمن استخدام ميـاه النيل وتوزيعهـا » (١) بصورة جيدة والاهمـال دائمـا يؤدى الى الضـيـاع ، وذلك ما حدث بالفعـل ، فقـد طغت الرمال وطمسـت كل ما تبقى من منشآت الرى القديمـة فجفت الترع والقـنـوات ، وانطمرت المجارى المـائيـة الصغيرة (٢) فضاعت بضياعهـا واتلفت مسـاحات شـاسعة من الاراضى الصالحة للزراعـة •

ومما يوضح لنـا مدى أهمية هـذه المجارى المائيـة هو ان أرض مصر الزراعية سقوية ، ففلاحتهـا اذن تتوقف بالخصوص على ميـاه نيلهـا العظيم وعلى مدى وكيفيـة وطـرق استخدام هـذه الميـاه ، فكلمـا كـان استخدامهـا جيدا كان الانتـاج جيدا والعكس بالعكس •

ومما زاد الطين بلـة حرمان اهـل البلاد من حكومـة منصفـة تضمن لهم الاستقرار وترعى مصالحهم وتوطـد لهم الامن ، اذ بانعـدام هـذا الاخير لا يمكن لايـة أمـة ان تزدهـر فى ظل الخوف ، فهـو اذن شرط اساسى

(١) عبد الرحمن الافعى ـ المصدر السابق ص ٥٢ •
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٥ •

من شروط التقدم والرقى ، وهذا ما عبر عنه الدكتور عبد العزيز الدورى بقوله : « وتاسى الفلاحون من عبث القبائل ومن تعديات عصابات الجنود للذين عجزت الادارة عن تمويلهم ففرضوا أنفسهم على العلاج بالملتزم » (١) .

وادام هذه الاوضاع المزرية والظروف القاسية لم تجد الغالبية العظمى من الفلاحين بدا من الفرار من الظلم والهجرة الى البلدان القريبة من مصر أو الى باقى مدن القطر وقد كانت النتيجة المحتومة لن اندثرت قرى بكاملها « واقفرت من سكانها جهات كالفيوم التى اشتهرت بخصب ارضها ووفرة خيراتها » (٢) .

كل هذا حدث وعيون الحاكمين والمسئولين غافلة عما يجرى فى البلاد وعن الحالة السيئة التى اضحت عليها .

ويصور لنا المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى فى كتابة « عجائب الآثار » حالة الفلاح المصرى فى اواخر القرن الثامن عشر فيقول . « كان اذا تأخر الفلاح فى دفع الضريبة جروه من شنبه وبطحوه وضربوه بالنبابيت رجال الملتزم ، هذا عدا ما كان يراه من عسف الصراف النصرانى من مماطلة فى استخراج ورقة الخلاص ، وكذلك الشاهد والشاويش الذين كانوا يسومونه انواع العذاب » فمن خلال تعبير الجبرتى هذا يتضح لنا جليا الى اى حد بلغت سيطرة الطبقة الاقطاعية على الفلاحين . وبالتالى يمكننا أن نستنتج دون عناء كيف سيكون رد فعل هؤلاء المزارعين الذين يقومون بزراعة الارض رغما عنهم فطبعا سيكون هنا المحصول ضئيلا جدا وذلك نظرا لمشاعر الفلاح واحساساته ، لأنه يعلم مسبقا ان هذا المردود مهما بلغ فان نصيبه منه لا يكاد يكفى حتى متطلباته اليومية ، بل كثيرا ما امتدت يد الطغاة حتى الى هذا النصيب الضيل نفسه .

وفوق هذا وذلك فقد اثقل الملتزمون كاهل الفلاحين بالضرائب سواء منها المشروعة أو غير المشروعة والمفروضة أو الاختيارية .

---

(١) دكتور عبد العزيز الدورى ـ المصدر السابق ص ١١٦ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٥ .

فحتى « المضاف » و « البرانى » التى كانت فى بادىء الأمر ضرائب اضـافية اصبحت بمرور الوقت تجبى بانتظـام مع الضرائب المقررة (١) . أى بصفة رسمية اجبارية ونقدا ـ اذ فى الاول كانت تجبى عينا .

وكان الفلاحون فى الواقع مرتبطين بالارض وكان يقـع على عاتقهم عبء ضرائب كبيرة كالعشر أو الخـــراج والضرائب مقـابل استخدامهم للمراعى الصيفية والشتوية واستخدامهم أيضا للطواحين .

وهكذا ومن خلال كل ما تقدم نلاحظ أن وضعية الفلاح كانت وضعية يؤسف لها ، فهو لا يملك لا حق ملكيـــة الارض ، ولا حق التصرف فيما تنتجه لهـا ، فهو لا يملك لا حق ملكيــة الارض ، ولا حق التصرف فيمـــا

فانه كان مطاردا حتى وقت محاولته الفرار أو الهجرة الى حيث ترتاح نفسه ، وقد عانى فوق هذا وذلك من بعض مظاهر نظام الالتزام : كنظام السخرة داخل ارض الوسية « وقد استغلها الملتزم طوال احتفاظه بالالتزام لمساعدته على واجبات لالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وايواء المسافرين والموظفين وضيافتهم فى دائرة التزامه ، وكانت هـــذه الاراضى معفاة من الضرائب وفرض على فلاحى الجهة أن يعملوا فيهـــا سخرة للملتزم بلا اجـر ولا جزاء » .

فبعد أن قضى محمد على ادن على المماليك خلا له الجو فبسط سيطرته على جميع الاراضى التى كانت بايديهم .

ثم التجأ الى حيلة ثانية من أجـــل الغاء الالتزام ذلك أنه قبل أن يكشف عن عزمه فى الغائه طلب من سائر الملتزمين أن « يقدموا له كشوفا بارباحهم من التزاماتهم وهى التى تسمى بالفـائض أو فـائض الالتزام فظنوا أن الغرض من هذا الطلب عـــزم الحكومة على زيادة الضريبة التى يلتزمون بدفعها للحكومة فانقصوا قيمة هذه الارباح جهد مـا استطاعوا ، فاعتمد محمد على باشـا على هـذا الحسـاب » ، (٢) حيث منح للملتزمين

---

(١) دكتور عمر عبد العزيز ـ المصدر السابق ص ١٨٧ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ص ٦٢٢ .

رواتب سنوية تدفع لهم من ادارة الروزنامة تساوى مقدار ما كانوا يحصلون عليه من الاراضى الداخلية فى حوزة التزاماتهم واسترجع مقابل ذلك جميع الاراضى والاملاك الواسعة التى كانت تحت سيطرة الملتزمين ، معتبرا اياها ملكا له ولحكومته .

وان كان هذا العمل يدل على شىء فانما يدل فى الحقيقة على ذكاء ودهاء وعبقرية محمد على فى تنفيذ مشاريعه ومخططاته بصورة محكمة .

ومما سبق يتضح لنا ان علاقة الفلاحين بالحكومة اصبحت مباشرة دون الاعتماد على الملتزمين وأن سلطة هؤلاء وحقوقهم قد آلت الى محمد على رغما عن انفهم خصوصا بعد أن وزع منفعة هذه الاراضى على الفلاحين كأطيان مؤجرة وخول كل قادر على العمل زراعة ثلاثة أو اربعة أو خمسة أفدنة ، وبهذا تحرر الفلاحون نوعا ما من رق الالتزام ومظاهره السيئة وحق لهم بعد وقت طال أن يقولوا للملتزمين « انتم ايش بقالكم فى البلاد قد انقضت أيامكم احنا صرنا فلاحين الباشا » (١) .

وهنا يتبادر الى الذهن عدة اسئلة منها : ما موقف الملتزمين من هذا الاجراء ؟ ثم من المستفيد منه ؟ وبالتالى ما هو الهدف منه ايضا ؟ .

هنا سيكون رد فعل الملتزمين سلبيا بالطبع ، كرد فعل أى انسان حرم من أسباب النعمة فجاة كى يعيش عيشة التقشف والكفاف الشىء الذى لم يحلم به الملتزمون يوما ما ، وهذا ما يؤكده محمد فؤاد شكرى بقوله « وقد تصايح الملتزمون بالشكوى منذ البداية حين استبانوا ان الباشا يريد ابطال الالتزام والاستحواذ على الارض » (٢) .

ولتبرير موقفه ، فقد استند محمد على فى دعواه الى قرار او فتوى تقول بأن مصر فتحت عنوة ولم تسلم او تخضع صلحا مما يترتب عليه أن تصبح الحكومة صاحبة الحق فى الملكية . (٣) فلا احد اذن ينكر ان

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠٧ .
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٣٠
(٣) نفسه ص ٢٩ .

مصر فتحت بحد السيف شـــأنها شـــأن جميـــع ممتلكات الامبراطورية العثمانية الا أن هذه الحجة ليست قاطعة ، انما اراد محمد على أن يسكت بها أفواه الملتزمين ويضع بالتالى حدا لصياحهم وشكاويهم ٠

ولقد كانت معارضة الملتزمين بالوجه القبلى أشد ضراوة من الوجـــه البحرى نظرا لمكانتهم الاجتماعية ، ونفوذهم المرموق - فمعظمهم من ســـلالة المماليك ورؤساء العشائر - ولهذا لم يذعنوا الا تحت قوة الســـلاح ٠

أما المستفيد من هذا الاجراء أو النظام الجديد فهو محمد على بالطبع لأنه استطاع أولا وقبل كل شيء أن يقضى على (الطبقة المالكة)آنذاك اى الملتزمين ، هـــذا بالاضـــافة الى ان تلك الرواتب قـــد اصبحت ضئيلة اذا ما قورنت بمـــا كانوا يحصلون عليه من قبل من التزاماتهم ، وبما انها لم تكن وراثية ايضـــا فقـــد نقصت وتقلصت قيمتها بمـــرور الزمن نظرا لتقلص الحاصلين عليها ٠ وعلاوة على هذا فان بعض ملتزمى الوجه القبلى قـــد « حرموا من ميزة (الفائض) واضطر بعضهم الى الهجرة ، ونزع محمـــد على أملاكهم وأضـــافها الى مجموع الاراضى الزراعية التى اعتبرها ملكا لـــه » (١) ٠

والجدير بالذكر أن الغاء الالتزام لم يمس الا طبقة معينة قليلة العدد اى الطبقة المسيطرة فقط ، لان مجموع الامة أو القادة الشعبية كانت تتألف فى غالبيتها العظمى من الفلاحين ومن باقى الفئات الدنيا الاخرى من امثـــال الصناع والحرفيين وغيرهم ٠

وهناك بعض المؤرخين من امثال الرافعى يـــرى « ان الغـــاء الالتـــزام مع عدم تقرير حق الملكية لا يمكن ان يعد اصـــلاحا ، بل هو ابعد ما يكون عن الاصلاح » ويستشهد على ذلك بقول المسيو مانجان المؤرخ المعاصر وهـــو صديق لمحمد على « أن التعديلات التى ادخلها الباشا فى نظام الملكية لم تكن متفقة مع الصـــــالح العام ، فلا هو احترم الملكية الفردية ولا هو اعترف بها ٠٠٠ فالغاء الالتزام مع عدم انشاء الملكية الفردية معناه الغاء الملكية

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٢٥ ٠

وامتلاك الحكومة جميع الاراضى المزروعة » (١) ٠

وعلى العموم فان هذا التغيير الجديد فى نظــام الملكية لم يكن فى بادىء الأمر مخالفا لنظام الالتزام ، الذى كان يسمح بحق الانتفاع مدى الحياة فقط دون السماح او الاعتراف بالملكيــة الفردية المطلقة لرقعة الارض المستغلة ، الا انه بعد سنة ١٨٤٢ بدأت الملكية العقارية تحت ظل محمـد على تتخـذ وجها آخـر حيث بدأت تظهر هناك فئة محدودة العدد من الملاك الكبار استولت على أجود الاراضى الزراعية ، وقد كانت تتكون من الاسرة الحاكمة ومن الموظفين السامين الذين تفانوا فى خدمتها ومن بعض الاثرياء ورؤســـــاء القبـائل ٠

وربما يرجع سبب تأخير ظهور هـذا النوع من الملكية الفردية ، الى تأنى محمد على ريثما يوطد اركان سلطته كى لا يثير القلاقل حـوله ، او ربما انه أيضا « لم يسمح فى بادىء الأمر بتكوين ضياع خاصـة حتى لا يؤدى ذلك الى قيـام طبقـة مالكة تتحدى سلطته » (٢) ٠

ولهذا فهو لم يعترف بالملكية الخاصة الا بعد ان استتب له الأمر فى الداخل والخارج وضمن لاسرته حكما وراثيا داخل مصر اثر معاهدة لندن ســـنة ١٨٤٠ ٠

وأيا كان الأمر متبعا لظهور هذا النــوع من الملكية الفردية ، يمكن القول انه الى جانب استفادة محمد على من الغاء الالتزام ، فقد استفادت طبقة محظوظة أخرى من أمثال مشــــايخ البلاد وأعيانها وكبار الموظفين وأفراد الاسرة المالكية الذين كان يريد من وراء اختيارهم أن تدين له وحده بثرواتها وقوتها مستوحيا فى ذلك تجـربة نابليون وبعض الحكـــام الأتوقراطيين المعاصرين ٠ وهذه الطبقة الصاعدة هى التى سيزداد وضعها الاقتصادى والاجتماعى تحسنا يوما بعد يوم الى ان بدأت تتجه بالنظـام الزراعى نحو الرأسمالية ٠ وهى التى سيدخل معها المصريون ابان الثورة

---

(١) المصـــدر نفســـه ص ٦٢٤ ٠
(٢) دكتور عمر عبد العزيز ـ المصدر الســـابق ص ١٩٣ ٠

العرابية فى مواجهة حاسمة ومعركة فاصلة ، نظرا لازدياد نفوذها وامتيازاتها ومشاركتها فى شئون الحكم ، بل ومآزرتها لكل حكومة جائزة تخـــدم مصـــالحها .

وقد كان هدف محمد على الاول والاخير من وراء الغاء الالتزام والسيطرة على كافة الاراضى هو احتكار جميع الموارد الاقتصـــادية والمردودات التى تغلها هذه الارض ولتسهيل هذه المهمة فقد قام محمد على بعملية هى :

مســح الاراضى وتنظيم الضرائب :

لما صار محمد على باشــا المالك الوحيد لاغلبية الاراضى الزراعيــة (أراضى الالتزام - أراضى الوقف - بعض أراضى الأوسية) لأن بعضها الآخر اضطر محمد على أن يبقيه تحت ايدى عناصر معينة من الملتزمين وأن يسمح لهم باستثماره طيلة حياتهم دون ضريبة يؤدونها ثم ترجع ملكيته بعد مماتهم الى الحكومة وربما يرجع سبب اتخاذه هذا الاجراء الى اقبال بعض الملتزمين على وقف اطيان الوسية حتى لا يحرم خلفهم من ريعهـــا ماداموا لا يملكون سوى حق منفعتها فقط ، قام بمسح هذه الاراضى كلهـا « وذلك هو (التاريخ) المشهور الذى بدأ بعمله سنة ١٨١٣ وعهد به الى ابنه ابراهيم بك (باشـا) ومعه المعلم غالى بصفته رئيس المساحين ، وتعد دفاتر التاريخ التى أمر محمد على بوضعها من اهم أعماله العمرانيــة وفيها مساحة اطيان القطر المصرى المزروعة وحدود كل أطيان البلاد وأحواضهـا ومساحة كل بلد ومســـاحة الاراضى المستعملة للمنافع العمومية كالترع والجســور والطرق والمدافن » (١) .

وقد كان هدف محمد على من هذا المسح هو اولا تثبيت صحة ملكية كل ارض ، ثانيا مصادرة كل قطعة وجد ادلتها منعدمة أو مشبوهة أو غير كافية . وبعد هذا قام محمد على « باعادة تسجيل الارض باسم اهل القرية وجعلهم مسئولين عن دفع الضرائب للحكومة مباشر » (٢) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٦٢٦ .
(٢) دكتور عبد العزيز الدورى - المصدر السابق ص ١١٦ .

ومن هنا يتضح لنا أيضا أن هدف محمد على الثالث هو تسهيل مهمة جمع الضرائب ، اذ أنه لم يكن لها قبل عهده أى أسـاس ثابت ، ولهذا فبعد ان راجع هذا النظام ، واعاد النظر فى شأنه فرض ضرائب جديدة ، وصـار الفلاحون اثرها يتعاملون مع الحكومة مباشرة ، وهكذا أخذوا يعرفون على الأقل ما عليهم أن يدفعوه لها من مـال سنويا .

وقد « منح مشايخ البلاد عن كل مائة فدان من زمام البلد خمسـة أفدنة لا يدفعون عنها ضريبة مقـابل خدماتهم للحكومة وايواء من يحضر اليهم من الموظفين ، وقد سميت هذه الاطيان (مسموح المشـايخ) أو مسموح المصطبة ، على أن معظم هؤلاء المشايخ ساءت تصرفاتهم واستبدوا بتسخير الفلاحين فى خدمة اراضيهم وكثرت شكاوى الناس منهم » .

ومسموح المشايخ هذا كثير الشبه بالاوسية ، الا أن ارض الوسـية كانت خدمتها واجبة على الفلاح طبقا لنظام السخرة على حين أن تسخيره اليوم بعـد الغاء الالتزام يعـد اكثـر جورا وظلما .

وقد رتب محمد على الضرائب تبعا لقيمة ونوع كل مساحة ، ومدى قربها أو بعدها عن نهر النيل ، هذا مع مراعاة العوامل الجغرافية والطبيعية والبشرية ايضـا . وهكذا جعل لكل فـدان او قطعة ضريبة خاصة ومحدودة .

وقد كان فى البداية « يستشير العلمـاء فيمـا يفرضه من ضرائب (١)، الا أنه لم يحترم هذه المبادىء ، اذ بمجرد أن تخلص من نفوذ العلماء وخصوصا السيد عمر مكرم ، خول لنفسه السـماح بفرض ما يشـاء من الضرائـب والاتاوات كلما شعر بأزمة مالية . وكم كان احتياجه الى المال كبيرا نظرا لكثرة حملاته وحروبه فى الخارج واصلاحاته العمرانية فى الداخل ، وباسم هذه الظروف وباسم هذه الازمة الاقتصادية أيضا كان يعدل من سـعر الضرائب من حين لآخر قصد الزيادة فى قيمتها .

وقد كان لنظام الضرائب عواقب وخيمة على الزراعة والزراع ، حيث هرب كثير من الفلاحين فأخلوا قرى باكملها نتيجة لتراكم الضرائب عليهم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٦٢٧ .

وبالتالى عجزهم المستمر عن ادائها . ولمعالجة الموقف فكر محمد على فى ايجاد حل له وذلك بفرضه « نظام العهد ، وذلك أنه عهد الى بعض لاعيان والمأمورين ورجال الجهادية ان يكون فى (عهدتهم) جباية ضرائب بلاد بأكملها ، على أن يكونوا مسئولين عن الدفع من مالهم الخاص اذا لم يجبوها ... على أن مركز الفلاح ازاء (المتعهد) لم يكن مما يغبط عليه لأن المتعهد بما التزم به من اداء الضريبة كان يسخر الفلاح لاطماعه لأنه يعتبر نفسه كالدائن الذى يسدد عنه دينه » ومما لا شك فيه ان هذا النظام الجديد لا يخلو من مخلفات ورواسب الالتزام وذلك لما للنظامين من اوجه الشبه .

ومما سبق يتضح لنا أن الحكومة قد زادت من تعميق شقاء الفلاح وظلمه لا لشىء الا لأنه لا يملك مالا وليس من الاثرياء . وياليت شقاءه وقف عند هذا الحد ، بل لم يكن له حتى حق الهجرة ، وهو ادنى ما يمكن للانسان أن يفعله للهروب من الجور والتعاسة اذا ضاق به الحال .

وهذا ما أكده عبد الرحمن الرافعى نفسه بقوله « وكانت الحكومة ملزمة اذا هجر الفلاحون بلادهم أن تعيدهم اليها حتى يستوفى المتعهد منهم ما دفعه عنهم وفى هذا من مطاردة الناس وارهاقهم ما لا يغيب عن البال (١) فبدلا من أن نمد لهم الحكومة ـ تلك الحكومة التى كانوا بالامس القريب يدعمونها بكل الوسائل وبشتى الطرق يد الرحمة والمساعدة وتخرجهم من محنتهم منها هى اليوم وبكل ما اوتيت من قوة تتنكر لهم ، وتساهم بدورها فى زيادة عذابهم ، وحرمانهم . والحديث عن الضرائب يطول اذ لم تكن فى عهد محمد على تشمل الاراضى المزروعة فقط ، بل لقد كانت هناك ضرائب أخرى زادت من شقاء الطبقة الكادحة كضريبة الدخل أو الضرائب المفروضة على المواشى ، وقوارب النقل والصيد بل حتى على بعض الأشجار وكالنخيل .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٦٢٩ .

وضعية الفلاح فى ظل حكم محمد على :

على ضوء كل ما سبق نستنتج ما يلى : أن وضعية الفلاح بالمقارنة لما كانت عليه ايام حكم الامراء المماليك لم تتغير تغييرا جذريا ، وانما كان التغيير الذى طرأ عليها طفيفا للغاية .

وهذا التغيير الطفيف تجلى بوضوح فى سياسة التجنيد ، لأن نوع وأسلوب الحياة ظل تقريبا كما كان عليه ايام المماليك حتى اليوم الذى استحدث فيه محمد على سياسة تجنيد قوات أسطوله وجيشه الجديدين من بين صفوف الفلاحين .

وقد كان لهذه السياسة الجديدة المتعلقة بتجنيد الاهالى اثر بالغ الاهمية على حياة الفلاحين ، حيث انهم وجدوا عاملا ومبررا آخر للهجرة الى جانب العامل الاول المتمثل فى فداحة الضرائب وقسوة الحكام - وهو ذعرهم ثانيا من الانخراط فى الخدمة العسكرية .

واذا كنا نعلم ان الخدمة العسكرية واجب وطنى مقدس يجب على كل مواطن حر ابى يقوم به ، فاننا ولا شك سنتعجب من هروب المصريين ومن اتباعهم لساليب كثيرة ومتنوعة للتهرب من التجنيد ، وخاصة الفلاحين منهم اذ كان يهجرون بيوتهم أو وطنهم أو قراهم ، بل لقد بلغ بهم الحال الى حد تشويه اجسادهم على أن يخضعوا ويستسلموا لعنف محمد على وينخرطوا فى الجندية .

لكن لا غرابة ولا ملامة فى ذلك اذا كنا نعلم ايضا ان « الرشوة والمحسوبية كانت توفر للاثرياء او ذوى النفوذ فرصا لشراء اعفائهم من التجنيد » . (١) وكأن التجنيد هنا ليس بواجب وطنى ، وانما هو امر مقصور فقط على طبقة الفلاحين وكافة الطبقات الكادحة ، اى التى لاتستطيع

---

(١) دكتور هـ . ريفلين - الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن ١٩ ترجمة دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٢٩٤ .

تقديم اى بدل نقدى مقابل اعفائها من هذه المهمة • هذا بالاضـــافة الى الطريقة التى كان يجمع بها هؤلاء •

وهذا ما عبر عنه الجنرال بوليه Boyer أيضـا سنة ١٨٢٦ بقوله : « أن وادى النيل هو وادى للصفوة وان عـــددا كبيرا من الفلاحين يهاجرون الى سوريا ، وهو الشىء الذى أثر بصورة سلبية على النشـــاط الزراعى » •

وقد كان والى عكا عبد الله باشا يمنح هؤلاء اللاجئين المصريين ارضا بعد ما حرموا منها داخل وطنهم الأب ويعفيهم من مهمة اداء الضرائب لمـدة ما يقرب من ثلاث سنوات أو أكثر •

وقد طالب محمد على بعودة هؤلاء الفلاحين الفارين الى مصر ، لا حبا فى رجوعهم الى وطنهم وديارهم ، بل لازدياد حاجته الملحة اليهم اذ أنـه وجد فى يوليو عام ١٨٣١ أن ربع اراضى الصعيد تقريبا يتعذر زرعها لعدم وفرة العدد اللازم والكافى من اليـد العاملة فى هـذا الميدان •

فما كان عليه والحالة هذه الا أن يصدر أوامره الصـارمة الى بعض موظفى حكومته بمحاصرة جميع الفلاحين الهاربين الى مدينة الاسكندرية وارغامهم بالقوة على العودة الى قراهم تحت حراسة مشددة « أما أولئك الذين لم تكن لهم قرى أو أقارب فكانوا يجندون فى الجيش أو الاسطول أو الورش » • هـذا اتخـذ الباشـا من هجرة الفلاحين الى سوريا ذريعـــة لغزوهـا فيمـا بعـد •

وتذكر الدكتورة هلين أن نفور الفلاحين من الخدمة العســكرية قد بلغ مداه حتى أن الامهات على حد تعبيرها كن يشـــوهن أطفالهن حتى لا يجبرون على التجنيـد (١) •

هذا والى جانب عامل الهجرة وعدم الاستقرار والاضطهاد المستمر ، فان الفلاح المصرى لم يستفد أيضا من الاصـــلاحات الضخمة والتغيرات

---

(١) المصـــدر الســـابق ص ٢٩٦ - ٢٩٧ •

التى ادخلها محمد على على الميدان الزراعى بالقدر الذى استفادت منه الحكومة .

فاذا كانت الاراضى قد انتزعت فعلا من يد عدد كبير من الملتزمين ، فلكي تصبح اخيرا فى قبضة ملتزم واحد وهو الباشا ، الذى كان يتصرف فيها كيفما شاء ويسلمها لمن شاء دون ادنى قيد أو رقابة ، حيث بلغت المساحة المعفاة من الضرائب على عهده خلال سنة ١٨٤٤ ، ٥٥٩ر٢٠٥ر١ فدان وهى موزعة كالتالى :

الأشخاص المالكين لها	مساحة الاراضى بالفدان
محمد على	٠٠٠ر١٢٠
ابنه اسماعيل	١٠٠ر٩٨
افراد اسرة الوالى	٠٠٠ر٧٥
الضباط الاتراك وكبار الموظفين والمحاسبين	٥٥٩ر٢١٢
المجموع	٥٥٩ر٢٠٥ر١

وهكذا يتضح لنا أن التغييرات التى استحدثها محمد على فى حيازة الاراضى الزراعية لم تكن اصلاحات حقيقية ، لأنه استولى على الارض من المجموعات المالكة السابقة ، وأعاد توزيعها على مؤيدى واتباع النظام الجديد ، وبهذا اذن كان نظامه الجديد قريب الشبه بنظام الالتزام الذى الغاه من قبل (١) .

وهكذا استفادت فئة قليلة العدد ، اما الطبقة الكادحة من المزارعين فقد بقيت وضعيتها هى هى ، فكما كان الفلاح بالامس القريب يعانى من نظام الالتزام وقواعده الجائرة ، فها هو اليوم فى ظل حكم محمد على يعانى ايضا من سوء تصرف الحكام والمسئولين ومن فداحة الضرائب والقروض .

---

(١) دكتور عمر عبد العزيز - المصدر السابق ص ١٩٥ .

وعلاوة على حرمانه من حق ملكية الارض تقد حرم كذلك من حقه فيما تغله ، اللهم الا ذلك النذر اليسير الذى كان لا يكفى حتى لسد حاجاته ومتطلباته اليومية نتيجة لمساوىء الاحتكار ٠

ومما يؤكد كل هذا هو وصف المسيو مانجان لحالة الفلاح فى ذلك العهد بقوله : « اذا صح أنه لا يوجد فى العالم بلاد اغنى من مصر من الوجهة الزراعية فليس ثمة بلاد أخرى أتعس منها سكانا ، واذا بقى فيها العدد الذى بها من السكان (سنة ١٨٣٢) فالفضل فى ذلك انما يرجع الى خصوبة ارضها وقناعة فلاحها » (١) ٠

تطوير منشآت الرى :

تاتى مياه النيل فى فصل الفيضان كل عام غزيرة متدفقة وتنساب الى البحر دون حاجز يحجزها أو أدنى انتفاع بها ، وهى فى طريقها اليه قد تسبب فى اتلاف المحصولات وهلاك النسل ، بل غالبا ما كانت تكاد تصيب البلاد بالغرق ، ولهذا كانت تهدد القرى والمدن وتزرع الرعب فى قلوب الاهالى ، فى حين انها تاتى فى فصل الصيف من الشحة لدرجة أن الزراعات القائمة قد تحتاج ولو الى قطرة واحدة منها فلا تجدها ٠

ومن هنا كان الاهتمام بمنشآت الرى ومن هنا أيضا نشأت فكرة تشييد القناطر والجسور والخزانات والترع والسدود وغيرها من الوسائل التى من شأنها أن تحافظ على مياه النهر من الضياع ٠ وقد نالت هذه المنشآت اهتمام المصريين القدماء الفراعنة والرومان وغيرهم ممن تعاقب على حكم مصر ٠

فحياة مصر اذن مرتبطة ارتباطا وثيقا بوادى النيل ودلتاه التى لا تتعدى مساحتها فى المجموع اربعة بالمائة من مساحة القطر المصرى ٠ اذ كل ما يتبقى من الاراضى فهى عبارة عن صحارى جرداء ، الشىء الذى يجعل

---

(١) عبد الرحمن الرافعى – المصدر السابق ص ٦٦٨ ٠

من مناخ مصر مناخا جافا قليل الامطار شديد الحرارة ، وبهذا كانت هـذه الظروف المناخية القاسية من أكبر دواعى الاعتناء بشبكة الرى ٠

ومن الدوافع الاساسية التى جعلت محمد على يعتنى بشبكة الرى . هو أن المساحة المزروعة كانت قد تقلصت بصورة ملحوظة قبيل دوليــه منصة للحكم فحلت الصحارى محل المزروعات فى مناطق شاسعة ، فأدى ذلك الى تضعضع اقتصاد البلاد نتيجة تدهور المردود ، هذا بالاضافة الى انخفاض النقل النهرى كما ونوعـا ٠

اما فى عصره فقد نال القطاع الفلاحى على يده عناية فائقـة لم يسبق له أن نالها على يد من سبقه من الحكام المماليك ٠

هذا وان كان الاعتناء بشبكة الرى تراثا مصريا قديما قدم النيل فالجديد فى تلك الحقبة الزمنية هو التوســع الملموس لنوع متطـور من التقنية ، ونعنى بذلك الشبكة العميقة التى تمكن من ازدهـار الزراعـــات الصيفيــة ٠

ولم يكن غرض محمد على من الاهتمام بالزراعة وما يتعلق بها من وسائل الرى تحسين أحوال الفلاحين والرفع من مستواهم المعاشى ، انمـا كان يهدف من وراء ذلك الى جعل الانتاج الزراعى السلعى هو السائد على الانتاج الاكتفائى ، امـا فيما يخص نمو الســـوق الداخلى للبلاد فقد جاء كنتيجة حتمية تابعة لهذه العملية فقط اذ وجهت المحصولات الزراعيـــة الجديدة نحو التصدير طبقا لنظام الاحتكار ٠ وهكذا خطت الزراعة المصرية خطوة سريعة نحو المستوى الانتاجى العالى فى ذلك العصر الذى بدا فيـــه تقدم تقنى آخر وهو ايصـــال الماء أو صرفة بواسطة الترع والجســـور أو السواقى أو الرفع من مستواه عن طريق بناء وتشييد القناطر ســـواء منها الصغرى أو الكبرى ٠

السدود فى عهد محمد على :

لقد انشأ الشعب المصرى فى ظل محمد على عدة جسور منها :

ـ السدود التى تم انشاؤها على شاطىء النيل من جبل السلسلة الى البحر المتوسط والتى كان الغرض منها حجز مياه النيل فى مجراها الطبيعى حتى لا تطغى على الضفتين فتسبب الخسائر للناس •

ـ السدود التى تم انشاؤها على الحياض ، والتى كان الغرض منها صد الامواج عنها •

ـ واخيرا السدود التى أقيمت على الترع ، اذ كان لكل ترعة من تلك الترع جسران لحفظ مياهها •

الترع :

لقد شقت فى عهد محمد على ترع كثيرة فى سائر المديريات سواء فى الوجه البحرى أو القبلى ، وقد كان الباشا يعنى بتطهيرها والحفاظ عليها بالترميم من حين لآخر • وهناك من يقدر هذه الترع بأربعين ترعة منها الكبيرة مثل الفرعونية وترعة المحمودية ، ومنها الصغيرة كترعة الشنهورية أو ترعة الرمادى •

سد ترعة الفرعونية :

يتفق كل من عبد الرحمن الرافعى ومحمد فؤاد شكرى على أن سد الفرعونية كان من أول أعمال محمد على والسبب فى ذلك أن المياه كانت تتسرب من هذه الترعة اثناء الصيف الى فرع رشيد فيجف فرع دمياط وتقل مياهه العذبة نتيجة لذلك فتطغى عليه بالتالى مياه البحر التى تختلط ملوحتها بما تبقى بهذا الفرع من مياه فتفسدها وتجعلها غير صالحة للزراعة • ولو فكر الاهالى فى اقامة سدود ترابية على النيل لمنع مياه البحر الملحة من دخول فرع دمياط لهان عليهم الأمر ، ولكن هذا لم يكن شائعا عندهم فكانت النتيجة المحتومة ان تضررت محصولات الارز بهذه الجهات بعدما حرمت من مياه الرى العذب « وقد شكا أهلها على توالى السنين ما

تجلبه عليهم هذه الترعة من المضار ، » (١) ولهـذا صدر امر من طرف الباشا لاغلاقها فى عام ١٨٠٥ بسد منيع من الحجارة ليحجز تدفق مياه فرع دمياط الى فـــرع رشـــيد ٠

وقد تابع اهتمامه بـــه فكان يتعهده بالترميم كلما دعت الضرورة ، واقام ترعا اخرى كى تعوض جهات البحيرة ما كان يصلها من ماء من ترعة الفرعونية قبل اغـلاقها ٠

هذا وقد افاد سد فم الفرعونية افادة كبيرة فى زراعة محصول الارز الذى كان متقدما بالدقهلية ودميـــاط والذى كان محصولا تصديريا منذ العهـد العثمـــانى ٠

شـــق ترعة المحمودية :

كانت رغبة محمد على فى الحصول على الاموال هى التى جعلته يفكر بجدية فى الاستفادة من مركز مصر الجغرافى وموقعها الاستراتيجى الهام، فأراد بذلك احياء طريق التجارة بين مدينة الاسكندرية وباقى مدن البلاد الداخلية لما فى ذلك من ارباح مهمة للخزينة ، فأمر بحفر ترعة المحمـودية عـــــام ١٨١٨ ٠

وترعة المحمودية هى ترعة الاسكندرية القديمة أو خليج الاشرفيـــة، نسبة الى الاسكندر المقدونى الذى قام بحفرها خلال القرن الرابع قبـــل الميلاد كى يمـــد مدينته الجديدة الاسكندرية بالمياه ، أو نسبة الى الملك الاشرف برسباى الذى أعاد حفرها ٠ الا أن هذه الترعة لم يلبث تراكم الردم بالرمـــال أن طمست معالمها من جديد « فجفت فكان لا يدخلها الماء فى معظم السنين الا فى وقت زيادة النيل ، ثم تجف باقى الســـنة ، وفى مدة زيادة النيل اى فى شهر سبتمبر من كل سنة تصل مياهها الى الاسكندرية فيملأ أهلها الصهاريج ليجدوا منها حاجتهم من الماء طول السنة وكان أهل الاسكندرية

---

(١) لمزيد من التفصيلات : انظر على شافعى بك ـ اعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد محمد على الكبير ـ الجمعية التاريخية ١٩٥٠ ٠

يحتفلون بمجىء ميــاه الترعة وخزن الماء فى الصــهاريج ويبتهجون لذلك ابتهــاجا عظيمــا » •

وهكذا انعزلت الاسكندرية وانحطت مكانتها التجارية القديمة وتقلص عدد سكانها نتيجة لذلك ، فذهب الكثير من عمرانها كما فقدت تلك القيمة التى كانت لها أيام حكم البطالمة ، اذ كانت عروس المدائن من غير منازع ، ومركز تجارة العالم ، وقد بدأت فى التأخر والاضمحلال منذ تحــول طريق تجارة الهند بأكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وزاد الفتح العثمانى من تعميق هذا التأخر وبقى الحال على ما هو عليــه حتى عهد محمد على الذى أعاد فتح ترعة المحمودية متخذا من قرية العطف فتحة لها بعد أن كانت فيما مضى تأخذ مياهها من الرحمانية الواقعــة على النيل وتمر بين بحيرتى مريوط وابو قير الى ن تصل الى الاسكندرية •

وقد تطلب حفر هذه الترعة مجهودات جبارة ومتاعب كثيرة وضحايا لا تحصى ، وفى هذا يقول عبد الرحمن الرافعى ما نصه « ويكفيك لتعرف مبلغ الضحايا التى بذلت فى هذا السبيل ما كتبه فى هذا الصدد المسيو (مانجان) الذى كان شاهد عيان لحوادث مصر فى ذلك العصر ، فقد ذكر أنه مات من الفلاحين الذين اشتغلوا فى حفر ترعة المحمودية اثنا عشر الفا فى مدة عشرة أشهر وان هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتى الترعة تحت اكداس التراب الذى كانوا يرفعونه من قاعها ، وقال أن معظمهم مات من قلة الزاد او المؤونة أو من الاعنات فى العمل وكذلك من سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من الجنود القساه المنوط بهم حراستهم فقد كانوا يجبرونهم على العمل المهلك بدون انقطاع ولا هوادة من الفجر الى الليل » (١) •

وقد بلغ عدد المشتغلين فى حفر هذه الترعة ما يقرب من ٤٠٠ر٠٠٠ من الفلاحين جمعوا من مختلف المديريات ، ووصف لنا المؤرخ المصرى الجبرتى الكيفية البشعة واللا انسانية التى كانوا يجمعون بها من طرف المسئولين فى حوادث شهر شوال ١٢٣٤ هـ فى (ربع عشرة) أى فى ٦ اغسطس سنة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ــ المصدر السابق ص ٥٧٤ •

١٨١٩ حيث يقول : « وكان الباشا سافر الى جهة الاسكندرية بسبب ترعة الاشرفية ، وأمر حكام الجهات بالارياف بجمع الفلاحين للعمل فأخذوا فى جمعهم فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المركب » الشىء الذى يدل على أن هؤلاء الفلاحين لم يكونوا يذهبون عن طواعيه واختيار انما كانوا مجبرين على ذلك . وبهذا كانت الزراعة تتعطل ولا تجد من يقوم باعبائها ، لكن هذا لم يعف الفلاحين ولو مرة من تقديم المال للباشا اثر عودتهم لحقولهم وقت الحصاد ، بل بالاضافة الى ذلك المال كان عليهم أنّ يقدموا له كيلة قمح ومثلها من الفول وحمل بعير من التين .

هكذا يتضح لنا أنه اذا كان الجندى المصرى هو الذى ساهم فى اعادة بناء دولة مصر بما حققه من انتصارات رائعة وبطولات فى الخارج رفعت من شان مصر بين الامم ، فان الفلاح المصرى هو الاداة الاساسية واللبنة الصلبة التى ارتكز عليها بنيان صرح مصر ، هذا فى الوقت الذى ظلت فيه حقوقه مهضومة .

فحفر ترعة المحمودية اذن كان الثار التى كان وقودها الفلاح المصرى الصبور ، فى حين حملت الترعة اسم السلطان العثمانى محمود الثانى تيمنا به ، وكانه هو الذى ساهم بدمه وعرقه أو بفلذات كبده فى بنائها .

وقد كانت « جريدة الوقائع المصرية » هى الاخرى بدلا من أن تصف مجهودات الفلاحين وما يقع على عاتقهم من اعباء وما يبذلونه من جهد يفوق طاقاتهم الجسمانية فى بناء القناطر والجسور ، وشق الترع ، وما يلاقونه من ظلم تكتفى آخر المطاف بنشر مقالات مزيفة ومشوهة للحقائق تصف فيها كفاح حكومة محمد على وسهرها المستمر على تقدم وعمران مصر . وفى هذا الصدد يقول ابراهيم عبده « والوقائع المصرية ... هى الميدان الفسيح لمدحه « اى الباشا) والثناء عليه ، وهكذا تعطى الوقائع المصرية بمقالاتها واخبارها صورة للحكومة العادلة القادرة المجددة » (١) .

---

(١) دكتور ابراهيم عبده تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ - ١٩٥١) ط ٣ القاهرة ص ٣٣ .

هذا ويبلغ طول ترعة المحمودية ٨٠٢٥٢ مترا ، اما نفقات حفرها فتقدر بـ ٣٠٠ الف جنيه حسب تقدير كلوت بك ، واما المهندس الذى كلف بانجاز تصميم حفرها فهو المهندس الفرنسى كوست Coste وقد ذكر الجبرتى انتهاء حفر الترعة فى حوادث ربيع الاول سنة ١٢٣٥ هـ (ديسمبر ١٨١٩) وانهى ما كتبه بقوله : « ورجع المهندسون والفلاحون الى بلادهم بعدما هلك معظمهم » .

واحتفل بفتح الترعة لدخول مياه النيل الى الاسكندرية فى ٢٤ يناير سنة ١٨٢٠ وذلك بمحضر الباشا وابنه ابراهيم وبعض اقربائه الآخرين .

ولم يكن هدف محمد على من فتح هذه الترعة تسهيل الملاحة بين مختلف اقاليم القطر وجهة الاسكندرية ، أو توفير الماء الكافى لاهالى تلك المنطقة فحسب ، وانما كان البشا يريد على ما ذكره عبد الرحمن الرافعى « احياء الاراضى الزراعية فى مديرية البحيرة . وقد كانت هذه المنطقة قبل تشييد الترعة عبارة عن صحراء جرداء من منبع الى مصب الترعة ، لا يسودها اخضرار ولا ينبت فيها زرع ، الا انها سرعان ما تحولت بعد تدفق مياه النيل اليها ، فاخذت الحياة تدب فى ارجائها طولا وعرضا » .

وقد زار المارشال (مارمون) هذه الجهات سنة ١٨٣٤ فاستوقفه ما شاهده من الحدائق الغناء المنشاة بعد فتح ترعة المحمودية ، وكان يعرف حالة الاسكندرية وضواحيها مذ كان قومندانا للثغر فى عهد الحملة الفرنسية فاستطاع ان يدرك الفارق العظيم بين حالتها القديمة وما اوجدته الترعة بها من العمران والتقدم .

فمن خلال هذه الفقرة يتضح لنا اذن انه بعدما لم يبق من الاسكندرية القديمة سوى الاسم أواخر القرن الثامن عشر والاطلال والخرائب ، لما آل اليه سكانها من الفقر والحاجة ، تحولت فجاة بعهد فتح الترعة الى مدينة آهلة بالسكان مسترجعة بذلك نضارتها وعظمتها التى فقدتها منذ قرون خلت .

فمن ناحية المواصلات ، صارت السفن والبواخر المصرية المعدة للملاحة النهرية لا ينقطع جريانها بين الاسكندرية ودمنهور وبعض المناطق الداخلية عبر هذه الترعة . وهى محملة بمختلف حاصلات البلاد فازدهرت حركة التجارة نتيجة لذلك ازدهارا عظيما ، واصبحت البضائع تصل فى مأمن من كل خطر من أخطار الملاحة .

أما من ناحية العمران ، فقد اتسعت رقعة المدينة وعمرت مساحات شاسعة واراضى كثيرة على جنابى الترعة ، هذه الترعة التى كانت سببا ايضا فى رقى اقليم البحيرة واحياء راضيه اذ ساعدت مياهها على الاكثار من التشجير والحدائق والبساتين الغناء . ومما يؤكد هذا ما ذكره عبد الرحمن الرافعى بقوله : « فحيثما ذهبت تجد معالم العمران المترامى مداه وتلمح دلائل الحياة والنشاط والتقدم مرتسمة على كل ما يقع عليه نظرك من مشاهد الطبيعة والخلائق » ، ويضيف قائلا واذا سرحت الطرف فى تلك المناظر البهجية فاذكر ان الفضل فى ذلك العمران يرجع لمن حفروا بايديهم ترعة المحمودية وبذلوا مهجهم وارواحهم حتى جرى ماء النيل فى تلك النواحى حاملا الى ... الناس ... عناصر الخصب والحياة » (١) .

ولم يكتف محمد على بانشاء الترع فحسب بل اقام عليها القناطر لضبط مياهها وضمان كيفية توزيعها على احسن وجه ، وقد تعددت هذه القناطر بتعدد الترع واهمها القنطرة الكبرى على بحر مويس بالزقازيق ذات العيون التسع ، لكنها لا تصل كلها الى مكانة القناطر الخيرية التى تعد بحق من اعظم منجزات ذلك العصر (وان كان انجازها لم يتم بصورة فعلية الا بعد ذلك) .

القناطر الخيرية :

لقد كان نظام الرى المتبع حتى مجىء محمد على هو رى الحياض الذى يعتمد بالدرجة الاولى على مياه الفيضان . وبهذا كان لا يساعد

---

(١) على شافعى بك - المصدر السابق ص ٢٨ - ٣١ والرافعى ص ٥٧٦ .

على اقامة الزراعات الصيفية ولا يسمح بزراعة الارض الا مرة واحدة خلال السنة فقط ، وبهذا كانت الزراعة السائدة حتى ذلك الحين هى الزراعه الشتوية ، اما الصيفية فكانت لا تزرع الا على شواطىء النيل أو ضفاف الترع المتفرعة عنها

فعمل محمد على على ادخال نظام الرى الصيفى تدريجيا وذلك بالاكثار من حفر الترع وتطهيرها مما كان يرسب فى قاعها من الطمى كل سنة ، واقامة القناطر عليها ٠

هذا وقد كان لهذه القناطر نتائج جد هامة اذ سمحت بانتشار زراعة القطن على نطاق واسع بالوجه البحرى ، وغيره من الحاصلات الصيفية التى كانت تنمو نظرا لوفرة المياه لريها وقت الجفاف كزراعة الأرز وقصب السكر ٠

فلما راى الباشا فوائد هذه القناطر اخذ يفكر فى وسيلة اخرى تمكنه من ايصال المياه اللازمة الى الاراضى المزروعة بالوجه البحرى أيام الجفاف ، فاقترح عليه المهندس الفرنسى لينان دى بلفون Linant de Bellefonds اقامة قناطر على فرعى النيل قرب تفرعهما ٠

والراجح ان مهندسى الحملة الفرنسية كانوا اول من خطرت ببالهم فكرة انشاء القناطر لحجز المياه للاستفادة منها فى رى الاراضى وقت الحاجة ٠ وقد دون ذلك نابليون بونابرت فى مذكراته حيث قال : « انه لو اعطى لى الوقت الكاف لانشأت من الاعمال ما يكفل عدم ذهاب قطرة واحدة من مياه هذا النهر الى البحر دون ان تكون هذه المياه قد مرت من قبل بالارض حتى ترويها وتهىء لها قدرا موفورا من الخصب » (١) ٠

الا ان الاراء تختلف حول من يكون صاحب الفكرة الاولى فى انشاء القناطر ، فكلوت بك يرى فى كتاب (لمحة عامة الى مصر) انه من المقطوع به ان المهندسين الذين كانوا فى خدمة الباشا اطلعوه على

---

(١) على شافعى بك ـ المصدر السابق ص ٤٧ ود ٠ فؤاد شكرى ص ٤٤ ٠

المشروع الذى جــال بخاطر مهندسى الحملة الفرنسـية والابحاث العلمية التى قاموا بهـا توطئة لتنفيذه ٠

فى حين يرى لينان باشا انه لــم يكن لدى محمـد على اى علـــم او دراية بمـا قاله نابليون ، وهـذا الراى كمـا يظهـر يناقض ما اعترف به كلوت بك واكـده ٠

وسواء اكانت الفكرة من وحى محمـد على حقـا أم لــم تكن ، فانـه على كل حال قد أصـدر اوامره فى أواخر عام ١٨٣٣ للبدء فى العمل حسب التصميم الذى قدمه (لينـان باشـا) كبير مهندسيه وبانى ومرمم قنطرتى اللاهـون القديمـة وقنطرة بجـر شبين ، الا ان العمـــل سرعـان ما اوقف بعـد قليل وبقى على تلك الحالة حتى سنة ١٨٤٢ حينما استؤنف من جديد تحت اشراف المسـيو موجيـل Mougelç الذى قـدم للباشـا تصميمـا جديدا يختلف عن تصميم المسيو لينان الذى كان يرى اقامة القنـاطر على الارض اليابسـة بعيدا عن فرعى النيـل ، واختـار لتطبيق مشروعـه قطعتين بين ملتويين ملتويـات من ملتويـات فـرعى النيـــل حتى اذا تم انشـاؤهـا حول الفرعين اليهـا بحفـر مجريين جديدين ٠

أما مشروع موجيـل فيقتضى اقامـة القناطر مباشرة فى حوض النهـر على القطعة التى بجانب قمة الدلتـا المعروفـة ببطن البقـرة ، حيث يتفرع فرعـا النيـل : الاول فى اتجـاه رشـيد ، والثانى فى اتجـاه دمياط ٠

والحقيقة انه كان فى التخلى عن مخطط لينـان وهو العـالم والعارف باحوال الرى فى مصر خسـارة كبيرة على البلاد لا يمكن حصرهـا ليس فقط من ناحيـة مصاريف اصلاح القناطـر من حين لاخر او استبدالهـا ببناء قناطر أخرى جديدة على احـدث الطرق ، بـل من ضياع الفرصـة على مصر للاستفـادة من زراعـة القطن طويل التيلة ، هذا بالاضـافة الى المتاعب الكبرى اثنـاء عمليـات حفر الاساسـات وما يتبعهـا من مشـقة وارهاق للناس ٠

هذا وعلى الرغم من أن بعض الباحثين ادعوا أن بنـاء قناطر كبرى من هذا النوع يتطلب نفقـات باهظة فى حين تبقى فوائدها ومدى نجـاحها امرا يثير الاستفهـام ، فان القناطـر قـد اقيمت على النيـل وعادت بالنفع العميم على البلاد واهلهـا ، وتم تنفيذ مشروع موجيل بمساعـدة المهندسين المصريين المتخرجين من البعثات التعليميـة مصطفى بهجت باشـا ومظهر باشـا .

ووضـع محمـد على الحجر الاساسى للقنـاطر الخيريـة فى احتفال عظيم يوم الجمعـة ٢٣ ربيـع الثانى سنة ١٢٦٣ هـ ـ ٩ أبريـل سـنة ١٨٤٧ ، ولكن العمـل كان قد بدا قبل ذلك التـاريخ ، واستمر العمـل فى المشروع ولكنه سـار ببطء شـديد نظرا لما اعترى جهاز الحكومة من ركود أواخـر ايـام محمد على الذى مات قبل ان يتم المشروع الـذى تقلب فى عـدة ادوار قبل ان يتم فى أواخـر عهـد سعيد باشـا عام ١٨٦١ ، وقـد انشىء رياح المنوفية ايضـا فى عهده (١) .

وبعد ان تم بنـاء القناطر وجـد انهـا لم تات مكتملـة كمـا كان يرجى منهـا ، اذ حدث تصدع ببعض اجزائها ايـام حكم اسـماعيل فأدخلت عليهـا عـدة اصلاحات طبقا لآراء موجيل وكان قـد غادر مصر الى فرنسـا ـ وبهجت باشـا ومظهـر باشـا ثـم اعيـد اصلاحهـا مـرة ثانيـة فى العصر الحديث لتقويتها وقد رجعت الحكومة الى راى موجيل فى هذا الاصلاح. وجـاء مصر وكان قـد بلغ الخامسـة والسبعين من سنة فعينتـه الحكومـة مهندسا ومستشـارا للقناطر ، فتم الترميم اذن وفقـا لارشـاداته ، وبهـذا يكون موجيل قد عاصر القناطر منذ نشـأتها حتى اتمام بنائهـا .

وقـد بقيت القناطر الخيرية قائمـة تشـهد على قـوة وصلابة ارادة الشعب المصرى وعزمه ، وقـد نوه بعض الكتـاب بقيمـة هـذه القناطر ، ومن هؤلاء المسيو شيلو (Chelu) كبير مهندسى السودان المصرى ، والمسيو بارو ، السكرتير العـام لوزارة الاشغـال ، ننقـل رأيهمـا عن

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٥٨١ .

المؤرخ عبد الرحمن الرافعى (١) ويقول المسيو شيلو : « أن مشروع القناطر الخيرية كان يعد فى ذلك العهد انه اكبر اعمال الرى فى العالم قاطبة لان فن بناء القناطر على الانهار لم يكن بلغ من التقدم ما بلغه اليوم ، فاقامة القناطر الخيرية بوضعها وفخامتها كان يعد اقداما بداخله شىء من المجازفة » .

وقال المسيو باروا (Baroa) « أن هذه أول مرة اقيمت فيها قناطر كبرى من هذا النوع على نهر كبير » .

فعلى العموم وان كانت القناطر الخيرية آخر ما اختتم به محمد على منجزاته فى ميدان الرى ، فانها تعد بحق من عظم مشروعاته التى أقيمت فى هذا المجال وهى بهذا احدى الاسس الهامة التى يعتمد عليها الرى الصيفى بالوجه البحرى حيث ساهمت بقسط وافر فى توفير الرى الدائم لبعض المحصولات الصيفية كالقطن والارز وغيره ، الشىء الذى سمح بزيادة المساحة المزروعة زيادة ملحوظة ، وهذا ما كان محمد على يهدف للوصول اليه ، اذ قفزت من مليونى فدان فى عام ١٨٢١ كما قدرها كلوت بك الى ٣٫٨٥٦٫٠٠٠ فدان عام ١٨٤٠ (٢) .

وقد كان الباشا حتى حدود عام ١٨٣٠ يفتخر بانه ادخل ٣٨٫٠٠٠ ساقية فى اراضيه الخاصة ، وابتكر الكثير من الناس سواقى تدار بدون دواب واخرى تدار بقوة الهواء ، نظرا لقلة تكاليفها ، وقد استعمل ابراهيم باشا مضخات تدار بالبخار مما دفع ببعض الملاك الكبار الى تقليده فى ذلك (١) . كما دخلت الدورة الثلاثية عام ١٨٣٣ ، وظهرت الآلات الزراعية الحديثة المستعملة فى بعض المزارع النموذجية واقترن هذا ايضا بعملية انتقاء البذور الجيدة ، واستعمال الاسمدة المخصبة للاراضى ، واختبار مواسم الحصاد ، والعمل على الاحتياط

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨٢ .

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٤٧ .

(٣) ـ دكتور أحمد الحتة تاريخ الزراعة المصرية فى عهد محمد على الكبير ـ القاهرة دار المعارف ص ٢٧ .

من الافات والطفيليات التى تقضى على بعض المحصولات كدودة ورقة القطن أو الجراد ... الخ ، وتدعيم الارشاد الزراعى والتوعية . وعلى العموم فقد ادت هذه الظروف الملائمة والشروط المتوفرة الى زيادة المحصولات الزراعية (٢) .

توسيع نطاق الزراعة

لقد اولى محمد على مجال الزراعة اهتماما بالغا حيث عنى بهذا القطاع الحيوى عناية تستحق التقدير اذ عمل على ترقيتها وتوسيع نطاقاتها المحدودة وذلك بفضل ما ادخله عليها من تحسينات جذرية تستحق الذكر سواء فى مجال الرى كما تقدم أو مجال تطوير نوعية الانتاج أو المردود . وسنقتصر هنا على الحديث عن القطن .

اكتشاف القطن ذى التيلة الطويلة :

الى حدود سنة ١٨٢١ كان نوع القطن الذى تغله مصر من نوع ردىء وهو النوع الشائع ، الا انه خلال هذه السنة نفسها حدث انقلاب فى زراعته ، وذلك ان رجلا فرنسيا يدعى جوميل كان محمد على قد استدعاه من بلاده لتنظيم مصانع النسيج ، عثر صدفة فى حديقة احد كبار الحكام وهو محو بك بالقاهرة على شجيرة للقطن من الصنف الممتاز ذى التيلة الطويلة ، فنصح محمد على بتعميم زراعته على نطاق واسع بعدما كان زرعة حكرا على الحدائق الخاصة ونبهه الى أهمية هذا النوع .

« ويتراوح ارتفاع هذه الشجيرة بين ستة اقدام وسبعة وهى قادرة على الانتاج عدة سنوات متوالية ويزرع القطن فى الربيع ويمتد موسم الحصاد من سبتمبر الى فبراير (١) . وقد كان اكتشاف القطن ذى التيلة الطويلة مهما جدا لمحمد على ولتنفيذ سياسته ، اذ اقترن هذا الاكتشاف بهبوط أسعار القمح فى الاسواق العالمية خلال

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٤٧ .
(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى المصدر السابق ص ٣١١ .

الفترة الممتدة ما بين ١٨١٨ و ١٨٢٠ الشيء الذى جعل محمد على حاجة ماسة الى الاموال التي يسدد بها كل ما تتطلبه البلاد من مشروع اصلاحية كبرى كتعبيد الطرق وتسديد نفقات التعليم والبعث التعليمية المصرية التى ارسلها الى مختلف دول أوربا واقتناء الآلا الزراعية والصناعية الحديثة وجلب الاسلحة المتطورة ، هذا بالاضافة الى منجزات الرى الكبرى من شق الترع واقامة الجسور وبناء القنا وغيرها .

وقد كان الباشا يعى مدى خطورة هذا الوضع الاقتصادى ، و كان يتمنى ان يصنع القطن فى مصر البلاد المنتج عوضا عن ان يصد خاما للدول الاجنبية ، ثم يعود ثانية الى مصر منسوجات (٢) .

هذا وقد عمل محمد على على تشجيع زراعة القطن بكل الوسائل وبشتى الطرق ، فشجعه باعفاء أرضه من ضريبة الميرى أولا برفع ثمن شرائه . وقد اشار عبد الرحمن الرافعى الى هذا بقوله « وقد اقبل الفلاحون على زراعة القطن بعد ان راوا الحكومة تشتر القنطار من النوع الجيد بـ ١٧٥ قرشا ... وشجعت الحكومة زراعة القطن أيضا بما انشأته من السواقى فى القرى ، وبما فتحت من التر وأقامت من القناطر والسدود ، فتوافرت مياه الرى اللازمة لزراعته (٣) .

وهكذا فلم تكد تمض بضع سنوات حتى انتشر هذا النوع القطن الممتاز فى كافة انحاء القطر المصرى وصار يعرف باسم قطن محو بك ، نسبة الى صاحب الحديقة التى وجد بها اول مر أو باسم قطن جومل Jumle نسبة الى مكتشفه .

وقد بلغ اول محصول من هذا القطن عشرين الف بالة راجت سوق وأتت بربح كبير ، فاقبل الباشا على زراعته حتى بلغ محصو

---

(١) - دكتور أحمد عزت عبد الكريم - المصدر السابق ص ٢٤٩
(٢) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٥٨٥ .

هـذا النوع من القطن فى العـام التالى مائتى ألف بالة جـاءت بايراد بلغ ثلاثين مليونـا من القروش » ٠

وقـد ارتفعت صادراته ووصلت الى ٢٠٠٫٠٠٠ قنطـار عام ١٨٢٤ ثم الى ٣٤٥٫٠٠٠ قنطار عـام ١٨٤٥ ٠ ويقـول المسـيو مانجـان ان الحكومة انقصت سعر مشترى القطن حوالى سنة ١٨٣٧ ممـا حدا بالفلاحين الى التراخى فى زراعته و « علاوة على هـذا فقـد كان لعمليـة التجنيد آثارا وخيمة ايضـا على محصول القطن ، وهـذا ما عبر عنه محمـد فؤاد شـكرى بقوله : « غير ان محصول القطن الجديد لـم يلبث أن اخـذ يقـل فى الاعوام التالية لان الباشـا أكثـر من تجنيـد الفلاحين فى جيشـه ، فقلت الايدى العاملة فى الزراعـة ونقص محصول القطن تبعـا لذلك حتى بلـغ (١٦٠٫٠٠٠) بالة فى عـام ١٨٣١ » (١) ٠

ولم يكتف محمد على بهذا النوع وحـده ، انما جلب بذورا أخـرى من الهند ، ثـم من امريكـا ، وهو قطن (سرايلانـد) ومنـذ ذلك الحين اخذ القطن المصرى ينافس قطن البنغال وامريكا وتهافتت على طلب شرائه الدول المصنعة وكافـة مصانع النسيج فى فرنسـا وانجلترا ٠ وقـد احتكرت الحكومـة بيعه طبقـا لنظـام الاحتكـار الذى سبق ان اشرت اليه ٠ هـذا من جهـة اما اذا اردنـا ان نقيم مجهود وفضـل محمـد على على مصر فى تطويـر زراعـة القطن ، فمن الواجب علينـا ان ندرس اليوم وقـد ابتعدنـا عن الحقبة الزمنيـة التى عاش فيهـا محمـد على باكثـر من قرن وربـع ، المرتبة التى وصـل اليهـا هـذا النوع اذ لا احـد ينكـر ان هـذا الصنف اصبح معروفـا فى عالم التجارة بانه من أجود أنواع القطن فى العالم من حيث طول التيلة وقوة المقاومـة ودرجـة اللمعـان ، واذا علمنا هـذا فلا غرابة اذن أن نعلم ايضـا أن مصر اليـوم تعـد أول دولـة منتجة لهـذا النـوع ، اذ يبلغ انتاجهـا نصف الانتاج العالمى ، ويمثـل القطن بصفـة عامة نصف الصادرات المصريـة ، وبهـذا فهو عمـاد ثروتهـا « وذهبهـا الابيض » كمـا يسميـه البعض ٠

---

(١) دكتور محمـد فؤاد شكرى ـ المصدر السابق ص ٣٨ ٠

الزراعـــة فى مصر
بعد عصر محمد على

تعتبر فترة حكم عباس وسـعيد فترة هبوط مكملة للفترة التى انتكست فيهـا مصر بعـد سنة ١٨٤٠ ، بالرغم ممـا نال الفلاح من زيـادة فى الحرية الاقتصـادية بامتلاكـه غلات الارض وزيـادة حقوقه فى التمليك وترقيـة وسائل الرى ٠

وكان عصر اسماعيل مدرسة للاساليب الزراعيـة التى اصبحت نواة لسياسة زراعية لا تزال خطوطها الرئيسية واضحـة الى الوقت الحاضر ٠ كذلك شاهد عصر اسماعيل تقدمـا فى النهضة الزراعيـة التى ظهرت فى زيـادة مسـاحة الاراضى القابلة للزراعـة وفى زيادة الانتـاج والعنايـــة بالماشـية وتقرير اساليب التفتيش الزراعى وفى توجيـه التعليم الزراعى ٠

وقد شجع اسماعيل انشـاء الحدائق ، وعلم الاهالى فلاحـة لبساتين التى كانت ناقصـة فى البلاد ، وكذلك ادخـل اشجار الفاكهـة والزهور ٠

وقـد ادى نجاح حقول تجارب فلاحة البساتين الى انشـاء حـدائق الجيزة (التى تعتبر الاورمان جزءا منهـا) وحدائق الجزيرة (التى بقى منها حدائق الاسـماك والزهرية) وحديقـة الازبكيـة ، وحديقـة النزهـة بالاسكندريـة ، كمـا انشـا حديقـة الحيوان فى مصر وهى نواة حديقة الحيوان الحالية بالجيزة ٠

واستورد اسماعيل اشجار الموالح والعنب ، فانشـا فى الجيزة حديقـة الليمون ، وغرس بهـا اشجار البرتقـال والعنب التى جلبهـا من قبرص وايطاليـا واليونان وفرنسـا ، واهتم باشجار الغابات وغرسهـا بالقـرب من الاسكندرية فى مساحة تبلغ الف فدان ، كما غرس اشـجارا فى الطرق الزراعيـة ٠

وقـد سببت العناية بالقطن والاهتمـام بالغـلات النقديـة التى تدر المال على المزارعين انهم اهملوا علف الماشية ، فنقص عددهـا نقصـا عظيمـا ،

كما سبب الطاعون الذى كان يتردد من آن لآخر زيادة الشعور بالنقص الكبير فى الماشية .

وفى سنة ١٨٦٤ حل اسماعيل هذه الازمة باستيراد الماشية من الخارج ، وبذلك انفرجت الازمة التى كانت تهدد البلاد والزراعة بالخراب .

عمد اسماعيل الى وضع اثمان هذه الماشية وتوزيعها على المزارعين بالتقسيط ، فسبب هذا ضيقا ماليا للحكومة يقابله نفع للاهالى .

أما فى بداية الاحتلال البريطانى لمصر ، فقد وجه الانجليز البلاد نحو سياسة زراعية خاصة تتمثل فى الاهتمام بالرى ووسائله وزراعة القطن الذى اهتم به الفلاح وزاد من انتاجه لانه اصبح المورد الذى يعتمد عليه دخله اعتمادا كليا ، ووضع الانجليز سياسة خاصة تزيد من هذا الاهتمام ، فاشتروا من الفلاح محصول القطن باسعار معقولة ، فاصبح لا يفكر فى تصريفه وتوزيعة والبحث عن أسواقه ، وبذلك فرضت هذه السياسة تبعية القطن امرى واسواقه لانجلترا وبخاصة اسواق لا نشكير ومصانعها (١) .

التجارة المصرية فى عهد محمد على

اعتنق محمد على مبدأ السياسة التجارية
أى محاولة المحافظة على الذهب فى الداخل عن طريق الاقلال من الواردات والعمل على زيادة الصادرات . فالاستهلاك من أى سلعة = الانتاج + الاستيراد ، وكلما زاد الانتاج من هذه السلعة قل الاستيراد أى أن الباشا أراد أن يجعل الميزان التجارى دائما فى صالح مصر وذلك بان تكون قيمة الصادرات اكبر من قيمة الوردات . ثم تطور الامر الى سياسة لاحتكار ومراقبة الدولة تماما للتجارة الداخلية والخارجية ، وهذا النظام وان قلل من مكاسب الافراد فانه عاد بالنفع الكبير على الدولة .

---

(١) دكتور أمين مصطفى عفيفى عبد اللاه المصدر السابق ص ٦٣ - ٦٥ .

ومنذ سنة ١٨١٠ بدأ محمد على فى جمع الضرائب الزراعية عينا اى من المحصولات • فكان المزارعون يوردون كميات معينة من الغلات الزراعية الى (شونٍ) الحكومة • وكانت الحكومة تقرر تسعيرة تنظم بها المعاملات وتضبط حركة السوق ، كما كان مجلس الشورى يتولى تقدير تسعيرة الحكومة لكافة المحصولات •

وبطبيعة الحال ، كانت تسعيرة مشتريات الحكومة من الفلاحين أقل من التسعيرة التى تبيع بها الحكومة للاهالى • هذا بالاضافة الى تسعيرة ثالثة تبيع بها الحكومة للتجار والمصدرين ، وكانت بلا ريب أعلى من تبيع بها الحكومة للتجار والمصدرين ، وكانت بلا ريب على من التسعيرتين السابقتين • وبالتالى امتلأت الخزانة المصرية بالاموال كنتيجة لهذه السياسة •

واختص ديوان التجارة بوضع تسعيرة الصادرات وان كان المسيطر فعلا على هذا الديوان هو محمد على شخصيا • كما تولى الوكلاء التجاريون الذين عينهم محمد على البيع فى موانىء الدول الكبرى •

وفى الفترة الاولى من حكم الباشا ، لم يكن هناك قانون لتنظيم ديون التجار ، وان كان الباشا قد شكل بعض اللجان للتحقيق فى أسباب خسائر بعض التجار وعجزهم عن دفع ديونهم • وكان محمد على يتخذ اسلوبا حاسما مع المتلاعبين أو المتهربين من دفع الضرائب ، اذ يتم القبض عليهم ، كما كان يقرر الجزاء بعد ثبوت التهمة وهو الحبس أو الجلد والتعذيب ، وذلك مع الزام التاجر بدفع المبالغ المستحقة عليه • وقد يأمر الباشا ببيع ممتلكات التاجر ليوفى من ثمنها ما على التاجر من ديون ومستحقات •

أما المنازعات التى كانت تقوم بين التجار أنفسهم ، فكانت تعرض على مجالس التجار لدراستها ، ثم تفحص دفاتر التجار ، وتصدر الأوامر والاحكام حسب الأصول المرعية • وهناك عدة مجالس للتجار منها مجلس تجار المحروسة (القاهرة) ومجلس تجار دمياط ومجلس تجار الاسكندرية •

أما ديوان التجار الذى أنشأه الباشا بالاسكندرية سنة ١٨١٥ ،فانــه كان بمثابة همزة الوصل بين التجار والمصدرين والحكومة ، أو هو الادارة الحكومية التى يستطيع التجار أن يتعاقدوا معها لشراء الصفقات وبخاصة محصول القطن والقمح وغيرها من الغلات المصرية التى كانت تصــدر الى الاسواق الخارجية ، ولهذا عد هذا الديون الادارة المختصة بحركة الصادرات للمصرية .

والواقع أن (الامبراطورية المصرية) فى عصر محمد على أفادت الباشا كثيرا لأنها كانت بمثابة السوق الواسعة للصادرات المصرية ، فهناك أسواق كريت والشام والحجاز واليمن والسودان ، كما أنه حصل على سلع خاصة من هذه الامبراطورية كالبن من اليمن والصوف والتيلة والاخشاب والصمغ والماشية من السودان والحرير والزيتون والاخشاب من الشام والاغنام وزيت الزيتون من كــريت .

ولم يتوقف ازدهار التجارة المصريه عند حد الامبراطورية المصرية ، بل امتد الى اســواق تركيا ، فقد توجهت الدولة العثمانية نفســها الى مصر لتحصل على ما تريد منها من انتاج زراعى وصناعى وحربى .

علاوة على ذلك ، فانه تم تصدير القمح والارز والشعير والفول والقطن والكتان والمواد المصنوعة الى الدول الكبرى فى العالم كانجلترا وفرنســا والروسيا والنمســا . وفى المقابل اســتوردت مصر من هذه الدول الفحم والحديد والمصانع .

وفى جميع الاحوال كان الباشا حريصا على أن تكون قيمة الصــادرات اكبر من قيمة الواردات . فكان الميزان التجارى دائما فى صــالح مصر . وهذا دليل واضح على أن السياسة التى رســمها محمد على كانت ناجحة تمــاما . .

ولكن دول أوربا وعلى رأسها انجلترا كانت فى ذلك الوقت قد حققت ثورة صناعية كبرى ، وكانت محتاجة الى أسواق الشرق الأوسط ، وهــذا والى يأبى الا ان يطرد انجلترا من أسواقها السابقة ، مما جعل الرأسمالية

الانجليزية تصيق ذرعا وتشعر بمدى الخسائر التى وقعت لها على يد محمد على . ولما كان الباشا يابى ان يخضع لأى ضغط انجليزى ، فان الانجليز ضغطوا على تركيا - صاحبة السيادة الشرعية على مصر - وعقدوا معها اتفاقية تجارية (بلطة ليمان) سنة ١٨٣٨ تنص على معاملة بريطانيا معاملة خاصة ، وعلى الغاء الاحتكارات ، وأن تكون الضرائب ١٢٪ على الصادرات و ٥٪ على الوردات ، ولم يأبه محمد على لهذه المعاهدة فى أول الأمر ، الا انه فى اعقاب تسوية لندن ١٨٤٠ واتفاقية ١٨٤١ اضطر الى الغاء الاحتكار على مراحل اعتبارا من ١٨٤٢ .

ونتيجة لسياسة الغاء الاحتكار صدرت لائحة ١٨٤٥ لترتيب زراعة الاراضى بطريقة الاشتراك مع « الميرى » على أن يصبح للفلاح جزء من المحصول . ثم أصدرت الحكومة لائحة جديدة سنة ١٨٤٦ خاصة بامتلاك الأرض ، وهى اللائحة الاولى من لوائح تمليك الأرض فى مصر الحديثة ، واباحت هذه اللائحة حرية التعامل فى الأراضى التى يزرعها الفلاح ، فله أن يتنازل عنها لغيره أو يرهنها .

والواقع ان الانتاج الزراعى زاد فى هذه الفترة زيادة كبيرة لاسباب منها اطمئنان الفلاح على ما يمتلكه من أرض ، واستطاعته بيع محصولاته ، واهتمام الحكومة بشئون الرى ، وتحسن اسعار القطن ، وزيادة الانتاج الزراعى بزيادة مساحة الأرض المزروعة .

أما بعد عصر محمد على ، وبالتحديد فى عصر اسماعيل فقد حدثت ثورة فى عالم النقل ، فانشئت السكك الحديدية ، وأسست شركات الملاحة ، وقد أثر ذلك كله على تجارة مصر الداخلية والخارجية .

الفصل الثالث

عصر اسماعيل

أدت الازمة الدولية التى اثارها النـــزاع بين محمد على والســـلطان العثمانى ، وتدخل أوربا بين الطرفين الى أن ينتهى الموقف بمعاهدة لندن فى ١٥ مايو ١٨٤٠ ثم تسوية ١٨٤١ ٠ وأصبحت مصر بذلك تحت السيادة الفعلية لتركيا حتى سنة ١٨٨٢ ، ثم تحت السيادة الشـــكلية منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٩١٤ وهو تاريخ اعلان الحماية البريطانية على مصر ، وان كانت تركيا لم تتنازل نهائيا عن ادعاءات السيادة على مصر الا بعد توقيع معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ (١) ٠

وقد حددت تسوية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ نظام ولاية العرش فى مصر بشكل وراثى فى أسرة محمـــد على طبقا لقاعدة الســـن ولما أحس محمـــد على بالشـــيخوخة (٢) تنازل عن الحكم لابنـــه ابراهيم باشـــا أكبر أفراد الأسرة سنا ٠ الا أن ابراهيم لم يلبث فى السلطة سوى عشرة شهور انتقل بعدها الى جوار ربه فى نفس العام (١٨٤٩) ٠

وقد تولى بعد ابراهيم باشا عباس الاول ابن طوسون ، واستمر يحكم لمدة خمس سنوات ، وبعد وفاته انتقل الحكم الى سعيد باشا سنة ١٨٥٤ ومات سعيد سنة ١٨٦٣ ، وتولى الحكم اسماعيل باشا فى ١٨ يناير من نفس العـــام ٠

ولم يكن اسماعيل وليا للعهد ، فقد كانت الولاية لاخيه أحمد الذى

---

(١) د ٠ أحمـــد عبد الرحيم مصطفى ـ مصر والمســـالة المصرية (١٨٧٦ ـ ١٨٨٢) دار المعارف ١٩٦٥ ص ٩
(٢) ولد محمد على سنة ١٧٦٩ ٠ وتوفى سنة ١٨٤٩ ٠

كان أكبر منه سنا • ولكن حادثا مروعا أودى بحيـــاة هذا الأمير وأدى الى احلال اسماعيل محله فى ولاية العهد (١) •

علاقته بالدولة العثمانية :

حاول اســـماعيل توسيع استقلال مصر وكسب الكثير من الحقوق من الدولة صاحبة السيادة على مصر حتى يصل بالبلاد الى الاستقلال ، أى أنه أراد اكمال العمل الذى بدأه محمد على ، وان كان اسماعيل قد اختار سبيل دفع الأموال ، أما محمد على فقد أراد الاستقلال بمصر باللجوء الى السلاح •

وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية كبيرة للحصـــول على الامتيازات التي نالها • فالدولة العثمانية لم تكن لتصـدر فرمانا الا مقابل الأمـوال الطائلة • وقد بدأ اسماعيل حكمه بالتقرب الى الســـلطان عبد العزيز • ونتيجة لهذه السياسة حقق عن طـــريق دفع الأموال تغيير نظام توارث العرش الى أكبر أفراد اسرة محمـــد على سنا • ولكن بأموال اســـماعيل استطاع أن يجعل وريث العرش هو أكبر انجاله طبقا لفرمان مايو ١٨٦٦ • كما تضـــمن هذا الفرمان أيضـــا امكان زيادة الجيش المصرى الى ٣٠٫٠٠٠ جندى • كما أن اسماعيل حصل على فرمان آخـــر سنة ١٨٦٧ يخول له ولخلفائه من بعده لقب خديو بعد أن كان واليا فقط ، وأقر هذا الفرمان حق الحـــكومة المصرية فى ادارة شـــئونها الداخلية والمالية • وحقهـــا فى عقد المعاهدات الخاصة بالجمارك والبريد •

ولكن اسماعيل كان يريد أن يكون له حق تعيين سفراء لمصر فى الدول الاجنبية ••• وهو حق من حقوق السيادة ، وهكذا بـدأت العلاقات تســوء بين مصر وتركيا عندما قام اسماعيل بدعوة ملوك أوربا الى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ دون وساطة الدولة العثمانيه •

---

(١) تفصيل ذلك أنه بعد تولى سعيد باشـــا ، قرر اقامة احتفال فى الاسكندرية يحضره جميع افراد أسرة محمـــد على ، وكان معظمهم يقيم فى القاهرة • وقد توجه هؤلاء الى الاسكندرية بطريق البحر ، وكان من ضمنهم أحمد الأخ الاكبر لاسماعيل وولى العهد ، أما اسماعيل فقد كان مريضا ولم يحضر الحفل ، وعند عودة أحمد وبطانته الى القاهرة بقطار خاص ، سقط القطار فى النيل لأن جسر كفر الزيات كان مفتوحا ، وغرق أحمد ومن معه ما عدا الامير حـــليم •

على أن اسماعيل لم يفقد الوسيلة للتقرب الى السلطان مرة أخرى مستخدما الوسيلة المعروفة أى بذل الاموال ، وخاصة أن تركيا كانت فى ضائقة مالية فى ذلك الوقت ، مما جعله فى النهاية يحصل على فرمان ٨ يونيو ١٨٧٣ الذى منحه حقوقا واسعة ، منها توارث العرش فى أكبر أنجال الخديو وأن املاك مصر تشمل السودان وسواكن ومصوع ، وحق الحكومة المصرية فى سن القوانين وعقد الاتفاقات التجارية ، وكذلك حق الاقتراض من الخارج وزيادة الجيش وبناء السفن الحربية .

الزراعة :

اهتم اسماعيل بالزراعة اهتماما فائقا فشق الكثير من الترع فى الوجهين البحرى والقبلى وبلغ عدد الترع التى حفرت واصلحت فى عصره ١١٢ ترعة واهمها الترعة الابراهيمية والترعة الاسماعيلية .

وكان القطن من المحصولات التى وجه اليها اسماعيل كل اهتماماته بسبب توقف تصدير القطن الامريكى أثناء الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦١ ــ ١٨٦٥) واهمية سد حاجات الدول الاوروبية من الاسواق المصرية. والواقع انه مع استمرار الحرب الاهلية الامريكية ، فان أسعار القطن ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، مما أدى الى اقبال الفلاحين المصريين على زراعته ، وهكذا زادت الأرض المزروعة قطنا فى مصر .

وقد كان لعناية اسماعيل باشا بزراعة القطن أثر ظاهر فى زيادة انتاجه سواء اثناء الحرب الاهلية الامريكية أو بعد انتهائها ، حتى أصبح القطن عماد الاقتصاد القومى فى مصر (١) .

كما اكثر اسماعيل من زراعة قصب السكر ، وازدادت عنايته به بعد أن تراجعت اسعار القطن عقب انتهاء الحرب الاهلية الامريكية (٢) .

---

(١) د . السيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ٣٤٩ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ــ عصر اسماعيل جـ ٢ ص ١٦ .

الصـــناعة :

انشأ اسماعيل المعامل الكبرى لصناعة السكر فى الوجه القبلى ، ونتيجة لزيادة الرقعة المزروعة قصبا زادت معامل الســكر حتى بلغت سبعة عشرة معملا انشئت فى بنى سويف والمنيا وأسيوط وقنا والفيوم ٠

كما اهتم اسماعيل بمصانع النسيج ، فعادت للعمل من جــديد (١) وكذلك الحال بالنسبة لمصانع الزجاج والورق وما الى ذلك ٠

المواصـــلات :

اهتم اسماعيل بالمواصلات كوسيلة ضرورية لتنشيط التجارة ، ولذلك انشأ عددا من الكبارى والجسور بلغ عددها ٤٣٠ جسرا منها كوبرى قصر النيل٠

كما أن اسماعيل اهتم بالسكك الحديدية ، ومدت فى عصره ١٠٨٥ ميلا من الخطوط الحديدية ٠ وارتبط هذا كله بالرغبة فى تطوير الموانى المصرية وانشاء الخطوط الملاحية ٠ وكان من الاعمال التى ســهلت الملاحة للسفن ، انشاء الفنارات على سواحل البحر المتوسط والبحــر الاحمر ، بلغ عددها ١٥ فنـــارا ٠

وفى عام ١٨٦٣ أصــدر اسماعيل مرســوما لتاسيس شركة مصرية للملاحة البخارية برأسمال قدره ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه وذلك للعمل فى البحــر الأحمر وأخرى فى البحر المتوسط ٠ وقد تقدمت أعمال هذه الشركة تباعا ، وصار لها فى عام ١٨٦٧ عشر بواخر فى البحر الأحمر واربع عشرة باخرة فى البحر المتوسط ، هذا بالاضافة الى ملكيتها لتســع وعشرين باخرة فى النيل ٠ وأهم خطوط هــذه الشركة كانت فى البحر الأحمر بين الســويس وجدة وينبع وسواكن ومصوع ٠ أما فى البحر المتوسط ، فان حقوقها كانت تمتد الى الآستانة وازمير ويافا وحيفا وبيروت ورودس وغيرها ٠

غير أن الخسائر سرعان ما لحقت الشركه بسبب أزمة القطن سنة ١٨٦٥ وبسبب الازمات المالية المتتالية ، فقلت أرباحها وساءت حالتها تماما فى عام

---

(١) المصدر الســابق ص ١٩ ٠

١٨٦٩ . واضطر المساهمون فى مارس ١٨٧٠ الى التنازل عن هذه الشركة الى الحكومة المصرية فى نظير دفع ديون الشركة . وقد انشئت على انقاضها شركة « وابورات البوستة الخديوية » وازدهرت أعمالهـــا من جديد الى أن اشترتها شركة انجليزية بعد الاحتلال البريطانى لمصر (١) .

البريد والبــرق :

نظم البريد فى عصر اسماعيل ، وأنشئت المكاتب البريدية فى عصره حتى صار عددها ٢١٠ مكتبا (٢) كما تألفت شبكة تلغرافية فى أنحاء مصر، ومد خط الى السودان ، وبلغ طول الخطوط التلغــرافية سنة ١٨٧٢ حوالى ٥٥٨٢ كيلومترا . وبلغ عدد المكاتب التلغرافية ١٥١ مكتبا منها ٨٦ بالوجه البحرى ، ٤٤ بالوجه القبلى و ٢١ بالسودان .

وانشأت شركة انجليزية فى عهده خطا تلغرافيا بحريا من الاسكندرية الى مالطة وصقلية فأوربا ، وخطا آخــر من الاسكندرية الى الســويس فعدن والهنــد (٣) .

العمــــران :

دخل اسماعيل الكثير من التحسينات على القاهرة ، فانشــا الميادين الكبرى ، وردم البرك وانشا مكانها القصور والبساتين ، ورصف الطرق حتى سهل الانتقال بين اطراف المدينة .

واعتبارا من سنة ١٨٦٧ ، اهتم اسماعيل « بالازبكية » اهتماما كبيرا وحولها الى مجموعة من الحدائق والجداول ، على غرار الحدائق الفرنسية .

كما قام اسماعيل ببناء الاوبرا ، وانشــا كوبرى قصر النيل ليصـــل الجزيرة بالقاهرة . كما شيد اسماعيل الطريق المعبد بين القاهرة والاهرام ،

---

(١) د . السيد رجب حراز - المصدر السابق ص ٣٥٥ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى - عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٢٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢ ، ص ٢٣ .

ورصفه بالحجارة سنة ١٨٦٩ بمناسبة زيارة الامبراطورة أوجيني لحضور حفل افتتاح قناة السويس • وفى عهد اسماعيل ، تم توصيل انابيب المياه الى احياء المدينة لتوزيع مياه النيل العذبة فى المنازل بعد أن كان يملؤها السقاءون فى القرب •

كما عنى اسماعيل بنظافة القاهرة ، وأنارها بغاز الاستصباح ، فاكسبها بالليل رونقا وجمالا ، كما ساعدت الانوار الليلية على حفظ الامن •

ويعتبر اسماعيل أول من شرع فى اقامة تماثيل العظماء فى الميادين ، فهو الذى امر بصنع التمثالين الكبيرين اللذين يزينان هم ميادين القاهرة والاسكندرية الاول لابراهيم باشا والثانى لمحمد على •

أما الاسكندرية ، فقد اهتم بها الخديو اهتماما فائقا ، وشيد بها عددا من الشوارع الواسعة ، وعهد الخديو الى احدى الشركات الاجنبية لتوصيل المياه العذبة من ترعة المحمودية الى المدينة وتوزيعها بواسطة « وابور مياه الاسكندرية » وانتعشت منطقة الرمل انتعاشا فائقا ، وتم وصلها بالاسكندرية

بخط حديدى ، ويرجع الفضل الى اسماعيل فى جعل الاسكندرية مصيفا للقطر المصرى • كما انشأ الخديو حديقة النزهة على ترعة المحمودية وجعلها متنزها عاما ، واصلح ميناء الاسكندرية كما ابطل دفن الاموات فى المدافن الخاصة بجوار المنازل وداخل المساجد (١) •

وبالنسبة للقصور ، نجد أن أهم القصور التى انشأها اسماعيل قصر عابدين ، وقد جعله المقر الرسمى بدلا من القلعة • وهناك قصر الجيزة وقصر بولاق الدكرور وقصر الجزيرة وقصر القبة وقصر حلوان وقصر الاسماعيلية وقصر الزعفران وسراى الرمل بالاسكندرية •

---

(١) د • صالح رمضان الحياة الاجتماعيه فى عصر اسماعيل ص ١٨ •

التعليم فى عصر اســماعيل (١)

وضــع الشـــعور بالحاجة الى نشر التعليم الابتدائى ، عند حكومه الخديوى اسماعيل ، كما أحس بها مجلس شورى النواب ٠

وقد وضع مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٧ لاول مرة فى تاريخ التعليم المصرى المبادىء والقرارات الخطيرة التالية : -

أولا : التعليم الابتدائى واجب قومى ، ويجب أن تتعاقد قوى الحكومة والامة فى سبيل نشره ٠

ثانيا : ضرورة تدبير موارد للصرف على التعليم خارج نطاق ميزانية الدولـة ٠

ثالثا : ترتب على ذلك أن دعيت المدارس الابتدائية الجديدة التى انشئت فى ظل هذا النظام بالمدارس أو المكاتب الاهلية ، تأكيدا لصفتها الاهلية كمعاهد للتعليم الابتدائى الخارج عن ميزانية الحكومة ٠

رابعا : الاعتراف بالمكاتب أو الكتاتيب الاهلية ، وهى معاهد التعليم الاولى الشعبى التى عاشت دهرا طويلا لا يحفل بها السلطان هذا الى ادراك ضرورة اصـــلاحها حتى تصبح تحت اشراف الحكومة وسيلة طيبة لنشر تعليم أولى (٢) ٠

اقتنص على مبارك هذه الفرصة ، وهى تعبئة شعور الامة نحو القيام بالتعليم ، فقام باعداد لائحة لذلك وفى هذا يقول فى خططه « وأعملت فكرى فيما يحصـــل به نشر المعارف وحسن التربية ، وكانت المكاتب الاهلية فى

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر :
دكتور أحمد عزت عبد الكريم - تاريخ التعليم فى مصر ودكتور سمير محمد طه - على باشـــا مبارك مكتبة سعيد رأفت ١٩٨٥ جـامعة عين شمس ٠

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد الاول ص ٤٥ - ٤٧ ٠

المدن والارياف جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها الا تعلم القرآن الشريف واقل من القليل من يتممه منهم ويجيد حفظه ويجود ويحسن قراءته مع رداءة الخط فى عامة المكاتب المذكورة فاستحسنت اجراءها على نسق المدارس المنتظمة فحررت لائحة بتنظمها وترتيبها » (١) ٠

وقدم على مبارك مشروع هذه اللائحة للخديو ، وكان اذ ذاك ناظر لمدرسة المبتديان ، فاحالها الخديو الى لجنة لدراستها ، كما قدم الخديو لهذه اللجنة بيانا بتعداد المكاتب فى مصر والتابع منها لديوان الاوقاف والتابع للأهالى (٢) ٠

وفى ٩ مايو ١٨٦٨ وافق المجلس الخصوصى على ما جاء باللائحة التى وصفها على مبارك ، والتى ناقشتها لجنة خاصة ، واشتهرت بلائحة رجب (٣) ٠

وصدق الخديو على تنفيذ هذه اللائحة فى ٤ صفر سنة ١٢٨٥ هـ - ٢٧ مايو سنة ١٨٦٨ م (٤) ٠

وبدأت بعد ذلك محاولة تنفيذ لائحة رجب ، وكان من نتائج هذه المحاولة أن أنشىء ديوان المكاتب الاهلية فى مارس سنة ١٨٧١ م وقد جعل مستقلا عن ديوان المدارس ثم الحق به مع احتفاظه بكيانه الخاص ونشط ديوان المكاتب الاهلية لتنظيم المكاتب القائمة وانشاء مكاتب جديدة (٥) كان ينفق عليها من الاوقاف وما يدفع من الاهالى كل حسب مقدرته فظهرت مكاتب كثيرة متعددة ٠

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥٠ ٠

(٢) دار الوثائق القومية : دفتر ١٩١٩ (أوامر عربى) ص ١٨٩ رقم ١٢٠ امر الداخلية فى ١٧ محرم سنة ١٢٨٤ هـ - ٢١ مايو سنة ١٨٦٧ م ٠

(٣) امين سامى : التعليم فى مصر ص ٢٣ - انظر د ٠ سمير طه ص٧٨

(٤) دكتور احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد الاول ص ٥٩ ٠

(٥) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ ٠

أما المدارس المركزية فلم تسر على النحو الذى رسمته لائحة رجب ، فظل النظام الداخلى المجانى أساس الحياة الدراسية فى المدارس المركزية ، ولكن منذ سنة ١٨٧٢ م فرضت رسوم دراسية بسيطة على التلاميذ (١) . وبدأ بها النظام الخارجى ولكن فى حدود ضيقه (٢) ، وكان غرض على مبارك السير على نظام المدارس الاوربية . وهو ابطال مبدأ المجانية البحتة بتكليف الاهالى بالانفاق على تعليم أولادهم ولو انفاقا يسيرا فى بادىء الامر (٣) يقول فى خططه « وجعلت المصاريف اللازمة للمدارس والمكاتب جارية على وجه يستوجب انتظامها مع خفة الصرف على الديوان فجعل على حسب اقتدارهم من غير تنفيل عليهم واستمالة لقلوبهم واستدعاء على حسب اقتدارهم من غير تثقيل عليهم واستمالة لقلوبهم واستدعاء لرغبتهم ، وجعل لذلك استمارة حفظت فى المدارس وفى كل مكتب وباقى المصروف يصرف من حاصلات الاوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات والمبرات واطيان الوادى بمديرية الشرقية وكان الحسن على المكاتب الاهلية بهذه الاطيان وبعض املاك آلت الى بيت المال من بعض التركات فكان من هذه الموارد يصرف كل ما يلزم لهذه المكاتب بعد الايرادات الجزئية المتحصلة من ذوى الاقتدار من أهل التلاميذ وكان القصد تعويد الناس على الصرف على أولادهم بالتدريج شيئا فشيئا حتى لا يبقى مع توالى الازمان على الحكومة الا ما يختص بالمدارس الخصوصية كالمهندسخانة والطب والادارة ونحوها وأما باقى المدارس فيكون الصرف عليها من الاهالى والاوقاف والاملاك المذكورة ، اذ بذلك تدوم الرغبة وتتسع دائرة التعليم » (٤) .

وتنفيذا لاحكام اللائحة بدأ التفتيش على المدارس لاول مرة فى سنة ١٨٦٩ م (٥) . وعين حماد عبد العاطى مفتشا على المدارس الملكيه – وطبقا

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد الاول ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ١٩ .

(٣) الياس الايوبى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٠٠ .

(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥٠ .

(٥) وزارة التربية والتعليم : تاريخ وزارة التربية والتعليم ممثلا فى اشخاص وزرائها ص ٣٥ .

للائحة عين مفتش للوجه البحرى وآخر للوجه القبلى وهمـا البكباشى على افندى فرحات لمدارس الوجه البحرى والصاغقول أغاسى محمد أفندى سليمان مفتشا لمدارس الوجه القبلى .

وبدأ المفتشون عملهم فى زيارة المكاتب والتفتيش عن أحوالها ومعلميها وأبنيتها ، وكان ديوان المدارس يكتب الى الجهات الادارية لتعاون مفتشيه فى أداء مهمتهم وتنفيذ ما يقترحونه من الغـــاء بعض المكاتب أو اصـــلاح بعضهـا الآخـر (١) .

أما تعليم البنات ، فالواقع أنه لم تكن هناك مدارس لتعليم البنات قبل عصر اسماعيل . فقد انشئت أول مدرسة لتعليم البنات ، وهى مدرسة السيوفية فى ٣ اغسطس ١٨٧٣ ، وقد ذكر امين سـامى انها افتتحت فى يناير سنة ١٨٧٣ - (٢) ،وذلك بعد دعوة رفاعة رافع الطهطاوى لتعليم البنات فى كتابه المرشد الامين للبنات والبنين والمطبوع فى شـــوال سنة ١٢٨٩ هـ ديسمبر ١٨٧٢ فقد ذكر فى الفصـــل الثالث من هـــذا الكتاب تحت عنوان « تشريك البنـــات مع الصبيان فى التعليم والتعلم وكسب العرفان » أنه « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الازواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها ويمكن للمرأة عند اقتضـــاء الحال أن تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ ايديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالاباطيل وقلوبهن بالاهواء وابتعال الاقاويل فالعمل يصون المرأة عما

---

(١) دكتـــور احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ٢ المجلد الاول ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

لمزيد من التفصيلات انظر دكتور سمير محمد طه المصدر الســـابق
(٢) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ٢٨ .

لا يليق وبقربها من الفضلة واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمـة فى حق النسـاء » (١) ٠

فلا شـك أن الدعوة الى نهضـة المرأة فى مصر ترجـع الى رفاعه الطهطاوى (٢) ويرجع انشـاء أول مدرسة لتعليم البنات فى مصر الى الزوجة الثالثة لاسماعيل (٣) ، تشما آفت خانم افندى على نفقتها الخـاصة (٤) ٠

الصحافة فى عصر اسماعيل

اهتم المصريون بالصحافة فى عصر اسماعيل بعد ان اغفلوها فى الفترة بينه وبين محمد على ٠ واقدم صحيفة مصرية صدرت بعد الوقائع المصرية هى يعسوب الطب وهى مجلة طبية ، ظهـرت فى القاهرة سنة ١٨٦٥ ، وهى اول مجلة من نوعها بالعربية ، ولكنها لم تعمر طويلا (٥) ٠

وانحصرت الصحافة الشعبية فى تلك الفترة فى جريدتى وادى النيل ونزهة الافكار ٠

وجريدة وادى النيل مجلة سياسية علمية ادبية انشأها سنة ١٨٦٦ م عبد الله ابو السعود ناظـر المدرسة الكليه التى اسسها محمد على باشا فى القاهرة (٦) ، وكانت تصدر مرتين فى الاسبوع (٧) ٠

والحقيقة أن جريدة وادى النيـل كانت جريدة شـعبية اسما رسمية فعلا يقول فى ذلك الدكتور ابراهيم عبده « ازدحمت معظم صفحاتها بأخبار

---

(١) رفاعه رافع الطهطاوى . المرشد الامين للبنات والبنين ص ٦٦ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى . عصر اسماعيل الجزء الثانى ص ٣٢٧ ٠

(٣) دار الوثائق القوميـة محفظة الوقـائع المصريـة رقم ٥ تعليم العدد ٥٧٦ بتاريخ ١٢ شعبان سنه ١٢٩١ هـ - ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م٠

(٤) الياس الايوبى ٠ تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنه ١٨٧٩ المجلد الاول ص ٢٠٤ ٠

(٥) دكتور سمير طه - المصدر السابق ص ١١٧ ٠

(٦) الفيكونت فيليب دى طرازى ٠ تاريخ الصحافة العربية الجـزء الأول ص ٦٩ ٠

(٧) دكتور عبد اللطيف احمد حمزه ٠ الصـحافة المصرية فى مائة عام ص ٢٨ ٠

الخديو؛ ورجال حكومته . ولولا أنها أعلنت شعبيتها لظن متصفحها أنها صحيفة رسمية ، فهى صورة للوقائع فى تفكيرها واتجاهها » (١) .

وفى عصر اسماعيل شعر على مبارك بحاجة الأمة عامة وأبناء المدارس خاصة الى صحيفة علمية أدبية فلم يكن فى مصر فى ذلك الوقت غير جريدة وادى النيل والوقائع المصرية (٢) مما سبق التنويه عنه فانشا مجلة روضة المدارس فى سنة ١٨٧٠ وكان اذ ذاك مديرا لديوان المدارس ، فهى صحيفة ديوان المدارس تنفق عليها الحكومة وكان الغرض من انشائها النهوض باللغة العربية واحياء آدابها ونشر المعارف الحديثة وقد جاء فى مقدمة العدد الاول من هذه المجلة ان الغرض من ظهورها هو « ان تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة وتستضىء بنورها ارباب العقول السليمة واصحاب الطبائع المستقيمة » .

دار الكتب المصرية :

ترجع فكرة تاسيس دار الكتب الى عصر محمد على . ويقول عبد الرحمن الرافعى (٣) أن محمد على أنشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم خلف المسجد الحسينى ، وذلك عندما تكاثرت الكتب التى تم طبعها فى المطبعة الاهلية .

ونستخلص من الوثائق ان محمد على كان اول من راودته فكرة انشاء دار الكتب ، بل انه رسم طريقة التحفظ على هذه الكتب وطريقة اعارتها واعادتها الى مكانها .

وقد انشئت هذه المكتبة فى تاريخ لاحق لهذه الاجراءات التى امر بها الوالى ، ونقلت الكتب الموجودة فى خزينة الامتعة الى هذه المكتبة المحدثة بجوار مسجد سيدنا الحسين ، وأصبحت تابعة لديوان المدارس (٤) .

---

(١) دكتور ابراهيم عبده ـ تطور الصحافة المصرية ص ٧٧
(٢) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع ص ٥٥
(٣) دكتور ابراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية ص ٦١ ، ٦٢ .
(٤) د . سمير محمد طه ـ المصدر السابق ص ١٣٢ ـ ١٣٣

وقد استمرت دار الكتب القديمة حتى عصر اسماعيل ، وأن أوقف نظام الاعارة بها منذ عصر عباس وقد أضاف اسماعيل الى هذه الدار القديمة أو الكتبخانة كما كان يطلق عليها نحو ألفى مجلد من مخطوطات بالعربية والتركية والفارسية ، اشتراها من تركة حسن باشا المورناسترلى أحد كبار رجال عباس الاول (١) .

ومن هذه الكتبخانة القديمة التى قامت فى عصر محمد على واستمرت الى عصر اسماعيل ومن تركة حسن باشا المورناسترلى من الكتب تطورت الفكرة الى انشاء دار عامة للكتب .

على أية حال صدر أمر الخديو بانشاء الكتبخانة الخديوية ، وكلف على مبارك الشيخ راشد افندى شيخ رواق الاتراك ونائب المحكمة الشرعية فى ذلك الوقت بتجميع كتب مساجد الاوقاف وذلك بجمعها من مكاتب المساجد فى مكان واحد ، حتى اذا فرغ من ذلك ، أمر السيد على الببلاوى فقام بتصنيفها وترتيبها ووضعها فى الامكنة التى أعدت لها فى الـ[illegible]بخانة (٢) التى اختير مقرا لها الطابق الأسفل (البدروم) من سراى [illegible]طفى فاضل بدرب الجماميز ، وهو القصر الذى كان يشغله فى ذلك الوقت (ديوان نظارة المعارف) كما قام على مبارك بجمع المخطوطات التى سبق أن أوقفها السلاطين والامراء والعلماء على المدارس ومعاهد العلم (٣) .

وكذلك ادمجت دار الكتب القديمة فى دار الكتب الجديدة حتى صار عدد مجلداتها نحو ثلاثين مجلد ، كما أقام معرضا للآلات الطبيعية وغيرها من آلات العلوم والرياضة اللازمة للمدارس وصرف لشراء تلك الآلات نحو أربعة الاف جنيه » (٤) .

---

(١) الياس الايوبى . تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا ـ المجلد الأول ص ٢٤١ .

(٢) محمد عبد الجواد . تقويم دار العلوم ص ٤ . انظر د . سمير طه ص ١٣٥ .

(٣) دار الكتب . دار الكتب فى عهد الثورة ص د .

(٤) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٥١ .

وبعد أن تم على مبارك انشاء هذه الكتبخانة الجـــامعة عرض على الخديوى ما اتمه من اعمال وطلب « احالة الكتباخنة على عهدة ديوان الاوقـاف على ان تبقى تحت نظـــارة مدير المدارس وذلك حتى لا يطـــرأ على الكتب الموقوفة على ذمة الاوقـــاف ادنى تبديل ولا تغيير » ، وان لا تكون هذه الكتب قاصرة على كتب الاوقاف وحدها بل جامعة لكافة ما يدخل بها من ســائر كتب الكتبخانة القديمة وكتبخانتى الاشغال والمدارس وغيرها مع ما برد اليها تباعا من الكتب بأى نوع وأى لغة من ى جهة وتكون جميعها تابعة لديوان الاوقاف وموقوفـــة من طرف الخديوى على المنفعة العامة ٠

وقد قام الخديوى بزيارة هذه الكتبخانة الجديدة فى شهر ابريل سنة ١٨٧٠ م وذلك قبل افتتاحهـــا بعدة اشهر وسر كثيرا من حسن النظـــام لاشتمالها على المؤلفات المطبوعة وجميع المخطوطات النفيسة والتى كانت متفرقة فى المساجد القديمة (١) ٠

ولا ريب ان تجميـــع الكتب والمخطوطات فى مكان واحد يســـهل عمل الباحثين والكتـــاب ، ويعد فى هذا الوقت فى حـــد ذاته عمـــلا يدعو الى الاعجـــاب (٢) ٠

---

(١) دار الوثائق القـــومية : محفظة الوقائع المصرية (٨) الوقائع المصرية العدد ٣٥٢ بتاريخ ٩ محرم ١٢٨٧ هـ (١٠ ابريل ١٨٧٠ م) ٠

(٢) د ٠ سمير محمد طه _ المصدر السابق ص ١٣٧ ٠

الفصل الرابع

قناة السويس

اول من فكر فى ربط البحرين المتوسط والأحمر بطريق غير مباشر عن طريق النيل سنة ١٨٨٧ ق ٠ م هو سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة الفرعونية ٠ ومازالت آثار هذه القناة حتى يومنا هذا واضحة تماما فى محاذاة المجرى الحالى لقناة السويس بالقرب من جنيفه ، ويمكن تتبع سيرها الى حيث حفرت قناة المياه العذبة فى مجرى القناة القديم نفسه ، ثم تختفى بعد ذلك معالم هذه القناة التى كانت تمتد حتى ميناء (السويس) ٠

وقد اهملت قناة سنوسرت الثالث نتيجة لظروف مختلفة حتى امتلأت بالرمال ٠ وفى ٦١٠ ق٠م أعاد نخاو الثانى من الاسرة السادسة والعشرين شق القناة ، فنجح فى وصل النيل بالبحيرات المرة ، الا انه لم يوفق فى وصل البحيرات المرة بالبحر الاحمر وفى سنة ٥١٠ ق ٠ م تمكن الملك الفارسى دارا الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق٠م) من اعادة ربط النيل بالبحيرات المرة بعد أن كانت قد ردمتها الرمال ، ولكنه لم ينجح كالملك نخاو الثانى فى وصلها بالبحر الاحمر الا بواسطة قنوات صغيرة لم تكن صالحة للملاحة الا فى مرسم الفيضان ٠

وفى سنة ٢٨٥ ق ٠ م تغلب بطليموس الثانى على كل الصعوبات التى اعترضت سبيل سابقيه فتمكن من اعادة الملاحة الى القناة باكملها بعد ان نجح فى حفر الجزء الواقع بين البحيرات المرة والبحر الأحمر ٠

وفى سنة ٩٨ م على عهد الامبراطور الرومانى تراجان (٩٨ ـ ١١٧ م) تم حفر فرع جديد عرف بقناة تراجان يمتد من بابليون عند فم الخليج

بالقاهرة حيث يتصل بالفرع القديم الذى يصل بوبست (الزقازيق) بالبحيرات المرة .

وفى سنة ٦٤٢ م اعاد عمرو بن العاص قناة الرومان الى الملاحة من الفسطاط الى (السويس) واطلق عليها اسم قناة أمير المؤمنين . وظلت قناة أمير المؤمنين مفتوحة للملاحة أكثر من قرن من الزمان استخدمت خلالها فى التجارة ونقل الحجاج .

وكان شق قناة السويس احد اهداف الحملة الفرنسية ، فقد كلف الجنرال بونابرت كبير مهندسيه جاك مارى لوبير بدراسة مشروع حفر قناة تصل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر ، الا ان دراسة لوبير اسفرت عن أن مستوى البحر الاحمر اكثر ارتفاعا من مستوى البحر المتوسط بمقدار ثمانية امتار ونصف ، وواضح خطأ حسابات لوبير .

وفى سنة ١٨٤١ اهتم المهندس الفرنسى لينان بمشروع وصل البحرين وكان يساوره نفس اعتقاد لوبير فى وجود فارق بين منسوب سطحى البحرين

.. وقد ارسل لينان دراساته الى قنصل فرنسا بالاسكندرية واطلع عليها ديلسبس الذى كان حينذاك نائبا للقنصل ، والذى فتح ملفا للمشروع واستفاد من كل الدراسات السابقة .

وفى عام ١٨٤٦ تشكلت جمعية للدراسات الخاصة بقناة السويس فى باريس . وفى سنة ١٨٤٧ اوفدت هذه الجمعية الفرنسية الانجليزية الالمانية احد الاخصائيين فى الطبوغرافيا للقيام بعملية مسح لبرزخ السويس ، وانتدبت الحكومة المصرية كبير مهندسيها لينان لمعاونته فى أعماله . فاثبت الاثنان انه لافارق يذكر بين منسوبى البحرين .

ويذكر انه لما عرض الاقتراح على محمد على انه رفضه قائلا ، لا اريد لمصر بسفورا آخر ، أى انه لا يريد ان يفتح للاجانب باب الاغارة على مصر .

وقد عكف فردينان ديلسبس بعد اعتزاله السلك السياسى على دراسة كل ما يتعلق بحفر قناة تربط البحرين ، فاطلع على كتاب وصف

مصر ، كما راجع تقارير لربير ودراسات اتباع سان سيمون وجمعية قناة السويس .

وفى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ تمكن ديلسبس - مستغلا صداقته للوالى محمد سعيد باشا - على فرمان الامتياز الاول - واصدر سعيد هذا الفرمان معطيا لديلسبس حق استغلال القناة لمدة تسعة وتسعين عاما تبدأ من تاريخ الافتتاح هذا عدا امتيازات اخرى كلها مجحفة بحق مصر ، كمنحه جميع الاراضى اللازمة لشق القناة البحرية وقناة المياه العذبة بدون مقابل ، واعطائه الحق فى استخراج المعادن فى المنطقة ، واعفاء كافة المهمات المستوردة من الخارج لصالح المشروع من الرسوم الجمركية ، هذا علاوة على امداده بالمهندسين والموظفين والعمل اللازمين للمشروع ، مع مساعدته وحمايته .

ومن المناسب ان نقدم نص الفرمان الأول ، حتى تكون الصورة اكثر وضوحا :

(مادة ١)

يؤسس المسيو فرديناند ديلسبس شركة نعهد اليه بادارتها تسمى « الشركة العامة لقناة السويس » تكون مهمتها القيام بشق برزخ السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى وانشاء واعداد مدخلين كافيين احدهما على البحر الأبيض المتوسط والآخر على البحر الأحمر وبناء مرفا او مرفأين .

(مادة ٢)

يعين مدير الشركة دائما من قبل الحكومة ويختار ما امكن من بين المساهمين الذين لهم اوثق الصلة بالمنشأة .

(مادة ٣)

مدة الالتزام تسع وتسعون سنه تبتدىء من التاريخ الذى تفتتح فيه قناة البحرين .

(مادة ٤)

تجرى الأعمال التى يقتضى اجراؤها على نفقة الشركة وحدها وتمنح بدون مقابل جميع ما يلزمها من الأراضى التى ليست ملكا للأفراد ولا تكون التحصينات التى ترى الحكومة القيام بها على نفقة الشركة ٠

(مادة ٥)

تجبى الحكومة سنويا من الشركة ١٥٪ من صافى الارباح المستخلصة من ميزانية الشركة وذلك فضلا عن الفوائد والحصص الخاصة بالأسهم التى تحتفظ الحكومة بحق الاكتتاب فيها لدى اصدارها وذلك دون أى ضمان من جانبها لتنفيذ الأعمال أو لقيام الشركة بمهمتها ٠ ويوزع الباقى من صافى الأرباح على الوجه الآتى :

٧٥ ٪ للشركة ٠ ١٠ ٪ للأعضاء المؤسسين

(مادة ٦)

يتم الاتفاق على تعريفات رسوم المرور بقناة السويس ما بين الشركة وخديو مصر ، ويجبى عمال الشركة هذه الرسوم وتكون التعويضات متساوية دائما لجميع الامم ولا يجوز مطلقا اشتراط امتياز خاص لاحدى دول دون سواها ٠

(مادة ٧)

اذا رات الشركة ضرورة وصل ما بين النيل وممر البرزخ بانشاء طريق صالح للملاحة أو اذا سلكت القناة البحرية طريقا متعرجا يرويه ماء النيل فتتنازل الحكومة المصريـــة للشركة عن الاراضى الداخلة فى الأملاك العامة مما لا يزرع اليوم لتقوم بربها وزراعتها على نفقتها أو تحت اشرافها ٠ وتنتفع الشركة بالأراضى المذكورة مع اعفائها من الضرائب مدة عشر سنوات ابتداء من يوم افتتاح القناة وتدفع ضريبة العشر للحكومة المصرية خلال التسع والثمانين سنة الباقية لانقضاء

مدة الالتزام وبعد ذلك لا يجرى لها المضى فى الانتفاع بالأراضى المذكورة الا اذا ادت للحكومة عنها ضريبة تعادل ما هو مفروض على الأراضى المماثلة من الضرائب ٠

(مادة ٨)

تلافيا لكل صعوبة تتصل بالأراضى التى ستتركها الحكومة للشركة الملتزمة يضع المسيو لينان بك المهندس المنتدب من قبلنا لدى الشركة رسما يبين الأراضى الممنوحة سواء لانشاء القناة البحرية ومؤسساتها وقناة التغذية المتفرعة من النيل أو للاستغلال الزراعى وفقا لأحكام المادة ٧ ٠

وفضلا عن ذلك فمن المتفق عليه ان كل مضاربة تتعلق بالأراضى الداخلة فى الاملاك العامة التى ستمنح للشركة محظورة من الآن ٠٠ وان الاراضى التى كانت تخص الأفراد ويريد ملاكها فى المستقبل ريها من مياه قناة التغذية المنشأة على نفقة الشركة يدفعون اتاوة عن كل فدان يزرعونه تحدد بالاتفاق بين الحكومة المصرية والشركة ٠

(مادة ٩)

واخيرا تمنح الشركة الملتزمة الحق فى ان تستخرج من المناجم والمحاجر الداخلة فى الأملاك العامة بجميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمبانى التابعة لها مع اعفائها من الرسوم كما أنها تنتفع بهذا الاعفاء فيما يتعلق بالآلات والمواد التى تستوردها من الخارج لاستغلال التزامها

(مادة ١٠)

عند انتهاء الالتزام تحل الحكومة المصرية محل الشركة فتنتفع بكافة حقوقها دون تحفظ وتستولى على قناة البحرين وجميع المنشآت التابعة لها وتؤول اليها ملكيتها الكاملة ٠ ويحدد مقدار التعويض الذى يمنح الى الشركة فى مقابل تنازلها عن المهمات والأشياء المنقولة باتفاق ودى او بطريق التحكيم ٠

(مـادة ١١)

بعرض مدير الشركة علينا ميما بعد نظام الشركة ويجب ان يحوز موافقتنا ولا بد من اقرارنا مقدما اى تعديل يدخل عليه فى المستقبل ويجب ان يذكر نظام الشركة اسماء المؤسسين على أن تحتفظ بحق اعتماد قائمتهم ويراعى ان يتضمن هذه القائمة أسماء الاشخاص الذين سبق ان ساهموا فى تنفيذ مشروع (قناة السويس) الكبير سواء باعمالهم أو بابحاثهم او بجهودهم أو بأموالهم .

(مـادة ١٢)

وفى الختام نعد بطيب تعضيدنا الخالص وكذا جميع موظفى الحكومة المصرية لتسهيل تنفيذ واستغلال هذا الترخيص .

القاهرة فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٥٤ .

وفى نهاية الفرمان يكتب (محمد سعيد) الرسالة التالية الى صديقه دبلسبس الى صديقى المخلص كريم المحتد رفيع المقام المسيو فردينان ديلسبس .

بما انه تلزم موافقة عظمة السلطان على الرخصة الممنوحة للشركة العامة لقناة السويس فانى ابعث اليكم بهذه النسخة لحفظها لديكم . اما الأعمال الخاصة بحفر قناة السويس فلن يبدأ فيها الا بعد الحصول على ترخيص الباب العالى .

٣ رمضان سنة ١٢٧١ .   (محمد سعيد باشا والى مصر)

وفى ٥ يناير ١٨٥٦ اصدر سعيد باشا فرمان الامتياز الثانى ، وهو تأييد لما جاء فى الفرمان الاول وتكملة له ، اذ نص فيه على وجوب استخدام اربعة اخماس العمال اللازمين للمشروع من المصريين ، وذكر فى كلا الفرمانين ان يكون نصيب الحكومة المصرية ١٥٪ من صافى الارباح السنويه للشركة .

ونص الفرمان الثانى على ما يلى :

نحن محمد سعيد باشا والى مصر بعد الاطلاع على الفرمان الصادر منا بتاريخ ٣٠ نوفبر سنة ١٨٥٤ الذى رخصنا فيه الى صديقنا فردينان ديلسبس ترخيصا خاصا فى تأسيس وادارة شركة عامة لشق برزخ السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى وانشاء واعداد مدخلين ذوى اتساع كاف احدهما على البحر الابيض المتوسط والآخر على البحر الاحمر وبناء مرفأ او مرفاين ٠

ولما كان جناب المسيو فرديناًن ديلسبس قد عرض علينا ان تأسيس الشركة المذكورة وفقا للاوضاع والشروط التى تتبع بوجه عام فى تأسيس الشركات من هذا النوع يحسن ان يسبقه النص مقدما بصورة اشمل واوفى على التكاليف بالالتزامات والاتاوات التى تفرض على هذه الشركة من ناحية، ومن ناحية اخرى على الامتيازات والاعفاءات والميزات التى تختص بها الشركة وعلى التسهيلات التى تمنح لادارتها ٠

لذلك قررنا ان تكون شروط الالتزام المشار اليها بهذا الفرمان كما يلى:

الباب الأول

الالتزامات

(مادة ١)

على الشركة التى اسسها صديقنا المسيو فرديناند ديلسبس وفقا لترخيصنا المؤرخ ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤ ان تقوم على نفقتها ومسئوليتها بجميع الاشغال واعمال البناء اللازمة للانشاء٠

١ ـ قناة صالحة للملاحة البحرية الكبرى بين السويس على البحر الاحمر وخليج الطينة (بورسعيد) على البحر الابيض المتوسط ٠

٢ ـ قناة للرى صالحة للملاحة النهرية فى النيل تصل هذا النهر بالقناة البحرية المذكورة ٠

٣ ـ فرعين للرى والشرب مستقيين من القناة الاخيرة لجلب المياه فى اتجاهى السويس والطينة اليهما ٠

وتجرى الاعمال بحدث تنتهى فى ميعاد غايته ست سنوات الا اذا طرأت موانع واسباب تأخير ناشئة عن قوة قاهرة ٠

(مـــادة ٢)

للشركة ان تنفذ بذاتها الاعمال المكلفة بها أو ان تعهد بها الى مقاولين بطريق المناقصة أو الممارسة ويجب فى جميع الاحوال أن يكون أربعة اخماس العمال المستخدمين فى هذه الاعمال - على أقل تقدير - من المصريين ٠

(مـادة ٣)

تحفر القنـاة البحريـة المعـدة لمرور السفن الكبرى بالعمق والاتساع المحددين فى برنامج اللجنة العلميـة الدولية ، ووفقـا لهـذا البرنامج تبتدىء القنـاة فى منبعهـا من مينـاء السويس ذاته وتستمر فتجتاز البحيرات المرة فى بحيرة التمسـاح وتنتهى فى مصبهـا فى البحـر الأبيض المتوسـط عند نقطة من خليج الطينة تحددها المشروعـات النهائيـة التى سيضعهـا مهندسـو الشركـة ٠

(مـادة ٤)

تبتدىء قنـاة الرى المعـدة للملاحـة النهريـة وفقـا لشروط البرنامج المذكور بالقـرب من مدينـة القاهرة وتسير فى وادى الطميلات وتنتهى لتصب فى القنـاة البحريـة الكبرى عنـد بحيرة التمسـاح ٠

(مـادة ٥)

تتفرع القنـاة السابق ذكرهـا قبيـل مصبهـا فى بحيرة التمســاح فيتجه فـرع من هـذه النقطة الى السويس وفـرع آخـر الى الطينة بمحاذاة القناة البحريـة الكبرى ٠

(مـادة ٦)

تحول بحيرة التمسـاح الى مرفأ داخلى صالح لاستقبال اكبـر السفن حمولة ويجب على الشركـة فوق ذلك ، عند الاقتضـاء :

١ - أن تبنى مرفأ تأوى اليه السفن عند مدخل القناة البحرية فى خليج الطينة .

٢ - أن تحسن مرفأ وبوغاز السويس بحيث تأوى اليهما السفن كذلك .

(مادة ٧)

توالى الشركة دائما القيام على نفقتها بصيانة القناة البحرية والموانىء التابعة لها والقناة المتصلة بالنيل والقناة المتفرعة عنها .

(مادة ٨)

لمن يرغب من ملاك الأراضى الواقعة على ضفاف الأقنية التى تنشئها الشركة فى رى أرضه بالمياه المستمدة من هذه الأقنية أن يحصل على هذا الامتياز فى مقابل دفعه تعويضا أو اتاوة تحدد قيمتها وفقا للشروط المبينة بعد فى المادة (١٧) .

(مادة ٩)

نحتفظ بحق انتداب مندوب خاص فى مركز ادارة الشركة يتقاضى منها مرتبه ويمثل لدى ادارتها حقوق الحكومة المصرية ومصالحها فيما يتصل بتنفيذ أحكام هذا الفرمان وشروطه .

وعلى الشركة اذا كان مركز ادارتها خارج مصر أن تعين وكيلا أعلى يمثلها بمدينة الاسكندرية مزودا بكافة السلطات اللازمة لضمان حسن سير العمل وعلاقات الشركة بحكومتنا .

(مادة ١٠)

لانشاء القنوات وملحقاتها المشار اليها فى المواد السابقة تترك الحكومة المصرية للشركة الانتفاع بلا ضريبة أو اتاوة بما قد يلزمها من الأراضى غير المملوكة للأفراد .. كذلك تخول للشركة حق الانتفاع

بجميع ما ستقوم الشركة بريه وزراعته على نفقتها من الأراضى التى لا تزال بورا حتى اليوم وليست ملكا للأفراد وذلك مع التحفظات الآتية :

١ - تعفى الأراضى الداخلة فى هذه الفئة الأخيرة من كل ضريبة لمدة عشر سنوات فقط ابتداء من تاريخ بدء استغلالها .

٢ - بعد انتهاء المدة المذكورة تصبح هذه الأراضى طيلة الباقى من مدة الالتزام خاضعة للالتزامات والضرائب التى تخضع لها فى الظروف نفسها سائر أراضى القطر المصرى .

٣ - يمكن للشركة فيما بعد اما بنفسها واما بمن تلقى الحق عنها موالاة الانتفاع بهذه الأراضى واستمداد المياه اللازمة لاستثمارها وذلك فى مقابل توفية الحكومة المصرية الضرائب المفروضة على الأراضى المماثلة لها .

(مادة ٢١)

يرجع الى الرسوم الملحقة بهذا البيان فى تعيين مساحة الأراضى الممنوحة للشركة وحدودها طبقا للفقرتين (١ و ٢) من المادة العاشرة السابقة والأراضى الممنوحة لانشاء الأقنية وملحقاتها من الضريبة ووالاتاوة وفقا للفقرة الاولى ملونة من الرسوم المذكورة باللون الاسود ... اما الاراضى التى تركت للشركة لتقوم بزراعتها على أن تدفع عنها بعض الرسوم وفقا للفقرة الثانية فقد لونت باللون الأزرق .

تعتبر باطلة كل وثيقة لاحقة لفرماننا الصادر فى الثلاثين من شهر نوفمبر سنة الف وثمانمائة واربع وخمسين تنشىء للافراد قبل الشركة ، اما حقا فى المطالبة بتعويض لم يكن قائما اذ ذاك على الأراضى واما حقا فى المطالبة بتعويضات تفوق القدر الذى كان يجوز لهم المطالبة به فى ذاك الحين .

(مـادة ١٢)

تسلم الحكومـة المصريـة عنـد الاقتضـاء الى الشركـة الأراضى التى يملكهـا الأفراد والتى تلزم الشركـة حيازتهـا لتنفيذ الأعمـال واستغلال الالتزام على أن تدفـع الشركـة التعويضـات العادلة لمستحقيها ٠

تسوى التعويضـات عن الاستيلاء المؤقت أو نزع الملكيـة النهائيـة تسوية وديـة بقـدر الامكـان وفى حالة عـدم الاتفـاق تحـدد التعويضات هيئة تحكيم تباشر عملهـا باجراءات مختصرة تؤلف من :

١ ـ محكم تختاره الشركـة ٠

٢ ـ محكم يختاره اصحـاب الشأن ٠

٣ ـ محكم ثالث معين منـا ٠

وتكون قرارات هيئة التحكيم هـذه نافذة وغير قابلة للاستئناف ٠

(مـادة ١٣)

ترخص الحكومـة المصرية للشركـة الملتزمة طيلة مدة الالتزام فى أن تستخرج من المناجم والمحاجـر الداخلة فى الأملاك العـامة جميـع المـواد اللازمـة لأعمـال البنـاء ولصيانة المنشـآت والمبانى التابعة لهـا دون أن تدفـع عن ذلك اى رسـم أو ضريبة او تعويض ٠

ـركة فوق ذلك من اداء الرسـوم الجمركية ورسـوم الدخولية وغيرهـا عى الآلات ٠٠ والمـواد التى تستوردهـا من الخـارج سـدا لحاجة مختلف اقسـامهـا خـلال مـدة الانشـاء او الاستغلال ٠

(مـادة ١٤)

نعلن رسميـا باسمنـا وباسـم خلفائنـا ان القنـاة البحرية الكبرى من السويس الى الطينة والمرافق التابعـة لهـا مفتوحة على الدوام بوصفهـا ممرا محايدا لكل سفينة تجاريـة عابرة من بحـر الى آخـر دون تمييز أو

حرمان او تحصيل من الأشخاص أو الجنسيات فى مقابل دفع الرسوم ومع مراعاة الأنظمة التى تفرضها الشركة العامة الملتزمة فيما يتعلق باستخدام القناة المذكورة وملحقاتها وذلك بشرط اقرار الباب العالى .

(مادة ١٥)

يترتب على المبدأ المقرر فى المادة السابقة أنه لا يجوز للشركة العامة الملتزمة فى اى حال من الأحوال أن تمنح اية سفينة أو شركة أو فرد اية فوائد أو امتيازات لا تمنح لغيرها من السفن أو الشركات أو الأفراد فى نفس الأحوال .

(مادة ١٦)

مدة الشركة محددة بتسع وتسعين سنة تبتدىء من تاريخ انجاز الأعمال وافتتاح القناة البحرية للملاحة . وتستولى الحكومة المصرية لدى انقضاء هذه المدة على القناة البحرية التى انشأتها الشركة . وتتسلم الحكومة فى هذه الحالة جميع الآلات والمنشآت المخصصة للخدمة البحرية للمشروع مع توفية الشركة قيمتها محددة وديا أو بواسطة الخبراء . على انه اذا احتفظت الشركة بالتزام لمدد متتالية كل منها تسع وتسعون سنة ، رفع الاستقطاع المشترط لصالح الحكومة المصرية فى المادة الثامنة عشرة المذكورة بعد الى عشرين فى المائة فى المدة الثانية والى خمسة وعشرين فى المائة فى المدة الثالثة وهكذا على التوالى بزيادة خمسة فى المائة لكل مدة دون أن يتجاوز هذا الاستقطاع بحال من الأحوال خمسة وثلاثين فى المائة من صافى ارباح المشروع .

(مادة ١٧)

تعويضا للشركة عن نفقات البناء والصيانة والاستغلال التى كلفت بها بمقتضى هذا الفرمان نرخص لها من الآن وطيلة المدة التى تتمتع فيها بالالتزام وهى المدة المبينة فى الفقرتين الأولى والثالثة من المادة السابعة فى أن تفرض وتتقاضى عن المرور فى الأقنية والمرافىء التابعة

لهـا رسوما لملاحـة والارشـاد والقطـر والسحب والرسـو وفقـا لتعويضـات لهـا أن تعدلها فى كل وقت مـع مراعـاة الشروط الصريحـة الآتية :

١ ـ تحصـل هـذه الرسـوم دون استثنـاء أو تمييز على جميـع السفن بشروط مماثلة ٠

٢ ـ تنشر التعريفـات قبل ثلاثة اشهر من العمـل بهـا فى عواصـم البلدان التى يعنيها الامر وفى مراغئهـا التجاريـة الرئيسية ٠

٣ ـ لا يزيـد رسـم الملاحـة الخاص على حـد أقصى قدره عشرة فرنكات عن كل طن من حمولة السفن وعن كل فـرد من المسـافرين ٠

ويجوز للشركـة ايضـا فى الحالات التى تمـد الافـراد فيهـا بالميـاه بناء على طلبهم طبقـا لنص المـادة الثامنة المتقدمة ان تتقـاضى منهم وفقا لتعريفـات تحـددهـا رسما بتناسـب وكميـة الميـاه المستهلكـة ومساحة الاراضى التى يتم ريهـا ٠

(مـادة ١٨)

على انه فى مقابـل الاراضى المتنازل عنهـا والامتيازات الاخـرى الممنوحـة للشركـة بمقتضى المـواد السـابقـة نحتفظ لصـالح الحكومـة المصريـة بحق استقطـاع ١٥ فى المـائة من صافى الارباح السنوية التى تحددها وتوزعهـا الجمعيـة العموميـة للمساهمين ٠

(مـادة ١٩)

يجب ان تعتمد بقرار منا قائمة الاعضاء المؤسسين الذين اشتركـوا باعمالهم وبحوثهم واموالهم فى تحقيق المشروع قبـل تأسيس الشركـة ٠ وبعـد استقطاع الحصـة المنصوص عليهـا لصالح الحكومـة المصريـة طبقـا للمـادة (١٨) المتقـدم ذكرهـا يخصص جزء من صافى اربـاح المشروع السنوية قدرهـا ١٠ فى المـائة للأعضـاء المؤسسين او لورثتهم أو لمن يحـل محلهم فى حقهم ٠

(مادة ٢٠)

بغض النظر عن الوقت اللازم لتنفيذ الاعمال يراس صديقنا ووكيلنا المسيو فردينان ديلسبس الشركة ويديرها بوصفه مؤسسا أول لها وذلك لمدة عشر سنوات تجرى من اليوم الذى تبدأ فيه مدة التمتع بالالتزام وقدرها تسع وتسعون سنة وفقا للمادة (١٦) ٠

(مادة ٢١)

تعتمد الأنظمة المرافقة للشركة المنشاة تحت اسم (الشركة العامة لقناة السويس الكبرى) ويعتبر هذا الاعتماد بمثابة ترخيص لتاسيس الشركة فى شكل الشركات المساهمة اعتبارا من اليوم الذى يتم فيه الأكتتاب فى كامل راس المال ٠

(المادة ٢٢)

واظهارا لرغبتنا الأكيدة فى نجاح المشروع فاننا نعبد الشركة بتعضيد الحكومة المصرية لها تعضيدا خالصا ٠ ونحث صراحة بمقتضى هذا جميع الموظفين والمامورين والعمال فى اقسام ادارتنا على امدادها بالمساعدة وحمايتها فى كل مناسبة ٠

ولما كنا قد وضعنا مهندسينا (لينان بك) و (موجل بك) تحت تصرف الشركة فيما يتعلق بادارة وتسيير الاعمال التى تامر بها فاننا نعهد اليهما كذلك بالاشراف الأعلى على العمال وعليهما تنفيذ اللوائح الخاصة بمباشرة الأعمال ٠

(المادة ٢٣)

تلغى جميع الأحكام الواردة فى فرماننا الصادر فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٨٥٤ وغيرها من الأحكام التى تتعارض مع نصوص واحكام شروط الالتزام هذه ٠ وهى التى تعتبر وحدها قانونا للالتزام المنصوص على حدوده وشروطه فيها ٠

صدر بالاسكندرية فى ٥ يناير سنة ١٨٥٦ ٠

الى صديقى المخلص الكريم المحتد والرفيع المقام المسيو فرديناند ديلسبس .

بما انه يجب تصديق عظمة السلطان على الالتزام الممنوح للشركة العامة لقناة السويس فانى أرسل لكم هذه الصورة الرسمية لتتمكنوا من تأسيس الشركة المذكورة من الناحية المالية .

أما أعمال حفر البرزخ فتستطيع الشركة مباشرتها حالما يصدر ترخيص الباب العالى لنا .

القاهرة فى ٢٦ ربيع الثانى ١٢٧٢

الموافق ٥ من يناير ١٨٥٦

وفى ١٥ ديسمبر تأسست الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية برأس مال قدره ٢٠٠ مليون فرنك فرنسى مقسم على ٤٠٠ ر ٠٠٠ سهم كل منها قيمته ٥٠٠ فرنك . وكان نصيب مصر من الاسهم ١٧٦ر٦٠٢ سهما قيمتها ٨٨ر٣ مليون فرنك ، أى ما يساوى نصف راسمال الشركة . أما باقى الاسهم فقد وزع على عدد من الدول .

وفى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ بدأ حفر القناة من مدينة فرما (موقع بور سعيد الحالية) وتقدمت الأعمال بسرعة على أيدى المصريين المسخرين لهذا العمل ، وفى ظروف قاسية منها نقص الماء والغذاء وحرارة الشمس ، فضلا عن انتشار الأمراض والاوبئة ، حتى يقدر بعض المؤرخين ان هناك رفات ١٢٠ الف مصرى طوتهم رمال الصحراء على طول القناة فى سنوات حفرها اى حتى عام ١٨٦٩ .

وفى ١٨ نوفمبر ١٨٦٢ تم وصل البحر المتوسط ببحيرة التمساح التى تقع فى منتصف المسافة تقريبا بين بور سعيد والسويس .

وفى ٦ يوليو ١٨٦٤ طالب الخديو اسماعيل بتعديل فرمانى الامتياز الممنوحين للشركة على عهد سعيد باشا ، وذلك بالغاء

السخرة فى اعمال القناة وتخفيض مساحة الاراضى الممنوحة للشركة واسترداد قناة المياه العذبة التى تم حفرها فى ٢ فبراير ١٨٦٢ لتوصيل المياه من النيل الى مواقع العمل • فوافق ديلسبس على مطالب الخديو مقابل منح الشركة تعويضا قدره ٨٤ مليون فرنك ، وذلك بناء على تحكيم نابليون الثالث امبراطور فرنسا •وكانت الشركة وقتئذ فى مسيس الحاجة الى المال لتمويل الاعمال الجارية فى المشروع •

وفى ١٨ مارس ١٨٦٩ تم وصل البحر المتوسط بالبحيرات المرة المرة وسط مهرجان كبير حضره الخديو اسماعيل وولى عهد انجلترا •

وفى ١٨ اغسطس ١٨٦٩ تدفقت مياه البحرين المتوسط والاحمر ، وتآلف منهما قناة السويس • وهكذا انتهت الاعمال فى هذا المشروع الضخم الذى استغرق تنفيذه عشر سنوات • وقد بلغت تكاليف المشروع ٣٦٩ مليون فرنك اى ما يزيد قليلا على اربع عشرة مليون جنيه وضعف المبلغ الذى كان مقدرا لانجازه •

ومع بدايات شهر نوفمبر ١٨٦٩ بدات الاستعدادات لاحتفالات افتتاح القناة •

وبدأ مركب الملوك والامراء وكبار الشخصيات (نحو ٦٠٠٠ من دول العالم كله) يدخل ميناء بور سعيد يوم ١٦ نوفمبر • وكانت آلاف المصريين فى انتظار الموكب لحظة دخوله للقناة ، وكانت الباخرة (ايجل) وعلى سطحها امبراطورة فرنسا اوجينى تدخل القنطرة ثم التمساح وهى تلوح بمنديلها للمستقبلين •

وقد شيد اسماعيل من اجل رفاهية ضيوفه قصرا فخما على شاطىء بحيرة التمساح و ١٢٠٠ خيمة لاقامتهم ، وانشا طريقا من القاهرة الى اهرام الجيزة ، اتمه عشرة آلاف عامل فى شهر واحد ، واقام دارا للأوبرا •

وفى ليلة ١٦ نوفمبر ، حين اكتمل وصول سفن المدعوين الى بورسعيد بدأت مراسم الحفل العظيم ، واخذت الموسيقى تعزف بين دوى المدافع •

وانفق اسماعيل على هذه الاحتفالات أكثر من مليون جنيه ، وهو رقم ضخم جدا بقيمة العملة فى ذلك الوقت ·

وفى يناير ١٨٧٥ لم تتمكن الشركة من سداد الفوائد المستحقه على الاسهم للمساهمين بسبب ضعف حركة الملاحة · وهنا لجأ الخديو اسماعيل لحاجته الماسة الى المال الى بيع اسهم مصر فى القناة الى انجلترا بمبلغمائة مليون فرنك (٠٠٠ ر ٨٥٨ ر ٣ جنيه) وكانت انجلترا تهدف من هذه العملية وضع قدم لها فى الشركة ·

وتوالت الامور بسرعة ، واحست انجلترا بالقيمة الكبرى للقناة ·· ورأت أن تستولى عليها بل على مصر كلها تأمينا لطرق مواصلاتها مع جوهرة التاج البريطانى (الهند) · وهكذا تنتهز انجلترا الفرصة ابان الثورة العرابية (١) وتدعى انها حامية للخديو ضد عرابى وتحتل مصر كلها تأمينا لمواصلاتها الامبراطورية ·

---

(١) انظر الفصل الخامس ·

الفصل الخامس

الثورة العرابية

تميزت الفترة السابقة للثورة العرابيــة بسيطرة الاتراك والشراكسة على الحيــاة المدنيــة والعسكريــة فى مصر ، بــل ان رياض باشــا رئيس الوزراء فى الفترة الســابقــة للثورة كان لا يميل الى ترقية الضباط المصريين ليفسح المجال لأصدقائه من الاتراك والشراكسة للترقى الى أعلى المناصب (١)

ويصف الزعيم احمد عرابى هذه الحالة فى مذكراته « ... لقد تحملت مدة ولاية اسماعيل الجائرة بكل صبر وثبات تحت ضغط الظلم والاستبداد ، ومكثت برتبة القائمقام مدة تسع عشرة ســنة انظــر الى صغار الضباط الذين كانوا تحت ادارتى فى عهــد سعيــد واسماعيل باشــا وهم يترقون دونى ، فترقى بعضهم الى رتبة أميرالاى وبعضهم الى رتبة أمير اللــــــواء وبعضهم الى رتبة الفريق ، لا بعلم علموه من دونى ولا بفهم خــارق للعادة ولا بشجاعــة أبرزوهــا فى ميادين القتــال ، ولكن لكونهم من مماليك او أبناء مماليك العائلة الخديويــة ، فاصطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجوارى الحســان والاراضى الواســعة الخصبة والبيوت الرحبة وحباهم باموال الكثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين المساكين وعرق جبينهم » (٢) .

وينضح من هذا الوصف أمران ... اولهما مــا كان يلاقيه المصريون من عنت حتى ان ضابطا مصريا ظل تسعة عشر عاما فى رتبة واحدة ، وثانيهما سوء توزيع الارض الزراعية . فقد كانت هذه الارض توزع كما ذكر عرابى على المماليك ، أو أبناء مماليك العائلة الخديوية بينما كان المصريون يتضورون

---

(١) Newman - Great Britain in Egypt p. 53.

(٢) أحمد عرابى ، مذكرات عرابى . الجزء الاول صفحة ٤٥ .

جوعا ، بل انهم كانوا يروون الارض بعرقهم ، ودمائهم لتنعم بخيراتها تلك الطغمة المسيطرة المستغلة ٠

ولعلنا نتساءل كيف ان هذا المجتمع ظل بهذه الصورة بعد ان أرسل محمد على البعثات التعليميه فى مختلف فنون المعرفة الى اوربا منذ اكثر من خمسين عاما ، وهل ساعدت البعثات التعليمية على ايجاد فئة تحس بالمظالم الواقعة عليها ام لم تساعد ٠

وما من شك فى ان هذه النهضة التعليمية ، كان لابد وان تؤتى ثمارها فى امداد المجتمع بطائفة من المثقفين والفنيين اللازمين لتطوير المجتمع ، كما ساعدت هذه النهضة التعليمية على خلق تيارات فكرية عصرية اشعرت المصريين بمدى الظلم الواقع عليهم (١) ٠

وكان من اهم مظاهر اليقظة العلمية الجديدة ، تاسيس الصحف على يد طائفة من العلماء والادباء المصريين ، وقد كان لهذه النهضة الصحفية اثرها الفعال فى تغذية الرأى العام بالآراء والافكار المصرية ٠

وبدات اسباب الاحتكاك بين الراى العام فى مصر والحكومة منذ بدات أحوال الخزانة تسوء كنتيجة حتمية لسياسة البذخ والاقتراض التى التزمها اسماعيل ، مما مهد الطريق للتدخل الاجنبى فى شئون البلاد ٠

وتوالت الاحداث بسرعة ، واصبح التدخل الاجنبى فى شئون البلاد يتفاعل تفاعلا طرديا مع سوء أحوالها الاقتصادية ، فبعد ان رهن اسماعيل كل موارد الدولة لضمان سداد الديون ، قام ببيع أسهم مصر فى القناة لانجلترا بثمن بخس ، ثم اقترح اسماعيل نفسه حضور بعثة تحقيق انجليزية لفحص المالية المصرية ، وجاءت بعثة « كيف » بالفعل لانجاز هذه المهمة ووضعت هذه البعثة تقريرا اقترحت فيه ان تخضع المالية المصرية للمشورة الاوربية ، وذلك بانشاء هيئة رقابة يراسها انجليزى على ان يحترم الخديوى قراراتها ٠ الا أن فرنسا عطلت تنفيذ هذا الاقتراح بعد أن رات فيه استئثارا من جانب انجلترا بالسيطرة على مصر ٠

---

(١) انظر التعليم فى عصر محمد على وعصر اسماعيل فى الفصلين الثانى والثالث ٠

ثم اسندت الازمة الماليه . ومن ثم أصدر اسماعيل نفسه مرسوما سنة ١٨٧٦ بانشاء صندوق الدين ، وكان هذا الصندوق اول هيئة أوربية رسمية لغرض التدخل الاجنبي في شئون مصر .

واضطر اسماعيل تحت الضغط الانجليزى الى قبول نظام المراقبه الثنائية وهكذا خضعت المالية المصرية للرقابة الاجنبية واصبح هنـــاك مراقبـان أحدهما انجليزى للايرادات والثانى فرنسى للمصروفات .

ورغم ذلك ازدادت الحالة ســوءا ، فاضـطر اسماعيل الى اصدار مرسوم بتأليف لجنة أوربية عرفت بلجنة التحقيق العليا لدراسة أسباب العجـز ووسـائل اصلاح الماليـة المصريـة . ورات اللجنــة ان يحــل محل الرقابة الثنائية وزارة مختلطة فيها وزيران أوربيان أحدهما انجليزى للمالية والثانى فرنسى للأشغال ، وقد قبل اسماعيل هذا الاقتراح .

وقد تقلد نوبار هذه الوزارة ، وهو ارمنى متمصر عرف بولائه للأجانب والسير فى ركابهم .

وقد استقبل الشعب هذه الوزارة بالسخط الشديد ، وقد ســاعد على اذكاء شعور الاستنكار تلك التيــارات الفكرية الواعية والخصبة ، وتلك الطائفة الفذة من قواد الراى والفكر الذين شـحنوا الأذهان بأفكار القومية والحرية ويكفى أن نذكر اســماء جمال الدين الأفغانى ورفاعة الطهطـاوى والشيخ محمد عبده ، وغيرهم ، حتى نتبين شعور الشعب نتيجة لتشـكيل هذه الوزارة الأجنبية .

وقد قامت وزارة نوبار عن عمد باهمال الجيش المصرى اهمالا شديدا ، وكانت سياسة الأجانب تقوم على اضــعافه حتى لا يقف فى طريقهم حينما تأتى ساعة التدخل العسكرى فكانوا بذلك يمهدون الطريق للاحتـال .

وكان من جملة التدابير التى قامت بها وزارة نوبار ازاء الجيش تسريح عدد كبير من الجنود تحت ستار الاقتصاد فى النفقات ، كما أحــالت ٢٥٠٠ ضابط دفعة واحدة الى الاستيداع .

وهكذا كان هناك المثير المباشر لحركة عسكرية ضد السلطة القائمة وان كانت هذه الحركة العسكرية تمثل سخط الشعب كله على الوزارة الأوربية ، وعلى اردياد التدخل الاجنبى فى شئون البلاد • وفى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ عقد نحو ٦٠٠ ضابط اجتماعا فى ثكنات العباسـية وخرجوا فى مظـاهرة ضخمة انضم اليها طلبة المدرسة الحربية ونحو ٢٠٠٠ جندى ، وساروا فى شوارع القاهرة بهذا الموكب قاصدين وزارة المالية ، وفى الطريق قاموا بالقبض على نوبار رئيس الوزراء وكذلك على وزير المالية البريطانى واتجهوا بهم الى وزارة الخارجية وسجنوا رئيس الوزراء والوزير فى احدى غرفها •

وقد قدمت الوزارة النوبارية فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ استقالتها بعد الاهانة التى لحقت بها ، وعهد الخديو الى نجله محمد توفيق تاليف الوزارة الجـديدة (١) •

« ولقد كانت مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ اول عصيان عسكرى من نوعه ضد السلطة السياسية (٢) » • وقد استغل الاجانب نقمة الشعب المصرى على الخديو فسعوا لخلعه ، وكانوا ايضا مشتركون فى النقمة عليه لاعتقادهم بعدم اخلاصه للوزارة الأوربية واسراعه فى قبول اسـتقالتها وتاليفه وزارة برئاسة نجله تحل محلها •

وهكذا أرسل الأجانب يقترحون عليه التنـازل عن الحكم ، فاجـاب اسماعيل بانه مستعد لاعادة المراقبة الثنائية الى ما كانت عليه ، فرفضوا وعرضوا عليه فى حالة التنازل مرتبا ضخما على أن يتولى السـلطة ابنه توفيق فطلب اسماعيل مهلة يومين للتفكير ، وجاءه القنصـلان الانجليزى والفرنسى يطلبان الرد فى الأجل الموعود ، فاخبرهم اسماعيل بانه نقل المسالة الى السـلطان •

---

(١) أمين سعيد : سلسلة كتب تاريخ مصر السياسى الحديث (١٢) ص ٤٤ ـ ٤٥ •

(٢) د • محمد فؤاد شكرى ـ مصر والسودان ص ١٦٧ •

وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ أصدر السلطان مرسوما بخلع اسماعيل وتولية توفيق بدلا منه ، ومن ثم غادر القاهرة فى ٣٠ يونيو الى ايطاليا (١)

وفى مدى ثلاثة اشهر توالت ثلاث وزارات هى وزارة شريف ، ثم الوزارة التى رأسها الخديو توفيق بنفسه ، ثم وزارة رياض باشا التى تألفت فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ .

وقد تأكد لدى المواطنين أن حكومة رياض باشا قد قبلت المراقبة التى تحولت الى اداة تفوض سيطرة انجليزية - فرنسية على مصر عندما شاهدوا التعاون الوثيق بين رئيس الوزراء والمراقبة . ومن ثم انتشر التذمر ضد « العهد الجديد » وكره الشعب نظاما اعتبره امتدادا للظلم الذى تحمله لصالح الأجانب وسار المصريون بخطى سريعة فى طريق الثورة ضد حكومة الخديو الضعيفة المستسلمة للنفوذ الأجنبى ، ولم يجد الساخطون وسيلة لانهاء هذه الحالة (سوى المطالبة) « بتأسيس الحكومة على قواعد الشورى ، ومنح بعض المنتخبين من الأهالى حق المشاركة فى كليات أعمال الحكومة » . ومعنى هذا تقييد السلطة التنفيذية كاجراء ضرورى لأنهاء النفوذ الاجنبى المسيطر عليها ، وكان بسبب هذا التذمر ان تشأ حزب سرى من المثقفين والأغنياء سموا أنفسهم بالحزب الوطنى وجعلوا مركز حزبهم فى فى حلوان . ولم يكن هؤلاء هم المتذمرين فقط من الحكومة ، بل انتشر التذمر كذلك بين رجال الجيش نتيجة للغبن الواقع عليهم واستئثار الطبقة التركية بالمناصب العليا فى الجيش (٢) .. وهكذا ولد الاحساس بالظلم والشعور بالثورة .

وقبل أن نسترسل فى الكلام عن الثورة العرابية ، يجب أن نتحرى بايجاز شديد العوامل التى دفعت الى قيام هذه الثورة .

ولأول وهلة ، توصف ثورة عرابى بأنها ثورة عسكرية ، لان زعيمها والقائمين عليها هم من ضباط الجيش ، ولأنها قامت وتحركت بقوة الجيش ، ولكن مما لا ريب فيه انها ليست ثورة عسكرية فحسب،

---

(١) أمين سعيد (المصدر السابق) ص ٩٧ - ٩٨ .
(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

بل هى ايضا ثوره وطنية اشتركت فيها طبقات الامة كافة ، واذا اردنا ان نحلل أسبابها وجدناها على نوعين : اسباب خاصة مباشرة ، وهى المرتبطة بفئة الضباط والجنود وموقفهم من الحكومة وموقف الحكومة منهم ، واسباب عامة وهى التى تتصل بحالة الشعب والعوامل التى دفعته الى مناصرة الثورة وتاييدها (١) .

الأسباب المباشرة :

ترجع الأسباب الى الشعور بالظلم بين ضباط الجيش نتيجة لاستئثار الجراكسة - والأتراك - كما قلنا - بالمناصب العليا فى الجيش ، ولاستئثار هذه الفئة ايضا بالمرتبات الضخمة والترقيات فى حين ظل الضباط المصريون محرومين من هذا كله .

كما يرجع تذمر الضباط المصريين الى ايام حملة الحبشة سنة ١٨٧٦ ، وذلك لسوء تصرف القيادات واهمالها الذى أودى بحياة الألوف من الجنود ، فتكونت من هؤلاء عند عودتهم جمعية سرية ، كان من رجالها أحمد عرابى وعلى فهمى وعلى الروبى ، وكان غرضهم فى هذا الوقت المبكر الى جانب التخلص من الفئة الشركسية التركية فى الجيش وفتح باب الترقى للمصريين ، القضاء على حكومة الخديو اسماعيل وعزل الخديو نفسه ثم تعرف أحمد عرابى بالشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى ويعقوب سامى وغيرهم ، وحدث أول تآزر بين العسكريين والوطنيين فى حادث مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ (٢) .

ولا شك أن وجود عثمان رفقى وزيرا للحربية فى عهد وزارة رياض باشا - التى شبت الثورة فى عهدها - كان سببا فى حد ذاته من أسباب الثورة . فقد كان شركسيا متعصبا للضباط الذين هم من أصل شركسى او تركى . على ان المظالم التى عانى منها الضباط المصريين ، لم تكن تتوقف

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابى - الطبعة الثالثة ص ١٥ - ١٦ .

(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٠٠ .

عند حد حرمانهم من حقوقهم فى الترقى ، بل كانوا هدفا للاضطهاد كذلك . اذ كان يكفى أن تلصق بأحدهم تهمة ما ولو كانت كاذبة ليكون جزاؤه العزل أو النفى ، فالثورة العرابية كانت ثروة مشروعة للدفاع عن الحق والدفاع عن الحياة . ولا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى على مسرح الحوادث ، كان من الأسباب المباشرة للثورة ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بالحقوق المهضومة .

الأســـباب السياسية :

ترجع تلك الاسباب الى تذمر المصريين بصفة عامة من سوء نظام الحكم القائم ورغبتهم فى التخلص منه ، فقد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام واضطهادهم للمواطنين .

فالمصريون اذن كانوا يتطلعون الى التخلص من نظام الحكم القائم ، وقد أدرك المثقفون من الأمة أن اصلاح هذا النظام انما يكون بقيام الدستور وانشاء مجلس نيابى يرطد مبادىء العدل والحريـــة ويتحـــقق فيـــه معنى الرقابة على الحكام ، ويحول دون ارتكاب المظالم ... ومن هنا اتحـدت الفئة المثقفة من الامة مع الضباط والوطنيين فى الشعور والميول وأجمع الكل على المطالبة بالمجلس النيابى ، فالثورة العرابية من هذه الوجهة كانت ثورة على المظـــالم .

وبينما كانت فئة المثقفين ترتقب اعلان الدستور على يد الخديو توفيق اذا بهم يرون شريف باشا يستقيل لمعارضة توفيق تشكيل مجلس النواب واصراره على الحكم المطلق ، ثم تكليفه رياض باشا بتأليف وزارة كان من مبادئها الأساسية حكم البلاد حكما مطلقا ، وهكذا عارض رياض فى انشاء مجلس النواب وانحاز للنفوذ الاوربى ، وأصر على قمع كل معارضة بالشدة ، كما انذرت الصحف المعارضة وعطلت بعضها . ولقد كان للصحف المعارضة دورها البارز ، فما كانت تبثه من روح التبرم بنظام الحكم والتطلع الى الحرية والدستور وما لقيته من اضطهاد ، كل ذلك كان من الأسباب الممهدة للثورة والمحرضة عليها .

الأســباب الاقتصـادية :

كانت الأحوال الاقتصادية فى ذلك الوقت شديدة الوطأة على المواطنين، فان الديون التى اقترضها الخديوى اسماعيل ، القت على البلاد عبئا جسيما من الأثقال الفادحـــة ، وأضطرت الحكومة الى تخصيص نصــف موارد الميزانية لســداد فوائد الديون ، فكان ذلك ســببا لتذمر المواطنين ، لأن تخصيص هذا المبلغ الضخم الذى يجبى كل عام من عرق الفلاح وكده معناه حرمان المواطنين من ثمرة جهودهم واضاعتها لحساب الدائنين ، هذا فضــلا عن فداحة الضرائب فى مجموعها ، وعدم توزيعها توزيعا عادلا واقتضــائها بوسائل القهر والارهاق ، فانضم المواطنون الى الثورة وشايعوها آملين أن تخفف عنهم أعباء الضرائب ٠

وكان استفحال نفوذ الاجانب عـامة واستحواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية قد أدى الى تبرم الأهالى بنظام الحكم ، فان الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها والمزايا التى نالها التجار والمرابون منهم اكسبتهم الأموال الطائلة ، فاثروا على حساب الخزانة المصرية وعلى حساب المواطنين ٠

ومن مظاهر سياسة الحكومة الاقتصادية انقاص عدد الجيش توفيرا للنفقات وسواء كان هذا الانقاص بسبب الأحوال الاقتصادية أو لاضعاف الجيش عمدا ، فمما لا شك فيه أن احالة الكثير من الضباط الى الاستيداع ، قد أدى الى مشاركة هؤلاء للموظفين الذين راوا مظاهر اتساع سلطة الأوربيين وازدياد نفوذهم فى دور الحكومة وتمييـزهم بالرواتب الضـــخمة مما ملأ نفوســهم بروح السخط والتبــرم ٠

الأســباب الاجتمــاعية :

ان حالة المجتمع المصرى كانت تؤهله فى ذلك الوقت لتلبية نداء الثورة وذلك كما قلنا ـ نتيجة لشعور المواطنين بالمظالم الواقعة عليهم ، فانتشـــار التعليم فى عصر محمـد على والبعثـات التى اوفـدهــا هــذا الوالى ، والنهضــة الادبية التى صاحبت النهضــة العلمـــة ، والصحافـة التى ادلت بدلوها فى ترقية الأفكار ، وتاثير جمــاعة من المفكرين على رأسهم الســيد جمال الدين الأفغانى فى المجتمع المصرى ، كل ذلك ادى الى زيادة الشــعور

بالظلم والى ضرورة التغيير (١) ٠

أحـداث الثـورة :

منذ مظاهرة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ تفشى السخط والقلق فى صفوف الجيش المصرى وبعد خلع الخديو اسماعيل أصرت لجنة التصفية على صدور مرسوم خديوى بخفض عدد الجيش وترتب على ذلك تسريح نحو ١٣٠٠ ضابط بحيث لم يبق فى الخدمة سوى ٥٠٠ ضـابط ، أمـا المسرحون فقـد أصبحوا يتقاضون ما بين ربع مرتباتهم ونصفها ٠ ويضـاف الى ذلك أن وزير الحربية عثمان رفقى الشركسى الأصل أمرا عسكريا بقفـل بـاب الترقية فى وجه الضباط الوطنيين (٢) ٠

وفى وسط هذه المظالم ، تطلع ضـباط الجيش الى رجل منهم يتولى زعامتهم وتوحيد كلمتهم للمطالبة بحقوقهم ، فوجدوا فى أحمد عرابى ذلك الزعيم ٠٠ ويمكن تحديد سنة ١٨٨١ لبدء زعامته العسـكرية على معظم ضباط الجيش ، وفى هذه السنة كان عثمان رفقى يتولى وزارة الحربية وكان وحده من أسباب ظهور الثورة العرابية ، وآخر ما وقع منه ، مما عجل بالثورة أنه أصدر أمرا بنقل الأميرالاى عبد العال حلمى - حد زعماء الثـورة فيما بعد - قائد آلاى طره الى ديوان الجهادية (وزارة الحـربية) وجعله معاونا بها ، وفى هذا انتقاص من درجته ومركزه ٠

وكانت هذه الحادثة البسيطة هى القطرة التى أفاضـت الاناء ، أو الشرارة التى اوجدت الثورة اذ سرعان ما اجتمع الضباط المصريون فى دار احمد عرابى واتفقوا على كتابة « عريضة » الى رئيس الوزراء رياض باشا يطلبون فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى ٠

ويعد هذا الاجتماع فاتحة الثورة العرابية ، لأن تعاهد كبار الضباط على مقاومة تنفيذ الأوامر العسكرية والجهر بمناصبة وزير الحربية العداء والمطالبه بعزله واختيارهم عرابى زعيما لهم فى هذه الحـركة ٠٠ كل ذلك معناه الخروج على النظام وتحدى الحكومة ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ١٦ - ٣١٠
(٢) د ٠ احمد عبد الرحيم مصطفى - مصر والمسألة المصرية ص ١٣٥٠

وفى ١٧ يناير سنة ١٨٨١ قدم الضباط الثلاثة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى العريضة الى رياض باشا الذى وعدهم بالنظر فى الأمر · وبعد اسبوع من هذه المقابلة ذهبوا الى داره وقابلوه ثانية وسالوه عما تم فى أمر العريضة فأجابهم مهددا متوعدا · فلم يتراجع عرابى وصاحباه أمام هذا التهديد وأصروا على طلباتهم ، وانتهى الحديث بأن أخبرهم بانه سينظر فى الأمر ، وانصرفوا على ذلك ·

اجتمع مجلس الوزراء يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨١ فى سراى عابدين برياسة الخديو وبحث فى امر هذه العريضة ·· فاستقر الراى على وجوب محاكمة الضباط الثلاثة والقبض عليهم لتقديمهم الى المجلس العسكرى ، وأخذ عثمان رفقى على عهدته تنفيذ القرار وأن يكون مسئولا اذا حدث ما يخل بالأمن · ولم يعرف الضباط الثلاثة ما قدره مجلس الوزراء فى شأنهم ، ولم يخطرهم عثمان رفقى بأمر القبض عليهم ·· بل نفذه بطريقة ملتوية لا تدل على شعور الحكومة بهيبتها وسلطانها ، وذلك انه تحايل عليهم وأرسل اليهم مساء ذلك اليوم بطاقات يدعوهم فيها الى الحضور لديوان الوزارة - بقصر النيل - صباح اليوم التالى بحجة المداولة معهم فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديوى (١) ·

وفى أول فبراير سنة ١٨٨١ عقد مجلس عرفى فى ثكنات قصر النيل ، ولكن أنباء المؤامرة تسربت الى الضباط الثلاثة عن طريق زوجة رياض - وكانت مصرية - فاستعد الجيش للموقف ، وحين بدأت محاكمة الضباط الثلاثة تصدت كتائب الجيش لاطلاق سراحهم ، ثم توجهت الى ميدان عابدين حيث كررت المناداة بمطالب الضباط · وكان موقف الحكومة مبئوسا منه ، بعد أن انضم الجيش بأسره - باستثناء حفنة الأتراك والشراكسة - الى الضباط الثلاثة · وحين اعترف الخديو لقنصلى انجلترا وفرنسا بانه لا نصير له فى الجيش ، نصحاه باقالة عثمان رفقى تفاديا لحدوث كارثة ، وتم تعيين محمود سامى البارودى - وكان قد قام بدور الوساطة اثناء هذه الحادثة وحصل على ثقة الضباط الوطنيين رغم أصله الشركسى - وزيرا

---

(١) عبد الراحمن الرافعى - الزعيم الثائر احمد عرابى ص ٣١ - ٣٦ ·

للحربية بالاضافة الى منصبه السابق كوزير للأوقاف (٢) ·

ولم يكن لواقعة قصر النيل اثرها فى الجيش فحسب ، بل كان لها أثر بالغ فى الأمة · اذ جعلت لعرابى مكانة كبيرة فى البلاد ، والواقع ان الحادثة وما تنطوى عليه من الجرأة على الحكومة واطلاق سراح المسجونين وعزل وزير الحربية وتعيين وزير يؤيد الجيش فى مطالبه ، كل هذه الأعمال جعلت من عرابى زعيما قوميا اتجهت اليه الأنظار لتحقيق أمانى الشعب ·

وكانت المظالم التى شكا منها زعماء الجيش ، تشبه المظالم التى كانت البلاد تشكو منها ، ولم يكن الناس راضين عن الحكومة وسياستها ، فلا غرو أن اغتبط الناس لتحقيق مطالب الجيش ، وذاع فى البلاد اسم عرابى كمنقذ للأمة من المظالم ·

ولما اطمان عرابى الى أن الجيش فى قبضة يده والأمة تناصره شرع فى احداث الانقلاب الذى كان يرجوه فى نظام الحكم ، أو بعبارة أخرى أخذ يتاهب لمتابعة الثورة التى بداها يوم اول فبراير سنة ١٨٨١ ·

وكانت الحكومة من ناحيتها تدفعه الى الثورة دفعا ، بما بدا منها من الحركات العدائية التى قصدت منها تفريق شمل زعماء الجيش وضباطه تمهيدا للتنكيل بهم ، وأخذ الخديوى ينفذ خطته وقوامها تفريق وحدات الجيش ، ونقل الفرق الموالية للحركة الثورية من العاصمة لكى يستبدل بها فرقا أخرى موالية له ··· وهكذا قرر عرابى تحريك الجيش والسير به الى سراى عابدين فى شكل مظاهرة عسكرية لأملاء ارادته على الخديوى ولكى يضع حدا للحالة القلقة التى وصلت اليها البلاد ولاحداث الانقلاب الذى اراده ·

وفى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ احتشدت جميع آلايات الجيش الرابطة بالقاهرة فى ميدان عابدين لتقديم طلبات الامة الى الخديو ، وقوامها اسقاط الوزارة وتاليف المجلس النيابى وزيادة عدد أفراد الجيش ·

---

(١) د · أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ مصر والمسألة المصرية ـ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ·

وفى هـذا اليوم المشهود ، دارت تلك المناقشـة الشهيرة بين عرابى والخديو ووصلت المناقشـة ذروتهـا عندما تساءل الخديـو عن مطـالب الجيش والأمـة فأجابه عرابى « هى عزل رياض باشـا وتشكيل مجلـس النواب وابلاغ عـدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية » فقال الخديو ، كل هـذه الطلبات لا حق لكم فيهـا ، وأنـا خديو البلد وأعمـل زى ما أنا عاوز » فقال عرابى جملته التاريخية « ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم » .

وهكذا تراجع الخديو ، وابدى موافقته على مطالب الجيش والأمـة ، وسقطت وزارة رياض ، وكلف شريف باشـا برئاسـة الوزارة بعـد أن وافق عرابى على هـذا التعاقب .

وتعد وزارة شريف « وزارة الأمة » وقـد ابتهجت الأمة ابتهاجا كبيرا بتأليفهـا .

وفى مجـال الاصلاح الدستورى ، عمدت وزارة شريف الى اجـــراء الانتخابات العامة ، طبقـا لنظام مجلس شورى النواب القديم الذى يجعل انتخـــاب النواب موكولا الى عمـد البلاد ومشايخها فى المديريات وجماعـة الأعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط . وتم افتتـــاح مجلس النواب فى يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ .

ومن أهم اصلاحات الوزارة بعـد الاصلاح الدستورى هو انشـــاء المحاكم الأهلية ووضع نظـامهـا الجديد ، ففى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ صدر القـانون المعروف بلائحـة ترتيب المحاكم الأهلية ، وهى تتضـــمن معظم القواعـد العـامة للنظـام القضـائى الحالى (١) .

ثم أعد شريف اللائحة الأساسية ، أو الدستور لعرضـه على مجلس النواب وكان هـذا الدستور يتضمن مبدأ المسئولية الوزاريـة امام المجلس، ومراقبة أعمـال السلطة التنفيذية ، ويعطى للمجلس حق اقرار القوانين ،

---

(١) لمزيد من التفصيلات أنظـر :
عبد الرحمن الرافعى — الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ٥٣ — ٨٧ .

والميزانيــة والضرائب ، بحيث تعــذر على الحكومــة فرض اى ضرائب ، او استصدار القوانين الا بعــد تصديق المجلس . وكان معنى هذا اعطاء مجلس النواب حق النظــر فى الترتيبات اللازمــة او المتصلة بالتسوية المالية ، وذلك فى وقت اشتد فيه السخط على أعمــال المراقبة الثنائية التى تأســست كمــا عرفنــا سنة ١٨٧٩ بل على التدخل الاوربى بصفة عامة .

وأزعج فرنســا اعداد هــذا الدستور الجديد ، وخصوصــا لأن الصحف المصرية مثل الحجاز والمحروسة ومصر كانت تحمــل آنئذ حملات عنيفــة على التدخل الأجنبى ، وعلى الانجليز والفرنسيين على السواء ، فصــــار الخوف عظيمــا من ان تشتد المعارضــة ضد هــذا التدخــل عندمــا يجتمــع مجلس النواب (١) .

وفى اليوم الثامن من ينايــر سنة ١٨٨٢ ، توجه السير ادوارد مالت معتمــد انجلترا والمسيو سنكفكس المعتمــد الفــــرنسى مجتمعين الى قصر عابدين وقدما الى الخديو مذكــرة مشتركــة من الدولتين بتاريخ ٧ ينــايــر سنة ١٨٨٢ قوامهــا انهمــا حيال الحوادث الأخيرة قد اجتمعــا على تأييد سلطة الخديو ، وفحوى المذكرة أن الدولتين انتحلتــا لنفسيهمــا حق القوامة والرقابة على مصر واقرار الأمن والنظــام فيهــا ، والتدخل فى شئونهــــــا الداخلية ... وظاهــر من عباراتهــا ان فرنســا وانجلترا كانتا تنظــران بعين الاستياء الى تأليف مجلس النواب ، وقيــام النظــام البرلمانى فى مصر ... ولــم تكتمــا الاعراب عن هــذا الاستيــاء صراحة فى المذكرة اذ جعلتــا من الحــوادث الموجبة للتدخل « صدور الأمــر الخديوى باجتمــاع مجلس النواب » (٢) .

ولقد ثارت ثائرة الرأى العام فى مصر على هذه المذكرة بسبب ما انطوت عليه من معانى التحدى لمجلس النواب اولا ، اى محاولة تعطيل الحركــــة الدستوريــة ، وثانيا تشجيع الخديو على معارضة كل اصلاح . واعتبــــر

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى ـ مصر والسودان ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ الزعيم الثائر احمد عرابى ص ٨٨ ـ ٨٩

المدنيون والعسكريون أن المذكرة تعبر عن خطة عدائيـة صريحة ضـد مجلس النواب لأنها صدرت وقت انعقـاده •

وكانت المذكرة تهديدا بالتدخل فى وقت لاتدعو فيه حالة البلاد الداخلية الى اتخـاذ أية خطوة من هـذا القبيل مـا دام زعمـاء الحركة من مدنيين وعسكريين لا يبغون التعرض للاتفاقـات الدولية التى حددت وضـع البلاد السياسى ، أو تلك التى قامت على اساسهـا التسوية المالية ، ومـا دام الغرض من حركتهم الدستوريـة تقييد سلطـة الحكومـة بأن تصبح مسئولة امـام مجلس النواب •

ولم يلبث أن ظهر التآزر واضحـا بين المدنيين والعسكريين ، او بين الحزبين الوطنى والعسكرى داخل مجلس النواب لمناوأة التدخل الانجليزى الفرنسى ، واصطدم النواب مـع وزارة شريف المتعاونـة مع المراقبـة المالية ، وذلـك عندمـا أصر النـواب على أن لهـم الحـق فى تقـريـر الميزانيـة على أن لا يتعرضوا للجزء المخصص من الايرادات للدين العام • وهذا على خلاف ما كان يراه محمـد شريف من ضرورة التريث وارجـــاء البحث فى الميزانيـة حيث أن هـذه كان قـد صدر مرســوم باعتمادهـــا فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ اى قبل انعقـاد مجلس النواب باسبوع ، ولن يكون هنـاك بحث للميزانيـة الا فى ختـام عـام ١٨٨٢ عند النظـر فى اعـــداد ميزانية السنة الجديدة (١٨٨٣) •

وكان شريف قـد ارتبط بوعد وعد به المراقبة الماليـة بعـدم تخويل المجلس الحق فى تقرير الميزانيـة بسبب اصرار المراقب المالى الانجليزى والمراقب الفرنسى على حرمان المجلس من هـذا الحق بدعـوى انه ولو كـان مقصورا على المصالح التى لـم تخصص ايراداتهـا للدين العام ، فـــانه يضر بالضمانات المقررة للدائنين ، اذ انه كنتيجـة حتميـة سوف يحـــل مجلس شورى النواب محل الوزارة فى ادارة شئون البلاد فيبطـل بذلـــك عمل (المراقبة) وهو ابداء ملاحظـــات على تصرفـات وزراء مسئولين امام الخديو وفى وسـعه عزلهم اذا أساءوا التصرف ، بينما لا يكـون للملاحظـات المراقبة أية قيمـة عملية امام مجلس شورى النواب •

وخشى بعض المدنيين مثل الشيخ محمد عبده من ان يؤدى الصدام بين العرابيين وبين الوزرارة الى اصرار فرنسا على تنفيذ ذلك التعهد بتأييد الخديوية الذى ذكرته المذكرة المشتركة ، مما يخشى منه احتلال البلاد ٠ وكان الخوف من هذا الاحتلال منتشرا من آثار ارسال هذه المذكرة(١) ٠

وهكذا استقالت وزارة شريف فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ وتألفت وزارة برئاسة محمود سامى البارودى ، وكان من اعضائها احمد عرابى وزيرا للجهادية والبحرية ، فجاء تأليفها انتصارا ظاهرا للحزب العسكرى(٢) ،

واقصاء تاما لسلطة الخديوى وتحديا سافرا للمراقبة الثنائية والتدخل الاجنبى ٠٠

ولا شك ان الثورة العرابية بدأت تسلك سبيلا بعيدا عن الحكمة من يوم أن اتفق عرابى وصحبه على اسقاط وزارة شريف وبدأت بذلك مرحلة الشطط ، فان شريف كان بلا نزاع اقدر من البارودى على حسن تدبير الامور فى تلك الاوقات العصيبة ، اذ كان له من ماضيه السياسى ما يجعل له كفاية خاصة فى الاضطلاع بالمهام السياسية ٠

وقد عظم شأن عرابى بتقلده وزارة الحربية ، فانها الوزارة الوحيدة التى كانت تتطلع اليها الانظار فى ذلك الحين ٠٠ وفيها كانت تتمثل سلطة الحكم ، فاصبح عرابى الرئيس الفعلى للحكومة ، وزاد من مكانته تقلده رتبة اللواء ولقب الباشوية لما للالقاب والرتب من الاثر الكبير فى ذلك الوقت وصار له الامر والنهى لا فى وزارة الحربية فحسب بل فى كل وزارات الحكومة ٠

وقد اقر مجلس النواب الدستور ، وصدر به المرسوم الخديوى فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ وكانت مدة انعقاد المجلس فترة تقدم ونشاط تمتعت مصر خلالها بالهدوء والسكينة ، ولم تكد تنتهى الدورة النيابية حتى اكفهر جو الصفاء ، واخذت الاحداث تتوالى على البلاد ٠٠ فكأن انفضاض المجلس بالانتكاس ٠

---

(١) د٠ محمد فؤاد شكرى — مصر والسودان ص ٢٢٥ — ٢٢٦

(٢) John Marlowe op. cit., p. 119.

واولى الاحداث الداخلية التى انتابت البلاد بعد انفضاض مجلس النواب هى مؤامرة الضباط الشراكسة ... وهى حادثة خطيرة كان لها تأثير كبير فى التطور للثورة العرابية بل فى مصير البلاد قاطبة(١). فعندما زادت الوزارة من مرتبات رجال الجيش ، ورقت عددا كبيرا من الضباط الوطنيين ، استاء الضباط الاتراك والشراكسة فتآمروا على حياة أحمد عرابى ورؤساء الحزب العسكرى ، ومن ثم تم القبض على ٤٨ من هؤلاء المتآمرين ومن بينهم عثمان رفقى نفسه وحوكموا امام مجلس عسكرى محاكمة سرية ، وفى ٣٠ أبريل سنة ١٨٨٢ صدر الحكم على أربعين منهم بالنفى الى اقاصى السودان (٢) مع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ورفع الحكم الى الخديو للتصديق عليه ، فرآه بالغا منتهى القسوة ، فامتنع عن اقراره ، وحدث من اجل ذلك خلاف كبير بينه وبين الوزارة اذ اصر على تعديل الحكم وتمسكت الوزارة باقراره ، وانتهى الأمر بان اصدر الخديو (ارادة سنية) فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى والسماح للمحكوم عليهم بالتوجه ان شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم من رتبهم ونياشينهم ، وقد وقع الخديو هذه الادارة بحضور السير ادوارد والمسيو سنكفكس قنصلى بريطانيا وفرنسا .

على أن هذا التعديل لم يحسم الخلاف بين الخديو والوزراء ، فقد ذهب البارودى الى الخديو عقب توقيعه امر التعديل ، ولامه فى لهجة شديدة لنزوله على ارادة قناصل الدول واهماله راى الوزراء ، وطلب اليه اضافة عقوبة التجريد من الرتب العسكرية الى امر التعديل (٣) .

وقد استاءت الوزارة من تصرف الخديو الذى اجاز تدخل الدول الأجنبية لمحاولة الاستفادة من تعهد فرنسا وانجلترا الذى تضمنته مذكرتهما المشتركة فى ٧ يناير سنة ١٨٢ بتأييد الخديوية وقررت الوزارة دعوة مجلس النواب للاجتماع لتعرض عليه الخلاف بينها وبين الخديو .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى الزعيم الثائر احمد عرابى ص ٩٥ - ٩٩ .
(٢) د . محمد فؤاد شكرى - مصر والسودان ص ٢٣٣ .
(٣) عبد الرحمن الرافعى - الزعيم الثائر احمد عرابى ص ٩٩ - ١٠١

وذاعت الأنباء عن تصميم العرابيين على خلع الخديو .. واخير امكن الوصول الى تسوية ظاهرية فحسب وبعد جهد ومشقة . وذلك على اساس بقاء الوزارة وتعديل الاحكام العسكريه طبقا لما رآه الخديو (١) .

وكان يجمل بعرابى وصحبه أن يقبلوا هذا التعديل من بادىء الامر بغير حاجة الى ايجاد هذه الازمة ، وكان الانفع للبلاد ما داموا قد قبلوا التعديل فى النهايه الا يثيروا من أجله حربا بينهم وبين الخديو فى وقت كانت الأخطار تكتنف مصر فيه من كل جانب ، ولم يكن الخلاف الذى شجر بينهم وبين الخديو مما يستوجب عقد مجلس النواب لان عقد المجلس بصفة مستعجلة وبغير الاوضاع القانونية معناه اعلان الثورة على الخديو، ولم يكن بقى من أوجه الخلاف بعد أن اتفقت وجهة نظر الفريقين على تعديل الحكم سوى تجريد الضباط المحكوم عليهم من الرتب العسكرية أو عدم تجريدهم ... والمجالس النيابية لا تعقد بصفة غير عادية من أجل خلاف صغير كهذا .

وفى اثناء الخلاف بين الوزارة والخديو ، تواترت الأنباء عن اعتزام فرنسا وانجلترا ارسال اسطوليهما الى الاسكندرية ، وقد تحققت هذه الأنباء .. فقررت الدولتان على اثر ما بلغهما من اشتداد الخلاف بين الخديو والوزارة دعوة مجلس النواب بدون امره ، ارسال اسطوليهما الى مصر ، اذ عدتا هذه الحالة ثورة تستدعى التدخل ، وقد افضى اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا بهذه الفكرة يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ الى المسيو تيسيو سفير فرنسا فى لندن قائلا ان الحاجة ماسة الى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الاسكندرية . وقد صادفت هذه الفكرة قبولا من الحكومة الفرنسية . وسوغت الدولتان هذا العمل بأن الغرض منه حماية رعاياهما من الأخطار التى يستهدفون لها ، ولم يكن ثمة خطر ولا خوف من هذه الناحية وانما هى حجة مصطنعة ووسيلة باطلة تستر الغرض الحقيقى وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح فى شئون مصر (٢) .

---

(١) د . محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى الزعيم الثائر أحمد عرابى ص ١٠٣ - ١٠٤

وقد عز تتابع وصول البوارج الانجليزية الى الاسكندرية الرأى العام المصرى هزا شديدا ، وقام القنصل الفرنسى فى يوم ٢٣ مايو اى بعد وصول الأسطول الانجليزى بيومين اثنين بزيارة محمد سلطان رئيس مجلس النواب حاملا اليه مطالب الحكومتين الانجليزية والفرنسية وهى ٠

١ – استقالة وزارة البارودى ٠

٢ – اخراج عرابى من القطر المصرى على أن تضمن له انجلترا وفرنسا راتبه ورتبته واوسمته ٠

٣ – تحديد اقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى ريف مصر وتضمن الدولتان رتبهما ومرتباتهما ٠

٤ – تسريح الجيش المصرى فلا يبقى منه سوى عدد قليل للمحافظة على الحدود الجنوبية (١) ٠

وقد رفضت الوزارة هذه المذكرة على اساس انها قد تضمنت مطالب فيها اعتداء على الفرمانات والمعاهدات الدولية ، ولأن الوزارة ترى ان هذه المطالب متعلقة بمسألة داخلية ، فاذا كانت الدولتان تريان انها متلعقة بمسألة سياسية عمومية ، فالواجب عرض هذه المسألة على تركيا صاحبة السيادة الشرعية على مصر (٢) وقام رئيس مجلس النظار ومعه وزير الخارجية بزيارة الخديو وابلغاه قرار المجلس برفض المذكرة وطلبا منه ان يتضامن مع حكومته فى رفضها (٣) فاجابهما الخديو انه قد قبل مطالب الدولتين بالفعل ، ومن ثم استقالت وزارة البارودى احتجاجا على مطالب الدولتين وعلى قبول الخديو اياها ، فقبل الخديو استقالتها (٤) وقد ادى هذا الموقف بين الحكومة التى تدافع عن حقوق مصر ومكانتها وبين الخديو الى هياج الرأى العام واشتداد السخط على الخديو ، وارتفعت الأصوات

---

(١) أمين سعيد – تاريخ مصر السياسى (١٢) ص ١٤٤ – ١١٥ ٠
(٢) د ٠ محمد فؤاد شكرى – مصر والسودان ص ٢٥٤ ٠
(٣) أمين سعيد – المصدر السابق ص ١١٥ ٠
(٤) عبد الرحمن الرافعى – أحمد عرابى ص ١٠٧ ٠

كل مكان بالدعوة الى خلعه (١) .

وبالرغم من استقالة الوزارة ، فان عرابى بقى على اتصال دائم بضباط الجيش لكى يضمن أن لا يقبل الجيش وزيرا للحربية سواه .. وهذا ظاهر من الخطاب الذى أرسله بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ الى انصاره من الضباط ، فقد أخبرهم فيه انه مع استقالته من وزارة الحربية فانه لم يستقل من رياسة الحزب الوطنى ، ويطلب اليهم أن يأتمروا بأوامره وأن يحافظوا على الأمن ويقول عرابى فى مذكراته انه أرسل هذه الرساله تلغرافيا الى جميع المراكز العسكرية . بعد أن تابله قناصل الدول وطلبوا اليه تأمين رعاياهم . ولم يكن من الميسور فى هذه الظروف تأليف وزارة جديدة تخالف الوزارة المستقبلة فى خطتها وتنال ثقة النواب والضباط (١) واضطر الخديو الى ابقاء عرابى فى منصب وزير الحربية ورئاسة الجيش حتى يأمن على حياته (٢) واصدر امرا اليه هذا نصه « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت ولكن مراعاة لحفظ الراحة والأمنية ، استصوبنا بقائكم على نظارة الجهادية والبحرية . وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعملوه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكاملة لحفظ الأمنية العمومية على الوجهة المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا » (٣) .

وقد بقيت البلاد بلا وزارة منذ استقالة البارودى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ . ومنذ منتصف يونيو اتجهت الأنظار الى وجوب تأليف وزارة تضطلع بأعباء الحكم . وكان الخديو قد بارح القاهرة الى الاسكندرية ، فسعى قنصلا النمسا والمانيا لديه للتقريب بين الخديو وعرابى وترغيبه فى تأليف وزارة جديدة يبقى فيها عرابى وزيرا للحربية . فأخذ الخديو يستشير بعض رجال الدولة فى أمر تأليف الوزراء الجديدة ، فاستدعى شريف باشا ثم مصطفى فهمى باشا ثم عمر لطفى باشا وغيرهم وكلف

---

(١) امين سعيد ـ المصدر السابق ص ١١٥ ـ ١١٦ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ أحمد عرابى ص ١٠٧ .
(٣) د . محمد فؤاد سكرى ـ المصدر السابق ص ٢٥٥ .
(٤) عبد الرحمن الرافعى ـ أحمد عرابى ص ١٠٩ .

كلا منهم بتأليف الوزارة فأبوا جميعا لما كان بينهم وبين عرابى من جفاء • وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ، واتصلا بعرابى وتفاوضا معه فى هذا الشأن ، واستقر الرأى على النصح للخديو باختيار اسماعيل راغب باشا لتشكيل الوزارة ، وعلى ذلك الف راغب باشا الوزارة وفيها عرابى وزيرا الحربية كما كان • وقد قابلت السياسة الانجليزية هذه الوزارة بجفاء وعدم ثقة ، وبارح السير ادوارد ماليت قنصل بريطانيا العام الاسكندرية يوم ٢٧ يونيو ، وغادر المدينة أيضا المستر كوكس القنصل البريطانى • واوعزت الحكومة البريطانية الى السير أوكلن كولفن الرقيب المالى الانجليزى بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء ، وكانت هذه علامات تنذر وتنبىء بما كانت تبيته السياسة الانجليزية من اثارة الحرب والقتال (١) •

ومنذ ٢٩ مايو ١٨٨٢ بدات انجلترا تعلن عن نيتها فى الانفراد بالتصرف فى شئون مصر ، ففى ذلك التاريخ ابلغ قائد اسطولها فى الاسكندرية حكومته بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه احدى البوارج البريطانية ، وطالب بارسال قطع بحرية بريطانية اخرى ، وقد اجابته الحكومة الانجليزية الى طلبه ، وكان هذا بالفعل اعدادا لعملية الاحتلال •

وقد أثارت هذه العملية شكوك فرنسا ، ومن ثم دعا المسيو دى فريسينيه رئيس الوزراء الفرنسية الدول الاوربية الكبرى الى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية ، فلبى هذه الدعوة كل من انجلترا والمانيا والروسيا وايطاليا والنمسا •• اما تركيا ومصر فانهما رفضتا الاشتراك فيه ، وكان من المهازل السياسية ان يجتمع مؤتمر دولى فى الأستانة دون أن تشترك فيه حكومة الآستانة ذاتها ودون ان تشترك فيه مصر •

وليس هذا المظهر وحده هو الذى يدل على اضطراب السياسة العثمانية فى المسألة المصرية ، بل أن مسلكها كله كان مجموعة من المتناقضات ••• فبينما كانت تتظاهر بتاييد سلطة الخديو ، اذا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ــ أحمد عرابى ص ١٢٦ ــ ١٢٧ •

بالسلطان عبد الحميد يعلن عطفه على عرابى ويمنحه نيشانا رفيعا ، ثم اذا جد الجد ونشبت الحرب بينه وبين الانجليز يطعنه فى الصميم باعلان عصيانه ، فكان هذا الاعلان من اكبر اسباب هزيمته وخذلانه ، فهذا التناقض والاضطراب جعل السياسة التركية عامل فساد استخدمته بريطانيا لتحقيق أطماعها فى مصر .

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ أبرم المؤتمر العهد المشهور بميثاق النزاهة وقد وضعه المسيو دى فريسينية وعرضه على اللورد جرانفبل فقبله وهذا نصه « تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال اى جزء من اراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعاياها الحكومات الاخرى . وقد وقع عليه أعضاء المؤتمر جميعا » (١) .

واستمر المؤتمر يعقد جلساته على غير طائل ، وانجلترا تعد المعدات للقتال . ولم يكن اسهل على القوة الغشوم من أن تخترع الوسيلة لاثارة القتال .. فقد ارسل الاميرال سيمور فى ٦ يوليو سنة ١٨٨٢ بلاغه الأول الى طلبه عصمت قومندان موقع الاسكندرية بالكف عن اعمال التحصين الجارية فى الحصون . فأجابه طلبه فى اليوم ذاته بأنه لم يوضع اى مدفع جديد فى الحصون ولم يجر فيها أى عمل جديد (٢) . وقد ذاع بلاغ الاميرال سيمور فى المدينة وتناقله الناس ، فأيقن العارفون بحقائق الأمور انه نذير الشر وأن الحرب واقعة لا محالة . واوعز قنصلا انجلترا وفرنسا الى رعاياهما الباقين فى المدينة بالمبادرة الى الرحيل عنها ، فتسابقوا الى الهجرة والنزول الى السفن الراسية بالميناء ، وبلغ عدد المهاجرين الاوربيين من الاسكندرية قبل ضربها نحو ٩٩ ٪ من عددهم الاصلى ، وهاجر كثير من اغنياء المدينة الى داخل البلاد على أن معظم السكان الوطنيين بقوا بها (٣) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٢) د . محمد فؤاد شكرى — المصدر السابق ص ٢٥٤ .
(٣) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٤٤ .

وفى ٩ يوليو استمرت التحصينات المصرية فى الطوابى ، وركبت مدافع جديدة فى طابية السلسلة . وفى اليوم التالى أرسل سيمور انذارا نهائيا الى طلبه عصمت بتسليم الطوابى المقامة على بوغاز الاسكندرية الجنوبى والا ضربها بعد أربع وعشرين ساعة . وفى صبيحة ١١ يوليو ، عندما لم يجب سيمور الى طلبه ، بدأ ضرب الأسكندرية (١) .

ويقول عرابى عن موقعة الاسكندرية - « فاجأتنا مراكب الانجليز وأخذتنا على غرة منا وضربت المدافع مدينة الاسكندرية ، ولما تم عدد الطلقات ٢٠ طلقة ، وكانت المدافعة واجبة شرعا قابلناهم أيضا بالمضرب واستمرت الحرب بين الفريقين نحو ١٠ ساعات دمروا فى غضونها أغلب طوابى الثغر المذكور وأحرقوا مساكنه ففر جميع الأهالى من المدينة ولما حصلت المخابرة على الأميرال فى الصلح والاكتفاء بما حصل ابى وتجبر وتوعدنا بحرق المدينة وتدميرها بعد ساعة ونصف ان لم تسلم اليه جميع الطوابى . هذا وقد حصل الخذلان ودب الفشل بين قلوب العساكر فتركوا مراكزهم وفروا الى داخل البلاد ، ولذلك توجهنا بمن أمكن حجزهم من العساكر الى كفر الدوار واتخذناه مركزا للدفاع عن البلاد ، وأمرنا بسرعة جمع العساكر الفارين فحضروا عاجلا بواسطة السكة الحديد . ثم أرسلت القطارات الخديوية لنقل الخديو ومن معه الى عاصمة البلاد فما كان منه الا أن التجأ بمن معه من الخدم والذوات وعساكر الحرس الى الاسكندرية . وعند وصولهم الى رأس التين استقبلهم الانجليز بالترحاب ، وفى الحال جردوا عساكرنا الذين كانوا حرسا على الخديو من السلاح وأخذوا خيولهم واستخدموهم خدما لهم ومرشدين فى أنحاء المدينة التى ضربوها وكانوا يقتلون كل من قابلوه من الوطنيين ثم صدر أمر الخديو الى رئيس مخبز اسكندرية بارسال الخبز الى عساكر الانجليز ومنعه عن العساكر المصرية » (٢) .

وبضرب الاسكندرية انتقل تاريخ الثورة العرابية الى دور جديد هو الحرب ، ففى ذلك الوقت تطلع عرابى الى الاستعداد العسكرى ، كما دعا

(١) د . محمد فؤاد شكرى - المصدر السابق ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .
(٢) أحمد عرابى - مذكرات عرابى الجزء الأول ص ١٨٨ - ١٨٩ .

الى خلع الخديو ، ولكن السياسيين خذلوه فى ذلك ، وكشفت هذه الفرقة عن ظهور القوى الرجعية تسير فى طريقها المرسوم ارضاء للتصر • وبادر عرابى فارسل الى جميع المديريات والمحافظات يخبرهم بانضمام الخديو الى الانجليز ويحذرهم من طاعة أوامره ويدعوهم الى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال •

وعلى اثر ذلك اذاع الخديو منشورا علق فى شوارع الاسكندرية يقضى بعزل عرابى من منصبه وقد فصل المنشور الأسباب التى دعت الى عزل عرابى ، وأعاب عليه اخلاء الاسكندرية دون مقاومة ، ثم دافع عن نيات الانجليز واحتلالهم الاسكندرية وسوغه بأن الغرض منه المحافظة على الأمن • وكان عرابى مرابطا فى معسكره بكفر الدوار حين اصدر الخديو امره بعزله من منصبه ، فلم يكترث له واستمر يعد عدة الدفاع ليصد تقدم الانجليز (١) •

ولم تحفل الأمة بامر الخديو توفيق القاضى بعزل عرابى وانما زادها ذلك تمسكا به والتفافا حوله • ومن المواقف المشرفة لشعب مصر حقا تبرع البلاد لهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة التى وضعها المراقب المالى الانجليزى كلفن تحت تصرف الانجليز فى الاسكندرية ، وانما قامت هذه الحرب على ما بذله الشعب من قوته وماله ، وفى هذا يقول عرابى فى مذكراته « ... جادت الأمة على اختلاف مذاهبها وتحلها بالمال والغلال والدواب والفاكهة والخضروات ، وذلك فضلا عما مدوا به الجيش من الأقمشة والأربطة اللازمة لتضميد جراح العساكر ، ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يملكه ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته » •

ولقد وجه عرابى كل عنايته الى تحصين مواقعه فى الميدان الغربى واهمل الميدان الشرقى اهمالا تاما مما كان السبب الأكبر فى الهزيمة ، وقد نصحه البعض استكمالا لاسباب الدفاع أن يردم قناة السويس ، الا أن فرديناند ديلسبس غرر بعرابى وأكد له ان انجلترا لن تستطيع استخدام

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ احمد عرابى ص ١٦٥ •

القناة لأنها دولية ، وانخدع عرابى بوعود ديلسبس ، هذا بالاضافة الى أنه لم يشأ أن يردم القناة لعدم اغضاب الدول الاوربية الأخرى ، ولكن انجلترا لم تعبأ بالقوانين الدولية وكانت القناة هى الجانب الذى دخلت منه الجيوش البريطانية وقد ساعدها فى ذلك بعض الزجعيين ممن أرادوا الاخلاص للقصر ، ودخلت القوات الانجليزية القاهرة بعد عدة معارك ، وبارك الخديو توفيق عرضا عسكريا لهذه القوات أقيم فى ميدان عابدين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وعلى هذا النحو احتل الانجليز مصر ليسطروا فى تاريخها صفحة مظلمة استمرت اكثر من سبعين عاماً .

موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية

يمكن ان نتساءل عن موقف السلطان الفعلى بالنسبة للصراع بين الخديو توفيق وعرابى حتى نتفهم خطوات السلطان التالية فى هذا الصدد . وطبقا لآراء دافرين الممثل البريطانى فى الآستانة فى ٢٥ مايو ١٨٨٢ فان السلطان قد يحاول أن يكسب هو شخصيا بضرب الاثنين ، فهو رغم انه مؤخرا أصبح غير متعاطف مع عرابى ، فانه لم يخاصمه كلية ، و على الاقل لم يتخذ موقفا عنيفا معه وهو - السلطان - يحتفظ بالامير حليم بين يديه كورقة قد يلعب بها ضد الاثنين اذ ما سمحت له الظروف بذلك » .

ويبدو أن السلطان كان يتصور امكانية الدعم الالمانى له فى هذه المرحلة من العلاقات الوثيقة بين السلطان وبسمارك ولكن الحكومة الالمانية آثرت الوقوف على الحياد بالنسبة للمسألة المصرية وأرسلت للسلطان توضح بانها سوف توافق بان يكون له صوت عند تسوية هذه المسألة مع بقية القوى الآخرى (١) . مما حدا بجرانفيل الى ان يرسل شكرا فائقا لبسمارك عن طريق السفير البريطانى فى برلين لرأيه الخاص بالنسبة للمسألة المصرية (٢) . وقد ارسل السفير التركى فى برلين فحوى هذا

---

(١) F.O. 407 - 20 No. 524 p. 225 The Earl of Dufferin toEarl Granville No. 102 Telegraphic. Constantinople, may 24— 1882

(٢) F.O. 407 - 20 No. 497 p. 214 Earl Granville to Lord Ampthill (No. 64) Telegraphic F.O. may 23, 1882

الشكر الى الباب العالى (١) ٠

ويبدو ان الباب العالى قد اصيب بخيبة أمل من سلوك بسمارك تجاه المسألة ، فآثر أن يتصرف وحده عن طريق ارسال بعثه من لدنه الى مصر لتقصى الحقائق برئاسة أحمد عزت افندى ، والمهم أن نسخة من تقرير أحمد عزت هذا السرى (بالفرنسية) وصلت الى دافرين بطريقة ما ، وقد حوله هو بدوره الى جرانفيل فى ١٤ يونيو (٢) ٠ ويعتبر دافرين ان هذه الوثيقة فى غاية الاهمية لأنها توضح غموض سياسة الباب العالى تجاه الانجليز ، فطبقا لهذا التقرير فان السلطان يحاول الاعتماد على اتباعه انصار (السياسة الاسلامية) كما يمثلها عرابى وضد الخديو توفيق الذى يمثل المصالح لاوربية (٣) ٠

ورغم توالى الاحداث ٠٠٠ ونزول القوات الانجليزية الى الاسكندرية، فان دافرين دأب على الضغط على الباب العالى حتى ينال موافقته على هذه الاجراءات الجديدة ، ففى ١٦ يوليو ١٨٨٢ استقبل السلطان دافرين فى مقابلة خاصة حيث دار بينهما حديث سرى للغاية ، بخصوص مبدأ السيادة العثمانية على مصر ٠ وقد أوضح السلطان ان غالبية السياسيين فى انجلترا يؤيدون الخديو توفيق واقامة حكومة وطنية (عربية) منسلخة عن السلطة العثمانية ٠ كما أورى دافرين انه لسلبية الحكومة العثمانية أمام « الفوضى القائمة فى مصر » فانه يمكن ان ينتهى الامر بزوال السيادة العثمانية على مصر ٠ واخذ السلطان فى المناورة مع دافرين منكرا اياه بأنه رغم اعترافه بخطورة الحالة ، فان قيام حكومة وطنية عربية (مصرية) فى مصر سيكون لديها الفرصة لاقلاق السلطات الانجليزية فى الهند ٠٠٠ وأنه تحت

---

(١) F.O. 407-20 No. 498 p. 214 Earl Grannville to Lord Ampthill (No. 212, conf. Extender) F.O. may 23, 1882

(٢) F.O. 407 - 20 No. 978 p. 388 The Earl of Dufferin to Earl Granvill. (No. 427 Conf.) Constantinople, June 9, 1882.

(٣) F.O. 407-20 Inclosure in No. 978 p. 388 Report by Ahmed Essad Effendi (Traduction de L'Arabe) 15 Rodjeb, 1299 (Le2 Juin, 1882)

هذه الظروف ، فانه توصل الى نتيجـــة ... هى انه ما دامت لانجلتـــرا وتركيا مصالح مشـتركة ، فانه من المرغوب فيه للحـــكومتين الدخول فى اتفاق ودى وسرى ، ليس فقط لتهدئة الاحوال فى مصر ، ولكن أيضا لمنع القوى الاجنبية الاخـــرى - التى أسســـت لها مواقع فى مصر لا يمكن تجاهلها - من تدعيم مواقعها أو المطالبة بحقوق جديدة للتدخل ، وبطبيعة الحال كان السلطان يقصد فرنسا .

وبعد ان صور السلطان بحماس المزايـا التى سوف تعود على كل من انجلترا وتركيا من مثل هذا التفاهم المشترك أوضح سبب تردده فى ارسال قوات عسكرية الى مصر ... فقد عادت بعثته للتو من الاسكندرية ، والتى كان على راسها احمد عزت ولبيب أفندى ، وهما قد أعطياه صورة واضحة عن عدم كفاءة وضعف توفيق باشا ، واقنعاه بانه لا يمكن اعتباره حاكمـا معقولا لانه بطبيعته ليس فى امكانه الاحتفاظ بالسلطة ، لانه ، عندمـا رفع عرابى سيفه فى حضوره ، فان أحد الضباط الجراكسة اراد ضرب عرابى فورا بالرصاص ، ولكن توفيق الضعيف منعه من ذلك ، وتساءل السلطان عما هو متوقع من شخص هذا هو حاله ؟ وانه حتى لو أرسلت القوات لتدعيم مكانته ، فانه فور انسحابها ، فانه لعدم كفاءته سوف تقوم أزمة اخرى ، واوضح السلطان ان شخصية الخديو يجب أن تكون موضوعا لا خـــلاف عليه بالنسبة للحكومتين العثمانية والانجليزية . واضاف السلطان ان توفيق ليس هو الوريث الشرعى لمنصب الخديوية ، فان احتـــلاله للمنصب يعد منافيا للتقليد الاسلامية حيث ان حليم باشا هو اكبر افراد اسرة محمد على سـنا ، وأنه هو الحـــاكم الشرعى لمصر ، وأوضح السـلطان بحماس شديد أن حليم سيكون حاكما ممتازا ، وانه معجب به تماما وباخته الاميرة زينب (١) . ولم يوضح السلطان أن حليم كان مستعدا لان يحـكم مصر باعتباره واليا بسيطا طبقا لفرمان ١٨٤١ ، بل انه لم يكن يستنكف ان يحكم مصر لمدة خمس سنوات فقط (٢) .

---

(١) F.O. 407 - 21 No. 848 p. 335 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 611, Conf.) Therapia, July 17, 1882.

(٢) دكتور احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١٤٩ .

وعلى اية حال اضاف السلطان انه اذا كانت انجلترا خائفة من ان حليم قد يؤيد المصالح الفرنسية ، فان هذا هو الخطر الحقيقى الذى يجب على الحكومتين الانجليزية والعثمانية تحاشيه ، وأن كلا من الحكومتين يجب ان تبلغ الاخرى اذا ما حدث ذلك ، وانه بعملها المشترك يمكنها المحافظة على سير الخديو الجديد فى الطريق السليم • كما طالب السلطان بسرعة حسم المسألة المصرية ، وان حليم يمكنه القضاء على كل الصعوبات، لان تعيينه سيرضى الجميع ، ويمنع المزيد من اراقة الدماء ويؤدى الى سحب القوات غير الضرورية ، ويمنح الامان للمستقبل • كما أورى السلطان بأن الفرنسيين فى مرحلة سابقة لم يوافقوا على هذه الخطة ، وانه لا يعرف حاليا رأى فرنسا بالنسبة لمبدأ تغيير الخديو ، الا انه لو وافقت حكومتا لندن والآستانة على تغيير الخديو ، فان كل القوى الاخرى لن تستطيع معارضة هذا الترتيب •

وقد قدم السلطان طلبه هذا على أنه طلب شخصى منه للحكومة الانجليزبة وانه يرجو بحماس موافقتها عليه (١) •

وفى هذا السياق نشير الى مذكرة درويش (٢) باشا ــ مبعوث السلطات الى مصر ــ والتى جاء فيها انه حاول اغراء عرابى باشا بالرحيل على ظهر سفينة عثمانية الى الآستانة (٣) ليمهد الجو لتعيين حليم فى منصب الخديوية فى ظروف هادئة •

على اية حال اجاب دافرين على السلطان بانه ولو انه سينقل هذه الرغبة لحكومته ، فانه متيقن من ان حكومتى انجلترا وفرنسا لا ترغبان فى خلع توفيق ، فهما قد وعدتاه بالمساعدة ، وهو قد تصرف طبقا لتوصايتهما،

---

(١) F.O. 407. 21 No. 848 op. cit,

(٢) F.O. 407 -22 p. 255 Inclosure in No. 589 memorandun by Dervish Pasha (Conf.) Traduction Le 15 Juillet. 1882.

(٣) F.O. 407-22 No. 589 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 791 conf.) Therapia, August 18, 1882

F.O. 407- 23 Inclosure in No. 262 p. 128 Abstract of report fromDervish Pasha to the Sultan, dated July 6, 1882.

وهما قد دخلتا فى ارتباطات معه لا يمكن تجاهلها ، وأكثر من ذلك فان تغيير فرمان التوالى على منصب الخديوية سوف يلغى الفرمان القائم ومن ثم تغيير الوضع الراهن Status quo . جذريا • فاجاب السلطان بأن مثل هذه الترتيبات لا ترتبط بتوفيق الذى اثبت عدم كفاءته ، وان بقاءه فى السلطة سيؤدى الى خراب مصر ، وعبر السلطان عن اعتقاده بانه لو وافقت انجلترا ، فان التغيير سيتم بدون صعوبة ••• « فان درويش باشا سيضع توفيق على ظهر سفينة ، ويتم وضع حليم على ظهر سفينة أخرى، وان السفينتين سوف تسيران فى اتجاهين متضادين » وانه بهذه الطريقة تتم تسوية المسالة ، والح السلطان كثيرا على وجوب موافقة انجلترا على هـــذا الترتيب (١) •

الا أن دافرين أوضح - فى نهاية المقابلة - لرشيد بك الذى كان يعمل كمترجم اثناء هذا اللقاء أن السلطان اذا ما استمر فى تردده ، فسوف تخــرج المسالة من يديه وكان حلها بين يديه فعلا • واضاف دافرين انه اذا ما استمر السلطان فى رفضه لممارسة الواجبات المسؤول عنها بصفته صاحب السيادة على مصر ، فان البديل الوحيد هو تدخل اجنبى ، وانه فى هذه الحــالة سيكون من المحتمل تغيير وضعيه مصر السياسية وضد مصالح السلطنة •

ولاحظ دافرين أن السلطان ولمدة طويلة كـان يحتفظ بحليم فى يـده كورقة يلعب بها حين تحين الفرصة • كما أوضح دافرين شكوكه فى ان السلطان قد علم من مبعوثيه الى مصر ان الخديو توفيق ليس مستعدا لأن يكون العوبة فى يد السلطان وأن يسمح له بمد سـيطرته على مصر ، بل انه على النقيض من ذلك سيمنع أى محاولة من جانب السلطان لالغاء الامتيــازات والحقوق التى يحوز عليها فى حكم مصر (٢) • ومن نـاحــية أخــرى ، فان حليم وعــد بأن يكون عبدا مطيعا طاعة كاملة (٣) •

---

(١) F.O. 407 - 21 No. 848. p. 335 op cit.,
(٢) op. cit.,
(٣) دكتور احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١٤٩ •

ويمكن أن نضيف الى ما سبق ان عرابى نفسه كان على صلات سرية بالسلطان والصدر الاعظم منذ مارس ١٨٨٢ ، فهو يتودد الى السلطان ، ويطلب معاونته ٠٠٠ ففى تقرير لعرابى (١) بتاريخ ١٨ مارس ١٨٨٢ موجه للسلطان - وقع فى يد دلفرين - عرض عرابى زيادة جزية مصر السنوية الى ١٥٠٫٠٠٠ جنيه واقترح ايضا خلع الخديو توفيق ٠ كما اخبر عرابى السلطان ان القنصل الفرنسى اخبره بأن حكومته تعلم تماما بمخططات انجلترا فى مصر ، وان فرنسا رغم اضطرارها فى تلك المرحلة للعمل فى تنسيق مع انجلترا فانها ستعمل فى النهاية على معاونة عرابى ٠٠٠ واقترح عرابى تعيين حليم باشا بدلا من توفيق ، ووضع مصر مباشرة تحت حكم السلطان ، وابعاد الاجانب تدريجيا (٢) ٠ وقد اجاب الصدر الاعظم على عرابى فى ١٩ ابريل بالموافقة بطبيعة الحال على اقتراح عرابى بزيادة جزية مصر السنوية وتحديد سلطة الخديو ٠ اما بالنسبة لابعاد الاجانب فى مصر ، فان ذلك يجب ان يتم بكل حذر ٠ كما اضاف الصدر الاعظم ان الحكومة العثمانية سوف تسعى لمساعدة عرابى لتنفيذ مقترحاته الخاصة بعزل توفيق ، وان القرار سوف يتخذ طبقا للظروف (٣) ٠

وقد اعتبر دلفرين ان اقتراح عرابى زيادة الجزية السنوية كان مفاجأة له تماما ، وان عرابى قصد من ذلك ان ينال فى المقابل تدعيما كاملا من الباب العالى فى مواجهته للخديو توفيق (٤) ٠

---

(١) — F.O. 407 - 22 No. 297 p. 129 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 324). Constantinople, August 10, 1882 Telegraphic.

(٢) — F.O. 407 - 22 Inclosure in No. 298 p. 129 Report from Arabi Pasha to His Majesty the Sultan. dated 10 Djemaz. el-Ewel, 1299 (March 18, 1882 Traduction)

(٣) — F.O. 407-22 Inclosure 2 in No. 298 p. 130 The prime Minister to Arabi Pasha (Traduction). Telegraphic 22 Djemaz-ul-Akhir, 1299 (19 Avril 1882)

(٤) — F.O. 407 - 22 No. 297. op. cit

وواضح من العرض السابق أن هناك نوعا من الاتفاق بين السلطان وعرابى فى هذه المرحلة على خلع توفيق وتعيين حليم بلا منه ، فحليم اكثر انصياعا للباب العالى من توفيق الذى وقع فى قبضة الاجهانب كلية • كما ان الباب العالى سينال زيادة فى الجزية السنوية التى تدفعها مصر ، وفى المقابل سينال عرابى رضاء السلطان خليفة المسلمين مما يعطيه مكانة كبرى فى مصر ، وكذلك سيتخلص هو ايضا من توفيق ، وهذا هو ما احدث نوعا من التقارب بين السلطان وعرابى فى هذه المرحلة • ولكن هل كانت الدولة العثمانية حرة فى اتخاذ قرارها ؟ ام ان القرار سيكون انجليزيا بالدرجة الاولى ، وانه على الدولة العثمانية أن تعمل فى اطار تحدده لها السياسة الانجليزية ؟

مسالة المشاركة العسكرية العثمانية فى مصر •

اذا كانت الحكومه الانجليزية قد اعارت طلب السلطان بتغيير الخديو آذانا صماء ، فان هذه الحكومة ـ من ناحية اخرى ـ ظلت تسعى الى تأييد السلطان لها فى اجراءاتها بمصر • وكذلك ظلت تحاول ان يشارك السلطان بقوات رمزية فى مصر متعاونة مع الانجليز ، مما يعطى لانجلترا الشكل المشروع بالنسبة لوجودها فى مصر باعتبار ان السلطان هو صاحب السيادة على مصر • وهكذا بدأت مفاوضات مطولة بين السفير الانجليزى دافرين وبين المسئولين الاتراك بدءا بالسلطان والصدر الاعظم وباقى المسئولين ، وذلك لتنظيم ارسال وتمركز القوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر
وذلك لتنظيم ارسال وتمركز القوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر
على النظام وتحقيق الامن فى قناة السويس •

وكما سنرى من سير الحوادث اثناء المفاوضات بين الجانبين الانجليزى والعثمانى فى الآستانة فان هناك تحديدات انجليزية قاطعة بالنسبة لاعداد القوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر ، وكذلك تحديدات بالنسبة لتمركز هذه القوات فى مناطق بعيدة عن جماهير الشعب المصرى وكذلك تحديدات بالنسبة لتوقيت انسحاب القوات العثمانية بعد تسوية الازمة المصرية •

ففى ١٨ أغسطس بحث دافرين مع الصدر الاعظم مسالة عقد اتفاق بن حكومتى لندن والآستانة خاص بمسالة ارسال القوة العثمانية الى

مصر للمشاركة فى اقرار النظام وتحقيق أمن القناة • وتقدم دافرين عسودة هـــذا الاتفــاق • واقتــرح الصــدر الاعظــم انــه بالنســبة للعــلاقة بين القوتين العثمـــانية والانجليــزية فى مصر ، ان لا تكون تعـــاونا Cooperation بل ان تعمل القوتان طبقا لاتفاق d'accord avec كما وافق سعيد باشا على المادة الاولى مع تعديل الصيغة الى ان الحكومة الامبراطورية (العثمانية) لديها الرغبة فى أن ترســـل الى مصر جزءا من الجيش يتحدد ما بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ جندى ، وان التوصــل للعدد النهائى سيكون موضوعا لاتفاق لاحق مع الاطراف المعنية » •

المادة الثانية : تخصص موانىء الاسكندرية وبورسعيد والسويس لنزول القوات العثمانية وقد علق دافرين على ذلك بان هذا مستحيل ، وانه يمكن تخصــيص موانىء (أبو قير) ودمياط ورشيد لنـــزول القوات العثمانية فى مصر • وقد وافق سعيد باشا على ذلك •

المادة الثالثة : ينسق القائدان الانجليزى والعثمانى تحركات وعمليات القوات العثمانية •

أما بالنسبة للمادة الرابعة ، فقد ارتأى الصدر الأعظــم ان يضيف عبارة ••• هى انه عند جلاء القوات الانجليزية عن مصر فانه من المرغوب فيه مد فترة بقــاء القوات العثمانية هناك بعض الوقت • الا أن دافرين علق على ذلك بان مجىء هذه القوات الى مصر هو لاقرار النظام ، وانه بعـــد انتهاء الأزمة ، فانه ليس من المستحب بقاء هذه القوات العثمانية فى مصر •

اما المادة الخامسة ، فقد أراد الصدر الأعظم بمقتضاها ارسال ضابط تركى بنفس رتبة القـــائد العام الانجليزى لينضم الى قيـــادة القوات الانجلـــيزية (١) •

وقد علق دافرين على ذلك بانه رغم هذه التعديلات العثمانية ، فان الاتفــاق مناسب من وجهــة النظر الانجليزية ••• لانه بالنســـبة للمادة

---

(١) — F.O. 407-22 p. T.V No. 477 p 203 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 350) Telegraphic. Constantinople, August 19, 1882.

الأولى فان القوات العثمانية لن تزاد عن الاعداد المذكورة ، ولن يتم امداد القوات العثمانية بالرجال الا بعد الموافقة الانجليزية المسبقة . وبالنسبة للمادة الثالثة فان القوات العثمانية لا تستطيع القيام باى حركات أو عمليات حربية الا بعد موافقة القائد العام الانجليزى .

كما وافق دافرين على المادة الرابعة ، رغم ابلاغه الجانب التركى بأن الموافقة النهائية ستكون من طرف الحكومة الانجليزية (١) .

ولكن المسئولين الاتراك ظلوا فى ترددهم فى اتخاذ القرار ... هل يوافقون على العمل تحت الوصاية الانجليزية بالنسبة للمسألة المصرية أم يحاولون فرض وجودهم باعتبار أن الباب العالى هو صاحب السيادة على مصر ، أم يرفعون أيديهم كلية عن هذه المسألة ، حتى أن دافرين هدد سعيد باشا فى ٢٧ اغسطس بأنه نتيجة للطريقة غير المريحة التى تسير بها المفاوضات من أجل التوصل الى الاتفاق بين الدولتين ، وتلك التعديلات الكثيرة على مسودة الاتفاق » فان الحكومة الانجليزية قد تصل الى نيتجة مؤداها أن الوقت قد مضى بالنسبة للدخول مع الحكومة العثمانية فى اتفاق « وانى لن أدهش اذا ما وصل قرار بهذا المعنى فى بضع ساعات » (٢) .

مسألة نزول القوات العثمانية (ابو قير - بورسعيد)

كان المسئولون العثمانيون قد وافقوا فى ٢٧ أغسطس على (أبوقير) كميناء لنزول قواتهم ، الا ان الصعوبات بدأت - بالنسبة لدافرين - عندما عبر الباب العالى عن رغبته فى أن تكون الاسكندرية والسويس وبورسعيد هى الموانى المخصصة لنزول القوات العثمانية . الا أنه فى

---

(١) — F.O. 407 - 22 p. T.V
No. 478 p. 204 The Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 796 Conf. Ext. 350) Thorapia, August 19, 1882.

(٢) — F.O. 407 -22 p. T.V No 590 p. 257 the Earl of Dufferin to Earl Granville (No. 372 A.) Telegraphic. Constantinople, August 26, 1882. No. 591 The Earl of Dufferin to Earl Grauville (No. 830 Conf. Ext 372 A) Tharapia, August 26,1882

النهاية وافق المفاوضون العثمانيون على (أبو قير) (١) على أن تصل تلك القوات الى بو قير عبر الاسكندرية • وقد تساءل دافرين عما اذا كانت هذه الاضافة هى على شكل شرط أم طلب • وفى النهاية اتفق الجانبان على أنها ليست شرطا ولا طلبا ولكنها رغبة (٢) • الا أن لورد جرانفل أبلغ دافرين ان التعديل المقترح ليس مناسبا ، وان القوات التركية يجب أن تنزل فى (أبو قير) التى سبقت الموافقة عليها من الجانب التركى (٣) • ومن ثم أبلغ دافرين سعيد باشا بهذا المضمون •

وواضح ان السلطان ليس فى امكانه مجرد اختيار الميناء الذى سوف تنزل فيه قواته فى مصر ، بل ان انجلترا خصصت لهذا الغرض ميناء صغيرا منزويا ، حتى لا يحدث لقاء بين العرابيين وبين هذه القوات ، فلا أحد يعرف عاقبة ذلك ، والمطلوب فقط هو تدعيم موقف انجلترا فى مصر ، وحيث أن السلطان هو الخليفة ، وطاعته واجبة على المسلمين ، فان هذا السلطان اذا ما تحالف مع الانجليز ضد الثورة ، فسوف تنفض الجماهير من حولها • فالقصد الرئيسى من الحاح دافرين على وجوب ارسال قوات عثمانية الى مصر - وفقا للشروط الانجليزية - هو لتدعيم موقف انجلترا فى مصر ، وليس القضاء على الاضطرابات ، ولا التأمين قناة السويس فانجلترا لم تكن فى حاجة الى هذه القوات لتحقيق هذه الامور •

على اية حال استمرت المفاوضات بين الجانبين الانجليزى والعثمانى ، وتسلم دافرين طلبا فى ٢٩ أغسطس لمقابلة سعيد باشا لمراجعة مسودة الاتفاق والتأكد من ادخال التعديلات المقترحة • وقد تم هذا الاجتماع بحضور ارتين افندى وكيل الوزارة للشئون الخارجية وقد وقع دافرين بالاحرف الاولى على مسودة الاتفاق • ولكن لدهشة دافرين ، فان المسؤولين العثمانيين رفضوا التوقيع المبدئى قبل احاطة مجلس الوزراء بالتعديلات التى ادخلت فعلا على مسودة الاتفاق • وهكذا انسحب سعيد

---

(١) — F.O. 407-24 No. 34 p. 13 Earl Granville to Earl of Dufferin 5, (No. 596 'A.) F.O. Octobre 5, 1882.

(٢) — F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٣) — F.O. 407 - 24 No. 34 op. cit.

باشا ومعة ارتين افندى بعض الوقت ، وبعد عودتهما ابلغ سعيد باشا بأن هناك اعتراض على بعض النقط فى هذا الاتفاق المبدئى . وقد ابدى دافرين آسفة لأن عملا له اهمية حيوية للباب العالى يستمر هكذا دون انهاء فترة طويلة ، وتناول دافرين ورقة أوضح فيها أنه نتيجة لحدوث عراقيل غير معقولة المفاوضات فان « حكومة جلالة الملكة لها مطلق الحرية فى العمل » .

وقد انزعج سعيد باشا لذلك ، وانسحب مرة أخرى من الاجتماع ، ثم عاد بعد نصف ساعة ، وابلغ دافرين بأنه رغم عدم استطاعته التوقيع على الاتفاق المبدئى ، فان ذلك التأخير هو لبعض الامور الشكلية ، وأنه يتعهد بأن يرسل الوثيقة موقعا عليها بالاحرف الاولى فى اليوم التالى . ونتيجة لذلك سحب دافرين مذكرته التى كان يرى رفعها للباب العالى على شكل انذار .

الا انه بعد مضى يومين (٣١ اغسطس) ابلغ سعيد باشا دافرين بأن التوقيع سيتأخر بعض الوقت ، فان مجلسا أعلى قد عقد فى القصر شارك فيه المستشارون البحريون للسلطان . وانهم اوضحوا صعوبات انزال القوات العثمانية فى (ابو قير) مما حدا بالسلطان الى ان يطلب دراسات اكثر عمقا بالنسبة لهذه المسألة ... وان الاسكندرية يجب ان تخصص لنزول القوات . وقد صاحب هذا الكلام ابراز النيات الحسنة والعلاقات الودية مع انجلترا ، وان هناك فقط رغبة فى الموافقة على طلب السلطان بجعل الاسكندرية هى نقطة نزول القوات .

ولكن ما هى العلاقة التى ستكون بين الجيشين الانجليزى والعثمانى فى مصر ؟ .

أوضح دافرين رأية فى بضع نقاط منها :

١ - « ان عدد افراد القوات التركية التى سوف ترسل الى مصر يجب ان تتحدد فى الوقت الحاضر ما بين الفين وثلاثة آلاف رجل ، وذلك طبقا لرغبة الحكومة الانجليزية » .

٢ ـ « ان القائد العام التركى يجب ن يعمل طبقا لرغبات القائد العام الانجليزى بالنسبة للتحركات والعمليات ، اسوة بما كان متبعــا اثناء حــرب القرم » ٠

وعندما نقل دافرين هذه الاراء الى سعيد باشا ، علق هذا الاخير عليها بقوله « انه يمكن القول ان القائد العام الانجليزى اذا ما رغب فى ارسال الف جندى الى هنا فسوف يحضرون ، واذا ما اراد ارســـال الف جندى آخرين الى هناك فسوف يذهبون » ٠

٣ ـ « يعين بكير باشا قائدا ثانيا للقوات العثمانية المزمع ارسالها الى مصر ، ويلحق بدرويش باشا ، ويكون لبكير باشـــا مطلق الحرية فى اختيار بعض المستشارين من الضباط الانجليز طبقا لرغبته » ٠

ولا ندرى لماذا هذه الرغبة الانجليزية لتعيين بكير باشا بالذات قائدا ثانيا للقوات العثمانية فى مصر ، اللهم الا اذا كان بكير باشـا على علاقات وثيقة بهم ٠

كمــا ابلغ دافرين جرانفيل أن السلطان تعهد بالدخول فى علاقات ودية مع انجلترا وأن يستبعد بعض مستشاريه الذين وقفوا فى طريق تحســين العلاقات بين الحكومتين (١) ٠

كمــا أبلغ دافرين السلطان أيضا أن حكومته لم تنس بعد قرار السلطان بعدم تزويد الجيش الانجليزى بالمؤن والدواب اللازمة له من آسيا الصغرى وسوريا (٢) ٠ وهكذا داب دافرين على الضغط على الســـــلطان وكذلك على محاولة تحسين العلاقات بين حكومته وحكومة الاســـتانة لتحقيق الغرض الاساسى وهو اشتراك الدولة العثمانية مع انجلترا فى احتلال مصر ، ولكن على ن يكون الوجود التركى فى مصر وجودا شـكليا ٠ وحتى يزيل دافرين العقبة الخاصة بطلب السلطان نزول القوات العثمانية فى الاسـكندرية بدلا من (ابو قير) عرض على سعيد باشا ـ بعد موافقة جرانفيل ـ انزال هـذه

---

(١) — F. O. 407 - 23 No. - 264 op. cit.

(٢) — F.O. 407 - 24 No. 34 op. cit.

القوات بمنطقة القناة بـدلا من (ابو قير) وذلك لأن الحكومة الانجليزية وضعت فى اعتبارها الاعتراضات المرفوعة من جانب قيادة البحرية التركية بالنسبة لميناء (ابو قير) باعتبار ان السفن لا يمكنها الرسو بامان فى هـذا الميناء الصغير ، وان التعليمات الاخيرة تسمح لقائد القوات التركية بالتقدم الى بورسعيد ثم الى قناة السويس ، فقد بدأ على وجه سعيد باشـا بعض الابتهاج امام هذا الكرم البريطانى ··· وهنا ابلغ سعيد باشا دافرين عن رغبة السلطان فى مقـابلته ·

وهكذا توجه دافرين الى (يلدز) حيث استقبله السلطان استقبالا وديا الا انه تبين لدافرين ان السلطان قد تصور ان القوات العثمانية سـوف تتمركز فى بورسعيد والسويس ، وليس كما ذكر دافرين من ان القوات العثمانية سوف تتقدم من كريت الى بورسعيد ومنها الى قناة السويس ، فقد اسقطت كلمة « القناة » من الحساب · وهكذا ودائما يضغط دافرين ويراوغ السلطان حتى يكون هناك معنى واحدا لارسال قواته الى مصر ، وذلك بتمركزها وسط الشعب المصرى ، والواقع ان السلطان هو ايضا كانت له اهدافه البعيدة من ذلك ·

على اية حال ، توقع دافرين بين لحظة واخرى ان يستدعيه سـعيد باشا لانهاء الاتفاق ، وبالفعل تم الاستدعاء ، وتوجه دافرين فى اول سبتمبر الى منزل سـعيد باشـا ومعه ثلاثة من معاونيه من أعضـاء السـفارة · كما كان سعيد باشا هو الآخـر محفوفا بمسـاعديه (١) · ولـما سال دافرين عن الاتفاق ، ابلغه سعيد باشـا بانه سيتم نشره فى الصحف صباح اليـوم التالى ·· وقد اندهش دافرين تماما ، فالوثيقة كانت لا تزال تحت المناقشة، وهى لا تزال موضوعا للمفاوضات بين الحكومتين ، وكان المفروض ان ترسل الى السفارة الانجليزية قبل نشرها فى الصحف · ولكن دهشة دافرين اصبحت بلا حدود عندما تبين له ان الاتفاق المرسل للصحف يختلف كلية عن الوثيقة المرسـلة الى لندن (٢) ·

---

(١) — F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٢) — F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.

وعندما بحث دافرين عن الترجمة الفرنسية قرأ عليه ارتين افندى وكيل الخارجية التركية الجزء الذى تمت ترجمته من الاتفاق لأنه لم يكن قد اكمل الترجمـــة بعـــد ٠

وعندما تبين لدافرين ان الاتفاق الجديد يختلف عما سبق الاتفاق عليه، لم يخف عدم رضـــائه واوضح أن لديه تعليمات من حكومته بالتوقيع على الاتفاق الاصـــلى الذى اختيرت كلماته وصيغت عباراته بكل دقة من جانب الحكومتين ، وانه لذلك يصعب عليه المضى قدما فى المفاوضات قبل ارســـال النص الجديد الى لندن ٠

واوضح سعيد باشا لدافرين انه يمكنه التوقيع بالاحـرف الاولى على الاتفاق الجديد ٠٠٠٠ فأجاب دافرين انه رغم عدم موافقته على بعض المقاطع، فانه للظروف مستعد لذلك ، وهكذا بدات الاستعدادات لذلك التوقيع ٠

ولكن مرة اخـــرى طالب المسئولون الاتراك بتعديل مينـــاء (أبو قير) المشار اليه كنقطة لنزول القوات التركية ٠ فاستخدم دافرين الصيغة التالية « أن القوات التركية سوف تدخل القناة ثم تتقدم الى المراكز المتفق عليهـــا بين القادة الانجليز والاتراك » ٠ ولكن المفاوضين الاتراك اعترضوا على هذه الصيغة ، وابلغوا دافرين بأن السلطان قد أمرهم بالتوقيع مع ذكر بورسعيد كمكان لتمركز القوات التريكة ٠ ومـــع ثم اقترح دافرين الصيغة الجديدة التالية « أن القوات التركية سوف تتقدم الى بورسعيد ومنها الى مراكزهـــا على القناة طبقا لاتفاق القادة » ٠ وقد وافق سعيد باشا على هذه الصيغة ٠ وشعر دافرين بأن كل العراقيل قـد انتهت ٠

الا ان سعيد باشا سرعان ما دافرين بأن السلطان لم يوافق على هــذه التعديلات ٠٠٠ وقد علق دافرين على ذلك ، بأن هـــذا الرفض سـيؤدى الى عراقيل اخرى فى سبيل توقيع الاتفاق ، كما ابلغ سعيد باشا بأنه ســـينقل الموضـــوع كلية الى لندن (١) ٠

---

(١) — F.O. 407 - 24 No. 264 op. cit.

ولكن ما هو راى جرانفيل بالنسبة لهذا التعديل الخاص بتمركز القوات التركيـــة ؟ ٠

لقد ابلغ جرانفيل دافرين لابلاغ المسؤلين الاتراك ان حكومة لندن لاتوافق على تمركز القوات التركية فى بورسعيد ، وأن هـذه المادة من الاتفاق يجب أن تصاغ بحيث لا يعتريها أى غموض ، وأن الاشارة الى بورسعيد يجب ان يكون مفهوما معها ان القوات التركية تعبر بورسعيد فقط لدخول القناة وليس للتمركز فيها ، لأنه يجب التنسيق طبقا للخطة العامة للحملة (١) ٠

وهكذا اتصل دافرين بسعيد باشا مرة أخرى لابلاغه ذلك ، شـــارحا له انه رغم ان الاتفاق يشير الى القناة بصفة عامة كنقطة تتقدم منها القوات التركية ، فان نقط تمركز القوات سوف تحدد طبقا لترتيبات بين القادة وطبقا للاوضاع الحربية عند نزول القوات ٠

الا ان ســـعيد باشا عاد فابلغ دافرين ان الباب العالى ليس مستعدا للموافقة على الصيغة المقترحة وانه يفضـــل كلمـة « نزول » القوات الى بورسعيد se renderont à port-Said فأجاب دافرين انه يجب أن لا يكون هناك اى شك او لبس بالنسبة للصيغة التى ستكتب بهـا هـذه المادة من الاتفاق ٠٠٠ وانه عندما ذكر بورسعيد لم تكن هناك مشكلة انزال القوات التركية بها ، فهى افضـــل فقط من ميناء (ابو قير) الصغير ، ولكن على ان تتقدم القوات منها الى القناة ، وان سعيد باشا نفسه قد رحب بذلك ٠ الا ان سعيد باشا اجاب بأن هذه هى رغبة الباب العالى (٢) ٠ وبعد بعض المناقشات ، اقترح دافرين تعديلا جديدا على المادة ينص على انه « يجب ان تتجه القوات التركية الى بورسعيد من اجـل دخول القناة » ٠ وقد قوبلت هذه الصيغة بترحيب من جانب سعيد باشـــا (٣) ٠

وهكذا وبعـــد تخطى عقبة نزول القوات العثمانية ، وبعد استبعـاد تعبير « التدخل الاجنبى » والمقصود به القوات الاوروبية — من الاتفـاق ،

---

(١) — F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.

(٢) — F.O. 407 - 23 No. 264 op cit

(٣) — F.O. 407 - 24 No. 34 op cit.

اقتنع دافرين بأن كل الصعوبات قد انتهت • وانتظر بقلق دعوة سعيد باشا له للحصول على الاتفاق موقعا عليه من الباب العالى •

وفى ١٤ سبتمبر ابلغ سعيد باشا دافرين استعداده للتوقيع على الاتفاق فى صورته النهائية • وهكذا ارسل دافرين أحد أعضاء السفارة وهو السير ساندسون Sandiston الى الباب العالى للتأكد من توقيع الاتفاق • الا انه بعد يومين ، ابلغ ساندسون دافرين بأنه لم تصله اجابة من سعيد باشا •

وهكذا توجه دافرين الى « القصر » ، وعلم ان التوقيع لم يتم « رغم التنازلات الكبيرة التى قدمتها الحكومة الانجليزية » واعتقد دافرين ان هناك استحالة للتوصل الى اتفاق مع الحكومة العثمانية ••• ولكنه رغم ذلك ورغم تعليمات جرانفيل له ، فانه ـ طبقا لكلماته ـ حاول الاقتراب من خط سعيد باشا (١) •

كما ارسل سعيد باشا برقية لدافرين يوضح فيها التعديل الثانى فى الاتفاق بخصوص سلطات المارشال (الفريق) درويش باشا ـ قائد القوة المزمع ارسالها الى مصر ـ وان متير بك سيحمل اليه التفصيلات فى القريب العاجل (٢) ، وانه أيضا سيرسل الاتفاق كاملا الى دافرين للتوقيع عليه •

ولكن تبين لدافرين ان الاتفاق قد اصبح بعيدا مرة اخرى عما تم الاتفاق عليه ••• فقد جاء فى المسودة ان اعداد القوات التركية ستكون نحو ثلاثة آلاف رجل • وتم حذف عبارة « انزال القوات التركية » • كما حذفت المادة الثالثة الخاصة بأن تحركات وعمليات القوات التركية هى طبقا لتعليمات القائد العام الانجليزى ، وحلت محلها عبارة توضح ان قائد القوات العثمانية يقيم علاقات ودية مع القوات الانجليزية فى مصر • كما حذفت عبارة « وتتجه القوات العثمانية الى المراكز المحددة

---

(١) F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٢) F.O. 407 -Inclosure in 23 No. 264 op. cit., No. 136 Said Pasha to the Earl of Dufferin (Telegraphique) Constantinople le 16 Sep. 1882.

لهـا طبقـا لتعليمـات القـائد العـام الانجليزى فى مصر » وحلت محلهـا « وتتجه القوات العثمانية الى النقط الملائمـة لهـا فى حالة الحرب » ٠

وهكذا اضطر دافرين الى عـدم الموافقة على التوقيـع على هـذه الوثيقـة ٠ وهنـا طلب السلطان مقابلة دافرين ٠٠٠ وقـد تمت المقابلة فعـلا ، وقـد كرر دافرين على مسمع السلطـان انه يرغب فى ارضـاء الباب العالى ، ولكنـه كسفير فانه يعمل طبقا لتعليمات حكومتـه ٠ وقبـل انتهاء الاجتمـاع اشار دافرين الى ان سير الحوادث يتم بطريق سريعـة جـدا ، فقـد تغير الموقف جذريـا فى مصر بعـد اسر عرابى وتسريح الجيش المصرى ٠ كما اضاف دافرين بأنه « متاكـد من ان لندن تود التصرف بطريقـة ودية مع السلطان رغم انه ليست هنـاك ضرورة ملحـة للتعاون العسكرى التركى ، وانه من الافضل للحكومـة العثمانية ان تلبى المطالب الانجليزية ٠ وقـد اجاب الباب العالى اجابه وديـة ، ولكنهـا خاليـة من اى مضمون بالنسبة لوجهـة النظـر الانجليزيـة (١) ٠

وقبل انهاء هذه النقطة ، يمكن لنا ان نتساءل لماذا تمسكت السلطات التركية بالتمركز فى بورسعيد ، بينما تمسك الانجليز بوجوب تقدم القوات العثمانية من بور سعيد — بعد دخولها القناة — الى مراكز أخـرى يعينهـا الانجليز فى مصر ٠٠٠ كان درويش باشـا قـد اوضـح فى تقـريره للسلطان (٢) ان هناك مركزا حصينا للعرابيين قرب بور سعيد ، وان هذا المركز سوف ينضم الى القوات العثمانية فور وصولها الى بورسـعيد ، وهكذا تنضم بقية المراكز العرابية للعثمانيين ٠

والواقع ان دافرين كان متلهفا على انهاء الاتفاق مع العثمانيين « لاننا لو تركنا القوات العثمانية تنفرد بحل المسالة فسوف تنضم تركيا لعرابى، وان اللهجة المعادية للصحافة التركية تجاه الانجليز توضـح ان تركيـا ليست ضـد (العصيان) ولكنها ضد الانجليز والاجانب ٠ وقد أوضـح قناصل انجلترا فى جهات كثيرة التحمس الدينى الاسـلامى ضد الانجليز ،

---

(١) — F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٢) — F.O. 407 - 22. Incloure in No 589. op. cit

وبكفى العراقيل التى بثها الباب العالى أمام امداد الجيش الانجليزى بالمؤن والدواب · ولذا يمكن فقط للمحافظة على الشكل - أن تتمركز قوة تركية صغيرة فى (أبو قير) وترفع العلم التركى (١) وواضح أن دافرين كان يرمى من وراء ذلك عدم انضمام العرابيين للقوات العثمانية ·

- انجلترا تنفرد بمصر -

على أية حال ظلت المفاوضات بين انجلترا والدولة العثمانية بطيئة متعثرة ، الى أن استقر الامر لانجلترا فى مصر بعد قضائها على الثورة العرابية واستيلائها على قناة السويس وهكذا انفردت انجلترا بمقدرات مصر ، خصوصا لعدم رغبة فرنسا فى المشاركة الفعلية فى غزو مصر ، الا اذا كان هناك خطر فعلى يهدد قناة السويس ، كما انها حددت عملها عند الضرورة بالعمليات البحرية فقط ·

وعندما طلب الباب العالى من الحكومة الانجليزية ان تذكر له الموعد المحدد لانسحاب القوات الانجليزية من مصر طبقا لما اعلنته هذه الحكومة ، ابلغ جرانفيل دافرين لابلاغ السلطان ، بأن الباب العالى « يعلم جيدا بالتضحيات التى بذلتها الحكومة البريطانية من أجل المحافظة على النظام فى مصر » (٢) واضاف جرانفيل « أن هذه التضحيات منحتنا القوة ··· وأن هذه القوة وضعت على كاهلنا مسئوليات كبرى ··· لأن الجيش (المصرى) قد تم تسريحه ، ونحن ليست لدينا الرغبة فى البقاء فى مصر فترة اطول مما تحتمه الظروف » (٣) · واستمر جرانفيل موضحا وجهة نظره للسلطان فان « العمل المنفرد الذى اضطرت الحكومة الانجليزية الى اتخاذه لم يكن مخططا منذ اللحظة الاولى ··· الا أنه عندما اصبح واضحا أنه لا يمكن اعادة النظام الى مصر بدون تدخل خارجى ، فانه كان على السلطان أن يقوم بذلك بنفسه بصفته صاحب السيادة على مصر ، وقد

---

(١) — F.O. 407 - 23 No. 264 op. cit.

(٢) — F.O. 407 - 23 No.. 34 op. cit.

(٣) — F.O. 407 - 24 No. 36.
p. 20. Earl Granville to the Earl of Dufferin (No. 602) F.O. October 5, 1882

اقترحت الحكومة الانجليزية ذلك الحل ، والسفير الانجليزى فى الاستانة لم يتوان عن حث السلطان ومستشاريه على ذلك ، الا أن كل مجهوداته ذهبت أدراج الريـــاح وعندما بدا ضروريا التحرك بسرعة لضمان أمن القناة ، اقترحنا أن نتعهد بهذا الواجب بالتعاون مع فرنسا وأى قوى أخــــرى مستعدة للتعاون معنا ، وذكرنا ايطاليا للمشاركة فى الترتيبات • أن نجاح (العصيان) حطم سلطة الخديو ، وحول مصر الى حالة من الفوضى ••• وقد دعونا فرنسا وايطاليا للعمل معنا للقضاء على (العصيان) وعندما تقاعست هذه القوى عن العمل معنا ، ظللنا نضغط على الباب العالى لارسال قواته ، ولكن قبل أن توافق الحكومة التركية على الاتفاق العسكرى ، فان نجاح قواتنا قد وضع نهاية (للعصيان) فى مصر » (١) •

وهكذا ونتيجة الضغوط والقيود التى فرضتها انجلترا على تصرفات الباب العالى تجاه المسألة المصرية وكذلك لتقاعس بسمارك عن معاونة حليفة السلطان ، وكذلك لاخفاق فرنسا عن تفهم المرامى البعيدة للمخططات الانجليزية فى المنطقة ، فان بريطانيـا انفردت بمقدرات مصر فترة امتدت اكثر من ســبعين عـــاما •

أسباب اخفاق الثورة :

يرجع فشل الثورة العرابية الى عوامل متعددة خارجية وداخلية وأول العوامل الداخلية هو الانقسام الذى وقع فى الصفوف بين العرابيين والخديو توفيق ، فان هذا الانقســام جعل فى مصر معسكرين متحاربين معسكر الثورة ومعسكر الخديو فوقــع الصدام بينهمــا وتفاقم أمره وانتهز الانجليز فرصة وجوده وتذرعوا الى هذا الاحتلال بدعوى تأييد ســلطة الخديو وحمــاية العرش (١) •

فالانقسام هو أول العوامل فى اخفاق الثورة ، يليه تاثير الزعماء فى تطــور الحوادث ، فلقد كانت تنقصهم الخبرة السياسية ، وهذا النقص وحده يكفى لاخفاق أية ثورة ، وقد امتلأت نفوس زعماء الثورة بالحماس

(١) — F.O. 407 - 23 No.. 34 op. cit.

(٢) عبد الرحمن الرافعى — أحمد عرابى ص ١٦٥ •

والايمان والاخلاص ، وهذه الصفات على أهميتها ليست كافية ، اذ لابد أن يتمتع الزعماء والقادة بسعة اطلاع وحسن ادراك وتقدير سليم للأمور والظروف الداخلية والخارجية ، وقد بدا واضحا افتقار زعماء الثورة العرابية لهـذه الصفـات (١) .

ويتضح مما سبق أن الثورة العرابية كانت تفتقر الى القيادة الواعية، هذا الى انها ايضا لم تكن لها الشعبية الكامبه ، حقيقة لقد التف الكثير من أفراد الشعب حول هذه الثورة خصوصا وقت الخطر وابان الغزو البريطانى، الا أن زعماء الثورة لم تكن لديهم البصيرة ليشركوا معهم فى مغامرتهم تلك الفئات الاجتماعية : العمـــال والفلاحين (٢) حتى يكـونوا صمـــك الضمان . فقد اعتمد عرابى فى المقام الاول على الجيش والاعيان والمثقفين

« كما كان للعوامل الخارجية اثر كبير فى اخفاق الثورة العرابية ، واهمها المطامع الاستعمارية الاوربية وبخاصة الانجليزية ، ففرنسا وانجلترا كانتا تطمعان فى توسيع نفوذهما فى مصر ، ومن هنا جاء سخطها على الثـــورة وكراهيتهما قيام حكومة دستورية فى البلاد . وأعقب ذلك انسحاب فرنسا من الميدان وانفراد انجلترا بالتدخل لتحقيق مطامعها الاستعمارية فى مصر. هذا بالاضافة الى سلبية أوربا حيال الاعتداء البريطانى ، وسوف نية تركيا نحو مصر منذ قيام الثورة ، وسعيها الاخـرق فى استرداد الاستقلال الذى نالته مصر ، وما ظهر منها من التذبذب والتظاهر تارة بمناصرة العرابيين وتارة بتأييد الخديو ، وانضمامها أخيرا الى جانب الانجليز باعلانها عصيان عرابى والحرب قائمة .. فكان هذا الاعلان ضربة شديدة للثورة وعضـــدا كبيرا للحملة البريطانيـــة » .

الا أنه انصافا للحق ، فانه يمكن القول انه رغم كل الاخطاء الفادحة ، فانه لم يكن من السهل على أمة تثور للحرية أن تتغلب على كل هذه العوامل

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ احمد عرابى ص ٢١٨ .

(٢) هارولد لاسـكى ـ تأملات فى ثورات العصر ـ ترجمة عبد الكريم أحمـــد ص ٥٨ .

مجتمعة ، فالثورة الامريكية لم تدرك ما نالته من النجاح ولم تحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد ان عاونتها فرنسا بجيشها واسطولها وايطاليا لم تتحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد ان عاونتها فرنسا عن تركيا وتحقق استقلالها الا بمساعدة اوربا .

اما مصر فانها لم تحرم المعاونة الخارجية فحسب ، بل تألبت عليها العوامل الخارجية وعاونت انجلترا على تحقيق اطماعها الاستعمارية (١) .

النتائج التى ترتبت على فشـل الثورة العرابيـة :

(أ) لقد كانت النتيجة الاليمة لفشل الثورة العرابية هى الاحتلال البريطانى الذى ظل جاثما على صدر الامة اكثر من سبعين سنة ، ولا شك ان هذا الاحتلال كان نجاحا للثورة المضادة الخارجية ضد الثورة التحررية وهكذا شهدت السنوات الاولى للاحتلال الغاء الدستور وحل مجلس شورى النواب ، وشهدت فوق ذلك استسلام كبار رجال مصر والاعيان لارادة المعتمد البريطانى وتقرب اكثرهم اليـه .

وقد عملت بريطانيا على توطيد مركزها فى مصر بالنسبة للمصريين من ناحية وبالنسبة للدول الاوربية الاخرى من ناحية ثانية ، وساعدها على ذلك وجود جيش تستمد منه القوة الفعلية لتحقيق اغراضها .

وكانت مصر تعانى افلاسا فى ماليتها ، ومع ذلك فقد تكبدت نفقات جيش الاحتلال واتجه الانجليز الى السيطرة علىمالية البلاد ، وضمنوا لمصر قرضا جديدا يسد تلك النفقات ، كما اتجهوا الى الغاء المراقبة الثنائية، واتبع اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر عدة وسائل لزيادة الميزانية ، منها تحريم صناعة التبغ ، وزيادة العوائد الجمركية على الدخان الوارد والتوسع فى مشروعات الرى وتقرير البدل النقدى عن الخدمة العسكرية .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ أحمد عرابى ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(ب) محاكمة العرابيين :

عقب الاحتلال مباشرة ، تم اعتقال زعماء الثورة العرابية ، واعتقل ايضا كثيرون من الضباط ، وألقوا فى السجن رهن التحقيق والمحاكمة ، وكثرت الوشايات حتى امتلأت السجون بالمتهمين ، وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من ٣٩٠٠٠ شخص ٠

واستقر رأى الانجليز على أن يقدم عرابى وصحبه أمام المحكمة العسكرية بتهمة عصيان الخديو ، وحكم على عرابى وستة من رفاقه بالاعدام ، مع صدور الامر الخديوى ، بابدال الاعدام بالنفى المؤبد ٠ كما اصدر الخديو امرا آخر فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بمصادرة ممتلكات الزعماء السبعة وتجريدهم من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التى كانوا حائزين لها (١)

ونتيجة لاحكام النفى والتشريد أمنت بريطانيا من أى ثورة تتهددها فى مصر ٠

(ج) سيطرة الانجليز على الجيش المصرى :

بادر الانجليز الى الغاء الجيش الوطنى منذ الساعات الاولى للاحتلال واستعاضوا عنه بجيش هزيل وضع تحت اشراف ضباط انجليز ليكون اداة مسخرة فى أيدى الاحتلال ٠ ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل حرص الانجليز على أن يعرقلوا اى سبيل للنهوض بالجيش من جديد ، فبادروا الى الغاء المدارس الحربية العليا ، كما اغلقت المصانع الحربية وبيعت سفن الاسطول المصرى ، وهبط عدد الجيش الى أقل من عشر آلاف جندى

وكان الضباط المصريون لا يضمنون البقاء فى مناصب الجيش الا اذا ابدوا ولاءهم للمحتل ، أما اذا بدت منهم روح وطنية ، كان جزاؤهم الاحالة الى الاستيداع ، وبذلك مسخ الاحتلال روح الجيش ، ونزل به الى مستوى شنيع من الضعف ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى – احمد عرابى ص ٢٠١ – ٢٠٤ ٠

« ومنذ عام ١٨٨٦ وضع نظام البدل النقدى للاعفاء من التجنيد . وأدى هذا النظام الى امتهان الجيش واعتبار التجنيد تكليفا تختص به الطبقات الفقيرة التى لا يستطيع الفرد منها أن يفتدى نفسه بدفع البدل العسكرى ، وهذا النظام خرج بالجندية فى عهد الاحتلال من معناها الســـامى فى أنها فرض واجب على كل مواطن للدفاع عن بلاده الى اعتبارها عبئا يقـــع على كاهل الفقراء ، وبذلك حرمت البلاد طيلة عهد الاحتلال روح الجندية الاصيلة المبنية على الشجاعة والتضحية ، كما حرم الجيش من الفئة المثقفة التى تستطيع ان تنهض بالجيش » .

(د) الغـــاء الدستور وحل مجلس شـــورى النواب :

ألغت بريطانيا الدستور عقب الاحتـــلال ، وحلت مجلس النواب ، وحرصت على تشكيل هيئات هزيلة مثل مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين ، وكان الغرض من انشـــاء تلك المجالس مجرد التنفيس ، اذ أن الحكومة لم تكن فى الواقع تلتزم بقرارات تلك المجالس .

أما فى الوزارات والمصالح الحكومية ، فقد عينت الحكومة عددا من المفتشين الانجليز ولم يكن هؤلاء من طراز ممتاز فى العلم أو فى الكفاية . وكانت كلمة المستشار البريطانى أقوى من كلمة الوزير المصرى ، وكان لكل وزارة مستشارها ، وقل نصيب المصريين فى الوظائف الكبيرة ، واصبحت الوزارات المصرية تأتمر بأوامر الانجليز ، واستمر ذلك تقريبا بالنســـبة لجميع الحكومات المصرية التى تعاقبت فى سنوات الاحتلال ، وذلك منـــذ أرسل اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية برقيته المشهورة فى عـــام ١٨٨٤ بشأن ازمة الســـودان وجاء فيها « مادام الاحتلال قائما فلا بد من اتباع النصائح التى ترسلها حكومة جلالة الملك الى الخديو ويجب على الوزراء والمديرين المصريين ان يكونوا على بينه من ان الحكومة الانجلـــزية تصر على اتباع السياسة التى تراها ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزيـــر يعارض هـــذه السياسة » .

(هـ) انجلترا والاستغلال الاقتصـــــادى :

كان من أهم أهداف الاحتلال البريطانى الاستغلال الاقتصادى فكـــان أول ما جاهر به أن مصر بلد زراعى ولا يمكن أن تنهض فيه الصناعة ، ومن

اجل ذلك اغلق الانجليز المصانع التى كانت موجودة بالفعل ، حتى تظل مصر فى حاجة دائما الى المصنوعات البريطانية . ونظرا لاهمية القطن بالنسبة لمصانع الغزل والنسيج فى لا نكشير ، اهتم الانجليز بزراعته فى مصر حتى أصبح عمود اقتصادها القومى ، ثم جعلوه فى أيديهم باعتبارهم المستوردين له ، وبذا صار اقتصاد البلاد بين أيديهم تماما .

كما عمل الانجليز على ايجاد طبقة من الملاك ترتبط مصلحتهم بمصلحتهم وشجع الانجليز انشاء الملكيات الكبيرة ، وفعلا ارتبطت مصالح هؤلاء بالاحتلال لان مصالحهم اضحت فى أيدى سلطات الاحتلال . وكان يؤخذ من هؤلاء الملاك ممثلو البلاد فى مجلس شورى القوانين وفى الجمعية العمومية لانهم كانوا هم المسيطرين على الحياة فى الريف ، وبذلك اختل البناء الاجتماعي فى الريف المصرى اختلالا شديدا ، اذ اصبحت غالبية الارض الزراعية فى يد قلة من كبار الاقطاعيين ، وهناك بعض الفلاحين ممن يمتلكون مساحات ضئيلة ، بينما الغالبية منهم لا يمتلكون شيئا .

(و) اضمحلال التعليم :

كان هدف التعليم فى عهد الاحتلال هو المحافظة على الاوضاع السياسية التى قامت ، ومعنى هذا اقرار الامن وجعل النظام مستتبا بحيث لا تستشرى روح الوطنية فى النفوس ، ولذلك كان التعليم فى بداية عهد الاحتلال تابعا لنظارة الداخلية ، ولا شك أن هذه التبعية توضح ما كان يريده الانجليز من التعليم ، وهو ابعاده تماما عن دائرة التعليم الوطنى الذى يرمى الى تكوين المواطن الحر الصالح .

والهدف الثانى للسياسة التعليمية فى عهد الاحتلال ، كان تخريج الموظفين الصغار الذين تحتاجهم وزارات الحكومة ، وقد انعكس هذا الهدف فى السياسة التعليمية ، بحيث أننا نلاحظ أن المدارس كانت تفتح أبوابها وتغلقها بطريقة موسمية وحسب حاجة وزارات الحكومة الى الموظفين .

أما الهدف الثالث فهو تعميق الفوارق الطبقية بين ابناء الوطن واتخاذ تعدد نظم التعليم وسيلة لتحقيق ذلك ، فقد شجع الاحتلا المدارس الاجنبية والخاصة لتحقيق هــذا الهدف ٠

أمــا الهدف الرابع ، فكان نشر الثقافة الانجليزية وجعلهــا أدوات الاستعمار ٠

« وكان مجموع ما انفقه الانجليز على التعليم فى الخمسة وعشر الاولى لعهد الاحتلال لم يتجاوز من ١ ــ ٣ ٪ من الميزانية ٠ والغيت وزيدت مصروفات المدارس الثانوية ، وبذلك خلق الانجليز ما يد بالارستقراطية العلمية ، بل جعلوا من التعليم فجوة بين المتعلمين الشعب وأصبحت اللغة الانجليزية لغة الدراسة فى المدارس حتى فى الابتدائية ، امــا الكتب الدراسية فكانت خالية من كل نزعة وطنيـة الاهتمام بتاريخ أوربا وجغرافيتها أكثر من الاهتمام بتاريخ مصر وج حتى يفصــل الانجليز بين حاضر البلاد وماضيها الثقافى » ٠

« ومما يدل على عدم اهتمام كرومر بالتعليم انه حين أحس ا عهده بالمناداة باستعمال اللغة العربية والاهتمام بالتعليم العـالى ابواقه تذيع أن نشر التعليم الاولى بين طبقات الشعب أجدى على ا انشاء الجامعة وأن الحكومة حينئذ أخذت تشجع انشاء الكتاتيب بالمال ، وترتب على هذا أن ابناء الاثرياء وحدهم هم الذين كان تلقى التعليم الفنى والعالى بالسفر الى الخارج » ٠

الفصل السادس
يقظة مصر بعد الاحتلال

من خلال كفاح الوطنية المصريـة منذ الحركـة العرابية ، يبرز التيار القومى المصرى الذى ترجع بدايته للمفكـر المصرى رفاعـة الطهطاوى الـذى وهب نفسـه لتجديـد الحياة فى مصر حتى تلحق بحضارة الغـرب التى شاهدهـا اثنـاء رحلته الى اوربـا ، فقـد تناول بشـكل بارز تاريـخ مصر الخاص بحضارتهـا فى كتابه « مناهج الالباب » ٠

وتصدى هـذا المفكر لتحليل مقومات الحضارة الاوربية وخاصـة فى وضعهـا السياسى والاجتماعى فى مؤلفه « تخليص الابريز » بشرعية مبادىء الديمقراطيـة اللابرالية التى تقـوم على الديمقراطية ، وحريـة الفكـر والتعبير ، مـع اتجاهه المقارن بين الاوضـاع السياسـية والاجتماعيـة فى فى فرنسـا والاوضـاع السياسبة والاجتماعبـة فى مصر (١) ٠

واذا تأملنـا دعـوة الطهطاوى من خـلال اعمـاله نجدهـا ترتكز على ثلاث دعائم ، القوميـة المصريـة والديمقراطية الليبراليـة ، والدعـوة الى الأخـذ بأسباب الحضارة الغربيـة فى مصر (٢) ٠

وعندما جاء الافغانى الى مصر وجـد الطهطاوى قـد هيأ لـه التربـة الفكرية والسياسية بأولئك الذين شبوا فى مدرسته ٠

---

(١) رفاعـة الطهطاوى : تخليص الابريز فى تلخيص باريز تحقيق وتعليق مهـدى عـلام وآخرين ص ١٧٠ ٠

(٢) رفاعة الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية فى مناهج الآداب المصرية ص ٩٧ ٠

واذا كانت مدرسه الافغانى قد أعقبت مدرسة الطهطاوى الا أن المدرستين تختلفان كلية فى المنهج والاسلوب والغاية وما يسيطر على كل منهما من طبيعة رائدها ٠

وبلورت دعوة الافغانى الاتجاه الثورى الذى كان يتأجج فى صدره عن غريزة طبيعية صقلتها وانضجتها سياحة طويلة فى الاقطار الاسلامية ، واكسبته تجارب عملية واسعة وخبرة بحياة الشرق (١) ٠

فدعوة الطهطاوى تجديد حضارى ، اما دعوة الافغانى فدعوة تكتنفها ظروف استعمارية مسيطرة من دول الغرب ، ولذلك اتسمت دعوته بأساس ومنهج فكرى يمتد فى الجامعة الاسلامية التى كان يعتبرها السلاح البتار امام هؤلاء الطامعين ٠

ومن هذه المدرسة الأخيرة نجد الفكر العربى يتخذ طريقه وتشع منه الافكار التى انتشرت خلال نهاية القرن التاسع عشر ، والنصف الاول من القرن العشرين فى العالم العربى ٠

ولا شك أن المثقفين كانوا ابرز الفئات فى الحياة السياسية فى مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر ، فقد تألفت هذه الفئة منذ مطلع القرن التاسع عشر نتيجة للاحتكاك الفكرى والحضارى بين المجتمع المتخلف فى مصر والحضارة الغربية ، ونتيجة ايضا لحركة النقل والترجمة من الفكر الغربى فى صورة المختلفة (٢) ٠

ولم تكن الفرصة مواتية لنمو الحركة الوطنية من خلال السطوة الاستعمارية الكاملة من جهة وللذهول الذى أصاب المصريين من جهة أخرى من جراء فشل ثورتهم - العرابية - واحتلال بلادهم ، وأدى هذا بالتالى الى فتور الحركة الوطنية ٠ ولكن الشعب بعد ذهوله ونكسة ثورته بدأ

---

(١) أحمد امين - زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٩٧ ٠
(٢) أ ٠ د ٠ محمد أنيس - ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها التاريخية ص ١٢٢ ٠

يفيق من الصدمة على يد صحيفة المؤيد التى تحريرها الشيخ على يوسف ٠

وتضافرت عدة عوامل لابتعاظ الشعب من جديد ، فكانت ما أحدثته السياسة الاستبدادية وما اثاره الحكم المطلق الذى كان يزاوله ممثل الاحتلال من الاستئثار بالسلطة دون الخديو من رد فعل بين المصريين من الاحتلال الى جانب تفاضى سلطات الاحتلال عن منح المصريين النظام النيابى على نمط النظام البريطانى ، وتقاعس الاحتلال عن منح المصريين قسطا) من التعليم العالي ، ومحاولة جعل اللغة الانجليزية لغة التعليم ٠

مصطفى كامل :

وفى وسط هذه الظلمة الحالكة ، ظهر من بين المصريين طراز جديد من المثقفين الذين رفعوا راية الكفاح ضد الاحتلال ٠

وكان على راس هذه الجموع الثائرة شاب متوقد الذكاء شديد الحماسة هو مصطفى كامل ، درس المحاماة وتلقى المحاضرات فى مدرسة الحقوق المصرية - ثم اتمها فى مدرسة الحقوق الفرنسية ٠ وكان مصطفى كامل خطيبا مؤثرا يستطيع ببلاغته ان يخاطب قلوب الجماهير ، وأخذ يعبىء شعور المصريين بالمقالات والخطب (١) ٠

ولا شك أن مصطفى كامل هو باعث الوطنية المصرية بعد الاحتلال ، وهو الذى أعاد الى المصريين ثقتهم بانفسهم بعد فشل الثورة العرابية ٠ وكان اول ما واجهه من الصعاب هو اليأس الذى ران على نفوس الكثيرين ممن صدمتهم كارثة الاحتلال ٠ لذلك كان اول ما يجب ان يتجه اليه زعيم الحركة الوطنية فى تلك الآونة أن يذكر المصريين بماضيهم وجلال تاريخهم وما فعله اجدادهم فى القريب والبعيد من ايامهم (٢) ، فهو يقول « ان ثقة الأمة بنفسها هى الاساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد غدها ويؤسدها - ترى الامة اذا اعتنقت الحرية والقدرة فى مجموعها وافرادها تغلبت على

---

(١) د ٠ جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨١ ٠

(٢) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٣٠ ٠

الحادثات والايــام وقهرت ألد أعدائها واجتــازت المصــاعب غير هيابة ولا وجلة (١) .

وقد ولد مصطفى كامل فى ١٤ غسطس ١٨٧٤ بدرب المبيضة بشارع شبخون بالصليبة بقسم الخليفة بالقاهرة . ونال شهادة الدراســة الثانوية فى عام ١٨٩١ ، والتحق فى نفس العام بمدرسة الحقوق الخديوية، كما التحق فى عام ١٨٩٢ أيضــا بمدرســـة الحقوق الفرنسية فجمع بين المدرستين وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز الفرنسية فى عـــام ١٨٩٤ .

وقد بدأ مصطفى كامل كفاحه الوطنى وهو طالب بالمدرسة الثانوية ، ولم يكن قد تجاوز يومئذ السادسة عشرة من عمره ، اذ أسس فى عام ١٨٩٠ جمعية ادبية وطنية أطلق عليها (جمعية الصليبة الأدبيــة) .

وبعد تخرجه من الحقوق الفرنســـية والمصرية ، بدأ مصطفى كامل يستغل موهبته الفذة فى الخطابة والكتابة فى بعث الروح الوطنية ... بدأ يكتب فى الصحافة المصرية والعالمية ، منددا بالاحتلال البريطانى . كما أن موهبته الخطابية شدت اليه الآذان فى عصر كان المصريون فيه يعشـــقون اللغة العربية ويفهمون دقائقها ، وفى هذه المرحلة الاولى أرسل خطابات الى كبار زعماء العالم والى البرلمـــانات يعرض عليهم تجاوزات بريطانيا فى مصر . واستغل مصطفى النزاع بين فرنسا وانجلترا ليكتب فى الصحافة الفرنسية .

وســعى مصطفى سنة ١٨٩٥ للتعرف بمدام جوليت آدم ، وكانت من أعظم الشخصيات الفرنسية فى السياسة والأدب ، وكان مشاهير أدباء العالم يرحلون اليها ويجتمع بدارها العلماء والأدباء والشعراء (٢) .

---

(١) د . جاد طه ـ الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص٨٢ .

(٢) ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦ وتوفيت سنة ١٩٣٦ ، فظلت موضع احترام مواطنيها طـــوال سنى حياتها ، وقــد وضعت ســنة ١٩٢٢ كتابا بعنوان (انجلترا فى مصر) وقد سعى مصطفى كامل تضم مدام آدم فى صف =

وقــد فتحت مدام ادم الباب على مصراعية لمصطفى كامل كى ينـــدد بالاستعمار البريطانى فى الصحافة الفرنسية ٠

ولم يتوقف نشاط مصطفى كامل فى هده المرحلة المبكرة من جهاده على مهاجمة انجلترا فى الصحافة الفرنسية بل انه راسل السياسة الانجليزية ، وسافر الى برلين ليرفع صوت مصر فى المانيا ، وكذلك فعل فى فينا عاصمة النمســا ، كما سافــر الى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، باعتبار ان هذه الدولة كانت الدولة الوحيدة التى كانت لا تفتأ تطالب انجلترا رسميا بالجلاء عن مصـــــر ٠

مصطفى كامل وحادثة فاشودة :

فى سنة ١٨٩٨ وقعت حادثة خطيرة كان لهـا وقـع شديـد فى النفوس ، واثــر بالغ فى مصير المسالة المصريــة ، ونعنى بهـا حادثه فاشودة التى اهتزت لهـا اوربا بأسرهـا ٠

كانت بعثة مارشان هى المظهـر الوحيد الاكثر جدارة بالنظر والاكثر شـــهرة بين مظاهر النشـــاط الفرنسى فى افريقية فى السنوات من ١٨٩٧ - ١٨٩٨ (١) وكان مارشان احد مساعدى مرندى المتحمســين لفكرة الوصـــول الى النيل ، والذين عملوا معه منذ شهر مايو ١٨٩٥ فى باريس ٠

وفى ٢١ سبتمبر من نفس السنة كتب شوتان Chautemps وزير المستعمرات الفرنسى الى زميله وزير الخارجية شارحا انه قد طلب من الكابتن مارشان دراسة امكانية امتداد النفوذ الفرنسى فى اتجاه النيل ، وكتابة تقرير

= الامانى الوطنية المصرية لمـا لها مكانة كبرى فى عالم الصحافة والأدب والسياسة فى فرنسا ، وأرسل لها خطابا فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٥ يطلب منها فيــه مؤازرة الحركــه الوطنيــة فى مصر ضــد الاحتلال ، ملبت مدام آدم نداء مصطفى كامل ، وكتبت اليه ترحب بدعوته ، فجاء وقابلها ، واصبحت مدام آدم بمثابة الأم الروحية لمصطفى ، وعرفته بكبار السياسيين والصحفيين الفرنسيين ٠ وقد زارت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ بناء على دعوة مصطفى كامل ، واستقبلت بكل الحفاوة والتكريم ٠

(٢) Mekki Shibeika — British policy in the Sudan p.p. 347-348

عن ذلك ، وتابع شوتان خطابه الى هانوتو ذاكرا أنه قد أمر كابتن مارشان بأن بشرح له نمخصصا هذه الحطة ، ولكى ستترط زارة ريبيو Robot تسبب فى احباط المشروع ، وأن كان مارشان قد ذكر بأن هانوتو قد وافق عليه ٠

وفى وزارة ليبيرجرا Leon Bourpeois طلب كيس Quieysse وزير المستعمرات من مارشان كتابة مذكرة عن الموضوع ، وذكر مارشان فيها أنه يجب تعبئة كل الامكانيات لمد النفوذ الفرنسى تجاه النيل ٠ كما كان يعتقد بضرورة تدخل وزارة الخارجية الفرنسية مادام الامر سيؤدى الى حادثة دولية ٠

ولما كان من غير المعقول أن تعمد فرنسا ، وهى التى تخدم حقوق خديو مصر ، الى محاولة ضم السودان المصرى ، فان بريطانيا ستضطر الى الموافقة على التدخل الاوربى لبحث مسالة وادى النيل على مستوى دولى ٠٠٠ وقد ينتج عن ذلك مباحثات تتعلق بحالة الجلاء عن مصر نفسها ، ولذلك فانه يجب ارسال حملة الى النيل على أن لا يكون لها الطابع الحربى، وأن يقتصر واجبها على مجرد رفع العلم الفرنسى هناك ، أما اذا واجهت حملة خرى معادية فعليها أن تتحاشى وقوع أى صدام بين القوتين أثناء هذه المواجهة وان تطلب الاتصال بالحكومتين صاحبتى الأمر (١) ٠

ولم يكن غرض مارشان كما يقول رنوفان هو احتلال السودان المصرى ومنه الى فرنسا ولكن

Prendre des gages de restitution collective a l'Egypte de sterritoires ayant formés le Sudan Egyptien

وكذا وضع انجلترا فى

Dans la necessité d'accepter. sinon de provoquer elle, même, la reunion, d'une conférence europeeune, au dein de laquslle serait disauté et fiscé le sort réoervé su Souden. (٢)

---

(١) Langer The Diplomacy of Imperialism. p. 540.

(٢) المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الاول مايو ١٩٥٠ ص ٢٢٣ مقالة الدكتور محمد مصطفى صفوت عن نقد مقالة الاستاذ بيير رنوفان عن أصول فاشودا ٠

ولم يكن مقصد الفرنسيين هو احتلال وادى النيل بل خلق وقت يستطيعون عن طريقة اجبار انجلترا على مفاوضتهم ، وعقد اتفاقية عامة كل الامور المعلقة بينهما دون أن تفقد فرنسا كرامتها باستحداء هذه المفاوضات • وكان من شأن اتساع النفوذ الفرنسى فى اعالى النيل ، ان يضع حكومة باريس فى مركز أقوى ويجعلها قادرة على استمالة الرأى العام بتعويضه عن فقدها لمركزها فى مصر (١) •

وكان كييس وزير الخارجية الفرنسية يرى فى مذكرته فى ٣٠ نوفمبر ان هدف هذه البعثة غير الحربية هو محاولة الوصول الى النيل ، وأن وجودها هناك سيجعل فرنسا فى موقف يسمح لها بالتدخل بنجاح فى حل مسألة السودان المصرى (٢) •

كما أن الجنرال مانجن Mangin الذى كان أحد اعضاء الحملة صرح قائلا بأن الغرض من الحملة هو ازالة كل ادعاءات من جانب الانجليز لاحتلال مصر ، ووضع حد لاحلام أصدقائنا الاعزاء الذين يرغبون فى ربط مصر بالكاب وممتلكاتهم فى شرق افريقية بممتلكات النيجر الملكية •

كما ان هانوتو نفسه قال لمارشان عند مغادرته باريس « اذهب الى فاشودة •• ان فرنسا سوف تطالق مسدسها (٣) » •

هذه اذا هى المناورات الاستعمارية فى وسط أفريقية ••• لقد اندفعت هذه القوى تريد كل منها أن تقتطع لنفسها أكبر مساحة ممكنة من هذه المنطقة ولكن بريطانيا كانت الجانب الاقوى من جميع النواحى ، ورغم ذلك فانها لم تكن تود اشعال حرب فى ذلك الوقت ، حيث كان سالسبورى يرى أنه من المستحسن لبريطانيا وهى متشبكة فى أجزاء أخرى من العالم وفى حرب جنوب أفريقية أن تتجنب اشتباكات أخرى •

---

(١) Hoit p. M. The Mahdist State 410

(٢) Shibeika op. cit., p. 348.

(٣) Langer p. op. cit 538

وكان سالسبورى يعلم أن الفرنسيين سيصلون الى النيل قبل أن تعيد القوات المصرية فتح الخرطوم . وقد ردى سالسبورى على خطاب لانسدون Lansdowne الذى نبهه الى هذا الخطر قائلا :

« لست شديد التأثر من هذا الخطر لاننا سوف نقابله بطريقة ما » واضاف سالسبورى قائلا : « يجب أن نتذكر اننا ، بتحطيم قوة الدراويش سنقتل مدافعا يحافظ لنا على الوادى الآن » كما كتب سالسبورى ايضا الى اللورد كرومر على هذا المنوال قائلا : « اننا اذا ما وصلنا الى فاشوده ، فان الأزمة الدبلوماسية ستصبح شيئا لا ينسى ... وأن ما يلى ذلك سوف يكون شيئا مسليا جدا » .

وفى تلك الاثناء حدثت بعض التطورات التى ارغمت الحكومة البريطانية على الاسراع فى عملياتها .والتقدم الى الخرطوم قبل ان يتم استعدادها لهذا الغزو (١) وليس من شك فى ان أولى هذه العوامل انما يرجع الى ان بريطانيا بعد ان كانت تنظر الى احتلالها لمصر على انه اجراء مؤقت لم تجد غضاضة بعد ذلك — من التلميح بأنه امر قد يطول به الزمن (٢) .

ولما كان السودان هو مفتاح مصر من الجنوب فلابد من الاطمئنان على الحدود الجنوبية لمصر (٣) اذ ان اى دولة قوية معارضة لانجلترا تستطيع السيطرة على السودان يمكنها تهديد سلامة مصر بسيطرتها على مياه النيل (٤) . أما اذا حكمت السودان دولة ضعيفة فان هذا القطر سيصبح فريسة للدول الاستعمارية تنهشها بلا رحمة ولا شفقة خصوصا ونحن هنا فى عصر التسابق على تقسيم افريقية (٥) .

ولا ريب أن بريطانيا قد ارتكنت الى ذريعة الاطمئنان على الحدود الجنوبية لتنفيذ مآربها الاستعمارية تجاه السودان . وقد قاله بارنج فى

---

(١) Philip Magwis — Kitchener p. 81.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى مصر والسودان ص ٤٧٧ .

(٣) Philip Magnus p. 81

(٤) Alford The Egyptian Sudan p. 40

(٥) دكتور محمد فؤد شكرى ص ٤٧٧ .

رسالته الى سالسبورى فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٩ « ان اى دولة تملك حوض النيل الاعلى لابد ان تملك السيطرة على مصر بحكم الموقع الجغرافى فحسب ولم يحدث اطلاقا انى انكرت كما لا انكر اليوم ان التخلى عن السودان امر يدعو للاسف الشديد وان هذه البلد انمــا هى ملك بالطبيعة لمصر . وان الحكومة التى لها الحكم فى دلتا النيل يجب كذلك ان تملك شــاطىء النهر وان لم يكن الى مصبه فعلى اية حال الى مســـافة بعيدة على طول مجراه » ان منطق بارنج فى هذه الرسالة انما هو منطق استعمارى محض اذ يحتم ان تكون لمصر والسودان حكومة واحدة ... وما دامت مصر حينئذ محتلة بقوات الانجليز الذين كانت لهم السيطرة على كل شئونها ، فمعنى ذلك ان السيطرة على السودان ستكون لانجلترا ولكننا نستطيع ان نقول ايضــا انه ما دامت انجلترا تحتل مصر احتلالا فعليا ، فان احتلال السودان هو المكمل الطبيعى للاحتلال البريطانى فى مصر (١) .

وكان الرأى العام البريطانى شديد الرغبة فى وجوب التقدم الى اعالى النيل . ولا ريب ان فى استعادة السودان ستكون انتقاما للطريقة التى قتل بهــا جوردون (٢) . الذى كانت الحكومة المصرية قد كلفته باجلاء مواتها من الخرطوم اثناء ثورة المهدى (٣) . ولم يكن فى وسع احد ان يغفل ان مصر اضطرت فى عهد الاحتلال البريطانى لها الى ان تفقد املاكها ، بل وطغت موجة من التأخر والفوضى فى هذه الاملاك المفقودة ... الأمر الذى اعتبر الانجليز انفسهم مسئولين عنه (٤) . حتى ان لورد سالسبورى صرح فى شهر يونيو ١٨٩٨ فى مجلس اللوردات قائلا : « اننا لن نكون قد اعدنا الى مصر مكانتها التى تسلمناها بهــا ولن نكون قد وضعناها فى المركز الآمن الذى تستحق ان تكون فيه حتى يرفرف العلم المصرى على الخرطـــوم .

ويبدو هنا المنطق الاستعمارى ايضا اذ ان الدولة صاحبة السيطرة على مصر وهى انجلترا سوف تسيطر بالتبعية على السودان كما قلنا ...

(١) Magnus, p. 82

(٢) Holt, The Mahdist State p. 205

(٣) Pedmore Britain's Third Empire p. 246

(٤) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٤٨٥ .

ان سالسبورى لن يعيد الى مصر مكانتها التى تسلمها بها الا بالجلاء عن مصر ذاتها وهو ما كان يأباه ، ان الحقيقة ان سالسبورى كان يعمل على مدالنفوذ الانجليزى من مصر الى السودان •

وهكذا تقدمت حملة مصرية بريطانية بقيادة الضابط الانجليزى كتشنر ، واعكنهما ان نسحق مقاومة المهديين وان تصل الى اعالى النيل ، ولكن بعد وصول البعثة الفرنسية اليها •

وصلت حملة مارشان الى فاشوده فى العاشر من يوليو عام ١٨٩٨ (١) وعملت منذ ساعة وصولها على تثبيت اقدامها ••• عرفعت العلم الفرنسى واعدت المواقع وابرمت الاتفاقيات مع قبائل الشلك وحصلت على وعود بالاحتلال الدائم • ثم أرسلت الباخرة الصغيرة فيدايرب Faidherbe مسافة ٢٥٠ ميلا اعلى النهر الى اقرب محطة تموين فى مشرع الرق فى اقليم بحر الغزال لاحضار مواد التموين الضرورية (٢) وكان معنى هذا ان الفرنسيين قد عملوا على اقامة قاعدة حربية يستندون اليها فى عملياتهم المقبلة •

كان كرومر قد اقترح على سالسبورى لمواجهة القوى المتنافسة على اعالى النيل فى مذكرة بتاريخ ١٥ يونيو ١٨٩٨ (٣) ارسال حملتين بحريتين نحو اعالى النيل وبمجرد هزيمة الخليفة فى ام درمان ، احداها الى النيل الابيض والاخرى الى النيل الازرق على ان تكون الحملة الاولى اقوى من الثانية • وتساءل كرومر فى مذكرته عن واجب قائدى الحملتين فى حالة رفع العلم الفرنسى على اى نقطة على النيل ؟ هل يطالبان بالارض بأسم الخديو ؟ أم بأسم الحكومة الانجليزية ؟ ام باسمهما معا بالاتحاد ؟ واشار الى انه يجب وضع تعليمات واضحة بخصوص هذه النقطة الحساسة •

---

(١) Theobald, The Mahdiya p. 240

(٢) Giffen The Fashoda Insident p. 6

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٢٩ •

وفى أول يوليو ارسل سيرادموند مونسون السفير البريطانى فى باريس آراءه عن الحكومة الفرنسية الجديدة الى لورد سالسبورى . وكان يعتقد ان مسيود لكاسيه Delcassé وزير الخارجية الجديد (١) معروف بقوة شكيمته وان مواطنيه المعادين لانجلترا كانوا يأملون فى أن تثار المسألة المصرية بقوة كبيرة فى عهده . وفى نفس الوقت كان من المتوقع ان تلقى فرنسا معاونة الروسيا اذا ما حدث صدام بينها وبين انجلترا بسبب هذه المسألة . فقد توقع الانجليز ان يعمد الفرنسيون - الى التمسك بهذه الاراضى التى رفعوا عليها العلم الفرنسى على أساس ان هذه الاراضى ملك مباح Res Nullius منذ ان اخلاها المصريون .

وعلى ذلك اتخذت الحكومة الانجليزية من مقترحات اللورد كرومر السالفة الذكر فى ١٥ يونيو اساسا للتعليمات التى اصدرتها الى كتشنر فى ٢ اغسطس (٢) . وقد تسلم كتشنر هذه التعليمات مشمعة ومغلقة وصدرت اليه الاوامر بألايفض المظروف الذى يحوى هذه التعليمات الا بعد استيلائه على الخرطوم ... وتبعا لذلك فقد فتح كتشنر هذا المظروف فى ٣ سيتمبر فوجد ان التعليمات تشير عليه بأن يقود بنفسه حملة الى أعالى النيل الابيض كى يصل الى معقل الفرنسيين فى فاشوده .

ووجه نظر كتشنر بوجه خاص الى الكلمة التى القاها جراى Sir Edward Gray فى مجلس العموم فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٥ (٣) .

وتأكيدا لنص كلمات سيرجراى فقد أرسل سيرادموند مونسون مذكرة فى ١٠ ديسمبر ١٨٩٧ الى مسيو هانوتو تتضمن وجوب فهم موقف حكومة جلالة الملكة التى لن تسمح لاية أخرى غير بريطانيا بأية مطالب لاحتلال اى جزء من وادى النيل . وان حكومة جلالة الملكة تتمسك بنفس اللهجة التى اعلنها سير ادوارد جراى بصراحة بخصوص نفس الموضوع والتى ارسلتها الى الحكومة الفرنسية فى ذلك

---

(١) Shibeika p. 392-393

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٢٩ ، ٥٣٠

(٣) Magnnus p. 138

الوقت (١) ٠

وكذلك تضمنت التعليمات المرسلة الى كتشنر ضرورة بذل ما فى وسعه لابعاد الفرنسيين او الاحباش فى حالة وجودهم فى اى جزء من وادى النيل ٠٠ وكان على السردار أن يبلغ أى مائد فرنسى أن وجوده فى وادى النيل يعتبر تعديا على حقوق كل من مصر وبريطانيا وانه ليس لملك البلجيك أية حقوق فى اى جزء من وادى النيل سوى اقليم لاود وبصفة استئجار فقط (٢) وكذلك فقد كان على كتشنر فى حالة مفاوضته مع السلطات الفرنسية أو الحبشية التى قد يقابلها ان لا يشير فى مناقشاته الى اى كلمة يستشف منها اى اعتراف من جانب بريطانيا باى حق لاية دولة اخرى غير بريطانيا فى احتلال اى جزء من وادى النيل (٣) ٠

وكان على كتشنر ان يتلافى اى صدام مع قوات الامبراطور منليك بل يترك ذلك للحكومات المختصة (٤) ٠

رأى كتشنر انه من الضرورى التصرف فى الحال وفقا لهذه التعليمات(٥) وكان يعلم تماما ان اقرار السلم او اعلان الحرب يتوقف عليه فى هذه اللحظة وان عليه ان يتصرف بحكمة حتى يحول دون وقوع الحرب التى تكون حربا محلية بل سيمتد اتونها وتصبح حربا عالمية (٦) ٠

وكان كتشنر لا يزال فى ام درمان فى ذلك الوقت وعلى نحو ٥٠٠ كيلومتر شمالى فاشوده ٠٠٠ ولكنه كان يستطيع قطع هذه المسافة فى عشرة ايام او اقل اذ ان النهر كان صالحا للملاحة ٠٠٠ وهكذا وضح ان موقع مارشان فى فاشوده والذى كان يظن بانه بعيد جدا بعد رحلته

---

(١) Shibeika p. 393-394

(٢) Arthur Sir George life of Lord Kitchener p. 246

(٣) Magnus, p. 139

(٤) Shibeika p. 394

(٥) Langer p. 551

(٦) Mangus p. 139

التى استغرقت عامين من الاطلنطى ، اصبح لا يبعد عن العالم الخارجى بأكثر من اسبوعين أو ثلاثة فى رحلة سريعة من اتجاه جديد من الشمال (١)

وفى العاشر من سبتمبر ١٨٩٨ توجه كتشنر الى اعالى النيل ومعه ونجت واسطول من خمس سفن مسلحة تحمل كتيبتين سودانيتين وبطارية مدفعية مصرية وكمية من المدافع الرشاشة (٢) . وضرب كتشنر معسكر الدراويش عند الرنك واسر سفينتهم صفية (٣) ثم واصل تقدمه حتى اصبح فى ١٨ سبتمبر على بعد بضعة اميال من فاشوده (٤) وحاول ان يتلاقى عامل المفاجاة الذى قد يؤدى الى عواقب وخيمة (٥) فارسل رسالة باسم رئيس البعثة الاوربية يخبره فيها بانتصاره فى أم درمان وبقرب وصوله الى فاشوده (٦) .

وفى اليوم التالى سارت الحملة بحذر نحو فاشوده ، وكانت مستعدة لكافة الاحتمالات والتقت بقارب صغير يحمل علما فرنسيا كبيرا ، وجاء منه احد الوطنيين برتبة (رقيب) الى سفينة السردار وسلم السردار رد الماجور مارشان على خطابه . وجاء فى هذا أن الماجور مارشان يهنىء السردار بانتصاره على الدراويش (٧) ويحيطه علما بأن القوات الفرنسية قد احتلت فاشوده منذ العاشر من يوليو عام ١٨٩٨ باسم الجمهورية الفرنسية .. وانه بناء على أوامر حكومته قد احتل بحر الغزال الى مشرع الرق والى ملتقى بحر الجبل وبلاد الشلك على يسار النيل الابيض حتى فاشوده (٨) . ثم أخذ يقص قصة اشتباك الدراويش معه فى يوم ٢٥ اغسطس وانتصاره عليهم وذكرانه قد

---

(١) Giffon p. 7
(٢) Magnus p. 138
(٣) Giffen p. 8
(٤) Arthur Sir George, Life of Lord Kitchener p. 246
(٥) Theobaid p. 239
(٦) Arthur Sir George; Life of Lord Kitchener p. 246.
(٧) Arthur Sir George Life of Lord Kitchener p. 247.
(٨) Giffen p. 8

وقــع معاهــدة مــع ملك الشلك عبد الفاضــل يوم ٣ سبتمبــر وضــــع فيها هذا الملك بلاده الواقعة على يســار النيل الابيض تحت الحمــاية الفرنسية بشرط التصديق على هــذه المعاهــدة من الحكومة الفرنسية (١) ٠ واضــاف انه قــد ارسل الباخرة الصغيرة فيدايرب الى الجنوب لاحضار الامدادات فى الوقت الذى انتظر فيه معاودة الدراويش للهجوم ولكن وصــول انباء انتصــــارات كتشنر اعدت احتمال الحرب مع الدراويش (٢) ٠

المقابلة بين كتشنر ومارشان :

وصل كتشنر الى فاشوده فى ١٩ سبتمبر حيث وجــد العلم الفرنسى مرفوعــا على مبنى الحكومــة القديم هنــاك ٠

وقرر كتشنر ان يطالب فقط برفــع العلم المصرى على المديريــة لتاكيــد المطالب المصريــة على كل السودان ولذلك فانه أمــر برفــع العلم المصرى على كل سفن الحملة الصغيرة ٠ وقرر ان يقابــل مارشــــان وهو مرتد زى لواء فى الجيش المصرى ولابســا الطربوش الاحمــر على راســه ٠

وتم أول لقــاء بين قائدى الحملتين ، ففى نفس اليــوم جــاء مارشان الى ســفينة كتشنر (٣) بنــاء على طلب الاخير اذ السردار كان اعلى فى الرتبة العسكرية من الماجور مارشــان (٤) ٠ واستقبل مارشــان بحــرس شرف من القوات المصريــة البريطانية (٥) ٠

وبعد المقدمات اظهر كتشنر تقديره العميق للرحلة الشــاقة المضنية التى قــام بهــا الماجور مارشــان وبعثته (٦) واجتمــع لورد كتشنــــر وكولونيل ونجــت وماجور مارشــان وكابتين جيرمان حــــول المــائدة فى سفينة السردار (٧) ٠ وكان على كل مفهــوم ان يكون لبقا وحذرا فى مناقشاته

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى ص ٥٣٥

(٢) Shibeika p. 396

(٣) Magnus p. 139

(٤) دكتور محمــد فؤاد شكرى ص ٥٣٥

(٥) Churchill The river War p. 309

(٦) George Arthur p. 247

(٧) Theobald p. 240.

والفاظه نظرا لاهميـة الموضوع والموقف ، فبين فرنسـا وبريطانيـا منافسـة تقليديـة فى وادى النيـل ٠٠٠ وقـد حدثت هـذه المواجهـة الخطرة بينهما فى هـذه البقعـة النائيـة واى كلمة او عمـل متهور قـد يؤدى الى وقـوع الحرب ، ليس فقط فى فاشوده بـل فى مبادين وجبهـات فى مناطق اخـرى من العالم ٠

ويقول كولونيل ونجت نفسـه عن هـذه الحادثة « وبعـد المحن التى لاقوهـا فى رحلتهم الطويلة الشـاقـة فان السردار ابلغ مارشـان ان لديه تعليمـات لابلاغـه ان وجود الفرنسـيين فى فاشوده وفى وادى النيـل ، يعتبر تعديا مباشرا على حقوق كل من مصر وبريطانيـا ٠٠٠ ولذلـك وطبقا للتعليمات الصادرة اليه فانه يحتج اشد الاحتجـاج على احتلالهم فاشوده ، وعلى رفـع العلم الفرنسى على ممتلكـات صـاحب السمو الخديو » (٦) ٠

فاجاب مارشان ايضـا انه يطيع الاوامـر والتعليمـات الصادرة اليه من حكومته (٢) والتى تامـره باحتلال بحـر الغزال ومديريـة فاشوده على وجه التحديد ٠٠٠ وقـد امكنه ان يحقق ذاـك ، وعليه ان ينتظـر التعليمات من حكومته بصدد اى تحركات او عمليـات مستقبلة ٠

فرد كتشنر بأن لديه تعليمـات من الحكومة بأعادة اقامـة الحـكم المصرى فى فاشوده ٠٠٠ وتساءل ان كان ماجور مارشان (٣) مستعدا لمقاومـة هذه التعليمات ، وان عليه ان يخـتـار قراره الاخـير بمهـارة بالنسـبة لهـذه المسـألة حـتى لا تنشـأ حـالة من العـداء ٠ واشـار كـذلك انه يسعده جدا ان تصنع احـدى سفنه الحـربية تحت امرته كى تنقله هو ورجاله سالمين الى القاهرة (٤) ولـم يتردد مارشان فى الاجابة مبينـا انـه اذا استخدم السردار القوة ، فانه سوف يضطر الى قبول ما يملبه عليـه الموقف (٥) ٠٠٠ وكان يعنى بهـذه الاجابة انه هو ورفاقه سوف يموتـون

---

(١) Theobald p. 241

(٢) H.D. Traille - Egypt , The Sudan p. 198

(٣) Theobld p. 241

(٤) Magnus p. 140

(٥) Theobald p. 241

وهم فى مواقعيم (١) ولهذا فانه يرجو السردار ان يقدر موقفه كجندى لا يستطيع البت فى الامور دون الرجوع الى حكومته (٢) ، وان يسمح لمشكلة بقائه فى فاشوده ان تنتقل الى حكومته ، لانه بدون تعليمات منها ، فانه لا يستطيع ان يترك فاشوده ، ولا ان ينزل العلم الفرنسى من عليها . واضاف مارشان انه متأكد من ان حكومته - تحت هذه الظروف - لن ترجىء الاوامر بانسحاب بعثته لوصبر كتشنر قليلا ، وانه يأمل حينئذ ان يتمكن من قبول عرض السردار شاكرا .

فتساءل السردار « هل افهم من ذلك ان الحكومة الفرنسية امرتك بأن تمنع مصر من رفع العلم المصرى واستعادة سلطاتها فى ممتلكاتها السابقة مثل مديرية فاشوده ؟ (٣) .

فاجاب مارشان بعد تردد بانه لا يمانع فى رفع العلم المصرى على فاشوده وقال « دعنا صرحاء ... كيف أستطيع ذلك وانت تملك من الرجال اكثر منى ؟ » ... ومن ثم كتشير أن يرفع العلم المصرى فى احتفال كبير ، وان يترك العلم الفرنسى مرفوعا ايضا حتى يتم حل المسألة بالطرق الدبلوماسية عن طريق الحكومتين (٤) .

ولم تكن لفرنسا ولا لانجلترا اى احقية فى التحكم فى مصر أو السودان أو اى جزء من وادى النيل ، فاذا جردت مناقشاتهم من الدبلوماسية والدعاية الصحفية فهى لا تنطوى على شىء الا على روح الاستعمار والاستغلال وهذه لا تستند الى حق بل تؤيدها القوة .

ومن الواضح ان حجج الانجليز والفرنسيين ومناقشاتهم كانت لا دخل لها فى الوضع النهائى للمسألة ، فكما ذكرنا كان سالسبورى مصمما على عدم الرضوخ أو بحث امتيازات للفرنسيين ... وازاء هذه الحالة اصبحت المسألة مسألة قوة ، وكان من الميسور طرد بعثة مارشان بقوة كتشنر

---

(١) Rose Holland p. 505

(٢) نعوم نسقير ص ٦٥٢ .

(٣) Theobald p. 242

(٤) Magnus p. 140

التى تبلغ ٤٠٫٠٠٠ جندى ٠٠٠٠ ولكن ذلك كان يعنى وقوع الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وكانت انجلترا تفهم ذلك جيدا ، ولكن الحكومة البريطانية لم تتراجع وكتبت التيمس بعد ان انتهت الازمة فأشارت الى ان البريطانيين قد غنوا فى عام ١٨٧٨ قائلين بشجاعة « لقد حصلنا على السفن كما اننا قد حصلنا على المال ايضا » واضافت الصحيفة اللندنية الكبرى تقول انه لم يكن هناك اى غناء فى عام ١٨٩٨ اذ ان البريطانيين لم يكونوا محتاجين الى رفع الروح المعنوية وكانت هذه هى المرة الاولى التى تواجه فيها انجلترا ازمة كبيرة دون خوف او فزع

وكانت لهذه الثقة ما يبررها ٠٠٠ فالسنوات الاخيرة شاهدت زيادة عامة فى الاسطول ، وتمت لبريطانيا السيادة على جميع البحار بل واصبحت فى موضع لا يقبل المنافسة ، اذ كان لانجلترا من السفن الحربية التى يقل عمرها عن عشر سنوات وسرعتها ١٦ عقدة على الاقل ٣٤ سفينة فى مقابل ١٣ لفرنسا و ١٧ لروسيا ، وكانت بريطانيا متخلفة فقط فى الطرادات والنسافات ٠ وقد كتب سير توماس براسى عشية الازمة قائلا ان الاسطول البرطانى كان مساويا فى عدد السفن الحربية لاساطيل كل من فرنسا وروسيا والمانيا مجتمعة ، هذا علاوة على ان السفن البريطانية كانت متجانسة ومتشابهة ولذلك فهى اكثر انسجاما ٠ كما عبر ناقد ايضا عن رايه قائلا انه بصرف النظر عن عدد السفن ، فان الاسطول البريطانى كان يعادى فى القوة أربعة امثال الاسطول الفرنسى واقوى من كل اساطيل اوربا مجتمعة (١) ٠

وكانت حادثة فاشودة رمزا للمنافسه الاستعمارية والعداوة الكامنة بين فرنسا وانجلترا (٢) ٠ فقد عز على انجلترا أن ترث فرنسا فى مشروعاتها واعمالها ٠٠٠ فبونابرت هو الذى وضع مصر على مائدة السياسة الاوربية ، وقد استعان محمد على بالخبراء الفرنسيين فى كل الميادين ليجعل من مصر دولة حديثة بمساعدة هؤلاء الخبراء ، وكذلك قام

---

(١) Langer p. 559-560

(٢) Theobald p. 245

المهندس الفرنسي ديلسبس بشق قناة السويس،وقد قاومت انجلتراكلا من نابليون ومحمد على وديلسبس ··· وبعد ذلك نجد ان انجلترا هى التى اصبحت لها السلطة الادارية فى القناة ـ وليست فرنسا ـ وذلك بشرائها لنصيب الخديو عام ١٨٧٥ فى اسهم تاسيس القناة · وانجلترا ايضا هى التى قامت باحتلال مصر منذ عام ١٨٨٢ وأصبحت تدير دفة السياسة المصرية من القاهرة (١) وهى تخدع فرنسا بمماطلتها فى مسألة الجلاء عن مصر ، وتفعل مثل ذلك ايضا فى بحر الغزال ، والفرنسيون قد قاوموا الاحتلال البريطاني ، وهم الآن يقاومونه فى بحر الغزال (٢) ·

وكان من الصعب اقناع الرأى العام الفرنسى بان الانسحاب من فاشوده لا يشتمل على امتهان للكرامة الفرنسية (٣) ولعبت الصحافة دورا كبيرا فى تعبئة الراى العام الفرنسى تجاه الحادثة حتى انه لم يكن من السهل التخلى عن فاشوده (٤) · وقال دلكاسيه فى محادثة مع مونسون « ان كل فرنسا سوف تقاوم هذه الاهانة الموجهة الى شرف البلاد اذا ما قامت اى محاولة لاستدعا مارشان » (٥) ·

وكان دلكاسيه يعتقد ان انجلترا لا تفضل الدخول فى حرب من اجل هذه المسألة ولكن فرنسا كانت على النقيض من ذلك تفضل الحرب على التسليم · فرد مونسون على هذه المحادثة بان حكومته قد اوضحت وجهة نظرها وانه لا يتصور كيف يمكنها التراجع عن ذلك ·

وردا على اللهجة التى تكلم بها الفرنسيون فان حكومة جلالة الملكة اصدرت تعليماتها الى كتشنر بان يزيد موقف مارشان حرجا على قدر الامكان ··· وترى حكومة جلالة الملكة من ناحيتها انه يجب ان يكون

---

(١) H.A.L. Fisher p. 1069

(٢) Theobald p. 245

(٣) Fisher p. 1072

(٤) Shibeika p. 399

(٥) Shibeika p. 400

معلوما لدى الفرنسيين انهـا بموافقتهـا على ايصـال الرسائل الى مارشان خان ذلك لا يعنى تعديل وجهـة نظرهـا السـابق تقديمها فى عـدة منـاسبات » (١) .

وتهيأ الاحوال بين الدولتين واقتربت نحـو حافـة الحرب (٢) . وسـارت الاستعدادات البحرية البريطانيـة على قـدم وسـاق طـوال شـهر اكتوبـر . ففى بورتسموث اعـدت كل الترتيبات حتى تتمكن القوات الثقيلة من أن تبحـر فورا وقت اللزوم استعدادا لحصار السفن الحربية الفرنسـية عنـد برست . كمـا راقبت قـوى أخـرى مضيق جبل طـارق لتمنـع الاسطول الفرنسي فى البحر المتوسـط من الخروج منه . امـا فى البحـر المتوسط نفسـه فقـد وضعت قـوة كبيرة بين مالطـه وجبل طارق ، وكانت على استعداد لمحصارة بنزرت (٣) كما ارسلت قوة اخرى الى ارسلت قوة اخـرى الى الاسكندرية لحراسة قناة السويس (٤) .

وهكـذا شعر البريطانيون انهم مستعدون لكافة الاحتمالات ، ولكن الفرنسيين استولى عليهم ذعـر شـديد ... حـقيقة ان الاسـطول الفرنسى كان يلى الاسطول البريطانى اعظم اساطيل العالم ، ولكن الاسطول الفرنسى كان آخـذا فى التدهور على مـر السنين بسبب النزاع الدائم بين قـادة البحـرية نفسـها ... وكـان للسـياسة ايضـا دخـل كبـير فى اضمحلال الاستعدادات البحريـة الفرنسية ، وليس هناك - أشـد واقسى على قوة حربيـة او بحرية من ان تنكب بالانقسـام بين افرادهـا ، فالعسكرية - طاعة ونظـام ، وعـدم توفرهمـا يؤدى الى الاخلال بالضبط والربط وحسن الانتظـام العسكرى الذى هـو اساس الفوز فى أى معركـة .

وعلى اية حال كان واضحا ان الحالة فى فرنسـا فى عـام ١٨٩٨ لا تسمح لهـا بالاشتراك فى حـرب دوليـة . فالاسطول الفرنسى فى بحـر المانش

---

(١) Shibeika p. 400

(٢) Theobald p. 245

(٣) Langer p. 560

(٤) Theobald 245

كان مؤلفا من سفن حربية صنعت عام ١٨٨٥ وغير متجانسة وتصميماتها مختلفة ، ولم تكن هناك خطة للقتال ٠٠٠ فالموانىء البحرية فى فرنسا نفسها وفى المستعمرات كانت تعانى نقصا كبيرا فى الرجال ، بينما كانت ورش صيانة السفن غير مجهزة تجهيزا كافيا ٠ ولم يكن من السهل امداد فرق المدفعية فى برست وغيرها الا بثلث الرجال فى اليوم الاول لاعلان التعبئة العامة ٠ وكانت حكومة باريس على تام باخطار الموقف ٠ فبعد ان اشعل الفرنسيون الثقاب فى مستودع البارود فى فاشودة استيقظوا مذعورين مندهشين وعاجزين

وانحدت لهجة الصحافة البريطانية الروح الشجعة للحرب ، وكانت هناك فكرة سائدة فى انجلترا بأن الوقت ملائم لتصفية الحساب مع فرنسا ٠٠٠ بل كان من الواضح ان الاصوات قد ارتفعت فى مجلس الوزراء نفسه مؤيدة هذا الحل ، وقد قال لورد اشر Esher ان لورد سالسبورى نفسه ابلغه بأنه « يميل الى الاعتقاد بأن الحرب مع فرنسا ستبسط المشكلات فى المستقبل » ٠ وليس هناك من شك فى ان الاوساط الحكومية كان يسودها شعور بالحرب الوقائية Preventive War وقد وصلت تقارير عن كل ذلك الى باريس خلال شهر اكتوبر ١٨٩٨ ٠

وكانت وزارة البحرية الفرنسية تعتقد ان الانجليز قد يثيرون حربا ليتخلصوا من الاسطول الفرنسى ٠ وكان الضباط الفرنسيون على راى واحد وهو انه لا يمكن للاسطول الفرنسى ان يصمد امام الاسطول البريطانى ولا ان يهدد بايقاف التجارة البريطانية باغارته على السفن التجارية البريطانية ٠ وكان البعض يعتقد ان شرف فرنسا يتطلب منها الحرب حتى ولو كانت الهزيمة مؤكدة الا ان وزير البحرية الفرنسية نفسه كان مقتنعا بان الحرب ضرب من اليس ٠ واتفق معه فى ذلك رئيس الوزراء بريسون Brison ورئيس الجمهورية فور Faure ٠

ويبدو ان سياسة دلكاسية كانت تتركز فى اكتساب الوقت حتى تتمكن فرنسا من عمل شيئين : اولهما اتمام الاستعدادات البحرية الهامة وثانيهما محاولة ضم روسيا الى مساعدتها ولذا طلب دلكاسيه من مونسون

مقابلة معه امهاله بعض الوقت حتى دأتيه تقرير من مارشان (١) ... وكان واضحا ان ذلك سيستنفذ وقتا قبل ان يصل هذا التقرير الى باريس. « ولكن حكومة الجمهورية ستكون ممتنة لو انه سمح بارسال برقية من الممثل الفرنسى فى القاهرة الى الخرطوم لحملها الى مارشان تأمره بارسال نسخة من تقريره على جناح السرعة عن طريق النيل الادنى » (٢) . وكذلك طلب دلكاسيه امهاله وقتا آخر حتى يحصل على تقرير شفوى من الكابتن براتبية Bartier الذى استدعى الى بريس .

واخذت فرنسا فى تحصين سواحلها فى نفس الوقت ، حتى تكون فى مركز يسمح لها بالدفاع على الاقل (٣) فصدرت الاوامر للاسطول الفرنسى بالتحرك الى شربورج Cherbeurg ... وكانت هناك حركة دائبة فى اوانىء الفرسية الشماليه ، وعملت الترتيبات لاستقبال الجرحى والقتلى (٤) . ففى برست كان العمل يجرى ليل نهار ، كما الغيت جميع الاجازات واعد كل الاسطول الموجود فى البحر المتوسط ووضع قيادة الادميرال فورنييه Feurnier

ولكن سرعان ما تبين عجز فرنسا عن مواجهة انجلترا ، هذا بالاضافة الى أن الروسيا حليفة فرنسا وقفت محايدة طيلة الصراع ، وهكذا لم يكن امام الفرنسيين سوى الرضوخ للامر الواقع . وهكذا تم استدعاء مارشان من فاشوده ... تلك المنطقة التى لا تستحق خوض حرب من اجلها من وجهة النظر الفرنسية .

وراى البريطانيون ان يوجهوا نشاطهم نحو ميدان آخر ، فكان من الضرورى ان تعمل حكومة لندن على تسوية مسألة حقوق المصريين فى السودان قبل كل شىء . ويجب ان نشير هنا الى ان استناد بريطانيا الى حق « الفتح » ومطالبتها بمساواتها بالحقوق فى السودان مع مصر غد

---

(١) Langer 560-562
(٢) Shibeika p. 398
(٣) Langer p. 562
(٤) Theobald p. 245

افادها كثيرا باعتبار ما سيكون عليه السودان الدولى بعد الاستعادة . فقد نص البند الثانى عشر من اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا على ان يرفع العلمان المصرى والبريطانى معا على السودان ، وان السلطة الحربية والرئاسة المدنية تكون فى يد حاكم عام يصدر قرار تعيينه بمرسوم خديوى وموافقة الحكومة البريطانية ، وان لقراراته سلطة القانون (١) .

وقد قبل هذا الوفاق الثنائى فى مصر بعاصفة استنكار شديدة ، وهاجمت الصحف العربية ما اعتبرته سلبا لحقوق مصر الادارية فى السودان وقالت انه ليس الا مقدمة لاستيلاء الانجليز على السودان ذاته اما الصحف الفرنسية فى مصر فقد حملت حملة عنيفة على هذه الاتفاقية واخذ كثيرون من رجال السياسة والقانون يبحثون فى مشروعية هذا الوفاق الثنائى نفسه (٢) . وكان من المحتمل ان تناقش بعض الدول الاخرى حق بريطانيا فى هذه الحكومة الثنائية وان تتساءل عن مدى صحة هذه الاتفاقية من ناحية القانون الدولى ، ولكن استعداد احدى هذه الدول لمقاومة هذه الترتيبات التى تمت كان امرا مستحيلا (٣) .

وكان المصريون اثناء ازمة فاشوده يظنون ان فرنسا ستتمسك بموقفها وتفتح باب المسألة المصرية وتضطر انجلترا الى الجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة . واعتقدوا ان آمالهم فى الجلاء ستتحقق اذ كانوا يظنون ان فرنسا لم تقدم على هذا التحدى لانجلترا الا وهى مصرة على المضى فى سياستها الى النهاية . قويت آمال المصريين اذا فى الاستقلال ... ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الامر، فكان هذا التخاذل صدمة سياسية اصابت الحركة الوطنية فى مصر لانه دل على أن فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا فى احتلال وادى النيل والتصرف فيه كما تشاء ... واصبح على الوطنين المصريين ان لا ينتظروا من فرنسا اى مساعدة فى اخراج الانجليز من مصر فازداد تعلقهم بالدولة

---

(١) Theobald p. 247-248

(٢) دكتور فؤاد شكرى ص ٥٩١ ـ ٥٩٢

(٣) Langer p. 565

العثمانية ، الدولة ذات الحق الشرعى فى حكم مصر وعلى اعتبار أنها أهون الشرين ، وان كان الواجب عليهم ان يعتمدوا على انفسهم قبل كل شىء لتحقيق حرية بلادهم ·

فقد كان انسحاب مارشان من فاشوده انتصارا كبيرا للسياسة الانجليزية ، وايذانا باصرارها على البقاء فى مصر والسودان ، وتجاهل وعودها فى الجلاء ، فجنح بعض المصريين الى كسب ود الاحتلال البريطانى اذ رأوا فى حادثة فاشوده برهانا واضحا على رسوخ اقدامه فى البلاد ·

كتب مصطفى الى اخيه على بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان) كتابا قال فيه :

« ··· ان الاحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلادا احسنت اليهم بمالا يحلم به غيرهم ، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات ، لان اعتقادى ان ثمر الدفاع وان لم يجنه المدافع الاول و الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الايام ، واننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فاننا على الاقل نضع الحجر الاول لمن يبقى بعدنا » ·

وكتبت مدام آدم كثيرا عن حادثة فاشودة ، ومنها قولها فى مقالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن اغلاط السياسة الفرنسية :

« فاسودة انها العزبة القاضية ، لقد قلت فى رسائلى قبلا ان غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعا وبصفة حاسمة وابانوا لهم ان بعثة مرشان هى الحاملة لراية استقلال مصر فصاروا جميعا يعتقدون ان تحرير وطنهم سيأتى من السودان . ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين » ·

وقد كان لها كذلك تأثير كبير فى موقف الخديو ، اذا أخذ يذعن للامر الواقع ، ويتودد الى الاحتلال ، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة

زيارته للندن سنة ١٩٠٠ ، وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى رسالته الى مدام جولييت آدم فى ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ : « أبعث اليك مع هذا بمقالة تنصح لك عن شعورى والشعور الاهلى نحو سياحة الخديو فى لندن ، تلك السياحة التى آلمتنا كثيرا ، وما ذلك وأسفاه الا نتيجة فاشودة » .

وواصلت انجلترا مساعيها السياسية حتى تم عقد الوفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ ، وبه حصلت على اطلاق يدها فى مصر على الا تجرى اى تغيير فى نظام مصر السياسى . واقرت المانيا والنمسا الاتفاق ، وبذلك انهار ركن من اركان سياسة مصطفى كامل ، بل انهار المجهود الذى بذله من قبل فى المجال الدولى حين كان همه التجوال فى عواصم اوربا لاستفزاز دولها كى تضغط على انجلترا وتحملها على تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل . ويبدو أثر الوفاق الودى على مصطفى كامل من خطاب بعث به الى جولييت آدم فى ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ جاء فيه « ليس فى وسعى ان اتعزى امام هذه الاتفاقية الانجليزية - الفرنسية المشئومة التى ستجلب اسوأ النتائج على وطننا التعس .. كما أنه ليس فى وسع جميع مدارس المعمورة أن تربط المصريين بفرنسا بعد الآن . ان مواطنى يكرهون اليوم فرنسا اكثر من انجلترا نفسها . انك لا تدرين مبلغ تعاظم الانجليز فى الوقت الحاضر . انهم يسخرون منا نحن ذوى العقول الصغيرة ، الذين اعتمدنا على فرنسا ، ولهم الحق ان يسخروا . ان موقفى الشخصى يعد من اصعب المواقف واخطرها ، فان جميع اصدقائى المصريين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبى أصبحو اما اصدقاء للانجليز او يائسين من الكفاح » (١) .

مصطفى كامل وجريدة اللواء :

كانت الاهرام اكثر الصحف ترحيبا بمقالات مصطفى كامل ، يليها المؤيد . وقد رأى باعث الحركة الوطنية أن لابد له من جريدة يومية يغذى بها عقول القراء ، ثم تكون علما للحركة الوطنية ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم اللواء بمعنى الراية التى التف حولها الوطنيون .

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

وقد صـــدر العدد الاول من اللواء فى ٢ يناير ١٩٠٠ • وكان الزعيم يكتب افتتاحية اللواء فى أكثر الايام • وكان من الكتاب فى اللواء محمد فريد وأمير الشعراء أحمد شوقى واسماعيل صبرى باشا وخليل مطران ومحمـد فريــد وجدى وعبد القادر حمزة وويصا واصف وغيرهم كثيرون •

فاللواء اذن جريدة سياسية وأدبية ، ولكن مصطفى كامل أهتم بالاقتصاد ايضـا ، فقد دعـا فى عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٥ الى احياء الصناعة ونشر التعليم الصناعى ، وقـــال :

« فايجاد روح الصناعة فى البلاد هو بلا مراء اسمى خدمة تقدم اليها واكبر سعادة تجهز لرجال الغد ، وقـد الكثير من فضـــلاء مصر هـــذه الحقيقة وهذا الواجب ، فتبادلوا الحديث فى أمر تأسيس مدرسة صناعية، ولكنهم لم يتعدوا ذلك الى العمل ، واشـد المصريين اهتماما بهذا المشروع هم أعضاء جمعية العروة الوثقى الذين برهنوا باعمالهم المشهورة على انهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون فى تادية هذه الحقــوق فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية « حسبوبك محمد » مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيرا ولكنه يعود على البلاد وابنائها بالخير الجزيل » (١) •

كما كتب فى عدد ٩ مارس ١٩٠٤ من اللواء مطالبا بالمجلس النيـابى قائلا « لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الامة المصرية يذكرون ما قلنـاه من فوق المنابر وكتبناه فى هذه الجريدة وغيرها عن وجوب انشـاء مجلس نيابى منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر ، لانه الانشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال ، **وسواء كان ســـابقا أو لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال** ، فانه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لســـلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة ، الى أن قال :

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ مصطفى كامل باعث الحركة الوطنيـــة ص ١٥١ •

« ليس للاحتلال مصلحة فى ايجـــاد مجلس نيابى لهذه البلاد ، ولكن صوت الامة يعلو على صوته اذا تمسكت به ودعت اليه وطالبت وجاهدت بقوة الراى والفكر والثبات التى هى كبر القوى الفعالة فى حيـاة الامـم ؛ فلتفعل فانما هى نخطو بالوصول اليه أكبر خطوة فى طريق الاستقلال » (١)

مصطفى كامل وحادث دنشـــــواى :

فى يوم ١١ يونية سنة ١٩٠٦ تحركت قوة بريطانية قوتها ١٥٠ جندى من القاهرة قاصدة الاسكندرية وذلك عن طريق البر وبعد يومين وصلت الى منوف ، وقام خمســـة من ضباط الكتيبة بأبلاغ مأمور المركز برغبتهم فى الصيد فى بلدة (دنشواى) • وانفصلوا عن الكتيبــة فى كمشوش متجهين الى سرسنا ومنها الى دنشواى • وكان بصحبتهم عريف (أمباشى) من بوليس نقطة الشهداء وترجمان مصرى ، وذهب (الامباشى) ليبلغ العمـدة خبر قدوم الضباط لكى يتخذ الاحتياطات التى تكفل عدم احتكاكهم بالاهالى، ولكن العمدة كان غائبا فلم ينتظرة الضباط وانقسموا فريقين ، فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الاشجار الملتفة هناك وهؤلاء لم يصبهم احـد بسوء •

أما الفريق الآخر فتوجه مباشرة الى اجران القمح فى دنشـــــواى وكانت تقف حمامتان على جرن ملك لمؤذن القرية ، فصوب أحد الضباط الانجليز بندقيته على الحمام فصاح به احد الشيوخ الطاعنين فى الســن محذرا اياه من ان اطلاق البندقية قـد يؤدى الى اشتعال الجرن وكذلك صاح فيه أخو مؤذن القرية صاحب الجرن ولم يعبأ الضابط وأطلق عيارا فاصاب امرأة تدعى أم محمد وهى زوجة المؤذن فسقطت جريحة تتخبط فى دمائها ، كما أصاب الجرن فاشتعلت به النيران ، وهنا صـاح أخو المؤذن مستغيثا وهجم على الضابط وحاول جذب البندقية منه ، فى حين أقبل الرجال والنسوة والاطفال وهم فى حالة هياج ومرددين ان الخواجه قتل امرأة وحرق الجرن، وأحاطوا بالضباط وجاء بقية الضباط لانقاذ زميلهم وكانت جموع الاهالى قـــد تكـاثرت •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ــ المصـدر السابق ص ١٦٧ •

ووصل فى نفس الوقت شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع وانقاذ الضباط ، فتوهم الضباط أنهم جاءوا يريدون بهم شرا فأطلقوا عليهم الاعيرة النارية فأصاب واحد منها شيخ الخفر فى فخذه فسقط على الارض وأصاب عيار أخر أحد الخفراء فصاح الجمع شيخ الخفراء قتل ٠

وحمل الاهالى على الضباط بالطوب والعصى فاصيب واحد منهم بكسر فى ذراعة واثنان آخران بجروح طفيفة واحاط بهم الخفراء وجردوهم من اسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة واوصلهم الى المعسكر الخاص بالقوة فى كمشوش ٠

اما الباقون وهم الكابتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى ففرا من المكان وكان الاول قد أصيب فى رأسه وأخذا يعدوان قرابة ثمانية كيلو مترات فى شدة القيظ فقد كانت الحادثة وقت الصيف ٠

فلم يكد الكابتن بول يصل الى باب سوق سرسنا حتى سقط من الاعياء ومات متاثرا من ضربة الشمس فتركه زميله الطبيب البيطرى واخذ يعدو حتى وصل معسكر القوة بناحية كمشوش على ضفة ترعة الباجورية (١) ٠

هذا وقد سارع افراد القوة بالتوجه الى دنشواى بمجرد أن علموا بالخبر عند سرسنا - وقد ظنوا بادىء الامر دنشواى - ووجدوا الكابتن بول ملقى على الارض واحد الفلاحين يقدم له بعض الماء فظنوه من المعتدين ٠ فطعنوه وهشموا رأسه بالبنادق ولم يحاكم احد بعد ذلك على قتله ووصلت انباء الحادث الى رجال الاحتلال فى القاهرة وعرفوا أن احد الضباط قد مات عقب الحادث واصيب ضباط اخرون فاقسموا على الانتقام من أهل القرية انتقاما يبث الرعب فى قلوب كل من تسول له نفسه مقاومة الاحتلال ٠

جرى التحقيق بمنتهى السرعة يوم وقوع الحادث على يد مستر متشل مستشار وزارة الداخلية فى ذلك الوقت ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ١٩٩ ٠

وتم القبض على اعداد ضخمة من الاهالى وكانت الاوامر قد صدرت باعداد المشانق وارسالها الى مكان الحادث قبل انتهاء التحقيق وهذا دليل على أن المحاكمة ستكون صورية لاعدل ولا قانون بها وأصدار بطرس باشا غالى قرارا بتشكيل هيئة المحكمة برئاسته وأن تكون المحاكمة فى شبين الكوم يوم ٢٤ يونييه •

وبلغ عدد من قدمتهم الادارة لمحاكمتهم فى هذه الحادثة اثنين وخمسين متهما قدموا جميعا مقبوضا عليهم ، وسبعة من الغائبين •

وانعقدت المحكمة وسط جو من الخوف والرهبة وذلك بمديرية شبين الكوم • وثبت من سماع أقوال الشهود ومنهم شهادة الطبيب الشرعى وكان انجليزيا أن وفاة كابتن بول كانت بسبب اصابته بضربة شمس وانه لا يوجد تاثيرا للاصابة التى كانت فى رأسه على وفاته •

وقد كان هناك تحامل على المتهمين من قبل المحكمة منذ البداية وقد استمرت المحاكمة حتى يوم ٢٦ يونية وفى يوم ٢٧ صدرت الاحكام باعدام اربعة اشخاص والاشغال الشاقة المؤبدة لاثنين ، وواحد لمدة خمسة عشر سنة ، والاشغال الشاقة سبع سنوات على ستة أفراد ، وعلى ثلاثة بالاشغال الشاقة لمدة سنة مع جلد كل واحد ٥٠ جلدة ، وبالجلدة ٥٠ جلده على خمسة •

وقد قوبل الحكم بالدهشة لما فيه من تحامل على المتهمين ولخلوه من العدل والانصاف وذلك لان الاعتداء كان فى بادىء الامر من الانجليز وأن الاهالى لم يعتدوا عليهم الا بعد أن اصيبت أحدى نسائهم واشتعل جرن لهم وأن الضابط الانجليزى قد مات أثر ضربة شمس كما هو موضح فى تقرير الطبيب الشرعى الانجليزى •

وقد اظهر هذا الحكم ان العدالة الانجليزية لا يمكن الوثوق بها فى حالة اذا كانت الخصومة تمس المصالح البريطانية وزاد على الحكم طريقة تنفيذه التى فاقت التصورات فى وحشيتها فقد جىء بالمحكوم عليهم سواء بالاعدام والجلد الى دنشواى وكانت قد نصبت المشانق • وعند ظهيرة يوم

٢٨ يونيو ، نفذ الحكم فى المشنوق الاول علنا وعلى مرأى ومسمع من أهله وذويه وبين صياح النساء وبقى معلقا بينما نفذ حكم الجلد فى اثنين ، ثم شنق الثانى بهذه الطريقة ، يليه جلد اثنين آخرين وهكذا حتى تمت المجزرة فى منتصف الساعة الثالثة مساء .

وقد اثرت هذه الطريقة التى نفذت بها الاحكام تاثيرا كبيرا على جميع أفراد الامة وأثارتها بكافة فئاتها على الاحتلال واشعلت فيها روح الوطنية التى كانت قد خمدت . ورغم أن مصطفى كامل كان فى أوربا للاستشفاء ونصح اطباؤه له بالراحة الكاملة فانه لم تكد تصله أنباء المحاكمة حتى نهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر ، فكتب فى جريدة الفيجارو الفرنسية الشهيرة عدد ١١ يوليو ١٩٠٦ مقالا مطولا للامة الانجليزية والعالم المتحضر ما ترجمته :

« لقد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى دنشواى تحركت بسببها عواطف الانسانية فى العالم كله وقام رجال احرار الفكر مستقلو الاخلاق والاطوار فى انجلترا رافعين اصواتهم سائلين عما اذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس ؟ .

« وانه لمن الواجب على الذين يشغفون حقيقة بالانسانية والعدل ان يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل ، وهى المسألة الشاغلة لامة بأسرها ! .

« فقد ترك ضباط من الانجليز فى يوم ١٣ يونيه الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية ، وقصدوا صيد الحمام فى الاملاك الخصوصية للاهالى ، فانذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الاهالى قد استاءوا فى العام الماضى من صيد الضباط الانجليز لحمامهم ، وانهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا الى الصيد فى هذا اليوم ! .

« ورغما من هذا الانذار فان الضباط اخذوا يصطادون ، وأطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة وحرق جرن ، فاجتمع الفلاحون من كل مكان ، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانجليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة ن

المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانجليز ، وقد تخلص أحـد المجروحين وهو الكابتن « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسـافة خمسة كيلو مترات ، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة ، وسقط بعد ذلك ميتا بضربة الشمس ، وما علم العساكر الانجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشـواى ، وقتلوا فلاحا بدق رأسـه ! .

« هذه هي الوقائع ، وما علمها أصحاب الامر من الانجليز حتى فقدوا الرشـد ، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم ! وبدلا من أن ينظروا الى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك ، بالغوا فيها وجسموها ، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة ! فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة ، بل الانتقام الفظيع ! .

« ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشـار الانجليزى ، قبل المحاكمة بأسـبوع بلاغا رسميا أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم ، وتصدت صراحة التأثير فى المحكمة والرأى العام ! وبلغ من احتقار احـدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر ارسال المشـانق الى دنشواى قبل المحاكمة ، وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتسـاءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة .

« وقـد اجتمعت المحكمة فى يـوم ٢٤ يونيـة ، وأى محكمة ؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها ! لقضاتها أن يحكموا بكـل العقوبات التى تخطر على البال ! محكمة أغلبيتهـا للانجليز ولا تستأنف أحكامها ، ولا تقبل العفو ! وأن المرسـوم الذى صـدر بتشكيلها فى عـام ١٨٩٥ ـ بناء على ضغط اللورد كرومر ـ ذلك الضغط الذى لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقا باظهار أى مقـاومة ـ يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الانجليزى الذى ألقت اليه انجلترا أمر تأييد الامن فى مصر ، فى خطر مستمر ، جعله فى حاجة الى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة ارهـاب .

« قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية ، وتبين ن الضباط الانجليز هم الذين هاجموا الفلاحين بصيدهم فى ممتلكاتهم ، وبجرحهم احدى نسائهم ، وأن الفلاحين هجموا على الانجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد ، لاضباط بريطانيون ! واعترف أمام المحكمة اطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكبتن « بول » مات بضربة الشمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لاحداث الوفاة ! .

« ولم تترك المحكمة الا ثلاثين دقيقة لاكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس ، حيث أكد ان الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الاهالى ، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة ، والذين يعتبرهم العدل فى كل بلد خصوما للمتهمين ! .

« وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على خمسة ، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول !! .

« وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى ! بحيث لم يمض الا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم .

« ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الاربعاء ٢٧ يونيه جيء بالاربعة المحكوم عليهم بالشنق ، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لان الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبين مقر مديرية المنوفية الى قرية (الشهداء) التى تبعد ربعة كيلو مترات عن دنشواى ، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع ! وفى الساعة الاولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جيء بهم الى دنشواى ، وكان أصحاب الامر من الانجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها ! .

« نصبت المشانق ، ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر ، واحاطت عساكر « الدراجون » الانجليزية بالمحكوم عليهم ، والتفت الخيالة المصرية حـول الانجليز ، تولى المستر متشـل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ ! وقد تقدم اليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سـائلا مقابلة والده ليتلقى وصـايـاه الاخيرة ، فرفضا قبول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الانسـان ويحتمه الشرع والعـدل ! .

« وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيـولها وشهرت سيوفها وبدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق

« فشنق رجل ، ولبث افراد عائلته واقاربه وكل اهـالى القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم المزق للقلوب ، وجلد اثنان امام الجثة !

« وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات ، واستمر سـاعة من الزمن ! منظر وحشى مهيج للعواطف ، بكى منه بعض الحاضرين الاوروبيين بدموع الحنان، وابدوا النفور الشديد مما رأوا ! وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين:

« لعنة الله على الظالمين ! لعنة اللـه على الظالمين ! » .

« ان يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦ ، سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا ! وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية!

« عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت انباء تنفيذ الحكم فى دنشـواى ، ولقد كان من المستحيل على أعداء انجلترا أن يصلوا الى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاما ! ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجال من الانجليز ! وقد انشأ الشعراء المصريـون عن حكم دنشواى اشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدنية والانسانية والعدل باقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس ! .

« وانى جئت اليوم اسـأل الامة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن ، اذا كان يصح التسامح فى اغفال مبادىء العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحـد ؟

« جئت أســال الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنـا اذا كانوا يرون بسط النفوذ الادبى والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهجمية ؟

« جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الانسانية ، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط اذا حدثت فظائع فى بلاد أخــرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة أن يثبتوا صدقهم واخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لان يسقط الى الابد تلك المدنيــة الاوروبية فى أعين العالم كافة ! .

« جئت أســأل الامة الانجليزية اذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون بعـد احتـلال دام أربعـة وعشرين عـاما الى قوانين استثنائية ووسائل هجمية بل واكثر من هجمية ، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الانســان ؟

« انى معجب بكل اخلاص وشكر وإعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانجليز الذين نادوا باعلى صــوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشــنيعة التى مثلت فى مصر ! ولكن لمـا رأى الســير ادوارد جراى (وزير الخارجية) أن الراى العام انقاد لهم وانه قضى على سياسة اللورد كرومر ، وقف فى مجلس العموم وتكلم عن التعصب الاسلامى المزعم فى مصر ، وسأل النواب بكل رجاء والحاح الا يشتغلوا بمسائل مصر ، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، او بعبارة اخرى سـلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق فى مصر ، امـا خطـر اصرح انا علنـا بأنه موهـوم ! .

« ان هذا الخطر الموهوم ليس فى أيدى أصحاب الامر من الانجليز الا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة ، وفظائع أخرى تقع فى المستقبل !!

« انه لا وجود لهذا الخطر ! وما الغرض من هذه الفظائع الا احداثه !

« وانى أؤكد بحق أقدس شىء فى الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى فى مصر ، نعم ان الاسلام سائد فيها لانه دين الاغلبية العظمى ، ولكن الاسلام شىء والتعصب شىء آخر ، لقد انخدع السير ادوارد جراى فى هذه المسألة !

وانى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى : هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع انجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلما أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاه مسيحيين وواحـــد مسـلم ؟

« هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيا وحده لاشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود ؟

« ألم تكن كل هذه التحريضـــات كافية لاخراج الشعب المصرى عن اطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة ؟

« ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذى تكلم عنه السير ادوارد جراى معارك كمعركة دنشواى اى اثناء مسألة طابة ، حيث كانت الاغلبية الكبرى من المصريين فى جانب تركيا ، مع أن الجنود الانجليزية كانت تمر دائما فى كل جهة بكل امـــان واطمئنان ؟ .

« لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل افاضة وبيان أنه لادخل للاسلام فيها ، وأن الضباط الانجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المســلمين مســاعدة وتعضيدا !

« انه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقا دقيقا كاملا فى المسألة ، وان مصر على بعد يومين من أوروبا فليأت اليها الانجليز المحبون للعدل الراغبون فى عـــدم ثلم الشرف البريطانى ، وليذهبـوا الى المدائن والقرى وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مـــع الفـلاحين والمصريين كافة ، وليقتنعوا بانفسهم بان الشعب المصرى ليس متعصبا ابدا ولكنـه شعب كريم أبى ، ينشد العدل والمساواة ، ويطلب أن يعامل كشعب حـر لا كقطيع من الاغنام وانه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الاسمى، مطلب الحرية والاستقلال ! .

« اجل ، أن الشعب المصرى شاعر الان بكرامته ، وذلك امر لا يمكن انكاره بأى حال ، انه يطلب معاملة ابنائه اسوة بالاجانب ، وهو طلب عادل وغير مبالغ فيه أبدا ! .

« لقد تكلم السير ادوارد جراى فى موضوع حماية الاوروبيين ضـد المصريين ! ولكن هـل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين مصر ؟ ألا يعيشون فى أتم صفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيـازات الاجنبية ؟ ولكن من يحمى المصريين ؟ ألا نرى فى بعض الاحيان مجرمين من الاجـانب — يحتج النزلاء جميعـا على جـرائمهم — يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب بـه الجنود الانجليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟

« ان اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الاخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا : ان البرلمـان والرأى العام فى انجلترا يراقبان أعماله كما ن الصحافة المصرية تراقبها ايضـــا .

« ولكنها مراقبة باطلة لانه ما كاد البرلمان البريطانى يعترض ويحتج على اعمال وحشية كهذه ، حتى قال اللورد كرومر للسير ادوارد جراى بان التعصب مخيف على شواطىء نهر النيل ، وإنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت ! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر باشـد القوانين مخالفة للعدل والانصـــاف !!

« لذلك يقضى شرف الامة الانجليزية عليها بأن توازن بين الاقـوال الرسمية وأقوالنا ، وتقوم باجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة امامها الآ بكل استقلال !

« لقد قضى اللورد كرومر الاعـــوام الطوال وهو يؤكد بان الامـراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال ، لانه سلبهم سـلطتهم ، اما الفلاحون فانهم يحبونه حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر !!

« وبناء على ذلك فانه لم يكن اعتداء فلاحى دنشـــواى على الضباط الانجليز الا لانهم رأوا احدى نسائهم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا إقصى درجات البنـــاعة . ويحق للعالم كلـه أن يتابلهـما بمزيد

السخط ! واذا كان الامر على العكس واتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتم على اللورد كرومر ان يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن ادارته أدت الى اخفاق ليس له مثيل ! وبحق عندئذ للمستر « ديلون » ان يقول مؤكدا : « ان خطبة السير ادوارد جراى هى أتعس شرح لمركز انجلترا وسياستها فى مصر » .

« على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة ، يعترفون بان حادثة دنشواى لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الاوروبيين ، وأن المصريين هم أكثر أمم الارض اعتدالا وتسامحا !

« ان الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتاثير فى الراى العام المصرى واضحة جلية ، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم انهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته ، وارشاده الى المقام اللائق به فى العالم ، وأننا أدركنا من كثر من قرن أنه لا يمكن للامم أن تعيش عيشة كرامة اذا لم تسلك طريق المدنية الغربية وأننا أول شعب شرقى صافح أوروبا وأننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه واننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحرية مصر ، ومقصدنا الذى نرمى اليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد الاسمى !

« ان عطفنا على الشعوب الاسلامية لامر طبيعى ولا تعصب فيه ، وانه لا يوجد مسلم مستنيرواحد يظن لحظة واحدة انهمن الممكن اجتماع الشعوب الاسلامية فى عصبة واحدة ضد أوروبا ، والذين يقولون ذلك اما جاهلون أو راغبون فى ايجاد هاوية بين العالم الاوروبى والمسلمين !

« انه لا سبيل لنهضة الشعوب الاسلامية بغير حياة اسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقى !

« وان لمصر مكانا خاصا بها فى الشرق ، فهى التى وهبت العالم قناة السويس ، وفتحت السودان للمدنية ، وفيها طبقة راقية الفكر ، وتقدم الامة بالامة يمشى فيها سراعا ، ومن المستحيل ان تحكم مصر وهذا حالها

كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة فى أعماق أفريقية وليس بينها وبين ووروبا اتصال ! الم ير الناس الانجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجرى فى جهات الكونجو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون اذن بحدوث أفظع الجرائم فى مصـــــر ؟

« انه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر فان صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعـاياهـا جمعـوا ثروات كبيرة فيها ، وان القوانين الاستثنائية والاعتســاف لا يؤديان الا الى هياج الشـعب المصرى وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحاليــة .

« اننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية ، نطلب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة ، ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل فى انجلترا الا أن يكونوا معنا ريطلبوا مثلنــا الا تكون مصر - تلك التى وهبت للعالم أجمل وارقى مدنية - ارضا تمرح الهمجية فيها ، بل بلادا تستطيع المدنيــة والعدالة ان يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المبـاركة (١) .

« مصطفى كـامل »

كان للحادث أثره البليغ فى تطور الحركة الوطنية وذلك لما كان لـه من نتائج قوية الاثر فى نفس الوطنين ومركز الاحتلال فى مصر .

ويمكن القول أن الفضل الاكبر لتحقيق هذه النتائج فى صالح الامـة كان لمصطفى كامل ونتيجة لجهاده .

وقد كان الانجليز يقصدون بما فعلوه فى محاكمات دنشـواى وكذلك تنفيذ الحكم بث الـرعب فى نفـس الامـة وارهــاب كل من تســوله نفســة بمقاومة الاحتــلال .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ص ٢٠٩ ، ٢١٦ .

وهكذا نجد أن الحادث قد أتى بنتائج عكس ما توقع الانجليز فقد عرس الحادث الحقد تجاه الاحتلال ومن ثم نمت الروح الوطنية ٠

النتـــائـج

١ ـ اشتداد ســـاعد الحركة الوطنيـة :

كان من نتائج حادث دنشواى إشتداد ســـاعد الحركة الوطنية فقد سرى شـــعور بمســـاوىء الاحتلال ٠

ولا مراء فى أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية ٠

وكان الاحتلال يدعى بأنه مؤيد من قبل الفلاحين ٠

وجاءت أحداث دنشـــواى لتكشف كذب مزاعم الاحتلال واظهرت ان الامة المصرية لا ترضى بالذل والمهانة والتنكيل بأبناءهـا ٠

٢ ـ اهتمام الصحف العالمية بالمســـألة المصرية :

أهتمت الصحف الاوروبية بما فيها الانجليزية بالمسالة المصرية فكتبت المقالات والبحوث عن مصر ومطالبها بالاستقلال ٠

فقـد كان سائدا أن مصر بلد متخلف لا يعى معنى الاستقلال ولكـن بعد الحادث وارتفاع صوت مصطفى كامل مطالبا بالاستقلال تغيرت نظرة الاوربيين لمصر وعرفوا انالاحتلال لم يستتر بهاوان المصريينساخطون على نظام الحكم الذى وضعه لورد كرومر ، وقد كبر شـــان المصريين فى أوروبا نتيجة عدم رضاهم بالاحتلال ومطالبتهم بالاستقلال ٠

٣ ـ تأسيس الجـامعة المصرية :

اتفقت الاراء على حادث دنشــواى من الاسباب الرئيسية فى تأسيس الجامعة المصرية فقد نبهت الحادث الى وجوب المساهمة فى كل ما يعلى من شـــأن الامــة ٠

فظهرت بعد الحادث بثلاثة اشـــهر جماعة تدعو لتأسيس الجامعة المصرية وكان على رأسهم سعد زغلول وقاسم امين ، وبعد ان تحددت الفكرة كان مصطفى كامل أول المتبرعين للمشروع وداعيـا لـــه ٠

٤ - تعيين ســعد زغلول وزيرا للمعـارف :

كان تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف من النتائج المباشرة لحــادث دنشـواى . وكانت الحكومة البريطانية قد رأت أن تعدل سياستها فى مصر لتخفيف حدة السخط على الاحتلال ، فأسندت بعض المناصب الكبيرة الى الاكفاء من المصريين .

وكان لورد كرومر هو الذى اقترح تعيين سعد زغلول وزيرا للمعارف وقد صدر الامر بالتعيين فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٦ أى بعد نحو أربعة أشهر من وقوع الحادث .

٥ - اســتقالة اللورد كرومر :

كما كان للحادثة وأظهار سياسة الاحتلال صدى عميق فى الرأى العام الاوروبى والبريطانى وما التى من تبعات على كاهل لورد كرومر بسـبب الحادث وذلك من الوجهة السياسية والانسـانية معا .

فرات الحكومة البريطانية اعفـاءه من منصبه انقاذا لسمعتها أمـام العالم المتمدن وتخفيفا لهياج الشعور الوطنى فى مصر .

وقد قدم اللورد كرومر استقالته فى ابريل ١٩٠٧ وعقب تقديمه آخـر تقرير له عن شـئون مصر سنة ١٩٠٦ (١) .

مصطفى كامل وتأسيس الحزب الوطنى :

شهد عام ١٨٧٩ أول جمعية اتخذت من الحزب الوطنى اسما لهـا ، حيث تجمع بعض كبار المصريين وكونوا هذه الجمعية ، وكان من اعضائها بعض المدنيين وعلى راسهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب آنذاك، ثم انضم اليهم بعض العسكريين مثل أحمد عرابى وآخرون ثم أصبح عرابى بعد حادثة قصر النيل فى سبتمبر ١٨٨١ لسـان حال الحـزب .

وثانى حزب حمل هذا الاسم هـو الحزب الوطنى الحـر الــذى تأسس فى ٢٦ يوليو ١٩٠٧ برئاسة محمد وحـيد بك الايوبى ، وكــان

(١) عبد الرحمن الرافعى - المراجع السابق ص ٢٣٧ - ٢٣٩ .

مواليا للاحتلال البريطانى وضد الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل . كما ان هناك حزب ثالث تم تشكيله فى اغسطس ١٩٠٧ واتخذ نفس الاسم برئاسة حافظ عوض . كما انه كان ايضا مواليا للاحتلال .

اما الحزب الوطنى ـ حزب مصطفى كامل ـ فهو رابع حزب سمى بهذا الاسم (١) ونرجع نشأة الحزب الى عدة عوامل دفعت مصطفى كامل ليعلن تأسيسه فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ، فلقد ظل مصطفى كامل يعتقد ان تعدد الاحزاب يشتت العمل الوطنى . ولكن ربما لاعتلال صحة الزعيم فكر فى جمع الوطنيين فى هذا الحزب المتطرف فى عدائه مع الانجليز .

ولم يكن الاعلان عن تأسيس الحزب الوطنى مفاجأة للقوى السياسية الاخرى فى مصر ... حيث ان هذه القوى كانت قد احيطت علما بحركات مصطفى كامل واتباعه وبرنامجه الى ذلك . اذ كان قد نشر مبادئه العشرة فى اكتوبر ١٩٠٧ ، وكان ذلك مقدمة للاعلان عن تأسيس الحزب رسميا فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ الذى اعلن فيه مصطفى كامل أن هدفه الرئيسى سيكون تحقيق جلاء الانجليز عن مصر . واعلن استقلال الحزب عن كل الدول والحكومات والملوك وقرر ان الامم لا تنهض الا بنفسها ولا تسترد استقلالها الا بجهوداتها (٢) .

وعقدت أول جمعية عمومية للحزب الوطنى يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ بدار اللواء ، وكان عدد الاعضاء الحاضرين ١٠١٩ ، كما بلغ عدد المعتذرين عن الحضور ٨٤٦ وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطنى من قديم ، ثم اشار الى ضرورة تنظيمه ، وقال عن اغراض الحزب « اننا لسنا حزبا سياسيا فقط بل نحن قبل كل شىء حزب حياة للأمة وانهاض لها ، فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة ، وهو يرمى الى الاستقلال أس كل سعادة ،

---

(١) دكتور زكريا سليمان بيومى ـ الحزب الوطنى الفاروقية لتوكيلات الطباعة والنشر ١٩٨١ ص ١٩ ـ ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ ـ ٤٤ .

ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصرى جاهلا تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الاخرى ، وهو يرمى قبل كل شىء الى أن يكون المصرى انسانا بأسمى معانى الكلمة ، واقصد بالمصرى ليس فقط ذلك الذى نراه فى المدائن يجد ويعمل ، بل اقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد انه ملك للحاكم ومتاع لا ارادة له ، فأسمى عمل نقوم به هو انهاض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، فهو هو ممثل النشاط المصرى ، ومصدر كل خير ونعيم ، فليحى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى اثقال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل ابناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته » .

« اننا اذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب لاندعوهم باسم سلطة عالية او حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم ، باسم كرامة الانسان ، باسم ذكريات آبائهم واجدادهم ، باسم مصالح ابنائهم واحفادهم » .

وبعد المناقشات صدق الحاضرين على القرارات واعلميا ان رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة (١) .

ولم يمض اكثر من شهر على تاسيس الحزب الوطنى حتى اصيب بفقد مؤسسة مصطفى كامل الذى مات فى ١٠ فبراير ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين .

ولا أجد فى هذا المقام سوى بعض الابيات من رثاء أمير الشعراء لباعث الحركة الوطنية :

باصب مصر ويا شديد غرامها ... هذا ثرى مصر فنم بأمان

اخلع على مصر شبابك غاليا ... والبس شباب الحور والولدان

فلعل مصرا من شبابك ترتدى ... مجدا يتيه به على البلدان

(١) عبد الرحمن الرافعى - المصدر السابق ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

فلو ان بلبرمين من عزمـــاته — بعض المضاء تحرك الهرمـــان
علمت شـــان المدائن والقـــرى — كيف الحياة تكون فى الشـــبان
مصر الأسيفة ريفيا وصعيدها — قبر أبر على عظامك حـــانى
أنسيت انك فى التراب طهـــارة ٭ ملك يهـــاب سؤالـه الملكـــان

محمد فريد :

ولد محمد فريد بالقاهرة فى ٢٠ يناير ١٨٦٨ ، وهو من اصـــل تركى ، وكرس فى مدرستى الالسن والحقوق ، وتولى نيـــابة الاستئناف سنة ١٨٩٤ . وفى نوفمبر ١٨٩٨ أنشأ مجلة الموسوعات .

وترجع صلة محمد فريد بالزعيم مصطفى كامل الى سنه ١٨٩٣ .

وعقب وفاة مصطفى كامل ، اجتمعت الجمعية العمومية للحـــزب الوطنى بدعوة من اللجنة التنفيذية يوم ١٤ فبراير ١٩٠٨ بدار اللواء لانتخاب رئيس للحزب وانتهى الحاضرون الى انتخاب محمد فريـــد رئيسا للحزب الوطنى لمدة ثلاث سنوات .

ويرى البعض ان الزعيم لم يكن ينتمى الى فئة كبار الملاك - فى ذلك الوقت - فقد كان كل ما ورثه هو واخوته ٣٠٠ فدان منها ١٥٠ موقوفة وقصرا كبيرا فى شبرا . ورغم ذلك فقد كان فريد مضطرا للانفاق على الحركة الوطنية وعلى الحزب من ماله الخاص ، حتى لا يبدو الحـــزب فى صورة هزيلة بعد وفاة موسسة ، وعندما عرض الخديو استعداده لمساعدة الحزب بالمال رفض فريد حتى لاتكون الحركة الوطنية طـــوع أمـر الحكومة (١) .

وفور انتخاب محمد فريد رئيسا للحزب الوطنى ارسل الى السير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا برقية نصها :

---

(١) مذكرات محمد فريد - كراسة (١) ص ٤ .
انظر د . زكريـا سليمان بيومى - المصدر السابق ص ٨: ولمزيد من التفصيلات نظر أيضا أوراق محمد فريد - المجلد الاول .
مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - سلسلة المذكرات التاريخية ص ٥٨ وما بعدها .

« الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيسا بدل المرحوم مصطفى كامل باشا ، وكلفتنى بأن اجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق ، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تفى انجلترا بوعودها » .

محمد فريد

رئيس الحزب الوطنى

ولم يتوقف محمد فريد عن المطالبة بالدستور ، وعندما اجابت الحكومة على طلب الحزب الوطنى بانشاء المجلس النيابى فى ٨ فبراير ١٩٠٨ بان الوقت لم يحن بعد لتشكيل مجلس نواب يرجى منه النفع العام « الذى ينتظر من المجالس النيابية ، ولكنها تشتغل الآن فى توسيع اختصاص مجالس المديريات » علق فريد بانها حجة واهية يلجأ اليها الحكام الذين يشتهون استمرار السلطة فى أيديهم .

ومن الغريب ان تتمسك انجلترا بالديموقراطية فى بلادها فقط وتمنع هذه الديموقراطية فى المستعمرات والبلاد التابعة لها ، حتى لا تستيقظ الشعوب وتطالب بالحرية وتسير بالديموقراطية فى طريق الرخاء والتقدم . ان الاستعمار بصفة عامة يتمسك بحاكم ديكتاتورى فى الدولة التابعة على ان يكون مواليا لهذا الاستعمار والامثلة كثيرة على ذلك .

على اية حال أجاب محمد فريد على اهانة الأمة واتهامها بعدم كفايتها للنظام الدستورى فى جريدة اللواء فى ٢٦ فبراير ١٩٠٨ مبينا ان الحزب الوطنى سيجمع توقيعات المواطنين على طلب الدستور حتى جمع ٦١ الف توقيع .

ثم كتب فى اللواء ....

« والواجب على حضرات اعضاء مجلس شورى القوانين ان يقرروا فى أول اجتماع لهم طلب الدستور ، وان لا يجتمعوا مرة أخرى الا اذا حصلوا عليه » .. ، وانهم يفضلون ترك كراسيهم على ان يشغلوها بلا عمل .

حتى لا ينـال فيهم انهم لا يرغبون فى هـذه المراكـز الاسميـة الا طمعـا فى الظهور ، والا فمـا داموا ودمنـا على هـذا الجمود وهـذه الاستكانة ولم نغير ما بأنفسنـا ، فلن يغير الله ما بنـا ، فقـد قال تعـالى (ان اللـه لا يغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسـهم) ٠

المؤتمـر الوطنى للحزب ٠

وفى ٢٥ ديسمبر ١٩٠٨ تكلم الزعيم فى المؤتمـر الوطنى للحـزب مبينا جهـود الحزب فى العـام الاخير والتى تتلخص فى :

١ ـ الاحتفاظ بوحدة الحزب وتضامن اعضـائه ، واحباط المسـاعى التى كانت تبذل لحله والتخلص منه ٠

٢ ـ انشـاء اللجان الفرعية للحزب فى اقسـام العاصمة وفى البنـادر والاقاليم ٠

٣ ـ تأليف مدارس الشعب الليليـة لتعليم الصنـاع مجانـا ٠

٤ ـ وضع تقرير سنوى مفصـل عن حالة البلاد ٠

٥ ـ الدعـاية للقضية الوطنيـة فى أوروبا وبخاصـة فى انجلترا ٠

وبالفعل انتشرت مدارس الشـعب الليلية لتعليـم من فاتهم قطـار التعليم والعمـال مجانـا ، وانشئت ببولاق أول مدرسـة من هـذا النوع ٠ وتطوع الشباب من أعضـاء الحزب لتدريس المواد المختلفـة ٠ وبلغ عـدد المدارس التى انشـأهـا الحزب سنة ١٩٠٩ وحدهـا لتعليم العمـال أربـع مدارس فى أقسام الخليفـة وبولاق وشبرا والعباسية (١) ٠

ثم انتشرت هـذه المدارس فى عواصـم المحافظـات ٠ وكان محمـد فريد ينادى دائمـا بوضع التشريعـات لحمايـة العمال ٠

فكتب يقول ٠٠ « الى الآن لا يوجـد بمصر قوانين خاصـة بحمـايـة العمـال ، ولا قوانين تحديـد سنهم ، ولا عـدد السـاعات التى يجب ان يقضـوها فى العمل ٠ فتجـد العمـال مثقلى الكواهـل بـلا رحمـة ،

---

(١) ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ ص ٤٤ ـ ٤٦ ٠

خصوصا فى معامل الدخان ومعامل حلج القطن ، حيث يشتغل الأطفال ذكورا واناثا ، فى وسط أردأ الاوساط ، من الوجهة الصحية والادبية وقد كتبت الصحافة المصرية كثيرا عن هذه المسائل ، بلا جدوى ولا تأثير فى الدوائر الرسمية » .

وسرت فكرة تأسيس النقابات فأنشئت نقابة للعمال بالقاهرة أولا ثم انتشرت الفكرة فى باقى عواصم المحافظات .

وفى المؤتمر الوطنى للحزب ، والذى عقد فى ٧ يناير ١٩١٠ ، أوضح محمد فريد كيف ان الوطنيين يتعرضون للارهاب من جانب الحكومة ، ثم طالب بمجانية التعليم وهو مطلب فريد من فريد فى ذلك الوقت .

وفى نفس المؤتمر صرح :

« ... أما تعديل نظام مجالس المديريات واعطاؤها الحق فى وضع ضرائب على الأطيان لا يزيد مجموعها على خمسة فى المائة من مجموع الضرائب الاصلية ، وصرفها كلها او جلها فى التعليم ، فيعود على البلاد بالنفع العميم ، فان نشر التعليم الابتدائى بين جميع طبقات الشعب ، من أقوى الوسائل لترقية الامة ، واقرب السبل لانالتها الحرية والاستقلال ، ويجب ان يكون قصدنا جميعا الوصول الى جعل التعليم الابتدائى الزاميا ومجانيا ، لكل مصرى ومصرية ، اقول مجانيا لأنه لا يمكن التوفيق بين الالزام ودفع اجرة على التعليم ، ولان جعله مجانيا للفقراء وبأجرة للأغنياء ، فيه جرح لعواطف الفقراء من التلاميذ ، الذين يرون أنفسهم محتقرين فى نظر اخوانهم ومعلميهم ، فالدمقراطية الحقة ، والمساواة الحقيقية ، يقضيان بأن يكون التعليم الابتدائى مجانيا لجميع طبقات الامة ، فقيرها وغنيها ، بلا تمييز ، حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ، ويعرفون منذ نعومة اظفارهم أن لا تفاوت بين الناس الا بخدمة الامة ، وأن اقربهم الى الله اتقاهم ، لا أغناهم » .

« ولا ننس ان التعليم الابتدائى وحده غير كاف لحاجات الأمة ، فان الأمم لا ترقى الا بالتعليم الثانوى والعالى ، اللذين يخرجان الطبقة الراقية التى عليها المعول فى ادارة امور العامة والاخذ بيدها الى طريق السعادة . طريق النور ، طريق الحرية الابدية ، فيجب أن نسعى

فى أن يكون بكل عاصمة مديرية أو محافظة مدرسة ثانوية على الاقل ، وان يكون بها محال مجانية لتعليم النابغين من أولاد الفقراء ، لا أن يكون المبلغ المقرر لهم ١٦٠٠ جنيه فى كل سنة من سنى التعليم الثانوى الأربعة ، من ميزانية تربو على الستة عشر مليون جنيه ، اى بنسبة جنيه واحد على كل عشرة آلاف جنيه ، وهو ما لم يسمع به الا فى مصرنا الاسيفة ، اما التعليم العالى فيجب أن يكون أضعاف ما هو عليه الآن ، حتى يتخرج للبلاد العدد الكافى من المحامين والاطباء والمهندسين والعلماء والماليين وغيرهم ، فتصبح الأمة فى غنى بأبنائها عمن يقصدها من علماء الاجانب و الآفات منهم » .

كما تكلم الزعيم عن فداحة الضرائب التى تقع على كاهل الفلاحين فقال :

« وهناك مسالة اخرى يجب على نواب الامة الاشتغال بها ، وهى تحمل الفلاح المصرى أكبر جزء من الميزانية المصرية ، فكلكم تعلمون ان لجان تعديل الضرائب جعلت اساس تقديرها ان تكون الضريبة بنسبة ٢٨ فى المائة من الايجار ، بحيث لا يزيد ما يدفع عن الفدان عن ١٦٤ مرشا سنويا ، وتعلمون ان أصحاب الاملاك المبنية فى المدن المقرر فيها دفع عوائد أملاك كانوا يدفعون جزءا من ١٢ من ايجار املاكهم اى ٨ ٪ تقريبا ، ثم زيدت بمقدار الربع من اول عام ١٩٠٩ ، ولكن من الغريب ان ألتجار لا يدفعون شيئا ، وكذلك المصارف وأصحاب الأموال المنقولة على العموم ، فمن اشترى بجميع أمواله أسهما من البنك العقارى أو الاهلى مثلا لا يدفع للحكومة شيئا ، فى حين أن الفلاح الصغير الذى يملك قيراطا او قيراطين يدفع ثلث ايراده ، واذا نقص المحصول او اتلفته الدودة باع ماشيته لدفع غائلة الصراف ، ومنعه من بيع ملكه تسديدا لمال الحكومة ، الذى يبذر باليمين والشمال ، فيجب على الكتاب والخطباء ان يطرقوا هذا الباب ، ويشرحوه شرحا وافيا ، حتى يقف الرأى العام على ما يصيب الفلاح من الظلم الفادح بتحمله ما يقصم ظهره من اهتمامهم وقت درس الميزانية للعام المقبل (١٩١١) ، ويجب على

المشتغلين بتشكيل النقابات الزراعية أن يهتموا بايجادها حتى تشتغل بتخفيف الضرائب عن الاطيان وتحسين حالة الفلاح المسكين الذى يكد طول سنته هو وزوجته وأولاده ولا يحصل الا على القوت الضرورى من الذرة ، واذا نقص محصول القطن عن سداد ما عليه من الايجار اخذ منه محصول الذرة كله أو بعضه ، فانظروا الى هذا التعس الذى عليه اساس العمران بمصر ، والذى لم تتغير حالته المعاشية بل هى هى حياة بؤس وشقاء ، وجهل لا يماثله فيها فلاح آخر ، الفلاح المصرى اتعس فلاح فى العالم ، اتعس من الفلاح الروسى ، الذى يضرب بشقائه المثل، ولا خلاص له من هذه الحالة الا بنشر التعليم الابتدائى وجعله اجباريا ، وبتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه امام الحكومة وامام الملاك الذين يزيدون عليه الايجارات بمناسبة وبغير مناسبة ، وامام المرابين الذين يأخذون منه ما يبقى لهم بين جشع الملاك وظلم الحكومة » (١) ٠

كما تكلم الزعيم فى نفس المؤتمر الوطنى للحزب (٧ يناير ١٩١٠) عن مشروع مد امتياز السويس مهاجما ، كما أن (اللواء) كان قد هاجم ذلك المشروع فى ٢٥ اكتوبر ١٩٠٩ موضحا ان هذا المشروع هو عبارة عن تنازل مصر عن ملكية القناة لاربعين عاما زيادة على عقد الامتياز (من عام ١٩٦٩ الى عام ٢٠٠٨) مقابل الحصول على أربعة ملايين جنيه ٠

وارسل محمد فريد برقيات الى الخديو والى رئيس الوزراء يحملهما مسئولية ذلك العمل المتنافى مع المصلحة المصرية ٠

وكان لنداءات الزعيم اثر فى تراجع الجمعية العمومية عن قرارها بمد اجل امتياز القناة ثم رفض المشروع تماما رغم دفاع سعد زغلول نفسه عن وجهة نظر الحكومة ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ محمد فريد ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ٠

(٢) د ٠ جاد طه ـ ثورة ٢٣ يوليو بين النظرية والتطبيق ١٩٦٩ ص ١٠١ ٠

أنظر أيضا د٠ جاد طه ـ الصراع الاستعمارى ص ٨٤ ٠

مقالات الزعيم فى اوربـا ٠

مـع اوائـل مايو ١٩١٠ ، سـافـر الزعيم محمـد فريـد الى اوربـا للدفـاع عن القضية المصريـة ، فذهب الى باريس ، وكتب فى الصـحف الفرنسيـة مقالات هامـة لضم الرأى العـام العالمى الى جانب الحـركـة الوطنيـة المصريـة ، كمـا القى العديـد من الخطب فى المدن الفرنسية الكبرى كمـا الم بلندن ذاتهـا ، وهاجم الانجليز فى عقر دارهم غير مبـال بالنتـائج، ثم خطب الزعيم فى مؤتمـر السلام باستوكهلم فى ٩ اغسطس ١٩١٠ باللغة الفرنسيـة ليعرف الاعضـاء بالقضية المصريـة ، ممـا ادى بالمؤتمـر لان يصـدر قرارات مؤيدة لمصر ٠

وعـاد محمـد فريـد من الخـارج وهو محاط بسهالات الحب من الشعب المصرى ، ممـا ادى الى بغض أعدائه فى ذلك الوقت : الاحتـلال ـ الخديـو ـ الوزراء ، وبدأ عام ١٩١١ وهو ينذربما سينال فيه الزعيممن العنت والمكاره ٠

الزعيم فى السـجن

ففى ٢٣ ينايـر ١٩١١ حوكم الزعيم على تقريظه لكتاب وطنيتى للشيخ على الغاياتى وكتابته مقدمة لـه ، وانتهت المحكمة الى قرار بحبس الزعيم ستة اشهر مع النفـاذ ٠

وقـد تلقى فريـد حكم المحكمـة بهـدوء ، وقررت لجنة الحزب الوطنى أن تطلب الى الإمـة مقابلة هـذا الحكم بالثبات ٠ وفى ١٨ يوليـو وبعـد مضى أشهر الحبس الستة ، تم الافراج عن محمد فريد ٠

وعند خروجه قال : « مضى على ستة أشهر فى غيابات السجن ، ولم أشـعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب اجل خروجى ، لعلمى انى خارج الى سجن آخر هو سـجن الامة المصرية الذى تحده سـلطة الفرد ويحرسـه الاحتـلال » (١) ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ محمـد فريـد ص ٢٨٨ ٠

وهكذا انتشرت الانباء بان الحكومة مصممة على ادخال الزعيم الى السجن كلما خرج منه ، وانتهى الامر باقامة الدعوى على الزعيم بتهمة التحريض على كراهية الحكومة . ثم حكمت المحكمة المكلفة بالنظر فى هذا الادعاء على الزعيم بالحبس مع الشغل سنة غيابيا .

وهكذا نصح رفاق الزعيم له بالسفر ، فسافر فى ٢٦ مارس ١٩١٢ سرا الى الآستانة وأخذ يتنقل من بلد الى بلد داعيا للقضية المصرية .

أما أحوال مصر بعد هجرة الزعيم فسوف نناقشها فى الفصل التالى .

أما الزعيم نفسه ، فقد توفى فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ فى ظروف بالغة التعاسة والفقر ، وهو الغنى صاحب الفدادين والقصور ... وقال قبل وفاته مباشرة « انى انا واولادى وكل عزيز لدى فداء لمصر ، لقد قضيت بعيدا عن مصر سبع سنوات ، فاذا مت ، فضعونى فى صندوق واحفظونى فى مكان امين ، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتى الى وطنى العزيز الذى افارقه وكنت اود أن اراه (١) .

وفى ١٦ نوفمبر ١٩١٩ شيعت جنازة الزعيم فى برلين فى احتفال مهيب سار فيه المصريون هناك وعدد كبير من الالمان تقديرا منهم لزعيم مجاهد أحب وطنه وقاسى من أجله .

وظلت فكرة نقل رفات الزعيم الى مصر تجول فى خواطر الكثيرين دون ان ينفذها أحد ، الى ان قام تاجر من الزقازيق يدعى خليل عفيفى بالحصول على ترخيص من الحكومة المصرية بنقل رفات الزعيم على نفقته الى مصر .

وفى ٨ يونيو وصل جثمان محمد فريد بالباخرة الى الاسكندرية حيث شيعت جنازته من جديد فى موكب مهيب الى محطة الاسكندرية

(١) المصدر السابق ص ٤٤٤ .

لنقل رفات الزعيم الى القاهرة ·· وفى محطات دمنهور وطنطا وبنها احتشدت الجماهير لتحية روح الزعيم ·

وفى ٩ يونيو بدأت جنازة جديدة للزعيم الخالد من محطة القاهرة الى ميدان الاوبرا فشارع محمد على الى مدافن العائلة بجوار السيدة نفيسة ·· وأخيرا آن لمصر الأم أن تحتضن رفات ابنها البار محمد فريد · وتبارى شعراء وكتاب مصر العظام فى ذلك الوقت فى تابين الزعيم ·

فقد القى حافظ ابراهيم قصيدة مطولة منها ·

آثر النيل على أمواله وقواه وهواه والولد
يطلب الخير لمصر وهو فى شقوة نحلى من العيش الرغد
ضارب فى الأرض يبغى مأربا كلما قاربه عنه ابتعد
لم يعبه أن تجنى دهره رب جد حاد عن مجراه جد
يستجم العزم حتى ان بدت فرصة شد اليها وصمد
فهو لا يثنى عنانا عن مثى وهو هجيراه (من جد وجد)
فأياديه اذا ما انكرت انما تنكرها عين الحسد

* * *

فقدت مصر (فريدا) وهى فى موطن يعوزها فيه المدد
فقدت مصر (فريدا) وهى فى لهوة الميدان والموت رصد
فقدت منه خبيرا حولا وهى والايام فى أخذ ورد
لم يكد يمتعها الدهر به فى ربوع النيل حيا لم يكد
ليته عاش قليلا فترى شعب مصر عينه كيف اتحد
ويح مصر بل فويحا للثرى انه أبلغ حزنا واشد
كم تمنى وتمنى أهله لو يوارى فيه ذياك الجسد

* * *

جهف نفسى هل (ببرلين) امرؤ   موق ذاك التبر صلى وسجد
هل بكت عين فرت تربه   هل على احجاره خط احد
ماهنا قبر شهيد فى هوى   امة ايقظها ثم رقد

كما كتب الامير شكيب رسلان قصيدة طويلة أيضا منها ٠

قد عشت فذا فى الرجال فريدا   فقضيت فذا فى البلاد فريدا
جاهدت عمرك ثم مت مغربا   فغدوت من كل الجهات شهيدا
كانت حياتك حفظ مصر لأهلها   ما غير ذلك مطلبا منشودا
جاهدت نصف العمر فى ارجائها   علما ونصفا فى الغروب شريدا
لله وفيت الأمانة حقها   وبذلت فيها طارفا وتليدا
واذبت فى حسراتها كبدا بها   اوديت تحرق من ذويك كبودا
لم تدخر فى حب مصر واهلها   وسعا ولا جهدا هناك جهيدا
ما عز عندك ان تركت لأجلها   وطنا وقصرا كالسدير مشيدا
ولذائذا ونفائسا اورثتها   عنها صرفت وعيلا ووليدا
غادرته طفلا وطال بك النوى   فحرمت منظره وصار رشيدا
لخلاص مصر قد تركت ماثرا   بيضا سهرت لها ليالى سودا
كنت المتيم والعميد بحبها   فلذا لفتيتها غدوت عميدا

أما أمير الشعراء أحمد شوقى فقد كتب قصيدة تليت على ضريح الفقيد سنة ١٩٢٠ ٠

ثم عاد شوقى سنة ١٩٢٤ ليكتب شعرا رائعا عن محمد فريد فى مناسبة الذكرى الخامسة لوفاته نقتبس منها ٠

نجدد ذكرى عيدكم ونعيد   وندنى خيال الامس وهو بعيد
وللناس فى الماضى بصائر يهتدى   عليهن غاو او بسير رشيد
اذا الميت لم يكرم بأرض ثناؤه   تحير فيها الحى كيف يسود

ونحن قضـاة الحق نرعى قديمـه   وان لم يفتتنـا فى الحقـوق جديـد
ونعلم أنـا فى البنـاء دعـائم   وأنتم أساس فى البنـاء وطيـد
فريـد ضحايانـا كثير وانمـا   مجـال الضحايـا انت فيه فريـد
فمـا خلف ما كابدت فى الحق غاية   ولا فـوق ما قاسيت فيه مزيد
تغربت عسرا أنسـت فيهن بائس   وانت بافاق البـلاد شريـد
تجـوع ببلدان وتعـرى بغيرهـا   وترزح تحت الداء وهـو عتيـد
الا فى سبيـل الله والحق طـارف   من المـال لـم نبخـل بـه وتليد
وجودك بعد المال بالنفس صابرا   اذا جزع المحضور وهو يجـود

* * *

فلا زلت تمثالا من الحق خالصـا   على سره نبنى العـلا ونشيد
يعلم نشء الحى كيف هوى الحمى   وكيف يحامى دونه ويذود .

* * *

الفصل التاسع

ثورة ١٩١٩

الحمـــاية البريطـانية على مصر :

عندما قامت الحــــرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، ظلت الأحـــوال هادئة فى مصر باعتبارها بعيدة عن مسرح هذه الحرب ، الا أنه فى ٥ اغسطس سنة ١٩١٤ ، اصدرت الحكومة المصرية قرارا - تحت الضغط البريطانى - بمنع التعامل فى الامور المالية والاقتصادية مع الدول المعـــادية للحكومة البريطانية ، وحث القرار المصريين على تقديم كل عون ممكن لبريطانيا فى هذه الحرب (١) وقد هـــــاجم الوطنيون فيما بعد حسين رشـــدى باشا - رئيس الوزراء - على اصدار هذا التصريح دون أن ينتزع من الانجليز فى مقابله وعد صريح يحقق آمال المصريين بعد انتهاء الحرب ٠

وفى ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٤ صدر مرسوم بتاجيل جلســات الجمعية التشريعية الى أجل غير مسمى (٢) ، وفى ٢ نوفمبر أعلن السير جون مكسويل قـائد القوات البريطانية فى مصر الاحكام العرفية ، ثــم صـــدر تصريح بريطانى أعلن أن انجلترا سوف تتكفل بكل أعباء الدفاع عن مصر وأنها لن تدعو الشعب المصرى الى الاشــــتراك الفعلى فى الحرب ، وقد صـــدر هذا التصريح بناء على طلب رشدى باشـا رئيس الوزراء الذى اعترض بمرارة على اعلان الاحكـام العرفية ٠

---

(١) John Marlowe, Anglo-Egyptian Relations 1800-1953, p. 212.

(٢) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ٩٠ ٠

وفى ٦ نوفمبر ١٩١٤ أعلنت الحرب بين انجلترا وتركيا ، وهكذا كان على انجلترا أن تختار لمصر وضعا من ثلاثة أوضاع ، فهى : اما ن تضمها الى امبراطوريتها ، أو تعلن حمايتها عليها ، أو تترك أمورها على ما هى عليه ، أما ضم مصر الى الامبراطورية فانه لا شك سيثير الدول المحايدة ويدفعها الى نقد السياسة الانجليزية ، أما اعلان الحماية فمن شأنه أن يعطى ممثل انجلترا وضعا محددا يفوق وضع ممثلى الدول جميعا فى البلاد (١) • لهذا اختارت انجلترا اعلان الحماية فى ١٨ دبسمبر سنة ١٩١٤ (٢) •

واعلان الحماية من دولة على أخرى كان يصحبه عادة اتفاق بين الدولة الاستعمارية والدولة المحمية ، بقصد تبرير وضع الدولة الاستعمارية من الناحية الشكلية أمام الرأى العام العالمى ، وان كان مفهوما انها حين تعلن حمايتها انما تفرض نفسها فرضا بوسائل الضغط السياسى والعسكرى ، ولكن لا الحكومة المصرية ، ولا أى هيئة مصرية أخرى طالبت بالحماية التى اعلنتها انجلترا من طرف واحد مما جعلها غير مقبولة من المصريين جميعا ، لولا ظروف الحرب التى لم تمكن أحدا من الادلاء برأيه بصراحة ، خاصة وقد أعلنت الاحكام العرفية وتحددت الحريات وانتشرت جيوش الاحتلال فى البلاد (٣) •

وبرغم أن فرض الحماية على مصر لا يزيد من فاعلية السيطرة البريطانية عليها ، فان اعلان الحماية من ناحية تذل شعور المواطن المصرى ، ومن ناحية أخرى تثير القلق والغموض فى المستقبل (٤) ، بل أن كلمة « حماية » نفسها كلمة ذليلة لم يكن ليتقبلها الشعب المصرى بسهولة (٥) •

وبما ان الحماية - من الناحية الدولية - عمل غير قانونى ، فانه لم يكن مستطاعا احداث أى أثر على الامتيازات الاجنبية • وعلى الرغم من

---

(١) د • أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٠ - ٩١•
(٢) عبد الرحمن الرافعى - ثورة ١٩١٩ - ص ١٨ •
(٣) د • أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩١ •
(٤) د • جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل صفحة ٨٦ •
(٥) John Marlowe, op. cit., p. 216.
(١) د • جاد طه الصراع الاستعمارى فى حوض النيل صفحة ٨٦ •

ان مقتضيات الاحكام العرفيــة لم يكن لهـا أى تأثير فى بادىء الامـر على الحياة اليومية فى مصر ، فان اعلانها كان معناه أن الجيش البريطانى اصبحت له السلطة العليا فى التشريع والادارة فى مصر واستخدمت الاحكام العرفـة استخداما شـــاملا فيها ٠

وكان من الواضح أن المصريين لابد منتظرين نتيجة الحرب التى نشب حتى يحددوا موقفهم من المحتل ويطالبوا بالغاء هذا الاجراء الاستثنائى ، وبحقوقهم فى الحرية والاستقلال ، وبقى وضع مصر شاذا اثناء الحرب كما كان عليه منذ وقوع الاحتلال ، فالحماية لم تلغ السيادة العثمانية ، ولا هى اثرت على الامتيازات الاجنبية (١) ، ومع ذلك فان انجلترا قد افادت من اعـلان الحماية ، فالغت وزارة الخـــارجية المصرية وحولت ملحقاتها الى المندوب الســـامى البريطانى ٠

وفى نهاية سنة ١٩١٤ ، وصلت الى مصر اقسام من جيوش بريطانيا ومستعمراتها ؛ وفى ديسمبر من نفس السنة بدأت العمليات الحربية فى سيناء وقناة السويس لمواجهة الغزو التركى على القناة من جهة فلسطين ٠ وعنـد بداية عام ١٩١٦ ، كان فى مصر نحو ١٣ فرقة من قوات الجيش البريطانى ٠

وعلى الرغم من التعهد البريطانى باعفاء مصر من المشاركة فى المجهود الحربى فى هذه الحرب ، فان بريطانيا اخلت بهذا التعهد بعد أيام قليلة من اعطائه بارســـالها الجيش المصرى كى يســـاعد فى الدفاع عن قنـــاة الســـويس (٢) ٠

ثم ما لبثت السلطات الانجليزية أن بدأت عملية قبض واسعة النطاق، ونفت الكثيرين من الوطنيين الى مالطة ، وكان من هـؤلاء عـدد كبير مـن رجـــال الحزب الوطنى ، واعتقلت وحددت اقامة الكثيرين ، وأخليت بعض المدارس والمستشفيات وأقيمت فيها المنشآت العسكرية ، واستخدمت القوات البريطـانية المرافق العامة - كالسكك الحـديدية لدرجـة تعطيل النقـل

(١) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٢ ٠
(٢) د ٠ جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل صفحة ٨٦ ٠

المـــــدنى (١) ٠

كما زادت مطالب الحرب من الاعباء التى فرضتها السـلطة البريطانية على الشعب ٠ فجندت العمال والفلاحين لمضاعفة العمل فى خط السكة الحديد بين الاسماعيلية والزقازيق ، كمـا زادت طلباتها من المؤن ودواب الحمل ٠ وطلبت السلطات البريطانية من الحكومة المصرية أن تمدها بالجنود المتطوعين فكـان مـدير كل مديرية يطلب من مامـورى المراكز الذين تحت قيادته أن يمدوه بعدد كبير من المتطوعين لتزويد الجيش ، فيعهد المامور الى كل عمدة مهـددا اياه بالعقوبات الشـــديدة اذ لم يقدم المطلوب منه ٠ وأخـذت السلطة العسكرية فى الاستيلاء على دواب الحمل ووسائل النقل ومواد العلف غصبا ، وأجبر المصريون على التبرع للصليب الاحمر ولاسر الجنود «الحلفاء» المنكوبين وغيرهم ٠ وصدرت الاوامر لرجال الادارة تجمع هذه الاموال وجار العمد والموظفون على الافراد العاديين ، كما فعلوا حين جمع المجندين والعمال والاستيلاء على الماشية والمواد الغذائية ، مما أدى الى ازدياد الضغط على الفلاحين وتفشى السخط فى الريف ٠

على أنه يلاحظ ن الاموال التى دفعها الجيش البريطانى نظير ذلك لم تكن مجزية ، بل كثيرا ما كانت تتأخر ، بل لم تكن تجد طريقها دائما الى أيدى أصحابها الحقيقيين (٢) ، وعلى أية حال لم يكن قيمة ما يدفع يتكافأ مع فقدان الفلاح لماشيته التى كانت ضرورية تماما لمعيشته

أما سكان المدن فلم يكن ضغط الحرب عليهم باقل منه على مواطنيهم القرويين ، حقيقة أن سنى الحـــرب قد ادت الى انعزال مصر تقريبا عن أسواق التصدير ، مما أتاح للرأسمالية المحلية فرصة محددة للنمو حين قامت بالبلاد بعض الصناعات الصغيرة للوفاء بحاجات الجيوش والسوق المحلية ٠ الا أن الحرب أدت الى الركود الشـــامل فى السوق التجارية بسبب وقف

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٤ ٠
(٢) د ٠ جاد طه - المصدر السابق صفحة ٨٧ ٠

تصدير القطن وهبوط أسعاره هبوطا شديدا وتحديد مساحة الاراضى المزروعة قطنا ، وتاليف لجنة انجليزية لمراقبة تصدير القطن بأسعار مخفضة الى انجلترا وحصر عمليات التصدير فى يد فئة قليلة من البيوت الاجنبية . وارتفعت أسعار السلع الاستهلاكية ارتفاعا متواليا وبخاصة أسعار الحبوب والمنسوجات والوقود ، بينما لم تزد أجور العمال والموظفين أية زيادة تتناسب مع زيادة تكاليف الحياة (١) .

وهكذا أصبحت مصر قاعدة للعمليات الحربية فى البحر المتوسط ، وخضعت لاوضار حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل .

وفى وسط هذه الظلمة الحالكة ، أخذ المصريون يتطلعون الى نيل حريتهم بعد أن لمست طبقاتهم جميعا مدى العنف الذى تعرضوا له أثناء الحرب نتيجة لربط البلاد بعجلة السياسة الاستعمارية :

وبمجرد أن أعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، حتى أخذ الساسة المصريون يتشاورون فى مصير البلاد ، وكان كبار زعماء الحزب الوطنى منفيين و معتقلين ، فتصدر الموقف المعتدلون ومعظمهم من أعضاء الجمعية التشريعية . ورأى هؤلاء أن يرسلوا وفدا مثل بقية الشعوب التى تأهبت لارسال مندوبيها الى مؤتمر الصلح ، خاصة وأن مصر لم تثر العراقيل فى وجه انجلترا اثناء الحرب ، بل عاونتها تدر طاقتها على احراز النصر ، ومما قوى عزيمتهم صدور التصريح الانجليزى - الفرنسى الذى أذيع فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ فيما يتعلق بسوريا والعراق ، وقد جاء فيه « ان بريطانيا العظمى وفرنسا تنويان تحرير الشعوب التى أنقذت من الظلم العثمانى تحريرا تاما وان ننشىء لها حكومات وطنية تستمد سلطاتها من القوانين التى يسنونها من تلقاء انفسهم ومطلق اختيارهم » (١) . وكانت مسالة ارسال هذا الوفد هى النقطة التى اندلعت منها الثورة .

---

(١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق صفحة ٩٥ .
(٢) المصدر السابق ٩٩ - ١٠٠ .

أسباب ثورة ١٩١٩ :

قد يكون السبب المباشر لثورة سنة ١٩١٩ هو اعتقال سعد زغلول وصحبه ، ولكن أسبابها الحقيقية ترجع الى عدة سنوات مضت ، ولا يمكن القول بأن اعتقال سعد هو السبب الوحيد للثورة ، فقد اعتقل للمرة الثانية فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وكانت منزلته عند الشعب قد عظمت وعلت ، ومع ذلك لم تقم فى البلاد ثورة للافراج عنه ، فاعتقاله فى المرة الاولى لم يكن السبب الوحيد لثورة سنة ١٩١٩ ، وانما كان بمثابة الشرارة التى اشعلت النار فى بركان الثورة ٠

ولم تكن ثورة ١٩١٩ ثورة دينية ولا ثورة اجتماعية ، بل كانت ثورة سياسية بكل معانى الكلمة ، فاهدافها سياسية وتطوراتها السياسية ، ومن هنا كانت أسبابها العامة أيضا سياسية ،على أن لها إلى جانب ذلك اسبابا أخرى اقتصادية واجتماعية ٠

الأسباب السياسية :

« ترجع الثورة الى تذمر الشعب من حالته السياسية وتطلعه الى ما يصبو اليه من حرية واستقلال ٠ وكان الشعب يسمع من الحكومة البريطانية بين حين وآخر وعودا وعهودا بالجلاء عن البلاد ، ولكنه شهد على مر السنين نقض هذه الوعود والعهود ٠٠٠ شهد الاحتلال على تعاقب الاعوام يوطد أقدامه ، ويتغلغل فى شئون الحكومة كبيرها وصغيرها ، شهد الغاء الجيش المصرى والبحرية وتجريد البلاد من كل قوة حربية ، شهد مصرع الحكومة الاهلية ، واهدار الاستقلال ، شهد الغاء مجلس النواب ، وابطال النظام الدستورى الذى نالته من قبل » ٠

تعاقبت هذه الاحداث على البلاد ٠٠٠ وبينما كانت الامه ترتقب أن تنجز انجلترا وعودها وعهودها فى الجلاء . اذا بالاحتلال يتفاقم ويزداد رسوخا باعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ فصار احتلالا مقرونا بحماية٠ وبعد أن قامت مصر من ويلات حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل ، جحدت

الحكومة البريطانية المعاونات المصرية لها فى هذه الحرب ، فوقفت من الاهداف الوطنية - بعد انتهاء الحرب - موقف التحدى والخصومة ، وتحدت الشعب ما تضمر له ، اذ صمت آذانها عن الاستماع الى مطالبة ، ورفضت الترخيص لممثليه بالسفر الى الخارج لرفع صوت مصر الى مؤتمر الصلح ، ولم تكتف بالرفض ، بل حتمت أن يقدم الشعب مقترحاته فى شأن نظام الحكم الى المعتمد البريطانى فى مصر ، على أن لا تخرج عن حدود الحماية ، فى حين توالت الانباء بالترخيص لوفود الهند والحجاز وسورية ، وأرمينيا وغيرها بالسفر الى المؤتمر ، وتمثيل بعض هذه البلاد رسميا فى ساحته ، وتمكينها جميعا من الدفاع عن حقوقها واعلان مطالبها امامه ، ولقد ظهر من هذه المقارنة مبلغ ما بيتته انجلترا لمصر من أسوأ النيات ، فلما يئس الشعب من الطرق السلمية فى الوصول الى اهدافه لجأ الى الثورة ، يعلن بها سخطه على الحماية والاحتلال ... فثورة سنة ١٩١٩ هى اذن ثورة على الاحتلال والحماية ووثبة على نظام الحكم الذى تفرع عنهما .

وقد أحدثت المبادىء التى اعلنها الدكتور ويلسون الرئيس الاسبق للولايات المتحدة عند دخول امريكا الحرب تأثيرا كبيرا فى النفوس قاطبة . وقد أعلن الرئيس الامريكى هذه المبادىء فى خطبة العديدة ، فاستمع الناس الى قواعد ومعان جديدة فى حكم الشعوب وتقرير العدل العالمى ، اذ نادى بحرية الشعوب كبيرها وصغيرها ، والاعتراف بحقها فى تقرير مصيرها . كما أعلن فى المبدأ الاخير من مبادئه الاربعة عشر التى نادى بها وجوب انشاء جمعية أمم لوضع الكفالات لضمان الاستقلال السياسى وسلامة أراضى جميع البلاد صغيرها وكبيرها على السواء .

وقد كانت هذه المبادىء بمثابة دستور او ميثاق عالمى يحق لكل أمة أن تتمسك به ، وقد استثارت هذه المبادىء روح الاستقلال والحرية فى الشعوب، وكانت الامة المصرية بذكائها وبصيرتها أسبق الامم الصغيرة الى تمسكها بحقها فى تقرير مصيرها ، وزادها تمسكا به أن الحلفاء ومنهم بريطانيا وافقوا على مبادىء ويلسون ، فاستقر فى الاذهان انها بوقوفها ضد الاحتلال والحماية لابد واصلة الى تقرير مصيرها ، وهو الحق المعترف به من

الجميع (١) ٠

الأسباب الاقتصـــادية :

ان ثورة سنة ١٩١٩ كانت من الوجهة الاقتصادية هي رد فعل ضد النظم المالية التى عانتها البلاد قبل الحرب وأثنائها ، فقبل الحرب أخذت الامة تشعر على مر السنين بأن المصالح والمرافق الاجنبية نمت وازدهرت وطغت على الاقتصـــاد القومى فى ظل الاحتلال وتحت كنفه ورعايته ، وأن النفوذ الاجنبى فى البنوك والشركات والمصانع والبيوت الاجنبية عامة قد تغلغل فى حياة البلاد الاقتصـــادية مما أفضى الى استعباد الشـــعب ماليا واقتصاديا الى جانب ما عناه من الاستعباد السياسى (٢) ٠

ثم جاءت الحرب العالمية الاولى ٠ فزادت الناس تذمرا من هذه السياسة وأول ما ظهر من هذا التذمر ، الشكوى العامة من موقف الحكومة حيال هبوط أسعار القطن هبوطا جسيما فى موسم سنة ١٩١٤ على أثر نشوب الحرب ٠ فلقد نزل سعر القطن تدريجيا الى حوالى عشرة ريالات ، وكان سعره قبل الحرب أربعة جنيهات فعم الكســـاد واشـتد الضيق بالمزارعين من مـلاك وفلاحين (٣) ٠

ثم أخذت أسعار القطن فى السنين التاليـــة تصعد تدريجيـــا ، حتى وصل سعر القنطار الى ٣٩ ريالا ، وهكذا اندفـــع الزراع الى زراعــة القطن ، ومن ثم قل انتاج الحاصلات الغذائيـــة ، هذا بالاضـــافة الى ان قوات الاحتلال كانت تستولى على غالبية هذه الحاصـــلات واصبح من العسير على الفقراء من أهل المدن الحصول على حاجاتهم الضرورية (٤) ٠ واشتدت وطأة الغلاء على الطبقات الفقيرة والمتوســـطة ، وهم السواد الأعظم من الشعب ، ففاضـــت

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ - الطبعة الثالثة ص ٤٠ - ٤٤ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى - مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتـــلال ص ٢٠٦ ٠

(٣) عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ جـ ١ ص ٥٤ ٠

(٤) John Marlowe, Anglo-Egyptians Relations 1800-1953, p. 224.

نفوسهم سخطا وحنقا ، وفى ذلك يقول اللورد ملنر فى تقريره عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ : « ٠٠ ان اسعار الأشياء ارتفعت فى مصر ارتفاعا متواليا لم يسبق له مثيل ، ولا سيما اسعار الحاجيات كالحبوب والأقمشة والوقود ، فثقلت وطأتها على الفقراء ، ولا سيما أن اجورهم لم تكن لتكفى النفقات التى يقتضيها غلاء المعيشة ، فى حين انهم كانوا يرون عددا من مواطنيهم ومن الأجانب غير المحبوبين عندهم يجمعون الثروات الكبيرة ، فان عائلة مكونة من أربعة أشخاص ، رجل وزوجته وطفلين ، لم تكن تستطيع فى أوائل سنة ١٩١٩ الحصول على ما يكفيها من القوت الا بثمن يفوق بكثير متوسط الاجر وقتئذ ٠ فهذه العوامل المختلفة فضت ولا ريب فى أواخر سنة ١٩١٨ الى الاستياء والقلق بين معاشر الفلاحين » ٠

واحتكرت الحكومة البريطانية بذرة القطن جميعها من محصول سنة ١٩١٧ بسعر اقل من سعرها الحقيقى ، كما اصيبت مصر بخسارة اقتصادية فادحة فى موسم سنة ١٩١٨ ، اذ احتكرت الحكومة البريطانية محصول القطن جميعه فى ذلك العام ٠ واصدرت الحكومة المصرية بلاغا فى ١٣ مارس سنة ١٩١٨ عن هذا الاحتكار سوغته بقولها : « نظرا الى الأحوال الاستثنائية الناجمة عن الحرب والمتأثرة بها الآن تجارة القطن المصرى ولا سيما قلة بواخر النقل ٠٠٠ و مراعاة لضرورة الاحتفاظ بما للامبراطورية البريطانية ولما للحلفاء من المواد الطبيعية سدا لحاجتهم الضرورية ، رأت حكومة صاحبة الجلالة والحكومة المصرية بالاشتراك ان تتخذ التدابير اللازمة لاحراز محصول القطن ابتداء من أول اغسطس سنة ١٩١٧ » ٠

ويدخل فى سياق الاسباب الاقتصادية للثورة ، مصادرة السلطة العسكرية لارزاق الناس وحاصلاتهم ومواشيهم ، ثم تخفيض مساحة الاراضى المنزرعة قطنا طيلة أيام الحرب توفيرا لمئونة الجيوش البريطانية وجملة القول ان الاسباب الاقتصادية كان لها دخل كبير فى قيام ثورة سنة ١٩١٩ (١) ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ ثورة ١٩١٩ ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨ ٠

الأسباب الاجتماعية :

لا شك ان المجتمع المصرى سنة ١٩١٩ ، كان — رغم الاحتلال — اكثر تطورا عنه فى السنوات السابقة ، فان النهضة الأدبية والعلمية والصحفية والنهضة النسوية ، كل ذلك جعل المجتمع أكثر تطلعا الى المثل العليا واشد تبرما بالنظم الاستعمارية • وتجدر الاشارة الى ما كان للأدب والصحافة من فضل كبير فى بث الروح الوطنية فى نفوس الشعب ، فان الأدباء عامة ، والشعراء بوجه خاص ، ناصروا الحركة الوطنية وغذوها بقصائدهم ومقالاتهم ، وسجلوا حوادثها البارزة ، وعبروا اصدق تعبير عن آمال هذا الشعب وآلامه ، ومن هنا صار المجتمع اكثر استعدادا لقبول الدعوة الى الثورة ، فان دعوة مصطفى كامل ومحمد فريد لاقت صدى لها فى بيئات محدودة ، فقد استجاب لها بعض الشباب المتحمس وفريق من المثقفين والأعيان ، ولكن غالبية الشعب ظلت بمنأى عن الحركة الوطنية • أما فى سنة ١٩١٩ ، فقد انضمت الى الحركة الوطنية فئات كانت من قبل بمعزل عنها كالموظفين والفلاحين ، وهذا لا شك راجع الى التقدم الاجتماعى •

حقا قد يكون الباعث المباشر لانضمام الموظفين الى ثورة ١٩١٩ هو استياؤهم من احتكار الانجليز للمناصب الحكومية الكبرى ، ولكن هذا لا يحول دون اعتبار هذه البواعث الشخصية من العوامل التى اذكت الروح الوطنية فى نفوس المصريين •

حقا ان اعيان البلاد كانوا — الا النادر — لا يميلون من قبل الى معارضة الحكومة بل كان همهم توطيد علاقتهم بالحكومة والحكام ، ثم جرفهم التيار ، فانضموا الى الحركة فى سنة ١٩١٩ ، ومهما قيل من ان انضمامهم اليها لم يخل من قصد الانتفاع الشخصى ورعاية مصالحهم عن طريق مسايرة التطور السياسى الجديد ، فان انضمامهم الى الحركة كان على أى حال مظهرا من مظاهر التقدم الاجتماعى للأمة •

أما عن الفلاحين ، فلم يكن احد يتوقع ان الفلاح البعيد بفطرته عن السياسة يندمج فى الثورة الى درجة خلع قضبان السكك الحديدية وقطع المواصلات وبذل الروح فداء للوطن •

وبلغ النضج السياسى والاجتماعى خلال الثورة حدا جعل المتظاهرين يحرصون على رعاية مصالح الاجانب حتى لا يستهدفوا لعدواتهم فكانوا يدعون دائما الى عدم التعرض لهم بسوء ٠ ومن مظاهر التقدم الاجتماعى مساهمة النساء فى هذه الثورة ، واشتراكهن بأقلامهن فى اذكاء الروح الوطنية ، وحثهن الرجال على التضحية ، وتاليفهن المظاهرات والجمعيات للتعبير عن شعورهن والمساهمة فى النهضة الوطنية ٠

وصفوة القول ان التقدم الاجتماعى كان له اثره فى اندلاع ثورة سنة ١٩١٩ (١) ٠

احداث الثورة :

لقد خرجت انجلترا منتصرة من الحرب الاولى ، وتزعمت العالم الاستعمارى ولم يكن من المتوقع ان يحقق المتطرفون الكثير من المطالب المصرية عن طريق العنف ، فكان من دواعى الحكمة ان يتقدم الصفوف المعتدلون ، وبخاصة من كان منهم على صلة طيبة بالسلطات الانجليزية قبل الحرب ، ومن هنا كان انفرد سعد زغلول بالزعامة فى أوائل الحركة وتمكنه من جعل الوفد المصرى هو الجبهة الوحيدة التى تبنت القضية الوطنية فى اعقاب الحرب العظمى ، وتسليم الجميع لسعد بالزعامة لم يكن أمرا عارضا ، بل هو نتيجة لاعتبارات كثيرة تتصل بحياة سعد اتصالها بقوة شخصيته وسابق مراسه بالامور السياسية ٠

نشأ سعد نشأة مصرية صحيحة فى الريف ودرس فى الازهر أيام الافغانى ومحمد عبده ، واشترك فى الثورة العرابية وعمل اثناءها محررا للوقائع المصرية مع محمد عبده ، وقد تقلد منصب وزير المعارف منذ عام ١٩٠٦ ، وفى عام ١٩١٠ تولى وزارة الحقانية (العدل) الا ان معارضته الصريحة الواضحة للسياسة الانجليزية لم تبدأ الا بعد انتخابه وكيلا للجمعية التشريعية بعد انتخابه عن دائرتين

لمزيد من التفصيلات انظر :

(١) عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ جـ ١ ص ٦٤ - ٨٥ ٠

من دوائر القاهرة لعضوية الجمعية فى عام ١٩١٣ (١) .

وعندما اعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، تقدم سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوى عضوا الجمعية التشريعية بوساطة وموافقة رشدى رئيس الوزارة حينذاك ، تقدم هؤلاء طلبا لمقابلة المندوب السامى البريطانى فى يوم ١٣ نوفمبر (٢) ، وذلك للتحدث اليه فى طلب الترخيص لهم بالسفر الى لندن لعرض مطالب البلاد على الحكومة الانجليزية .

وفى ١٣ نوفمبر جرت المقابلة الشهيرة (٣) ، بين سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى من جانب والسير ريجنالد وينجت المندوب السامى البريطانى من جانب آخر ، وقد طلب المندوبون المصريون - بصفتهم نواب الأمة - اعتراف انجلترا باستقلال مصر ، ولم يشأ ونجت ان يلزم نفسه بشىء ، ولهذا لم يصدر عنه سوى التأييد لسياسة بلاده الاستعمارية والتهوين من امر المصريين والقول انهم غير جديرين بالاستقلال ، ثم ابدى لرئيس الوزراء حسين رشدى عدم اقتناعه بصفة الوكالة التى خلعها سعد زغلول وزميلاه على أنفسهم رغم كونهم جميعا اعضاء فى الجمعية التشريعية التى لم تزل قائمة قانونا .

لهذا طلب « الوفد » بعد المقابلة توكيلا من الأمة لمتابعة السعى للاستقلال بالطرق السلمية ، وكان المقصود فى أول الامر أن يوقع هذا التوكيل اعضاء الجمعية التشريعية ، ولكن لما كان الشعب كله مهتما بالقضية الوطنية فقد ارسلت نسخ التوكيل (١) الى شتى ارجاء البلاد ليوقعها

---

(١) د . احمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى س ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) د . جاد طه - الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ٨٧ - ٨٨ .

(٣) نص الحديث - عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ ص ٦٦ - ٦٩ .

(٤) نص التوكيل عبد الرحمن الرافعى - ثورة سنة ١٩١٩ ص ٧٣ .

المواطنون جميعا • وساعد حسين رشدى على توقيع نسخ التوكيل حين أصدر التعليمات الى مديرى المديريات بعدم التعرض لها ، دون أن ينحنى أمام محاولة السلطات الانجليزية احباط الحركة ، بعد أن تبينت انها توشك أن تكون أساسا لحركة عامة للمطالبة بالاستقلال التام • لهذا كان موقف حسين رشدى من العوامل التى ساعدت على التفاف الشعب حول « الوفد » •

وكان رشدى قد اعتزم أن يسافر الى لندن مع زميله عدلى يكن ليطرح المسألة المصرية على بساط البحث فى العاصمة الانجليزية ، وكان رشدى على تفاهم تام مع الوفد حول الخطة السياسية الواجب اتباعها فى ذلك الظرف ، وهى تقضى بتوجه ممثلى الحكومة المصرية القائمة الى لندن ، وتوجه أعضاء الوفد الى حيث شاءوا (١) •

وعندما طلب سعد من القيادة العسكرية الانجليزية فى مصر الترخيص له بالسفر الى لندن مع وفده ـ فقد كان السفر الى الخارج لا يسمح الا باذن من السلطة العسكرية ـ كى يناقش مع الحكومة البريطانية المطالب المصرية ، ما كلت السلطات البريطانية فى قبول مطالب زعماء الوفد وأشارت عليه بتقديم مقترحاته الى المندوب السامى البريطانى •

فاقترح رشدى رئيس الوزراء أن يسافر هو وعدلى الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية حول مستقبل مصر السياسى ••• فرفضت هذه الدعوة بدورها ، فقضى ذلك على البقية الباقية من صبر رشدى الذى قدم استقالته للسلطات وتبعه عدلى يكن •

وعندما ووجه المندوب السامى باستقالة رشدى وعدلى ، قام بالاتصال بالحكومة البريطانية وحصل على موافقتها على ذهاب رشدى الى لندن ، وقد تحقق رشدى من أن أية امتيازات يستطيع الحصول عليها من لندن ستجعل الفرصة ضعيفة لتهدئة عاطفة الوطنيين ما لم يشترك سعد

---

(١) د • احمد عبد الرحيم مصطفى ـ تاريخ مصر السياسى ص ١٠٧ ـ ١١٠ •

فى مباحثاته مع الحكومة البريطانيـة (١) ، ولذلك أوصى المندوب السامى بوجوب السماح لشخصه فى مرافقة رشدى الى لندن ، وان الحكومة البريطانية تحسن صنعا فى هـذه المناسبة فتستمع الى نصيحته ، فلم يجب المندوب السامى الى طلبـه ، وعلى ذلـك قـدم رشـدى — الذى كان قـد سـحب استقالته السابقـة مـع عدلى — استقالته مـرة أخـرى مـع حكومته فى أول مارس سنة ١٩١٩ ٠

وكان قبول استقالة رشدى ايذانـا بازديـاد التوتـر السـياسى فى البلاد ، فقـد شارك رشـدى الشعب شعوره ، آزر الوفـد فى موقفـه ، وقـد ادى قبـول استقالته الى تفشى الاعتقـاد بأن مصر مقبلـة على وزارة جديدة قـد تقبـل الحمايـة البريطانية (٢) ٠

وقـام الوفـد فى تلك الاثنـاء بارسـال احتجاجات الى معتمدى الدول الاجنبيـة فى مصر واشهدهم على المعاملة الجائرة التى تعامـل بهـا مصر ومبلغ الظلم الـذى يصيبهـا من المطامع الاستعماريـة ٠ وهكـذا رأت السلطـة البريطانيـة فى هـذه الاحتجاجات المتوالية تشهيرا بها وبتصرفاتها، وفى يوم ٦ مارس سنة ١٩١٩ استدعى الميجر جنرال وطسن قائـد القوات البريطانيـة فى مصر بالنيابة رئيس الوفـد واعضـاءه وأنذرهم بالويـلات ان هم استمروا فى تقديم هـذه الاحتجاجات الى معتمدى الـدول ٠ الا ان سعدا لـم يتراجـع ، بـل ارسـل فى اليوم نفسـه برقيـة احتجـاج على هـذه المعاملة الجائرة الى رئيس الوزراء البريطانية (٣) ٠

وهكذا رأت السـلطة البريطانية اصرارا من الوفـد على موقفـه ، فنفذت فى يوم ٨ مارس ما هددت به ، وألقت القبض على سعـد زغلول وثلاثة من صحبه هم محمد محمود واسماعيل صدقى وحمـد الباسـل ، وساقتهم الى ثكنـات قصر النيـل ثم جزيـرة مالطـة التى اختارتهـا السـلطـة منفى لهم ومعتقلا (٤) ٠

---

(١) د ٠ جاد طه — ثورة ٢٣ يوليو ص ١١٦ ٠
(٢) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى — المصدر السابق ص ١١١
(٣) عبد الرحمن الرافعى — ثورة سنة ١٩١٩ ص ١١٢ — ١١٤ ٠
(٤) د ٠ جاد طه — المصدر السابق ص ١١٧ ٠

وكانت عمليه الاعتقالات هذه هي السبب المباشر فى اندلاع الثورة ، ففى اليوم التالى مباشره لعمليه الاعتقالات ، ترك الطلبة مدارسهم وتظاهروا فى الشوارع ، وفى ١٢ مارس أصبحت منطقة الدلتا كلها فى حالة ثورة شاملة فاقتلعت القضبان الحديدية وقطعت أسلاك التليفون ، واشعلت النيران فى المبانى ، واضطرت القوات البريطانية الى اطلاق الرصاص على المواطنين فى طنطا • وفى ١٥ مارس انتقلت الاضطرابات الى الصعيد • وفى ١٨ مارس قتل ثمانية من الجنود البريطانيين فى قطار كان متوقفا فى محطة ديروط'(١) •

وهكذا عمت الثورة ارجاء البلاد جميعا دون أن تكون هناك لجنة منظمة لها او جماعة توجهها وتشرف عليها بل أنها شملت البلاد فجاة وعلى غير انتظار ، واشتركت فيها طوائف المصريين وطبقاتهم جميعا. فاشترك فيها الموظفون والطلبة والمحامون والفلاحون والعمال والتجار والوزراء والاعيان ، بل ان نساء المدن اشتركن فى المظاهرات وفدمن الاحتجاجات ، مما لم يسبق له مثيل فى بلد اسلامى آخر •

ونتيجة لاحداث الثورة ، اصدر القائد البريطانى العام انذارا يتوعد فيه كل من يتلف أو يشرع فى اتلاف خطوط المواصلات الحديدية أو البرقية او التليفونية بالاعدام رميا بالرصاص ، واعلن أن كل حادث جديد من حوادث التدمير لمحطات السكك الحديدية سوف يعاقب عليه باحراق القرية التى هى أقرب من غيرها الى مكان التدمير (٢) •

واخذت الداوريات البريطانية المسلحة تجوب البلاد ، كما استخدمت الطائرات الحربية فى قصف الشعب الاعزل ، ورغم ذلك ، وفى فترة قصيره ثبتت الثورة أقدامها فى كل نواحى القطر ، واخذت تزداد عنفا يوما بعد يوم •••• فقد امتدت حوادث الصدام من أبريل الى اغسطس وتجددت من أكتوبر حتى ديسمبر ، وبلغت خسائر المصريين نحو ٣٠٠٠ قتيل و ١٦٠٠ جريح ، كما حكم على ٣٧٠٠ بأحكام مختلفة •

---

(١) John Marlowe, op. cit., p. 235.

(٢) د • أحمد عبد الرحيم مصطفى — المصدر السابق ص ١١١ — ١١٢

وفى تلك الاثناء انزعج المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية للأخبار القادمة من مصر ، فعين الجنرال السير ادموند اللنبى مندوبا ساميا خاصا بدلا من السير ريجنالد وينجت ، فوصل الى مصر فى ٢٥ مارس مع لجنة للسيطرة على جميع الشئون الحربية والمدنية ، ولاتخاذ جميع التدابير التى يعتبرها ضرورية ومناسبة لاقرار القانون والنظام والاشراف على جميع الشؤون التى تتطلبها ضرورة ابقاء الحماية البريطانية فى مصر (١) .

وفى ٧ ابريل اعلن المندوب السامى الجديد فى تصريح له أن سعد زغلول وزملاءه سوف يفرج عنهم من معتقلهم في مالطه ، وسوف يسمح لهم أيضا بالتقدم بمطالبهم أمام أية جهة يريدونها (٢) .

وهكذا سافر وفد برياسة سعد الى باريس لمحاولة التأثير على الدول الاعضاء فى مؤتمر الصلح ، الا ان الوفد فوجىء بمجرد وصوله الى باريس باعتراف الولايات المتحدة والمانيا بالحماية البريطانية على مصر . ولذلك وجد زعماء الوفد لدى وصولهم الى باريس جميع الابواب مغلقة فى وجوههم خاصة بعد أن اعترف الرئيس الامريكى ويلسون - الذى كان قد اعلن مبادئه الاربعة عشرة وضمنها حق تقرير المصير - بالحماية البريطانية على مصر (١) . ولذلك اقتصرت مهمة الوفد عند حد الدعاية لقضية مصر فى محيط كان كل من فيه مشغولا بمشاكله الخاصة ، وقد ذكر سعد زغلول فى برقية الى عبد الرحمن فهمى - رئيس اللجنة التى كانت قد تألفت فى القاهرة لجمع التبرعات لتغطية نفقات الوفد فى باريس ، ولجمع معلومات عن الموقف فى مصر وارسالها الى الوفد ليستخدمها فى الدعاية للقضية المصرية - يقول فيها « منذ وصولنا الى باريس وجدنا جميع الابواب موصدة فى وجوهنا - كل الجهود والمساعى لم تؤد الى نتيجة » .

---

(١) John Marlowe, op. cit., p. 235

(٢) د . جاد طه - الصراع الاستعمارى ص ٩٠ .

(٣) John Marlowe, op. cit., pp. 236-237.

وكان على الوفد أن يطرق الأبواب الأخرى غير الموصدة ، كالمجالس والهيئات العامة والجرائد والرأى العام ، كما ظل الوفد يعلق الآمال على موقف برلمانات دول الحلفاء لاسيما الكونجرس الأمريكى بسبب موقفه المعارض بصفة عامة لمعاهدة فرساى ، ولكن كان من المؤكد أن الأمل فى الموقف الدولى قد انقطع تماما ، وأن المسألة المصرية ينبغى أن تحل فى أرض مصر وحدها .

ولم يكن يقلق الانجليز وجود الوفد فى باريس نتيجة للاسباب السابقة، وخاصة بعد أن ضمنوا اعتراف معظم الدول بحمايتهم على مصر ، وانما كان مصدر قلقهم الوحدة الوطنية وكيفية ضرب هذه الوحدة وتشتيتها

ولما قلت مظاهر العنف التى اتسمت بها الثورة فور قيامها ، رأت انجلترا أن الوقت قد حان لتحقيق الشطر الثانى من التعليمات التى كلف اللنبى تنفيذها أى « استمرار الحماية على أساس وطيد مشروع » ولكى يتسنى لها ذلك قررت أن تحقق أسباب سخط المصريين ، فرأت ارسال بعثة يرأسها اللورد الفرد ملنر وزير المستعمرات للتحقيق فى أسباب الاضطرابات التى نشبت ، وأن تقدم تقريرا عن حالة مصر وعن شكل القانون النظامى الذى يعد - تحت الحماية - خير دستور « لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها ، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيعا دائم التقدم والرقى ، ولحماية مصالح الأجانب » .

وفى ١٤ نوفمبر ، نشرت دار الحماية بلاغا رسميا أعلنت فيه قرب قدوم لجنة ملنر ، وحددت مهمتها بأنها اقتراح النظام السياسى الذى يلائم مصر تحت الحماية ، فرد الحزب الوطنى على ذلك بمبدئه المشهور « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » وأعلن تمسكه بالاستقلال التام .

وعلى أثر صدور بلاغ دار الحماية ، قامت المظاهرات فى القاهرة ، وما لبثت أن عمت أحياء المدينة هاتفة بالاستقلال وبسقوط لجنة ملنر ، وما لبثت المظاهرات أن عمت أرجاء القطر من جديد متسمة بطابع العنف الذى اتسمت به الثورة منذ بدايتها . مما أدى الى ازدياد

عـدد الضحـايا ·

ووصلت لجنة ملنر فى ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩ الى بور سـعيد ، ثم انتقلت بقطار خاص الى القاهرة يتقدمه قطار كشاف لحراسته ، كما تحرسه أيضا خمس طائرات حربية ·· وكان اجماع الشعب بكل طوائفه وطبقاته رائعا فى مقاطعة هذه اللجنة · ولم تجد محاولاتها فتيلا للتحدث الى المصريين أو الاتصال بهم أو حتى بقادة الرأى من الرسميين الذين وجدوا لانفسهم مخرجا من الاتصال باللجنة بحجة ان سبيل الاتصال الوحيد بالمصريين هو عن طريق وفد مصر برياسة سعد زغلول والمقيم فى باريس ، ومن المستحيل أن يكون هناك اتصال ما بأية هيئة أخرى عداه · ونتيجة لهذه المقاطعة أبحرت اللجنة الى انجلترا فى مارس سنة ١٩٢٠ ، وهكذا عاد ملنر الى انجلترا وهو يؤمن بأن لا سبيل للتفاهم وبحث المسألة المصرية الا مع الوفد المصرى ، وان لم يشأ أن يدلى برأيه علنا وهو فى مصر حتى لا ينقص من هيبة أو كبرياء الامبراطورية فى النزول على رغبة المصريين (١) ·

وفى محاولة ضرب الوحدة الوطنية ، عمد اللورد اللنبى الى تكليف احد المسيحيين المصريين بتأليف الوزارة فى تلك اللحظات التى اجمعت الأمة رأيها فيها على مقاطعة لجنة ملنر ، وقصد الانجليز من ذلك ضرب الحركة فى أقوى مراكزها ألا وهى وحدة الامة ، تلك الوحدة التى كانت من اروع مظاهر ثورة سنة ١٩١٩ ، ورد المصريون على ذلك بأن عينوا أحد المسيحيين رئيسا بالنيابة للجنة التى كانت تتولى تنظيم الحركة الوطنية · وفى رسالة من عبد الرحمن فهمى الى سعد زغلول فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٩ جاء فيها : « لقد أراد الانجليز باسناد مركز الرئاسة الى يوسف وهبه باشا معللين النفس أن يكون هذا سببا من أسباب نفور العلائق بين عنصرى الامة الأصليين ، ولذلك اجمعنا رأينا على اختيار قبطى تسند اليه مركز الوكيل ليترأس اللجنة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى — ثورة سنة ١٩١٩ ج ٢ ص ٩٦ ·

رادين بذلك كيد المتسلطين الى نحرهم ولنثبت لهم ان هذه السفاسف اصبحت بعيدة عن افكارنا ، وان مبادئنا وطلباتنا القومية لا يمكن ان يقف امامها اى عائق » كما اسرع قادة الحركة الوطنية باتخاذ الكنيسة المرقسية مركزا من مراكز الثورة ٠

وفشلت مناورات الانجليز فى وضع يوسف وهبه فى الوزارة فى تحقيق آمالهم ، كما فشلت مناورتهم ايضا فى تألف حزب جديد مهمته مقابلة لجنة ملنر يتألف من بعض المرتبطين بهم والمعادين للحركة الوطنية ٠

وما أن وصل ملنر الى بلاده حتى اتصل بالوفد المصرى فى باريس وابلغه رغبته فى مفاوضته دون قيد او شرط ٠ وكان سعد زغلول هو الشخص الوحيد فى مصر الذى يستطيع الاتصال باللجنة دون ان يعتبر خائنا ٠

واذا كانت لجنة ملنر قد فشلت فى القاهرة ، فان فشل الوفد المصرى فى باريس اضطره الى قبول مفاوضتها بعد عودتها الى لندن (١)

قام الوفد اذا بتلبية دعوة ملنر لاجراء المفاوضات ، وخلال مجرى المفاوضات اعلن سعد انه غير قادر على الموافقة على اية مقترحات دون استشارة الراى العام فى مصر ، وبناء على ذلك وضعت مذكرة تحتوى على رؤوس الموضوعات التى ستكون بريطانيا مستعدة للمفاوضة على اساسها من اجل عقد معاهدة ٠ وعندئذ غادر لندن اربعة من اعضاء الوفد الى مصر ومعهم المذكرة لعرضها على الراى العام الوطنى ٠
وكان من المتفق عليه ان تنص المعاهدة المرجوة على النقاط الآتية :

١ ـ حق مصر فى ان يكون لها تمثيل سياسى فى البلاد الأجنبيه ٠

٢ ـ حق انجلترا فى ان تبقى قوات على الأراضى المصرية ٠

---

(١) John Marlowe, op. cit., p. 241.

٣ - موافقة انجلترا على اختيار مستشار مالى .

٤ - موافقة انجلترا على اختيار مستشار قضائى .

٥ - حق انجلترا فى التدخل لحماية الاجانب من تطبيق القوانين التى كانت الامتيازات الاجنبية تحتم موافقة الاجانب عليها .

٦ - ان يكون لممثل انجلترا مركز خاص فى البلاد .

٧ - موافقة انجلترا على انهاء خدمات الموظفين الانجليز والأجانب خلال عامين من تطبيق المعاهدة (١) .

ارسل سعد مشروع الاتفاق الى الأمة كما ذكرنا ، كما ارسل بيانا ذكر فيه انه مع اعتقاده ان المشروع غير واف بالمطالب المصرية الا انه « يشتمل على مزايا لا يستهان بها » وان زملاءه فى المفاوضة لم يشاءوا رفضه على اعتبار ان الظروف الدولية قد تغيرت ، وان مصر لم يشاءوا رفضه على اعتبار أن الظروف الدولية قد تغيرت ، وأن مصر على الهيئات اصر الحزب الوطنى على رفضه رفضا تاما ، ولكن الاتجاه العام كان اميل الى قبوله بعد تعديله على أساس « تحفظات » تحد من تدخل انجلترا فى شئون مصر بعد عقد المعاهدة ، ويلغى كل ما تشتمل عليه من تقييد استقلال مصر بمجرد زوال الاسباب الداعية الى ذلك .

ورفضت لجنة ملنر هذه التعديلات على اعتبار انها فتح لباب المفاوضات من جديد وتمسك الوفد بعدم الدخول فى المفاوضات الا على أساس التحفظات التى ابدتها الامة ، لأن المفاوضين المصريين شاءوا الا ينتحروا على تعبير سعد نفسه ، وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد . وعاد اعضاء الوفد الى باريس حيث لم تلبث ان نشبت بينهم الخلافات التى تطورت الى ما لا تحمد عقباه وتركت انطباعاتها السيئة على الحياة السياسية المصرية .

---

(١) John Marlowe, op. cit., pp. 242-243.

على أن الحكومة الانجليزية لم تشأ أن تتوقف المفاوضات عند الحد الذى انتهت اليه ومن ثم طلبت من المندوب السامى فى مصر فى يناير سنة ١٩٢١ أن يبذل جهده لارسال وفد مصرى الى لندن للمفاوضه حول شروط المعاهدة ، فأجاب اللورد اللنبى أنه من الصعب تكوين وفد دون تصريح خاص عن نوايا الحكومة البريطانية من أن الحماية يجب أن تحل محلها معاهدة تحالف . وفى ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١ أبلغت الحكومة البريطانية السلطان فؤاد برغبتها فى تبادل الآراء حول اقتراحات ملنر مع وفد يعينه السلطان للوصول الى استبدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الانجليزية ، وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الاجنبية ، وتطابق الامانى المشروعة لمصر والشعب المصرى . وفى منتصف مارس عرضت الوزارة على عدلى فقبلها على أن يكون هدفه المباشر استئناف المفاوضات .

وبتشكيل وزارة عدلى بدأ الانقسام فى صفوف المصريين ، وهكذا ابتعدت الحركة القومية عن اهدافها ، ودخلت المسألة المصرية فى غمار المنازعات والخصومات الشخصية . وثار الخلاف بين سعد وعدلى على رياسة وفد المفاوضات ، وظلت معركة المهاترة محتدمة بين الوزارة وسعد قرابة شهرين ، انقسمت الامة أثناءهما الى سعديين وعدليين ، ولما كان سعد أقرب الى قلوب الجماهير ، بينما عدلى وزملاؤه تنفصل بينهم وبين الشعب حواجز عدة فقد كسب سعد الجولة وعنت اليه قلوب عامة المصريين ، ولكن يعاب عليه اسرافه فى الخصومة ، ولما كان هو معبود الجماهير وشيخ الساسة المصريين لجيل كامل ، فبامكاننا أن نحمله مسئولية قدر كبير مما شاب السياسة المصرية على يديه من اسفاف كانت له آثاره الوخيمة على الحركة الوطنية .

وأخطأ عدلى فى الاخر فى السفر مع وفد مفاوضات الى لندن فى هذا الجو المشحون بالخلاف ، وتمادى سعد فى خصومته ، فأرسل مكرم عبيد وحامد محمود الى انجلترا لنشر الدعاية فى الصحف الانجليزية ضد المفاوضين المصريين ، وتزويد اعضاء البرلمان الانجليزى بمعلومات تحرج مركز عدلى تقصد اثارتها فى المناقشات البرلمانية . ثم لم يلبث

سعد أن دعا اعضاء البرلمان الانجليزى من العمال للحضور الى مصر والنزول فى ضيافته حتى يتأكدوا من التفاف الشعب حوله (١) ٠

وكان لا بد من فشل مفاوضات عدلى - كيرزون فى هذا الظروف ، فقد استغل الانجليز الخلاف الناشب بين سعد وعدلى واسنطروا فى شروطهم ٠ وكان من الطبيعى ان تنقسم الامة الى سعديين وعدليين ، ولم يتردد سعد فى أن يصف عدلى وزملاءه من اعضاء التفاوض بأنهم « برادع الانجليز » وترددت الهتافات بأن الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى ٠

وقد استقال عدلى بعد رجوعه من لندن ، وفى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ اعتقل سعد زغلول وبعض صحبه ونفوا الى عدن ومنها الى سيشل ٠ وبقيت البلاد بدون وزارة قرابة شهرين حتى وافق عبد الخالق ثروت على قبول الوزارة بشرط أن تعترف بريطانيا بمصر كدولة مستقلة (٢) وانشا برلمان ، وان يستبدل بالموظفين الاجانب موظفين مصريون ورفع الاحكام العرفية والدخول فى مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان لحل مسألة السودان ٠

أصبح الطريق ممتوحا حينذاك امام الحكومة البريطانية لاعلان انهاء الحماية والتمهيد للحكم الدستورى طبقا للتعهدات المعطاة لعبد الخالق ثروت ٠

وبعد نفى سعد زغلول ، كانت أمام المندوب السامى مشكلة كبرى تتوم على اقناع الحكومة البريطانية بتقبل جميع النتائج السابقة ، وبعد تبادل البرقيات - التى فى احداها عرض اللنبى استقالته - غادر المندوب السامى مصر الى انجلترا لتوضيح الموقف شخصيا لحكومته ٠ وفى آخر فبراير عاد اللنبى الى مصر بعد أن استخلص من الحكومة البريطانية تصريحا وضع نهاية رسمية للحماية وجاء فى تصريح ٢٨ فبراير سنة

---

(١) لمزيد من التفصيلات انظر ٠ د ٠ احمد عبد الرحيم مصطفى - المصدر السابق ص ١٢٤ - ١٣١ ٠

(٢) John Marlowe, op. cit., p. 246.

١٩٢٢ : « حيث أن حكومة جلالة الملك وطبقا لنواياها التى أعلنتها ترغب فورا فى الاعتراف بمصر دولة مستقلة - ذات سيادة وحيث أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك ومصر أهمية عظمى للامبراطورية لذلك تعلن المبادىء الآتية :

١ - انتهاء الحماية البريطانية على مصر ، وتعلن مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٢ - انهاء الاحكام العرفية التى أعلنت فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ .

٣ - والى ان يحين الوقت الذى يتسنى فيه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فى الامور الآتي بيانها بالمفاوضات الودية بين الفريقين تحتفظ حكومة جلالة الملك بتولى هذه الامور بصورة مطلقة :

(أ) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر ضد اى عدوان أجنبى او التدخل المباشر وغير المباشر .

(جـ) حماية المصالح الاجنبية وحماية الاقليات .

(د) السودان .

وحتى تبرم هذه الاتفاقات بظل الحال فيما يتعلق بهذه الامور على ما هو عليه الآن » .

والف عبد الخالق وزارته فى اول مارس سنة ١٩٢٢ ، وبعد ذلك تالفت لجنة برياسة حسين رشدى لوضع الدستور ، ونتيجة للخلاف بين ثروت من ناحية والقصر والانجليز من ناحية أخرى قدم رئيس الوزراء استقالته وخلفه نسيم فى رياسة الوزارة . وفى ابريل عام ١٩٢٣ صدر الامر الملكى بالدستور فى عهد وزارة يحيى ابراهيم بعد أن افرجت الحكومة البريطانية عن سعد وصحبه (١) .

---

(١) جاد طه - المصدر السابق ص ٩٥ - ٩٦ .

وهكذا وعلى حد قول الرئيس جمال عبد الناصر « ... ضاعت ثورة سنة ١٩١٩ ولم تستطع ان تحقق النتائج التى كان يجب ان تحققها ، الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها افرادا وطبقات ، وكانت النتيجة فشلا كبيرا ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة أو بصنائع الاحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ولم يحصد الشعب الا الشكوك فى نفسه ، والكراهية والبغضاء والاحقاد فيما بين أفراده وطبقاته ، وشحب الامل الذى كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩ (١) . ان ثورة سنة ١٩١٩ ألتى ولدت لجلاء المستعمرين عن أرض الوطن ترضى بدستور ١٩٢٣ بديلا عن اهدافها الكبرى .

تقييم ثورة ١٩١٩ :

اذا كانت ثورة ١٩١٩ قد وقفت عند ذلك الحد من اصدار تصريح ٢٨ فبراير أو وضع دستور شكلى للبلاد ، فانه من الانصاف أن نعرض لبعض النواحى التى تميزت بها تلك الثورة وهى :

١ - كانت ثورة ١٩١٩ اول حركة ثورية فى مصر تتخذ طابعا عنيفا منذ ثورة عرابى ، فقد تميزت الحركة الوطنية منذ الاحتلال حتى قيام ثورة ١٩١٩ باقتصارها على الوسائل السلمية التى شملت برامج الاحزاب السياسية او عقد الاجتماعات والقاء الخطب وكتابة المقالات أو الدعاية للقضية الوطنية فى أوربا ، ولكن لجأ المصريون فى ثورة ١٩١٩ الى اسلوب جديد تميز بالعنف والثورة لتحقيق الاهداف .

٢ - اجبرت الثورة بريطانيا على ان تسلم للمصريين بحق المفاوضة معها رأسا بينما كانت قبل ذلك لا تأبه بالمصريين ، وتقرر وضعها فى مصر عن طريق التفاوض مع الدول الاجنبية .

---

(١) جمال عبد الناصر - فلسفة الثورة ص ٢٨ .

٣ - كانت الثورة سببا فى التقاء الشعب بكل طوائفه وطبقاته على هدف واحد ، ومن ثم كانت الثورة سبيلا الى الوحدة الوطنية .

٤ - تميزت ثورة ١٩١٩ بانها مست بعض النواحى الاجتماعية فقد خرجت المراة المصريه فى مظاهرات ١٩١٩ ، ١٩٢٠ مما دفع بقضية تحرير المراة دفعة قويه الى الامام وبدات تدخل فى مجال الحياة العامة .

٥ - اسفرت ثورة ١٩١٩ من الناحية الاقتصادية عن اهم حدث اقتصادى فى تاريخ مصر حينذاك وهو انشاء بنك مصر ، وقد تاسس البنك باسهم اسمية لا يحملها سوى المصريين ، وكان ضربة للاحتكارات الاجنبية .

٦ - لقد اثرت ثورة ١٩١٩ فيما يلى مصر من البلاد العربية ، فقد كانت اول ثورة تقوم فى بلد عربى ضد الاستعمار الاجنبى هذا على الرغم من انه لم يكن لتلك الثورة برنامج واضح نحو التعاون مع الحركات الثورية فى غير مصر من البلاد العربية .

٧ - ساعدت ثورة ١٩١٩ على نمو الطاقة العاملة ، فقد تالفت بعد الثورة الكثير من النقابات العمالية التى اسهمت به بدور كبير فى حركات الكفاح الوطنى .

هذه هى الجوانب التى للثورة ، اما ما ناخذه على ثورة ١٩١٩ ، هى انها بدات والبلاد متماسكة الصفوف ، ثم لم يلبث ان دب الشقاق وتكونت فى البلاد احزاب عديدة لا برامج ولا اهداف لها ، وقد تكونت هذه الاحزاب نتيجة لنازعات شخصية ، فاصبحت عبارة عن جماعات ملتفة حول اشخاص لاهم لهم سوى الوصول الى الحكم بأية وسيلة .

٢ - لقد كان من نتائج ثورة سنة ١٩١٩ حقيقة اصدار دستور ١٩٢٣ ، الا أن هذا الدستور كان دستورا شكليا ، وليست العبرة باصدار الدساتير ، ولكن بالروح التى تنفذ بها ، فلم يحدث لاى برلمان أن أكمل دورته البرلمانية . وعلى الرغم من ان صدور الدستور كان يعتبر خطوة تقدمية

هامـة ، الا أن الشعب لـم يستفـد منه شيئا ، بـل استفـاد منه الانجليز ، لانهم خرجوا من المعركـة التى كانت بينهم وبين الشعب مباشرة ، وبداوا من الخلف يراقبون مجرى الامور ، اى انهم بمعنى آخـر تحولوا من اسلوب الحكم المباشر الى اسلوب الحكم غير المباشر • كمـا استفادت العناصر الجديدة التى كانت تتطلع الى الحكم والى كراسى النيابة فى مجالس النواب والشيوخ أو مناصب الوزارة ، كمـا استفاد الاقطـاع بتثبيت حقـــوق الملكيـة الخاصـة ، واعطائهـا قداسـة دستوريـة تمكنهـا من ممارســة الاستغلال ، والذى لـم يستفد من هـذا الدستور هو الشعب الذى لم يتحقق له شىء بالرغم من انه هو صاحب الثورة وصانعهـا • ومنذ اصدار الدستور سنة ١٩٢٣ حتى عـام ١٩٥٢ لـم يتح للشعب أن يختار حكومـة شعبية منتخبة الا لفترات قصيرة لا تتجاوز فى مجموعهـا ثمانى سنوات ، أمـا المدة الباقيـة فكانت تحكمه خلالهـا أحزاب الاقلية عن طريق تعطيل الدستور أو حتى الغائه أو تزييف الانتخابات •

الفصل الثامن

تطور مصر ١٩٢٢-١٩٥٢

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

ظلت مصر رغم اندلاع ثورة ١٩١٩ تحت الحماية البريطانية ، ورغم حوادث العنف والاغتيال والمظاهرات ومقاطعة البضائع البريطانية ، ورغم الانقسامات داخل حزب الوفد نفسه ، فقد ظل الاحتلال والقصر الملكى هما المسيطرين على الموقف لقوة الوسائل التى يمتلكها الطرفان فى ذلك الوقت . فالقدرة على القمع بالنسبة للاحتلال والقصر كانت أكثر فاعلية من حركة الجماهير .

وضع نهاية عام ١٩٢١ ظلت مصر بلا وزارة أكثر من شهرين الى أن فوتح عبد الخالق ثروت فى مهمة تأليفها ، فاشترط لقبولها عدة شروط .

لقد كان صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ثمرة للاتصالات التى أجراها ثروت وزميله صدقى مع السلطات البريطانية فى مصر ، وان كان الاساس فى ذلك يعود الى فكرة طرحها عدلى على كيرزون فى الجلسات الأخيرة من مفاوضتهما وهى أن تسلم انجلترا لمصر بالحقوق التى ابدت استعدادها لأن تسلم لها بها ، وعلى أن يعلق ما بقى من خلاف بين الدولتين لمفاوضات مماثلة ، على أن عدلى وان كان لم يتلق من كيرزون ما يفيد قبولها ، فانه قام بابلاغها الى السلطان وزميله ثروت بعد رجوعه مصر ، فكان أن اقتنع بها الأخير اللنبى وبأنها وحدها سفرة النجاة لمصر وانجلترا من موقف يتعذر الحكم بما يتمخض عنه من نتائج ، اذا لم يعالج بالحكمة والسياسة وبالتسامح من جانب بريطانيا (١) .

---

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، جـ ١ ص ص ١٢٧ - ١٢٨ .

وليس هناك من شك فى أن ما ساعد على اقتنـــاع اللنبي والمستشارين الانجليز فى الحكومة المصرية هـو ما لمسـوه من أعراض المستوزرين عن تولى الوزارة الجديدة تحقيقا لما طالبتهم به الأمة ، مما جعل البلاد تبقى بغير وزارة مدة تزيد على شهرين ، حكمت فيها بريطانيا حكما مباشرا تحت ظل الأحـكام العـرفية ، وتحملت بالتالى المســئولية عن أعمال رجال الوفـد وضربات الفدائيين (١) • وفضلا عن ذلك نرى أن تعرض حياة الموظفين الانجليز فى مصر للخطر كان فى حد ذاته يضعف مركز بريطانيا فى مصر أمام الدول ، اذ يدل على عجزها عن حماية أرواح رعاياها فى مصر ، فما بال يكون الامر فيما يتعلق بأرواح الاجانب (٢) ، يضاف الى ذلك أن السلطات البريطانية فى مصر ، قد رأت أن الأعراض عن الوزارة بعد استقالة عدلى بضغط الوطنيين قد امتد ليشمل بعض الزعامات المعتدلة ، فضلا عن رفض عدلى الاستمرار فى الوزارة بعـد فشله فى مفاوضاته مع كيرزون • أعرض ثروت فى بادىء الامر عن قبول تشكيل الوزارة بعد ان كانت السلطات البريطانية قد نفت ســعد زغلول ، ليخلى له السبيل لتحقيق هذه الغاية ، اذ يذكر ابراهيم الهلباوى فى ذلك أن الانجليز قد نفوا سعد زغلول مرة ثانية الى جزائر سيشل مع ثمانية من أصحابه ، ثم نقلوه وحده الى جبل طارق ، ليسعى صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا لان يشكل وزارة ، فرفض بتاتا وبعد الحاح متكرر ، وتوالى الايام والاسابيع والاشهر عرض شروطا لقبوله الوزارة (٣) • على أن ما نراه هنا أنه اذا كان ثروت قـد رفض فى بادىء الامـر عرض تشكيل الوزارة تحت وطـأة ذلك الضغط الشعبى المناوىء لتشكيل وزارة ، الا أن هـذا الاباء لم يطل به طويلا ، على نحو ما يستفاد من الذى ذكره الهلباوى ، بل ان الامر كان معدا لتوليه الوزارة خلفا لعدلى فاذا كان الاخير قد قدم استقالته فى ٨ ديسمبر ، فقد كان الراجح أن خلفه ثروت ، وقد يتأكـد ذلك من تلك البرقية التى بعث بها اللنبى الى كيرزون يشير فيها الى حديث دار له مع عدلى فى ٧ ديســمبر ١٩٢١ بخصوص اعتزام الاخير تقديم استقالته الى السلطان ، وفى اليوم التالى

---

(١) حسين مؤنس : دراسات فى ثورة ١٩١٩ مسلســل اقرأ ع ٤١٨ - دار المعـــارف ١٩٧٦ ص ٢٧٦ •

(٢) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ •

(٣) مذكرات ابراهيم الهلباوى ، ص ٤٧٠ •

لهذا الحديث عرض السلطان فى هذه الحاله رياسة الوزارة على ثروت ، والذى يقول عنه أنه كان يعانى من صعوبة من حيث البرنامج الذى يستطيع أن يتولى هذا المنصب ويؤلف الوزارة (١) • أى أن الاستعداد - كما هو واضح - كان موجودا لدى ثروت ، ولكن كان البرنامج الذى يمكنه من تولى المنصب ، هو وجه الصعوبة الوحيد ، ولعل مسألة القاوت العسكرية البريطانية ، ووضع البريطانيين والأجانب فى مصر ، كانت أهم ما يواجهه من عقبات فى سبيل تقديم برنامج يقوم من خلاله بتشكيل الوزارة ، وهو ما قد يتبين مما تذكره جريدة الاجيبسيان مايل فى برقية لمراسل التيمس بالقاهرة والتى يقول فيها « ان ثروت واصدقاءه لا يطلبون الآن تغييرا فى الموقف العسكرى ، أو فى الوضع الحالى للبريطانيين والأجانب فى مصر ، لأنهم يعلمون أنه ليس فى استطاعتهم اعطاء ضمانات يمكن أن ينفذها الشعب المصرى ، اذ أن سعد زغلول باشا نفسه فى عام ١٩٢٠ حينما تحدث من منطلق الشرعية التى كانت له ، شعر بانه غير متيقن من امكان قبول الشعب المصرى مقترحات لورد ملنر » (٢) ، على أن مشروع كيرزون كما وضع كان على ما يبدو أهم تلك العقبات ، اذ صرح ثروت لوفد من الطلبة بأنه لن يوافق على الاطلاق على مشروع كيرزون كما هو قائم ، ولقد رأت جريدة الاجيبسيان جازيت التى وردت ذلك بأنه كان يتطلع الى ضمان تعديلات مرضية وتضيف بأنه تبعا للشائعات المستقاة من دوائر سياسية وطنية ، فانه يود الغاء الحماية فعلا واقامة برلمان للبلاد (٣) •

وعلى أية حال فان الامر لم يطل بثروت أمام ما كان يواجهه من صعوبات فيما يتعلق ببرنامج وزارته ، اذ لم يلبث ان عرض عليه اللنبى فى ١١ ديسمبر البرنامج الذى صرح باستعداده لتولى الوزارة بناء عليه • ولقد كانت النقطة الجوهرية فيما يقترح من الخطة السياسية كما يشير اليها اللنبى فى برقية بعث بها الى كيرزون كالتالى :

(١) 407 /191, No. Allenby to Curzon, December 7, 1921. Tel. No. 659, p. 80

(٢) The Egyptian Mail, No. 2870, February 20 th. 1922, p. 7.

(٣) The Egyptian Gazette 42nd Year, No. 120274, December 19, 1921, p.3

١ ـ الاقتصار من مذكرة ١٠ نوفمبر التى سلمت الى الوفد المصرى الرسمى على تعهد الحكومة البرطانية بانهاء الحمـــاية والاعتراف بمصر كدولة ذات سيادة ، ومع عدم استطاعة قبول المذكرة أو الاشـــارة على البلاد بقبولها ، فسيكون هم الوزارة معتمدة فى ذلك على موقف البلاد ـ أن تثبت لبريطانيا العظمى أن لا حـــاجة بها الى زيادة الضمانات ، أو كثرتها ، اذ كان حســن نيـــة مصر ومصلحتها التى تتطلب لحترام التعهدات المقدمة ، هى خـــير الضمانات للمصالح البريطانية والاجنبية الاخرى •

٢ ـ ولهذا الغرض تعتمـــــد الوزارة ـ ليس فقط على عـــدل القضية الوطنية ـ بل كذلك على روح الانصاف بين الامم البريطانية ، وعلى التقدير العادل للمصالح المتبادلة بين البلدين •

٣ ـ والوزارة مقتنعة بأنه لن يكون ثمة عقبة فى المســتقبل القريب فى سبيل اعادة النظام العادى فى مصر ، الذى يسمح بمنح دستور البلاد ، بضمن التعاون الجدى والفعال بين الحكومة وممثلى البلاد المنتخبين •

وتنوى الوزارة بفضـــل تاييد عظمتكم أن تضـــع مشروعا للاصـــلاح الدستورى ، لكى تعتمد فى مهمتها السياسية على تمثيل وطنى صحيح ، وتقوم سلسلة من الاصطلاحات الضرورية •

٤ ـ ترى الوزارة أنه قد حان الوقت لاعادة وزارة الخارجية التى عطلتها ظروف الحـــرب مؤقتا •

٥ ـ واخيرا ، لما كانت الوزارة تدرك التبعية المترتبة على مهمتها ، فستقف نفسها على حمل ذلك العبء وادارة شئون البلاد وفق ما تقتضيه المصالح الوطنية وحـــدها •

٦ ـ واذا كانت الوزارة تعلم من عظمتكم النيات التى تنطوون عليها لخير البلاد ، فهى لا ترتاب فى انها ستلقى من عظمتكم التأييد فى انفاذ هذا البرنامج وهى تعول كذلك على ثقة البلاد فى مهمة كهذه تدرك كل صعوباتها (١)

---

(١) F.O. 407/191, No. 45, Allenby to Curzon, December 12, Tel. No. 665, pp. 93,94.

الكتاب الأبيض (الانجليزى) ص ١٤ ـ ١٦ • ترجمة ابراهيم المازنى. الطبعة الأولى ١٩٢٢ •

واذا كان ثروت قد جعل الاساس الاول لهذا البرنامج الغاء الحماية واعلان الاستقلال ، الا انه وعلى الرغم من أن مشروع كيرزون قد سمح بهما ، قد حاول أن يجعل من ذلك المطلب أمرا مقبولا للحكومة البريطانية ، وهو ما يتبين مما يذكره اللنبى عن النقطة الأولى من برنامجه من أنه « يرجو أن تجد حكومة جلالة الملك طريقة لالغاء الحماية فى المستقبل القريب ، وان كان لا ينتظر أن تفعل هذا حالا » • وكذلك فيما يتعلق بالنقطة الرابعة لم يبد أى اعتراض على تعيين من يخلف المستر كريج فى وزارة الخارجية ، ولا على أن تكون العلاقات بين الحكومة المصرية وممثل حكومة جلالة الملك على النحو الذى كانت عليه بينها وبين المعتمدين البريطانيين قبل الحرب (١) •

ولقد كان ثروت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة - وعلى نحو ما يرى احد الأقوال - على استعداد لقبول ظل من الاستقلال ، وذلك بالعودة للوضع الذى كان سائدا فى العلاقات الانجليزية المصرية المبكرة • ورأى أن فى ذلك يكمن الخلاف الجوهرى بين رؤية سعد زغلول لاستقلال مصر ، كما تطورت بعد عام ١٩٢٠ ، وتلك التى كانت للمعتدلين ، كما مثلت من خلال ثروت ، اذ كان الأول يرغب فى رؤية مصر حرة فى ادارة شئونها الداخلية والخارجية ، بدون أى تدخل من بريطانيا (٢) • على أن ثروت كان يرى مع ذلك أن هناك ما يشوب برنامجه اذ يذكر اللنبى أنه (ثروت) كان واثقا من استطاعته تاليف وزارة على قاعدته ، ويصر على أن توافق عليه حكومة جلالة الملك مقدما (٣) • فكان أن جاء رأى هذه الحكومة بالموافقة ، على أن كيرزون طلب الى اللنبى - فيما يتعلق بالنقطة الأولى ، تفاديا من كل سوء تفاهم - ملاحظة أن الحكومة البريطانية لم تقدم تعهدا بالغاء الحماية والاعتراف بمصر كدولة ذات سيادة ، وانما عرضت فقط انتهاج هذا السبيل باعتبار ذلك جزءا من مساومة رفضها الطرف الاخر (٤) • ولعل هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية فى مسالة الحماية ، من عدم اتخاذ قرار فعال فى شأن الغائها ، قد

---

(١) الكتاب الأبيض ، المصدر السابق ، نفس الصفحات •

(٢) Zayid, M., Egypt Struggle for Independence, p. 106.

(٣) الكتاب الأبيض ، المرجع السابق ، نفس الصفحات •

(٤) الكتاب الأبيض الانجليزى ، المصدر السابق ، ص ١٧ •

يتسر قبولها ما اقترحه عدلى من طريقة توصل الى الغاية المقصودة . من وراء مشروعهما ، دون ن تتعرض للمسئولية عنه ، ان لم تكن بأزيد منه (١) ' . ى أنه لم يكن هناك ما يضيرها من وراء انتهاجها هذا السبيل ، بل انها ـ وكما رأينا ـ كانت حريصية على اعفاء نفسها من أى تعهد يلزمها .

وعلى أى حال يمكننا القول أن ثروت قد مضى فى اتصالاته من اجل تشكيل وزارة جديدة ، وكان الهدف الاساسى له هو أن يكسب لبلاده شروط معينة يحدد بها موقف السياسة البريطانية من القضية الوطنية تحديدا صريحا . وان كانت هذه الشروط قد نظر اليها من جانب متطرفى الوفد على أنها مساومة غادرة بين الانجليز والسلطان وثروت باشا (٢) .

وكانت الشروط كالتالى :

أولا : عدم قبول مشروع كيرزون والمذكرة التفسيرية الملحقة .

ثانيا : تصريح الحكومة البريطانية بالغاء الحماية ، والاعتراف باستقلال مصر بداءة ذى بدء .

ثالثا : اعادة وزارة الخارجية وتمثيل خارجى من سفراء وقناصل .

رابعا : انشاء برلمان من هيئتين (مجلس نواب ومجلس شيوخ) تكون له السلطة العامة على أعمال الحكومة وتكون الحكومة مسئولة أمامه .

خامسا : اطلاق يد الحكومة بلا مشارك فى جميع أعمال الحكومة .

سادسا : لا يكون للمستشارين فى الوزارات الا رأى استشارى ، وأن يبطل ما للمستشار المالى من حق حضور جلسات مجلس الوزراء .

سابعا حذف وظائف المستشارين ما عدا مستشار المالية ومستشار الحقانية ، فانهما يظلان الى ما بعد ظهور نتيجة المفاوضات الجديدة .

---

(١) مذكرات سعد زغلول محفظة ٥ كراس ٤٩ ، ص ٢٨٢١ ـ ٢٨٢٢ .

(٢) Richmond, Egypt 1798- 1952, Her Advance towards. a Modern identity, Great Britain, 1977, p. 186.

ثامنا : استبدال الموظفين الأجانب بموظفين مصريين وأخذ العدة من الآن لتعيين وكلاء مصريين للوزارات (المالية ، والصحة ، والزراعة ، والأشغال ، والمواصلات ، والخارجية) ٠

تاسعا : رفع الأحكام العسكرية ، والسعى من جانب الوزارة اعتمادا على حسن موقف الأمة ، فى سحب كل ما اتخذ من الاجراءات بمقتضى الأحكام العرفية ، بما فى ذلك فك اعتقال المعتقلين واعادة المبعدين ٠

عاشرا : الدخول فى مفاوضات جديدة بعد تشكيل البرلمان مع الحكومة الانجليزية بواسطة هيئة يعتمدها البرلمان ، للنظر فيما لا يتنافى مع استقلال البلاد ، من الضمانات لانجلترا والاجانب ولحل مسألة السودان ، بشرط الا تكون هذه المفاوضات مقيدة بقيد أو شرط مما جاء فى مشروع كيرزون ، ويكون القول الفصل فى ذلك للأمة الممثلة ببرلمانها ٠

حادى عشر : يكون قبول هذه الشروط ثابتا بمقتضى وثائق مكتوبة من الحروف الانجليزية (١)

ولقد كان وضع ثروت لشروط لتاليف الوزارة ، واشتراط قبولها قبل أن يؤلفها كما يقول الرافعى ، سنة حميدة تدل على التقدم السياسى فى ولاية الحكم ، اذ كانت الوزارات فى عهد الاحتلال والحمايه بل وفى عهد الثورة تؤلف غالبا بغير برنامج ، لمجرد الرغبه فى تولى الحكم ، والتهافت على المناصب ، مما يجعل اشتراط ثروت أن يكون لوزارته برنامج يتقيد به ، ويضمن تحقيقه فى ذاته عمل محمود ، وهو الذى تمثل فيه بخطة عدلى ، اذ كان قد سبقه الى وضع برنامج لوزارته قبل أن يؤلفها (٢) ٠ على أن أحد مصادرنا يطالعنا بما يفيد أن شروط ثروت هى من وضع بريطانيا ، اذ يقول فى ذلك أن الانجليز قالو أنهم هم الذين استدرجوا « المعتدلين » الى هذه الشروط التى يؤلف أحدهم (ثروت) ، على أساسها الوزارة (٣) ٠

---

(١) الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ، حـ ١ ص ٤٠ ـ ٤١ ٠

(٢) المرجع السابق ، والصفحة ٠

(٣) محمد صبيح : كفاح شعب مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ص ٦٤٩ ٠

ويشير آخر بما يقترب من نفس المعنى حين يذكر أن الشروط التى اشترطها ثروت تكشف عن مدى استعداده للتعـاون مع الخطة البريطانية ، وأنه بذلك عبر « عن اتجاهاته السياسية ، بما يمثل محور تعبير الرجعية » (١) كذلك رأت جريدة الأمة فى صـدد تلك الشروط أن جملتها تعطى لانجلترا ما يعطيها مشروع ملنر ومشروع كيرزون ، من القواعد التى تصحح مركزها فى مصر (٢) . أما جـريدة وادى النيل فقـد لاحظت تأييد اللنبى للوزارة التى كان ثروت يشرع فى تأليفها ، وأن هذا التأييد كان مبنيا على الاتفاق فى الخطـة والغرض ، وإن غرض اللورد هو اقامة التسـوية على قـاعدة مشروع ملنر (٣) . على أن جريدة الاهرام قـد أطلت بنغمة مغايرة اذ قالت عن الشروط أنها شروط سياسى مصرى محنك ، مخلص لبلاده يريد بالفعل أن يصـل الى حل المسـألة المصرية حلا مرضيا اذ عدتها اقل شروط يمكن اشتراطها للمحافظة على كرامة مصر من غير أى مساس بشرف بريطانيـا العظمى وكرامتها (٤) .

وفى صـدد شروطه ، نفى ثروت فى حديث له مع أحد محررى جريـدة الليبرتيه ما قيل عن ابقائه بعض عباراتها طى الكتمان ، والذى أيده بعدم وجود مصلحة له فى ذلك . على أن ما أضافه يؤكد بالفعل صحة ما قيـل ، وهو ما يتبين من قوله أن « كل رجل سياسى يدرك أن التزام الكتمان التام كان أمرا لازما لنجاح المحادثات ، التى كنت قائما بها ، ولقد كنت أعلم أن هذا الكتمان يفرض لشكوك بعض الناس ولحماقة آخرين ، ولكن رغبتى الخالصة فى تحقيق أمانى بلادى جعلتنى أعرض نفسى لتلك الظنون ، ولا أبالى بالمخاطر ، أما الان فاننى أرى أنه قد حان الوقت لايقاف بنى وطنى على ثمار جهودى ولهم أن يحكموا بما يرون »

وعن سؤال للمحرر عن امكان التوفيق بين استقلال مصر التام وبين

---

(١) عبد العزيز رفاعى : ثورة مصر سنة ١٩١٩ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٢) الامة عدد ٥٧٠ ، فى ٥ فبراير ١٩٢٢ ، ص ٢ .
(٣) وادى النيل ، عدد ٣٧٩٩ ، ، فى ٣ فبراير ١٩٢٢ ، ص ٢ .
(٤) الاهرام : عدد ١٣٦٥٧ ، فى ٣١ يناير ١٩٢٢ ، ص ١ .

ابقاء الاحتلال ، أحال ثروت المحرر لرجال القانون (١) ، ولاحظ بما يفيد أن الدور الذى تعيشــه البلاد لا يعدو أن يكون دور انتقال « حتى تنتهى بنا المفاوضات الى ابرام اتفاق » ثم أضـاف الى ذلك قوله « ولا أخالك تجهل ان الاحتـــلال من الضمانات التى تطلبها بريطانيا العظمى للمحافظة على مصالحها ومصالح الاجانب . وقد رفضت صراحة أن أرتبط بأى التزام فيما يختص بهذه الضمانات أو بالضمانات الاخرى . واسترطت أن مســألة الضمانات بحذافيرهـا تكون محلا للمفاوضـــات بين الحكومة المصرية وبين بريطانيا العظمى ، وأن تكون الكلمة الاخيرة فى نتائج هذه المفاوضات للامة ولممثليهـــا » .

« وفوق هذا فاننى لم أتردد فى المجاهرة فى كل الاحاديث الرسمية ، بانه ليس من مصرى يسمح لنفسه أن يوقع اتفاقا يؤيد احتلال البلاد « اننى لما اشترطت انشـــاء برلمان مصرى تنتخبه الامة ، أوضحت بصورة واعية أن الغرض الذى أرى اليـه هو أن يكون هذا البرلمان مستقلا تمام الاستقلال ، وان تكون له الرقابة على الحكومة التى تكون مسئولة أمـامه » . « ومعنى هذا أن تكون حرية البرلمان فى العمل مطلقة من كل قيد ، وأن لا يكون خاضعا لأى نفـوذ اجنبى » .

ثم أشار فيما يتعلق بمسالة الامتيازات الى تضمنها مع المســائل التى تتناولهـا المفاوضـــات المقبلة ، وقال عن المذكرة البريطانية « امـــا ما يقولون من أنه يلوح أن المذكرة البريطانية الاخيرة صورة لا تكاد تختفى عن مشروع كيرزون ، فما شان هذه المذكرة اذا أجيبت شروطى ؟ : « أن مـا اطلبه صريح جلى ، ماذا سلمت وزارة الخارجية البريطانية فقد زال بذلك اثر المذكرة بطبيعة الحال » وعندى ان سفر اللورد اللنبى قد يؤثر فى السياسة الانكليزية فى مصر ، على ما اظن ، اذ أنه سافر الى لندن مدعوا لابداء رأيه فى الحـــالة الحاضره فى البـــلاد ، ويلوح لى ممـــا نبينته من احاديث فخامه المندوب السامى ، أنه يؤيد شروطى ، بل هو فى جانبى تماما ، ولكن لا يخفى

---

(١) اخذت جريدة الامة على ثروت ذلك وهو فى طليعة رجال القانون . الامة . عدد ٥٧٤ ، فى فبراير ١٩٢٢ ، ص ٥ .

عليك أن الكلمة الاخيرة فى هذا الشـــأن للندرة » (١) •

وعلى أى حــــال ، يمكننا القول أن ثروت كان مقتنعا تمام الاقتناع بشروطه ، ويرى فيها على ما بدا لنا السبيل الى الخروج من الازمة الوزاريه، اذ يذكر الهلباوى فى مذكراته أنه: قنع مستشـارى الوزرات الست بمهارته وحسن أساليبه السياسية ، وكانوا قد اتصـلوا به « بأنه لا يمكن اخضـــاع مصر وسير الحكم فيها على ما يرام بغير اجابة هذه الشروط ، فكان أن بذل أولئك المستشارون جهدهم فى اقناع اللورد اللنبى بصحة هذه السياســة التى يشير بها ثروت باشا ، وطلبوا اليه أن يكتب لوزارة الخارجية الانجليزية بقبولها • (٢) وحينما اقتنع اللنبى بذلك انرأى كتب لوزارة الخارجية التى أثار الحاحه فى القبول استغرا بها (٣) •

على أن يفسر موقف اللنبى قول أحمـد شفيق أنه لما رأى أن لا مناص له من الاعتماد على ثروت باشا دعمه وأيده (٤) ، هذا فى الوقت الذى كـان يرى فى شروط ثروت أقل ترضية للأمة المصرية فى ثورتهــا على الحمـاية والاحتلال » (٥) • وعلى أى حـال انتهى الامر بالخارجية البريطانية الى الخروج من جمودها وأن كانت قد ظلت فى تردد ، اذ طلبت من اللنبى ومن معه أن يضعوا الصيغة التى تعلن بها بريطانيا تصريحا من جانبها ، يحتفظ بكافة مصالحها الجوهرية ، وتبيح لحكومة مصرية أن تقوم بعد ان يتحقق لمصر شىء من مطالبها ، ثم يبقى البـــاب مفتوحا للتفاهم على ما تبقى من مطالب ، وكان كل من ثروت وصدقى على اتصال باللورد اللنبى ومن معه ، فكانا « يعـاونان فى وضــع الصيغة التى تخرج بمصر وبانجلترا من مأزق لم يكن له غير هذا المخرج ، الا أن تلجا انجلترا للقوة المسلحة ، وتعود من جديد لتجربة الوزارات الادارية التى اخفقت من قبل اخفاقا ذريعا » • على

(١) أحمد شفيق ، حوليات مصر السياسية ، تمهيد ٢ ، ص ٧٤٦ - ٧٤٩ •

(٢) مذكرات ابراهيم الهلباوى ، ص ٤٧١ •

(٣) المصــــدر الســـابق ، والصفحة •

(٤) أحمد شفيق ، المرجع السابق ، تمهيد ٣ ، ص ٧٠١ •

(٥) الرافعى : المرجع الســـابق ، ص ١٢ •

ان الخارجية البريطانية استمرت فى ترددها بعد أن كان قد تم الاتفاق بين اللنبى والمستشارين البريطانيين من ناحية ، وثروت باشا وصدقائه السياسيين من ناحية أخرى « على صبغة التصريح الذى تعلنه بريطانيا » وهنا سافر اللنبى الى لندن وقال لمن كانوا فى توديعه عند سفره : اذا لم أعد بالنتيجة التى اتفقنا عليها ، فلن أعود الى مصر » (١) • ولقد صحب اللنبى فى سفره الى لندن والذى كان فى ٣ فبراير ١٩٢٢ كل من مستشارى الداخلية والحقانية ، جنرال كلبتون وسير شلدون اموس ، وكانا يتفقان معه فى الراى بقبول شروط ثروت ، ثم كان أن قابل اللنبى فى لندن المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ، واللورد كرزون وزير خارجيتها ، وقد تم تباحثهم فى الاتجاه الذى تتخذه السياسة البريطانية تجاه مصر ، فكان أن انتهت مباحثاتهم الى قبول شروط ثروت واعلان التصريح المعروف فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ (٢) على أن مهمة اللنبى فى هذا السبيل لم تكن على ما بدا لنا بالمهمة السهلة ، وهو ما يتأكد لنا من قول محمد حسين هيكل أنه أى اللنبى قد بقى « أياما فى العاصمة البريطانية ، استطاع فى أثنائها أن يقنع وزارة الخارجية البريطانية » (٣) ولعل ما ساعد اللنبى فى مهمته ما كانت تخشاه لندن من مقاطعة التجارة البريطانية ، فيذكر الرافعى « أن التهديد بمقاطعة التجارة البريطانية ، كان له « الاثر الاكبر فى صدور هذا التصريح ، لأن هذا أزعج أقطاب التجارة والصناعة ورجال السياسة فى انجلترا ، وخشوا اذا عمت حركة المقاطعة أن تصاب التجارة والصناعة البريطانية بالبوار فى مصر ، فعمدوا الى التسليم لمصر ببعض حقوقها المغتصبة » (٤) وليس هناك شك فى أن كافة العوامل السابقة كانت دافعة ببريطانيا الى طريق يوصل الى حل للازمة القائمة فى البلاد ، وهو ما قد يتأكد من قول كارزون فى برقية أرسل بها الى اللنبى أن الحكومة أشد ما تكون رغبة فى الوصول الى حل سلمى للأزمة الحاضرة باقامة وزارة مصرية برياسة وزير له وطنية ثروت باشا ، واقتداره ، وهى لا ترى أن هذا يكون مستحيلا اذا كان رائد الاحزاب كلها فى عملها التقدير الواجب

---

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ •

(٣) الرافعى : المرجع السابق والصفحة •

(٤) محمد حسين هيكل نفس المرجع والصفحة •

(١) الرافعى : المرجع السابق ، ص ٤٣ •

لاحساسات الغير واعتقاداته ، ومع الرغبة الوطيدة فى ايجاد حل شريف لكل من مصر وبريطانيا العظمى على السواء (١) ٠

وجملة القول أن اللورد اللنبى حينما أنهى مهمته فى لندن غادرها فى ٢٢ فبراير ١٩٢٢ الى مصر ، فكان أن وصلها فى الثامن والعشرين فقابل السلطان عقب وصوله مباشرة ، وقدم له وثيقتين رسميتين ، أولاهما كتاب منه اليه ، والثانية التصريح المذكور سابقا ، موضوع حديثنا والذى بمقتضاه اعلنت بريطانيا انتهاء الحماية البريطانية على مصر ، وأن تكون دولة مستقلة ذات سيادة ، والغاء الاحكام العرفية التى أعلنت فى ٢ نوفمبر عام ١٩١٤ ، حالما تصدر حكومة السلطان قانون التضمينات (اقرار الاجراءات التى اتخذت باسم السلطة العسكرية) لينفذ على جميع ساكنى مصر ، واحتفاظها بأمور أربعة الى أن يتسنى ابرام اتفاق بشأنها مع الحكومة المصرية ، وقد تمثلت تلك الامور فى النص على تامين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر ، والدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل اجنبى بالذات أو الواسطة ،وحماية المصالح الاجنبية فى مصر ،وحماية الاقليات ، والسودان٠ فرأت ابقاء هذه الامور على ما هى عليه ، حتى تبرم هذه الاتفاقات (٢) ٠ وقد تبين لنا من بنود التصريح انها لم تخرج عن المبادىء التى كانت سياسة الحكومة البريطانية متمسكة بها أثناء وجود الوفد الرسمى للمفاوضات برئاسة عدلى بلندن ، حيث نرى ان الشروط التى طلبت الحكومة البريطانية الوفاء بها لترفع عن مصر حمايتها والاعتراف بها دولة ذات سيادة وايجاد البرلمان واعادة وزارة الخارجية قد تم الاحتفاظ بها لمفاوضات مقبلة بين مصر وبريطانيا اللهم ما اضيف من الاعتراف بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة ، وليس الاقتصار على القول بسيادتها فقط ، ولقد كان مجىء التصريح على هذا النحو ما جعل سعد زغلول يرى فيه مشروع كرزون « ان لم يكن اقل مزية منه للمصريين » ٠

---

(١) الكتاب الأبيض (الانجليزى) : ص ٤١ — ٤٣ ٠

(٢) الوقائع المصرية » العدد ٢٠ « غير اعتيادى » فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، محمد على علوبة : ذكريات اجتماعية وسياسية ، ص ١٧٦ — ١٨ ٠ انظر نص التصريح — الرافعى فى أعقاب الثورة المصرية ج ١ ط ٢ ١٩٥٩ ص ٤٣ ، ٤٤ ٠

واكتفى بالقبـــول الضمنى ولبـــس الصريح (١) . كذلـــك يـــرى سعد زغلول فى صدد انتقاده لما اشتمل عليه التصريح بأنه لا يصلح أن تكون نقطة الارتكاز فى المفاوضـــــات الغاء الحمـاية والاعتراف بالاستقلال لان التصريح وقد نص على حـرية المفاوضـة بين الطرفين ، مما لا يتأتى معه للمفاوض المصرى أن يتمسك بهذا الالغاء ، ولا بهذا الاعتراف كذلك المفاوض الانجليزى لا يتأتى له أن يتمسك بالتحفظات » (٢) .

أما ثروت فقد كـان يرى التصريح خطوة لهـا مـا بعدها ، والاستقلال يتطلب الاستكمال (٣) . كذلك يرى زميله فى استصداره - اسماعيل صدقى - ان مصر اجتازت بمقتضاه طورا جديدا من أطوار حياتها السياسية ، وقطعت مرحلة من مراحل جهادها الوطنى كان لها أثرها ، وأن الحوادث دلت فيما بعد على أن التصريح ساعد مصر على دخول المفاوضات ، وأتـــاح للوزارة ان تبدأ عهدا جديدا ، وأن تضـــع لنفسها دسـتورا على أحدث المبادىء الدسـتوريـة ، وأن تتصرف فى ادارة شـــئونها كدولـة مسـتقلة ذات ســـــيادة (٤) .

على ان الامر كان - بطبيعة الحال - مختلفا فيما يتعلق بحزب الوفد والحزب الوطنى ، اذ استنكره الوفـد وعـده نكبة وطنيـة (٥) ، ولم يكن هذا الموقف غريبا من الوفد بعد ان صدر التصريح فى غيبة زعيمه ، هذا فضلا عن ن الهيئة التى كانت تمثل الوفد فى غياب الزعيم ، والتى كانت مؤلفة من حمد الباسل ، وويصا واصف ، وعلى ماهر ، وجورج خياط ، ومرقس حنا ، وعلوى الجزار ، ومراد الشريعى ، وواصف غالى ، كانت قـد رفضت شروط ثروت مما يعنى أن الوفد « قد رفض مقدما تصريح ٢٨ فبراير » (٦) .

---

(١) المذكرات ، المصـدر السـابق ، ص ٢٨٢٢ .
(٢) المصـدر السابق ، ص ٢٨١٨ - ٢٨٢٠ .
(٣) الاهرام : عدد ١٤٣٤٢ ، فى ٢١ ابريل ١٩٢٤ ، ص ١ .
(٤) اسماعيل صـدقى : مذكراتى ، ص ٢٧ .
(٥) عبد العزيز رفاعى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .
(٦) حسين مؤنس : المرجع السـابق ، ص ٢٧٨ .

ولقد ظل الوفد على رفضـــه الاعتراف بالتصريح ، كما أن زعيمه بعد الافراج عنه وعودته الى مصر لم ير ما يمنع من دخـول الانتخـابات على أساس الدستور ، الا ان ذلك كان دون قبوله للتصريح (١) ٠

كذلك لم يكن من الغريب للحـزب الوطنى ، والذى ينتهج سياســـة اللامفاوضة الا بعد الجلاء أن يقف موقف الرفض من التصريح ، فيعلن عن هذا الرفض فى ٢ مارس ١٩٢٢ ، ويلتزم مبداه المعروف الذى يقوم على الجلاء أولا ثم المفاوضــات ٠

كذلك يتعرض ثروت ، وبسبب التحفظات التى اشتمل عليها التصريح، لمناهضة الغالبية الساحقة من الامة (٢) ٠ وتظل تســـوية تلك التحفظات مسالة المسائل فى السياسة المصرية ، وتتوالى عليها عدة مفاوضات رسمية يبدأها سعد زغلول فى صيف عـام ١٩٢٩ ، فمصطفى النحـاس فى ربيـــع عام ١٩٣٠ ، وكان ان انتهت الى نتيجة حاسمة بوضـع مشروع محمـــد محمود - هندرسون ، ثم المشروع المعدل له الذى انتهت اليه مفاوضات ربيع ١٩٣٠ ، على ان الاتفاق بشانه لم يتم بسبب الخلاف على تاجيل مســألة السـودان ، وبعض مســائل ثانوية اخرى (٣) ٠ أمــا عن ثروت فيمكننا الانتهاء الى القول بانه قد تطلع من وراء المفاوضات التى اجراها مع الجانب البريطانى وانتهى اليهـا التصريح الى ايجـــاد مخرج للمســـألة المصرية البريطانية فى مصر ، تحقيقا لهدفين فى آن واحـــد : ايجـــاد مخرج للأزمة بها بعد فشل مشروع كيرزون ، والاثر السىء الذى أحدثته فى البلاد المذكرة التفسيرية التى الحقت به فى الوقت الذى وجدت فيه الســلطات البريطانية تســعى للاتفـــاق خروجــا من الازمة الوزارية التى حدثت بالبـــلاد ، فلعل ثروت قد راى فى تلك الخطوة ، خطوة المفاوضــــات مـع الســلطات البريطانية ، من ذلك الجمود الذى ترددت فيه ، والذى كان يتوقع له ان يطول

---

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق والصفحة ٠
(٢) احمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، تمهيد ٣ ص ٣٠٣ ٠
(٣) محمد حسين هيكل : السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ، ص ٩٠ ٠

الوزارية بتشكيل وزارة تتولى أمور الحكم والادارة فى البلاد ، ودفع المسألة المصرية البريطانية خطوة الى الامام من خلال ما قد ينتج عن التفاوض . هذا فضلا عما كان يترتب على تحقيق الهدفين من استتباب الامن والهدوء فى البلاد ، على أنه اذا كان الهدف الاول قد تحقق بأن تشكلت وزارة برئاسته بعد أن ظلت البلاد أكثر من شهرين بغير وزارة بعد استقالة عدلى ، واذا كان الهدف الثانى قد حقق لمصر اعتراف انجلترا لها بالغاء الحماية المفروضة عليها واستقلالها فان تقييد ذلك الاعتراف بالمسائل المتحفظ بها قد أفقده قيمته فى أعين غالبية المصريين ، وجعل منه محلا لمطاعن الوفد وحملاته عليه (٥) .

الدستور المصرى ١٩٢٣

اخيرا وبعد محاولات مستمرة صدر الامر الملكى بالدستور فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ فى عهد وزارة يحيى ابراهيم باشا .

ولم يكن يتوقع أحد صدور الدستور فى ذلك الوقت لمعارضة الملك فؤاد لهذا الامر ، ولكنه وقعه تحت ضغط الحوادث . وقد لخص الرافعى قواعد ذلك الدستور فيما يلى : -

(١) تقرر فى أول مواده أن مصر دولة ذات سيادة وهى حرة مستقلة وملكها لا يتجزأ ولا ينزل عن شىء منه ، وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابى ، وفى المادة (٣٢) « أن عرش المملكة المصرية وراثى فى أسرة محمد على وتكون وراثة العرش وفق النظام المقرر بالامر الكريم الصادر فى ١٥ شعبان سنة ١٣٤٠ (١٣ ابريل سنة ١٩٢٢) » .

(٢) جميع السلطات مصدرها الامة (المادة ٢٣) .

---

(١) لمزيد من التفصيلات : انظر رسالة ماجستير غير منشورة ومحفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة عين شمس بعنوان عبد الخالق ثروت للباحثة مشرفة محمد أحمد المليجى وتحت اشراف د . جاد طه ١٩٨٤ .

(٣) تقرر مبدأ المساواة بين المصريين فهم لدى القانون سواء وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة (المادة ٣) .

(٤) حق ولاية المناصب مقصور على المصريين ولا يولى الاجانب من هذه المناصب الا ما يعينه القانون فى أحوال استثنائية (المادة ٣) .

(٥) الحرية الشخصية وحرية الاعتقاد وحرية الرأى مكفولة ولا يجوز القبض على ى انسان ولا حبسه الا وفق أحكام القانون (المواد ٤ و ٥ و ١٢ و ١٣ و ١٤) .

(٦) كفل حرية الصحافة وحظر الرقابة على الصحف ، ومنع انذارها او تعطيلها أو الغاءها بواسطة الادارة (المادة ١٥) .

(٧) لا جريمة ولا عقوبة الا بناء على قانون (المادة ٦) .

(٨) حظر نفى أى مصرى من الديار المصرية (المادة ٧) وحظر تسليم اللاجئين السياسين (المادة ١٥١) .

(٩) تقرر حرمة المنازل (المادة ٨) .

(١٠) تقرر حرمة الملكية فلا ينزع عن أحد ملكه الا للمنفعة العامة فى الاحوال المبينة فى القانون بشرط تعويضه عنه وحظر عقوبة المصادرة للأموال (المادة ٩ و ١٠) .

(١١) التعليم الاولى الزامى ومجانى للمصريين من بنين وبنات (المادة ١٩) .

(١٢) تقرر حق الاجتماع وتكوين الجمعيات (المادة ٢٠ و ٢١) .

(١٣) القضاة مستقلون لا سلطان عليهم فى قضائهم لغير القانون وليس لأية سلطة فى الحكومة التداخل فى القضايا (المادة ١٢٤) .

(١٤) يتكون البرلمان من مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب . ويؤلف مجلس الشيوخ من أعضاء ينتخب ثلاثة أخماسهم ويعين الباقون

(الخمسان) ، ويؤلف مجلس النواب من أعضاء جميعهم منتخبون ، وعدد الشيوخ المنتخبين يكون بنسبة عضو عن كل مائة وثمانين ألفا من الاهلين ، وعدد النواب بنسبة نائب عن كل ستين ألفا ، ومدة عضوية الشيوخ عشر سنوات يتجدد نصفهم كل خمس سنوات ، ومدة عضوية النائب خمس سنوات (المواد ٧٤ وما بعدها) .

(١٥) يشترط فى النائب زيادة على الشروط المقررة فى قانون الانتخاب (١) أن تكون سنة ثلاثين سنة ميلادية كاملة على الاقل (المادة ٨٥) ، ويشترط فى عضو الشيوخ زيادة على الشروط المقررة فى قانون الانتخاب أن تكون سنة أربعين سنة ميلادية كاملة (المادة ٧٧) وأن يكون من الطبقات الآتية (أولا) الوزراء ، الممثلين السياسيين ، رؤساء مجلس النواب ، وكلاء الوزارات ، رؤساء ومستشارى محكمة الاستئناف او أية محكمة أخرى من درجتها أو أعلى منها ، النواب العموميين . نقباء المحامين ، موظفى الحكومة من درجة مدير عام فصاعدا - سواء فى ذلك الحاليون والسابقون (ثانيا) كبار العلماء والرؤساء الروحيين ، كبار الضباط المتقاعدين من رتبة لواء فصاعدا ، النواب الذين قضوا مدتين فى النيابة ، الملاك الذين الذين يؤدون ضريبة لا تقل عن مائة وخمسين جنيها مصريا فى العام ، من لا يقل دخلهم السنوى عن الف وخمسمائة جنيه من المشتغلين بالاعمال المالية أو التجارية أو الصناعية أو بالمهن الحرة ، وذلك كله مع مراعاة عدم الجمع بين الوظائف التى نص الدستور او قانون الانتخاب على عدم جواز الجمع بينها (المادة ٧٨) .

(١٦) الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب فاذا قرر مجلس النواب عدم الثقة بها وجب عليها ان تستقيل واذا كان القرار خاصا بأحد الوزراء وجب عليه اعتزال الوزارة (المادة ٦١ و ٦٥) ، وللملك حق حل مجلس النواب ، واذا حل فى أمر فلا يجوز حل المجلس الجديد من أجل ذلك الامر (المادة ٣٨ و ٨٨) .

(١٧) الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه (المادة ٤٨) .

(١٨) لا يصدر قانون الا اذا قرره البرلمان بمجلسيه وصدق عليه الملك (المادة ٢٥) واذا لم ير الملك التصديق على مشروع قانون اقره البرلمان رده اليه فى مدى شهر لاعادة النظر فيه فاذا لم يرد القانون فى هذا الميعاد عدا ذلك تصديقا من الملك عليه وصدر . واذا رد مشروع القانون فى الميعاد المتقدم وأقره البرلمان ثانية باغلبية ثلثى الاعضاء الذين يتألف منهم كل من المجلسين صار له حكم القانون وأصدر ، فان كانت الاغلبية أقل من الثلثين امتنع النظر فيه فى دور الانعقاد نفسه ، فاذا عاد البرلمان فى دور انعقاد آخر الى اقرار ذلك المشروع باغلبية الآراء المطلقة صار له حكم القانون وأصدر (المواد ٢٥ و ٣٥ و ٣٦) .

(١٩) لا يجوز لأية حال تعطيل حكم من أحكام الدستور الا أن يكون ذلك وقتيا فى زمن الحرب أو أثناء قيام الاحكام العرفية وعلى الوجه المبين فى القانون (المادة ١٥٥) .

(٢٠) يختص كل مجلس بالفصل فى صحة نيابة أعضائه ولا تعتبر النيابة باطلة الا بقرار يصدر باغلبية ثلثى الاصوات (المادة ٩٥) .

(٢١) يدعو الملك البرلمان سنويا الى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر فاذا لم يدع الى ذلك يجتمع بحكم القانون فى اليوم المذكور (المادة ٩٦) (١) » .

وهكذا وبعد صدور الدستور ، افرج عن المعتقلين وصدر قانون الانتخابات ، وانتهت الاحكام العرفية . وأجريت الانتخابات ، وانتهت هذه الانتخابات بفوز حزب الوفد باغلبية كبيرة وكان طبيعيا أن يعرض الملك على سعد زغلول تاليف الوزارة فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ .

وتم افتتاح البرلمان فى ١٥ مارس ١٩٢٤ ، واقسم الملك اليمين الدستورى ، والقى سعد خطاب العرش طبقا للدستور .

---

(١) نص الدستور — الرافعى — فى أعقاب الثورة المصرية ص ٣١١ — ٣٢٧ .

أزمة ١٩٢٤ فى مصر والســـودان

كونت جماعة من الشباب المتحمس جمعية سرية أطلقت عليها أسم جمعية الفدائيين ، ورأت أن استقلال مصر لا يمكن تحقيقه الا بالاعمـــال العنيفة والاغتيالات السياسية • وبدأت هذه الجمعية أعمالها بقتل السير لى ســـتاك سردار الجيش المصرى (١) الذى توفى فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤ متأثرا بجراحه الناتجة عن اطلاق الرصـــاص عليه •

واحس سعد زغلول رئيس الوزراء حينذاك ، بخطورة الموقف فأعلن عن اسفه وأسف حكومته لمـا حدث ، وفعل الملك فؤاد نفس الشيء (٢) •

وقد رأت بريطانيا .ن تستغل هذه الحادثة لتنفيذ أدوارها المرســومة فى وادى النيل •• فرأت أن تتخلص من الوجود المصرى فى الســـودان على أساس أن هذا الوجود هو الذى سبب المتاعب للبريطانيين فى السودان فى ذلك الوقت ، فمنذ ٨ مايو ١٩٢٤ أرسل حاكم عام السودان الى المندوب السامى فى مصر يخبره بعرامة الدعاية المصرية فى السودان ضـد الانجليز حتى أن العناصر الوطنية الســـودانية نفسها أصبحت تنادى بأن مصر والســـودان وطن واحـــد •

وكان على رأس الحركة الوطنيـــة الســـودانية بعض العســكريين السودانيين كالملازم أول على عبد اللطيف الذى أسس جمعية اللواء الابيض فى بداية سنة ١٩٢٤ فى الخرطوم ، والتى كانت ترمى الى اشتراك السودانيين فى كفاح وادى النيل ضد الاستعمار البريطانى كما كان من زعماء هذه الحركة ايضـــا اليوزباشى محمد صـــالح جبريل والمـلازم أول على زين العابدين وضباط آخـــرون •

---

(١) أحمـد شـــفيق - حوليات مصر السياسية - الحولية الثانية (١٩٢٥) ص ٤١٢ •

(٢) المصدر الســابق - الحولية الاولى (١٩٢٤) ص ٣٦٦

وقد استثار الحاكم العام الانجليزى للسودان الحركة الوطنية السودانية عندما استكتب بعض الشخصيات السودانية عرائض التأييد للحكم الانجليزى ، وأدى هذا الاستفزاز من جانب الحاكم العام الى قيام جمعية اللواء الابيض بمظاهرات كبيرة فى أم درمان وعطبرة وبور سودان وغيرها • وقد واجهت السلطات البريطانية هذه المظاهرات بالقمع الشديد ، وقدم زعيم الجمعية على عبد اللطيف للمحاكمة ومعه بعض الضباط المصريين بتهمة التحريض على المظاهرات (١) •

وفى يوم ٢٩ يوليو ١٩٢٤ تجمع عدد من الضباط المصريين والسودانيين وهم فى حالة هياج شديد لعدة أسباب منها القبض على الملازم أول على زين العابدين وسجنه فى السجن المدنى ، وفى هذا ما فيه من مخالفه للقوانين العسكرية التى تحتم وضع الضابط المتهم بأى جناية تحت الايقاف فى وحدة عسكرية تحت حراسة ضابط أقدم منه فى الرتبة ، وذلك ، وذلك حفظا للشرف العسكرى •

ومن الاسباب التى أدت الى هياج الضباط أيضا منع الهتاف بحياة ملك مصر ، رغم أن العلمين المصرى والانجليزى كانا يرفرفان فوق مبانى الحكومه السودانية ، مما أرهص الى النية البريطانية المبيتة للانفراد بحكم السودان ، وهو ما كان يأباه الضباط المصريون والسودانيون • كذلك أثار أحد القساة البريطانيين مشاعر الضباط عندما عرض بالملك فؤاد عند نطقه أحد الاحكام • لكل ذلك قرر الضباط الاحتجاج على هذه التصرفات لدى نائب السردار فى الخرطوم اللواء هدلستون باشا ، واجتمعوا لهذا الغرض فى ليلة ٣٠ يوليو ١٩٢٤ ووقعوا جميعا على هذا الاحتجاج ما عدا القائمقام محمد بك يحيى قائد الكتيبة الرابعة مشاه (٤ جى اورطة) الذى امتنع عن التوقيع • وقدم هذا الاحتجاج القائمقام أحمد بك رفعت قائد المدفعية فى الخرطوم بحرى - والذى سيبرز على المسرح فى السودان كمتزعم للمقاومه المصرية ضد اخلاء السودان بعد ذلك ببضعة شهور - ، وقد نص هذا

---

(١) دكتور عبد العظيم رمضان - الجيش المصرى فى السياسة (١٨٨٢ ١٩٣٦) ص ١٧٢ - ص ١٧٣ •

الاحتجاج الموقع من الضباط على أنه قد تكرر حصول حوادث اخيرا من بعض تصرفات السلطة المحلية أدت الى اهانة الجيش • وعلاوة على ذلك قد حصل أخيرا فى محاكمة أحد المتهمين الذى كان يؤدى شعائره الدينية بالجامع حيث عرض القاضى الانجليزى بجلالة الملك عند النطق بالحكم •

« وبما أن الجيش لا يرضى بهذه الاهانة ، ولا يقبل التعريض بمليكه الذى أدى لجلالته قسما بأن يكون مخلصا له حاميا لعرشه نود أن تتخذ اجراءات عادلة نحو ايقاف تكرار مثل هذه الاهانات » (١) •

لم يتفهم الانجليز عرامة هذه الحركة ، فتركوها تشتد وتمتد •• ففى ٩ اغسطس انفجر الموقف فى السودان حين تظاهر طلبة المدرسة الحربيه بالخرطوم فى شوارع المدينة بأسلحتهم وهم يرفعون العلم المصرى ويهتفون بحياة ملك مصر وبسقوط الاستعمار •• الا أن الانجليز امكنهم الاستيلاء على الذخائر الموجودة فى مخازن المدرسة فى غيبة طلابها ، وانتهى الامر بانهيار المقاومة ودخول الطلاب السجن العمومى فى كوبر •

وفى نفس اليوم الذى تظاهر فيه طلبة المدرسة الحربية ، حدثت ثورة خطيرة أخرى فى كتيبة السكة الحديدية المصرية بالعطبرة ، مما ادى الانجليز الى اطلاق النار على المتظاهرين ، ونتج عن ذلك مقتل أربعة واصابة الاضطرابات تجددت فى اليوم التالى وبشكل أعنف ، مما أدى بالجنود الانجليز الى اطلاق النار على المتظاهرين ، ونتج عن ذلك مقتل أربعة واصابة أحد عشر شخصا باصابات بالغة (٢) • ولم تلبث الاضطرابات أن عمت م درمان وملكال وغيرها ، مما أدى بالساسة البريطانيين الى الاقتناع بوجوب طرد المصريين من السودان والانفراد بحكمه ، بعد أن تأكد لهم ذلك التلاحم المصرى السودانى ضد الاستعمار البريطانى فى وادى النيل •

وهكذا يمكن أن نقول أن حادثة مقتل السردار لم تكن هى السبب الاساسى لتقديم ذلك الانذار المشهور الى الحكومة المصرية وانما هى قد

---

(١) مذكرتان للواء محمد باشا لبيب الشاهد والاميرالاى أحمد بك رفعت عن اعمال الجيش المصرى فى السودان ومأساة خروجه ص ٢٨ - ٢٩ •

(٢) دكتور عبد العظيم رمضان - المصدر السابق - ص ١٧٥ - ١٧٦

منحت الظروف المناسبة لتقديم هـذا الانذار (١) .

المطالبة بإخـلاء السـودان :

فى يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ اتجه المندوب السـامى اللورد اللنبى فى مظاهرة عسكرية الى دار رئاسة الوزراء ، وسلم سـعد زغلول نسـخة من الانذار (٢) . وقد جاء فى المذكرة الاولى منه طلبات محددة هى : -

١ - أن تقدم الحكومة المصرية اعتذارا كافيا وافيا عن الجناية .

٢ - أن تتابع بأعظم نشـاط البحث عن الجناة ، وأن تنزل بالمجرمين اشـد العقـوبات .

٣ - أن تمنع من الآن فصاعدا وتقمع بشـدة كل مظاهرة شـعبية سـياسية .

٤ - أن تدفع فى الحال غرامة قدرها نصف مليون جنيه الى الحكومة البريطـانية .

٥ - أن تصـدر خلال ٢٤ سـاعة الاوامر بارجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى المتجهة الى السـودان .

٦ - أن تبلغ المصلحة المختصـة أن حكومة السودان ستزيد مسـاحة الاطيان التى تزرع فى الجزيرة من ٣٠ الف فدان الى مقدار غير محدود تبعا لما تقتضيه الحـاجة .

٧ - أن تعـدل عن كـل معارضـة لرغبـات الحكومة البريطانيـة فى الشئون المتعلقة بحماية المصـالح الاجنبية .

وجاء فى المذكرة الثانيـة التى قدمت فى نفس اليوم مزيد من الطلبات بتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى الى قوة سودانية مسلحة

---

(١) Wavell, Viscount - Allenby in Egypt. vol. 2 of Allenby : Astudy of Greatness. p. 116.

(٢) محمد شفيق غربال - تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج ١ ص ١٥٦ .

تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وتحت القيادة العليا للحاكم العام ، وباعادة النظر فى القواعد والرشوط الخاصة بخدمة الموظفين الاجانب الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية طبقا لرغبات الحكومة البريطانية

وقد أجاب سعد زغلول على مذكرتى المندوب السامى فى نفس اليوم بمذكرة وافقت فيها الحكومة المصرية على المطالب الاربعة الاولى ، ولكنها لم توافق على باقى المطالب ، فأجاب المندوب السامى على ذلك فى اليوم التالى (٢٣ نوفمبر) بمذكرة جديدة أبدى فيها تمسكه بكافة المطالب ، وأنه قد أرسل التعليمات الى حكومة السودان لاخراج القوات المصرية من السودان ، ومنحها حرية زيادة الاراضى المروية فى الجزيرة (١) ٠

وفى اليوم التالى (٢٤ نوفمبر) اجابت الحكومة المصرية باحتجاج على تصرفات الحكومة البريطانية ، وارفقت بالخطاب تحويلاً بمبلغ الغرامة٠ وكان سعد زغلول قد قدم طلباً باستعفاء الوزارة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ ، ثم اعاد التماس قبول استقالته فى اليوم التالى فقبلها الملك (٢) ٠

ولكن ما هو صدى هذه المسألة على السودان ؟ وما هو رد الفعل المصرى والسودانى تجاه المد الاستعمارى البريطانى الذى أخذ فى الانفراد بالسيطرة على السودان واحتواء حركته الوطنية الوليدة ؟

لقد وصلت التعليمات بالفعل الى الخرطوم باجلاء القوات المصرية من السودان مساء يوم ٢٣ نوفمبر ، فعقد على الفور اجتماع فى « مكتب الحربية » لوضع خطة الاخلاء ، واثناء ذلك وصلت برقية من المندوب السامى بالسماح بجلاء القوات المصرية بسلاحها ولكن بدون ذخيرتها (١) ٠

---

(١) دكتور يونان لبيب رزق – السودان فى عهد الحكم الثنائى الاول (١٨٩٩ – ١٩٢٤) ص ٤٧٤ – ٤٧٥ ٠

(٢) محمد شفيق غربال – المصدر السابق ص ١٥٨ ٠

(٣) د ٠ يونان لبيب رزق – المصدر السابق ص ٤٧٧ ٠

ويوضح القائمقام أحمد بك رفعت قائد المدفعية (الطوبجية) فى ذلك الوقت الخطة التى اتبعها الانجليز فى اجلاء القوات المصرية عن السودان ، فيذكر انهم تكتموا الامر الصادر اليهم من المندوب السامى ، حتى يمكنهم السيطرة على الموقف بهدوء وبأقل خسائر ممكنة ، الا أنه منذ ٢٢ نوفمبر جاءت بعض الانباء الى الضباط المصريين بالخرطوم عن ارسال انذار من الحكومة الانجليزية الى الحكومة المصرية بمطالب قاسية . وفى مساء ذلك اليوم ظهر ملحق لجريدة الحضارة السودانية موضح به مواد الانذار .

ويوضح أحمد بك رفعت الخطة التى اتبعها الانجليز فى اجلاء القوات المصرية عن السودان .. فيذكر انهم داهنوا المصريين حتى استولوا على مفاتيح الذخيرة منهم ، ثم حاصروا الوحدات المصرية فى كل مديرية وأفرادها عزل من السلاح والذخيرة ، ثم أجبروهم على الانسحاب الى مصر . وهكذا تم ترحيل معظم الوحدات المصرية فى السودان الى مصر . ولكن الامر كان مختلفا بالنسبة لوحدات منطقة الخرطوم البحرية ، وكانت هذه الوحدات مؤلفة من ثلاث بطاريات مدفعية والكتيبة (الاورطة) الثالثة مشاه . فقد استطاع جنود المدفعية (الطوبجية) المصرية أن يستولوا على الذخيرة من منفذ خاص بعد أن إستحوذ الانجليز على المفاتيح الاصلية لمخزن الذخيرة « وبعد ذلك هددنا ثيربورن بك بحصارنا بالجنود الانكليزية من جميع الجهات ونظرنا ذلك بأعيننا حيث كنا قبل الآن لم نلتفت الى الحصار فاخذنه الى المكتب وهو مطمئن بوجود مفتاح الجبة خانة (مخزن الذخيرة) فى جيبه بعدم تمكين الجنود من كسر باب المخزن وصرت الاطفه واصبره داخل المكتب وكان قد تم حصول الجنود على الذخيره باكملها من المخزن دون ان يشعر أحد بذلك من منفذ صغير لم يكن يعلم بمكانه ثيربورن بك ولا يدركه الناظر لبناء المخزن المذكور . وهذا المنفذ ينفذ الى محل المدافع من جهه واحدة مرتفعة ، وسرعان ما تسلحت البنادق والمدافع واصبح القشلاق خارجا وداخلا موزعا فيه جماعات من الجنود كأنهم نظموا تنظيما بترتيب سابق .

وفى الحقيقة كان هذا النظام صادرا من تلقاء أنفسهم وقد رأوا بأعينهم امتداد الحصار حولهم بالعساكر الانجليزية والمدافع الماكينة العديدة (١) .

---

(١) مذكرتان – مصدر سبق ذكره ص ٣٢ ، ٣٣ .

ومن موقف القوة الناجم عن تسليح هذه الوحدات المصرية وحصـولها على ذخيرتها ـ على قلتها ـ رفضت هذه الوحدات المصرية الانسحاب من السودان بأمـر صـادر من حكومة السـودان ، وكان هدلستون باشـا نائب السردار ـ ونائب الحاكم العام قد أصدر أمرا كتابيا الى قادة وحدات الجيش المصرى برحيل الضباط والجنـود فى ٢٤ نوفمبر ، وواضـح أن هذا الامـر صادر من نائب السردار بناء على طلب المندوب السامى بالرغم من اعتراض الحكومة المصرية (١) ٠

وفى هذه المرحلة العصيبة ، تتضـح صـورة من الصـور المشرفة للعسكرية المصرية ٠٠٠ فعندما طلب نائب السردار من احمد بك رفعت تنفيذ الامر الكتابى بالانسحاب ، جـاب الاخير بأنه لمـا رآه « من نفسية عسـاكر الطوبجية لا يمكننى أن انفـذ هذه الاوامر عليهم ، وخير لى أن تحاكمونى بمجلس عسكرى أو تكبلونى بالحديد من أن أنفذ هذا الامر وأكون عنـه مسـئولا » ٠

الا ان هدلستون باشـا طلب من زعيم المقاومة المصرية فى السـودان احمد بك رفعت عرض الامـر على الوحدات المصريـة فى الخرطوم البحرية ، فقـام رفعت بك بالفعل بالمرور على هذه الوحدات ، فكانت الاورطة (الكتيبة) الثالثة مشـاه هى أولى التشكيلات الرافضـة بتاتا لعملية تسليم ذخائرها والانسحاب من السودان مهمـا كانت النتائج ، وكان هذا هو موقف بطاريات المدفعية الثلاثة اذ قـال ضباط هذه الوحدات انه « خير لنا أن نذافع حتى نموت ولا نترك السودان الا بأمر من مليكنا وحكومتنا » ٠ وقـد تـم ابلاغ نائب السردار بهـذا الموقف المصرى المتصلب ٠

وبدات القوات البريطانيـة فى تدعيم حصارها للوحدات المصرية البطلة، وبدات هذه الوحدات بالمقابل فى الاستعداد تحسبا لكل مفاجأة ، هـذا رغم الفارق الهائل فى التسليح بين الجانبين ، وطبقا لكلمات القائمقام أحمد بك رفعت فان « كل رصاصة من رصاص بنادقنا العشرين لكل بندقيـة تقابـل

---

(١) الرافعى ـ فى أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٢٠٣ ٠

اكثــر من عشرين الف طلقة عندهم بما فى ذلك الاحتياط بالطابية العامة ، أما ذخيرة المدافــع فعندهم أنواع كثيرة لمدافــع مختلفة ، وعلى العموم ما عندنا هو قليل جدا ، وعلى ذلك أصدرت أمرا قويا بعدم اطلاق اى طلقة الا بأمــرى وحضورى شخصيــا مهمــا كان الضرب من جانبهم شديدا وذلك حتى اقتصد فى الذخيرة للحظة الأخيرة » (١) ٠

وفى ٢٥ نوفمبر وصــل هدلستون باشــا نائب السردار الى مواقـــع الدفــاعات المصريـــة فى الخرطوم البحريـــة وكرر أوامره بانسحاب الوحدات المصرية ٠٠٠ الا ان احمــد بك رفعت قائد الوحدات هناك طالب بوصول مندوب مصرى من قبــل الملك ومعه امــر بانسحاب المصريين من السودان ، فان هــذا الانسحاب سيكون « بالاسلحة والذخائر وجميع المهمــات وبالشرف العسكرى » ٠

وفى نفس الوقت ارسل احمــد بك رفعت برقية الى الملك فؤاد أوضح فيهــا ان القوات الانجليزية تحاصر القوات المصرية من جميع الجهــات وان الذخائر المصرية لا تكفى لمجابهة القوات البريطانية ، ورغم ذلك فان «الضباط والصف ضباط والعساكر مصممون على عــدم ترك الســـودان بدون أمــر جلالتكم يرســل لهم مــع مندوب مصرى أو يموتون عن آخرهم فى قشلاقاتهم»

ونرى ان هذه البرقية ايضــا بالصيغة التى كتبت بهــا توضـــح العســكرية المصرية الاصيلة ، وهى لا تحتاج فى الواقــع الى أى تعليق ٠

وعلى اية حــال ، يصــل فى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٤ المندوب المصـــرى البكباشى امين هيمن الذى انتقـــل الى مقــر الوحدات المصرية الصامدة فى السودان ، واوضح للضباط حقيقة الموقف السياسى فى مصر ، وسلم احمد بك رفعت خطــاب وزيــر الحربيــة القاضى بانســحاب الوحدات المصريــة من الســـــودان (٢) ٠٠٠ وهكذا كان على الوحــدات المصرية البطالة المتمركزة

---

(١) مذكرتان ص ٤٦ ـ ٥٢ ٠

(٢) مذكرتان ـ مصــدر سبق ذكره / ٥٣ ـ ٦٥ ٠

فى الخرطوم البحريــة والتى رفضت الانسحاب من السودان الا بعــد صدور قرار مصرى خالص لهم بذلــك ، كان على هذه الوحدات ايضــا وبمنتهى العسكرية اطاعــة هــذا الامــر المصرى بالانسحاب ٠

وقد انهى خطاب وزيــر الحربيــة الموقف كله ، فقــد جمع احمد بك رفعت ضباط المدفعية والمشــــاه وأخبرهم بوجـــوب اطـــــاعة أمر الملك بالانســـحاب (١) ٠ وقد جاء فى هذا الخطاب الموجه لضباط وضباط الصف والجنود بالجيش المصرى بالسودان من وزير الحربية المصرى « عهدنا فيكم الشجاعة والولاء ولا يداخلنا اى شك فى انكم مستعدون جميعا لاراقة آخــر نقطة من دمائكم فى خدمة جلالة الملك وفى سبيل الوطن على اننا نامركم بان تكفوا عن مقاومة الاجراءات التى اتخذها نائب حاكم السودان العام لاخراجكم بالقوة من الاراضى السودانية ٠ فانه ليس من وراء هذه المقاومة سوى سفك الدماء بغير جدوى ، وبما ان الحكومة المصرية قد احتجت صريحا على هــذا العمل الذى نفذ بالقوة القاهرة فعودتكم لا يترتب عليها ى مساس لابحقوق الوطن ولا بشرفكم العسكرى » (٢) ٠ وهكذا أذعن الضباط والجنود للامر آسفين محزونين (٣) وقامت الوحدات المصرية البطلة بالسفر من الخرطوم فى ايــام ٢٩ ، ٣٠ نوفمبر و ١ ، ٢ ديسمبر ١٩٢٤ على خمســة قطارات خاصــة « خلاف البوستة » حيث وصــــلت الشــلال يوم ٥ ديسمبر ، وعلى هــذا النحو تم اخلاء السودان من الجيش المصرى (٤) ٠

والواقع أن تنفيذ الانذار البريطانى كان نصرا بريطانيا كاملا على الحركة الوطنية سواء فى مصر او فى السودان ٠ ففى مصر سقطت وزارة سعد زغلول وخلفتها وزارة احمــد زيور باشــا (٥) الذى لــم يكن ليســـتطيع بماضيه الســياسى غير الواضح ان يمــلا الفراغ الذى أحدثته غيبة شيخ الساسة المصريين عن رئاســة الجهاز التنفيذى فى مصر ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٢٠٤ ٠
(٢) مذكرتان ص ٨٢
(٣) الرافعى ص ٢٠٤
(٤) د ٠ عبد العظيم رمضان الجيش المصرى والسياسة ص ١٨٧ ٠
(٥) محمد حسين هيكل ـ مذكرات فى السياسة ج ١ ص ٣١٢ ٠

ازمة الجيش المصرى سنة ١٩٢٧ :

ادى انسحاب وحدات الجيش المصرى من السودان وعودتها الى مصر ، الى زيادة عـدد أفراد هذا الجيش ، مع ما واكب ذلك من اتجاه مصر الى مخاولة تدعيم قواتها المسلحة بالاسلحة المتطورة • وكانت وجهة النظر البريطانية هى ان الجيش المصرى هو اقل كما وتسليحا من قوات الاحتلال فى مصر •• الا انه مـع ذلك الاتجاه المصرى الرامى الى زيادة حجم الجيش المصرى وتطويـر تسليحه وتمصير قيادته ، « فان خطورة المواجهة بين القوتـين ستكون أمرا بالغ الخطورة - بالنسبة لقوات الاحتلال - فى المستقبـل القريب » •

ولكن المصريين مضوا فى سياستهم الوطنية نحو بنـاء جيش مصرى قوى يمكنه انهـاء الاحتلال البريطانى لمصر ، او على الاقـل كى يكون عامل ضغط فى اية مفاوضـات قادمـة بين الدولتين •

ومع الشهور الاولى من عـام ١٩٢٧ بدأ المندوب السامى البريطانى فى التحقق من ان امورا هامة تحدث فى مسالة الجيش المصرى ، وأن هـذه الامور تتطلب من الحكومـة البريطانيـة اتخـاذ اجراءات سريعة ، وعلى حد قوله « ••• ان مكانتنـا الآخذة فى التناقص منذ عـام ١٩٢٢ اصبحت تسـير بمعدل سريـع ، مـع مصـاحبة ذلك باقتراحـات لزيادات ضخمـة فى الجيش المصرى عددا وعدة ، وعلى الرغم من اشاراتى الواضحة بأن حكومة جـلالة الملك لن توافق على مثـل هذه المقترحـات ، فان الحكومة المصريـة تسـير فى طريقها ،ونحن فى خطر المراجهة بعد فترة بامر واقع Faits accomplis

وفى مذكرة مطولة ، يوضح لويد المراحل الرئيسية لتقلص السـيطرة البريطانية على الجيش المصرى كالآتى :

١ - عندما عين عزمى باشـا كوزيـر للحربيـة فى نوفمبر ١٩٢٢ ، فانه انشـأ قسما خاصـا فى وزارته وتحت اشرافه لادارة بعض الامور التى كان يشرف عليهـا السردار قبل ذلك ، (١) وهكذا اتخذ الوزيـر سـياسة معاديه

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. Egyptian Army Crisis No. 76 (J. 530/184/16) No. 61. Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March 3, 1927.

للمصالح البريطانية ، (٢) وهذا (التجاوز) بدأ فى الزيادة حتى سبتمبر ١٩٢٣ ، عندما وصل الى حد اصداره لاوامره وعلى مسئوليته بطرد عدد من طلبة المدرسة الحربية لعدم كفاءتهم ••• ولم يقم السردار البريطانى بالاعتراض على هذا الامر استمرارا فى سياسته الرامية التى التمصير التدريجى للجيش ، وبادئا فى استخدام الوزير كقناة فى اتصالاته مع الملك •

٢ ـ وفى يناير ١٩٢٤ ـ وطبقا لهذه السياسة ـ عين ضابط مصرى فى منصب قائد منطقة القاهرة ، مما ادى الى ضرورة استحداث منصب المفتش العام وتقليده لضابط بريطانى ، الا انه فى نفس الوقت تم تعيين ضابطين مصريين لقيادة كتيبتين مصريتين كانتا تحت القيادة البريطانية •

٣ ـ وفى مارس ١٩٢٤ ، احيل شاهين بك الى التقاعد ـ وهو احد الذين هاجمهم الوفد ـ لقيامه بكبح جماح الجماهير الثائرة اثناء ثورة ١٩١٩ ـ بأوامر من السردار ، وطبقا لطلب من سعد زغلول باشا ، وذلك لرغبة بريطانيا فى عدم احداث ازمة فى المفاوضات التى كانت دائرة بين الحكومتين المصرية وبريطانية فى ذلك الوقت • والمهم ان تاثير هذه العملية كان عميقا على الجيش المصرى •

٤ ـ بعد مقتل السير لى ستاك ، اقترح وزير الحربية المصرى أن يتحمل مسئولية تدبير امر الضباط المصريين العائدين من السودان •

٥ ـ فى يناير ١٩٢٥ تم تشكيل مجلس الجيش بناء على اقتراح من الملك فؤاد ••• وكان تشكيله اساسا لبرث السلطات والاختصاصات التى كانت مخولة للسردار قبل ذلك •

٦ ـ فى ابريل ١٩٢٥ تحولت تبعية ادارات ومصالح الحدود والتموين والتجنيد الى الجيش المصرى ، وفى يونيو تبعتها الادارة المالية •

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 78 (J. 599/184/116)
No. 74 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March 9, 1927.

٧ - عندما عين موسى فؤاد باشا وزيرا للحربية فى مارس ١٩٢٥ ، فانه بذل جهودا مكثفة لتحويل ولاء الضباط المصريين اليه بدلا من تبعيتهم للقادة البريطانيين ، وعقد اجتماعات مستمرة فى منزله للعديد من الضباط المصريين لتحقيق هذا الغرض (١) ٠

ويتضح من مذكرة لويد السابقة ذلك التسلسل فى المحاولات المصرية (لتمصير) الجيش المصرى ٠

وعلى اية حال فانه منذ اعلان تصريح ١٩٢٢ ، واعلان الملك فؤاد نفسه ملكا مستقلا فى ١٥ مارس من نفس السنة ، ساد المصريين شعور وطنى جارف بأنهم قد انتزعوا استقلالهم بأنفسهم ، رغم ان التحفظات الأربعة الواردة مع التصريح تسلب هذا الاستقلال جوهره ولبه ٠ ووصل الامر بأى وزارة مصرية تتولى السلطة مع برلمان قوى بانها تجد نفسها (بين الشيطان والبحر) على حد قول لويد الذى استرسل موضحا أن « الوزراء الحاليين يخافون قبل كل شيء من استجوابات البرلمان ، وهم رغم تصلبهم فى الماضى ، غير قادرين الآن على القيام بعمل ضدنا ، كما فعل اسلافهم ، وكنتيجة طبيعية فان الحكومة من اجل ارضاء البرلمان ، مع عدم الوصول الى صدام مفتوح معنا ، فانها وقعت فى بعض التورط ضدنا ، والواقع انها ستصبح اكثر جراة ضدنا ؛ اذا لم نحرك ساكنا» ٠ واسترسل لويد مخصصا فى كلامه انه « بالنسبة للجيش المصرى ، فان الارتباك والتورط قد وصل الى الحد الذى لا يمكن ايقافه الا باسلوب عنيف ، واذنا اذا لم نفعل ذلك ، فان المسالة سوف تتحول الى ازمة بالغة الخطورة » ٠

وفى هذه المرحلة من الازمة ، اوضح لويد ان الحكومة البريطانية اذا ما قامت بالضغط على الحكومة المصرية لكى تتخذ اى عمل عنيف ضد رغبات البرلمان طبقا لتصريح ١٩٢٢ ، فان الحكومة قد تستقيل ٠ هذا بالاضافة الى ان رئيس الوزراء كان يعانى كثيرا فى هذه المرحلة من الضغط المتشدد عليه من جانب حزب الوفد ، وانه اذا ما اتسعت

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 76 op it

الهوة بينه وبين حزب الأغلبيــة ، وقدمت بريطانيــا فى غضون ذلــك الوقت مطالب عنيفة ، فان مجلس الوزراء قــد يتخــذ من هــذه المطــالب فرصـــة لتقــديم استقــالته •

الا ان لويــد بعــد أن طرح الافتراض السابق ، عاد وأورى أنه يمكن جعل الحكومــة المصريــة القائمة فى ذلك الوقت (ثروت باشا) مسئولة عن تحقيق المطالب البريطانيــة ، « وأن هناك فرصــة فى صالحنــا فى المحافظـة عليهــا فى السلطة ، فهى نظريــا تمثــل الدولة ، والوزراء الحاليون هم بلا شك يرغبون تماماً فى البقــاء فى السلطــة ، وهم سيوافقون على مطلبنــا بالنسبة للجيش المصرى ، طالمــا كانت هذه المطالب معتدلة ومصاغة فى شكل مستساغ ، وعلى اية حال ، فان اى تأخير من جانبنــا ، فانه بطبيعة الحال سوف يزيــد من مصــاعبنــا ، لانه ليست هناك فرصـــة افضــل من الفرصـــة الحالية فى اعتقادى » (١) •

ومن الاهمية بمكان – من وجهة النظر البريطانية – الاشارة الى تعاطف وزير الحربية المصرى مع الحملة البرلمانية بعد مواجهته لاستجوابات عنيفة فى البرلمان ، ووصــل به الأمــر الى تبنى بعض موضوعــات منها تخفيض الخدمــة الاجبارية للمجندين من ٥ الى ٣ ســنوات بهدف زيادة اعــداد الاحتيــاط المدرب ، وكذلك العمــل على تدعيم ٩ كتائب مشاة حتى تحقق مستوى رفيعــا ، وبنــاء ثكنات جديدة فى مناطق مختلفــة ، ومنع اى قيود على تسليح الوحدات المصريــة ، وتشكيل قوات جويــة مصريــة ••• ورغــم تدخل المندوب الســامى الصريح ضــد هــذه المطالب ، ورغم أن كل المقترحات السابقة كانت تتطلب موافقــات مالية ، فانه قــد تم تضــمين كل هـــذه البنود فى مشروع الميزانيــة الجديدة لتقديمهــا الى البرلمان (١) •

أما بالنسبة لمنصب المفتش العــام الانجليزى ، فقــد بذلت مجهودات مصرية متتالية قوية لسلب كل اختصاصاته وسلطاته • وقد قام خشبة بك

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 78 (J 844/184/16)
No. 183 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March 28. 1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 76 op cit

- وزير الحربيـة فى عام ١٩٢٦ - بمحاولات خطيرة فى هذا الصدد ، واول محاولة لـه مع المفتش العام سبنكس باشـا وقعت فى ربيـع ١٩٢٦ ، عندما حاول اعادة عدد من الضباط السودانيين الى الخدمـة ، والذين كانوا قـد احيلوا الى الاستيداع لاشتراكهم فى الحركـة الوطنيـة فى السودان فى نهاية عـام ١٩٢٤ .

وبعد ذلك ، وفى اثنـاء غياب الجنرال سبنكس فى اجازته الصيفية فى نفس العـام ، حاول الوزيـر قلب النظام الذى كان ساريا فى المدرسة الحربية فى القاهرة ، ووضع مجلس الجيش وبتعليمات منه مشروع قانـون لاخراج المدرسة الحربيـة عن التبعية للسردار . ولو لـم يعد الجنرال سبنكس مبكرا من اجازته فى ذلك الوقت ، لكان البرلمان قـد وافق على هـذا الاقتراح .

هذا بالإضـافة الى ان خشبة بك امضى صيف ذلك العام (١٩٢٦) فى لقاءات شخصية بالعديـد من الضباط من كل الرتب مسـتمعـا الى شكاياتهم وواعدا اياهم حلولا لمشكلاتهم .

واخيرا بدا خسبة بك فى القيام بالتفتيش على الوحدات العسـكرية برفقـة اثنين من العسكريين من اعضـاء البرلمان ، وهمـا صـالح بك حرب وعبد الرحمن بك عزام ، والاول كان قـد انضم الى السنوسى وتحت قيادته ٦٠ من جنود خفـر السواحل ، وكلاهمـا حارب مع السنوسى .

ولم يكتف خشبة بك بهذه المحاولات ، بـل حاول ايضـا جعل وزارة الحربية هى المسيطرة على ترقيـات وتعيينات الضـباط وعن طريقه هـو شخصيا ، وهكذا عدلت لجنة الضـباط ومجلس الجيش من توصياتهـا بالنسبة للترقيات والتعيينات ، حتى لا تتعارض هذه التوصيـات مـع رغباته ، ووصـل الامـر بالوزيـر فى بعض الحالات الى رفض توصـيات المفتش العام .. ونتيجة لتدخل الوزيـر ، اقترح البرلمان توسيع اختصاصات لجنة الضباط ومجلس الجيش على حسـاب السردارية والمفتشيـة العامة بهـدف جعل وظيفـة المفتش العـام بلا فاعلية (١) .

(١) P.R.O. F.O. (407- 204) b. No. 87 op cit

كما انه تقرر - طبقا لمشروع الميزانية الجديدة - ادماج مصلحة الحدود مع خفر السواحل فى ادارة واحدة ، وهذا القرار يبدو انه ادارى بحت ، ولكن الحقيقة هى ان وزير الحربية كان يرغب فى اعفاء خمسة من الضباط البريطانيين السبعة العاملين فى المصلحة ، وان يحل محلهم فى نفس الوقت Paris Passu ضباطا مصريين ممن شاركوا فى الحرب مع السنوسى او من الذين اعيدوا من السودان بعد مقتل السردار ، كما انه اصدر تعليمات كتابية بالفعل بالنسبة للعائدين من السودان ... الا ان المندوب السامى تدخل فى الامر ، مما ادى الى استبقاء الضباط البريطانيين فى مصلحة الحدود ، (١) وان كان الوزير قد وضح انه قد وضع شروطا جديدة للتعاقد معهم فى الميزانية القادمة وذلك لاستبعادهم ، (٢) كما انه خصص بندا فى الميزانية للضباط العائدين من السودان لتخصيص وظائف لهم (٣) .

واكثر من ذلك ، اقترح الوزير تحويل قوافل الجمال ودوريات السيارات - بالنسبة لمصلحة الحدود - الى قوة بوليسية بدون سلطة مركزية كما انه فى نفس الوقت قامت الحكومة بدراسة مشروع لتطبيق القانون المدنى والادارة المدنية على القبائل النائية ، بدلا من سريان التقاليد القبلية . (٤) وكان الغرض من هذه الخطوات هى بطبيعة الحال لفرض السيطرة المصرية على القبائل العربية التى تقطن الحدود ، وفى نفس الوقت Pro Tanto الغاء النفوذ البريطانية عليها . (٥) ويصور لويد خطورة الموقف بالنسبة للمصالح البريطانية بقوله « ان نائب المدير العام لمصلحة الحدود - وهو فى الوقت نفسه القوة المحركة للمصلحة - مشهور ببغضه للانجليز ، وهو يعمل فى اتصال وثيق مع الوزير ، وقد قام بمحاولات عديدة للحد من مكانة وسلطة الضباط البريطانيين العاملين المصلحة . ويمكن القول بايجاز ان موقف حاكم عام سيناء - الانجليزى -

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No. 76 op. cit
(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit
(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 76 op cit
(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 78 op cit
(٥) P.R.O. F.O. (407-204) b No. 76 op. cit

بوجه خاص قد ازداد صعوبة ٠ ولا ننسى ان مصلحة الحدود هى مصلحة كبيرة ، ولنها تلعب دورا هاما فى خطة الدفاع عن مصر ، وان نجاجها الحالى فى التعامل مع البدو الذين لا يخضعون لاى قانون انما يرجع الى الضبط وحسن الانتظام العسكرى والادارة المركزية » (١) ٠

واعتبر لويد ان من بين الاساليب العدائية ايضا قيام البرلمان المصرى بمناقشة اقتراح لبعض النواب فى ٢ مارس ١٩٢٧ لتغيير نظام الخفراء القائم وجعله يسير طبقا لقانون التجنيد الاجبارى ، وان يقوم ضباط من الجيش بتدريب الخفراء ، وعلق لويد على ذلك بقوله « اننا لا يمكننا اغفال* مغزى هذا الاتجاه » (٢) ٠

والواقع ان الاقتراحات المصرية بتخفيض مدة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣ سنوات ستزيد من قوات الاحتياط المدربة على استخدام السلاح، والتى يمكن استدعاؤها فى اى وقت ، وامكان مضاعفة القوات المسلحة بهذه الأعداد من قوات الاحتياط ، كما ان تدريب الخفراء على ايدى ضباط من الجيش المصرى سيزيد ايضا من قوة حملة البنادق ، ولا تدخل كل هذه الأعداد فى الاحصاء الرسمى لعدد افراد الجيش المصرى رغم انها بالفعل تشكل قوة لا باس بها ٠

تطور الجيش المصرى حجما وتسليحا :

يمكن بتحليل تطور الجيش المصرى فى هذه الفترة ان نستخلص ان هناك مخططا مصريا لزيادة فاعلية هذا الجيش كما وتسليحا ، مما قد يؤدى فى النهاية الى اتخاذ سياسة معادية لبريطانيا ٠٠ والتقرير التالى الذى ارسله اللورد لويد الى المستر تشمبرلين فى ٣ مارس ١٩٢٧ مع التحليل الخاص به يوضح هذه الحقيقة :

---

(١) P.R.O. FO. (407-204) b No 87 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) 76 op cit

	١٩١٤	١٩٢٢	١٩٢٦
كتائب المشــاة	٣	٧	١١
بطارية مدفعية	١	١	٤
س حراسة مدفعية	١	١	٢
أورطة خيالة	١	١	٢
اعداد الافــراد	٢٥٠٠	٤٨٠٠	١٠٥٨١

والزيــادة السابقــة هى عبارة عن :

(ا) المشــاة : فى عــام ١٩١٤ كانت هناك ٦ كتائب مشاة فى السودان، منها ٤ كتائب اعيدت الى مصر اثنــاء الحرب العالمية الاولى ، وبعد الحــرب بقيت منها اثنتان فى مصر واعيدت اثنتان الى السودان ٠ ولكن لــم تلبث ان اعيدت هاتان الكتيبتان الى مصر فى نوفمبــر ١٩٢٤ بعد مقتل السردار ٠

وفى عــام ١٩٢٥ ، زاد الجيش المصرى بكتيبتى مشـــاة مــ، تدعيم افضــل ، وبصفــة رئيسية لاستيعــاب العائدين من الكتائب السودانية ٠

(ب) المدفعية : بعــد مقتل السردار ، اعيدت ٣ بطاريــات مدفعية وسرية حراسة مدفعية الى مصر ٠

(جـ) الخيالة : تم تشكيل أورطة خيالة جديدة لاستيعاب العائدين من السودان ٠

هذا بالاضــافة الى ان الحرس الملكى الذى شكل اعتباراً من عــام ١٩٢٢ اصبح فى عــام ١٩٢٧ يتكون من ٣٩ ضابطا و ٩٧٦ من رتب أخرى (١)

ونستخلص ممــا سبق ان الزيــادة الحقيقية فى الجيش المصرى فى مصر ـ ما عدا الاستثنــاء الخاص بالحرس الملكى ـ كانت نتيجــة لعودة

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 77 (J. 529/184/16)
No. 62 Lord Lioyd to Sir Austen Chambrlain. Cairo, March 3, 1927.

اخلاء الجيش المصرى للسودان (١) ٠

وكان الجيش المصرى فى عام ١٩١٤ تحت القيادة البريطانية ، وكان السردار مقيما فى السودان ، وكانت كل الرئاسات والقيادات وهيئات المصالح والادارات بريطانية ، أما فى عام ١٩٢٧ ، فكان هناك فقط ٩ ضباط انجليز يخدمون فى الجيس المصرى ، واحدهم هو المفتش العام الذى من المفروض أنه يمثل السردار ، ولكن الحكومة المصرية رفضت اعطاءه لقبا اعلى من مفتش عام لـه اختصاصات تنفيذية ٠

واذا قارنا بين تسليح الجيش المصرى فى عام ١٩١٤ وعام ١٩٢٦ لوجدنا ان التسليح فى العام الاول كان عبارة عن ٦ مدافع ٢ر٩٥ بوصة و ٤ مدافع مكسيم ٤٥٠ وبنادق ٠٣٠٣ اما فى عام ١٩٢٦ فقد تم تدعيم المدفعية والمشاة حتى أصبحتا تضمان ٢ مدفع ٣ر٧٥ بوصة هاوتزر ، و ١٢ مدفع ٢ر٩٥ بوصة ، ٦ مدافع ١٠ بوندر ، ٤ مدافع فيكرز آلى وبنادق ٣٠٣ ٠

اما الحرس الملكى فقد تم تسليحه بعدد ٦ مدافع فيكرز آلية ، ٢ مدفع آلى هوتشيكس ، ٦ مدافع لويس عدا البنادق (٢) ٠

واستخلص لويد من الملاحظات السابقة بالنسبة لزيادة الجيش المصرى كما وتسليحا ، انه لابد من اتخاذ موقف بريطانى صلب تجاه مخططات الحكومة المصرية الرامية الى اقامة الجيش المصرى القوى مهما كانت النتائج ، لان هذه النتائج مهما كانت ستكون شيئا قليلا بالمقارنة بما يمكن أن تجابهه بريطانيا فى وقت لاحق ٠٠ « فالبرلمان المصرى سوف يطلب فى المستقبل القريب تنفيذ المسائل الآتية :

(أ) تدعيم كتائب المشاة ، مع تشكيل كتيبتين جديدتين ، وهذا يؤدى الى زيادة المشاة بعدد ٣٦ ضابطا و ١٦٢٠ من رتب اخرى ٠

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 86 (J, 841/184/16) Memo on the Egyptian Army by the secretary of State for Foreign Affairs. April I, 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 77 op cit

(ب) تخفيض مدة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣٠ سنوات ، ويعنى هذا زيادة قوات الاحتياط ، وأن هذا المشروع هو لارضاء الفلاحين الذين تأتى منهم غالبية الجنود ، وليست هناك خطورة من هذا الاجراء لأن استدعاء الاحتياط فى وقت الطوارىء هو امر بالغ الصعوبة فى مصر ٠

(جـ) شراء ٢٢ مدفع رشاش للكتائب المشاة ٠ وهذه المدافع هى اضافة خطيرة الى تسليح الجيش المصرى ٠

(د) اقتراح ادماج الحدود مع السواحل بهدف وضعهما تحت الادارة المصرية ٠

(هـ) البدء فى تشكيل قوات جوية مصرية » (١) ٠

ومن النقاط السابقة اعتبر لويد ان (ا،ب) هما نسبيا غير مرفوضين فى حد ذاتهما ، بينما (جـ،هـ) لا يمكن تنفيذهما بدون المساعدة البريطانية ٠ أما النقطه (د) فهى فى درجة اقل من الأهمية بالنسبة للمشاكل الرئيسية ٠ كما أضاف لويد انه كلما مضى الوقت، كلما زادت الصعوبات أمام بريطانيا ، وأن الحسم السريع هو افضل من الانتظار لفترة تالية (٢) ٠

كما أوضح لويد انه لم تفهم حكومة مصرية واحدة حقيقة تصريح ١٩٢٢ بالنسبة للجيش المصرى ، فالتصريح لم يضع تحديدا ولا قيودا على الوحدات العسكرية المصرية ، مما أدى الى تشجيع العمل على تبعية هذه الوحدات للسيطرة الوطنية ، ومحاولة تدعيم الجيش المصرى عددا وعدة ٠ واضاف لويد أن البرامج العسكرية التى وضعها وزراء الحربية المتتابعون تتعارض مع اثنين من التحفظات ٠٠ فزيادة القوة الحربية المصرية تهدد المواصلات الامبراطورية وخصوصا بالنسبة لقناة السويس كما أنها تعقد الدفاعات البريطانية عن مصر ضد العدوان الخارجى ،

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 78 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 86 op cit

كما ان هذه الزيادة « ستجعل دفاعنا عن المصالح الاجنبية فى مصر أكثر صعوبة » واسترسل لويد موضحا أن بريطانيا بالاضافة الى ما سبق « سوف تواجه بعض الاقتراحات القوية والمحاولات الذكية لاضعاف مكانة المفتش العام والضباط الانجليز الذين يعملون معه ، وكذلك الذين يعملون فى مصلحة الحدود وخفر السواحل ، كما تواجه الاقحام التدريجى للجيش المصرى فى السياسة » ٠

خطة لويد لحل الازمة :

حلل لويد الموقف بأن أمامه ان يختار اسلوبا من ثلاثة أساليب مطروحة للتعامل مع المصريين : أولا أن يترك الامور تسير فى طريقها بأمل ان الاعتبارات المالية سوف تمنع الحكومة المصرية من السير بعيدا فى هذا المضمار ، وثانيا أن يقوم بعرقلة هذه الاتجاهات باستخدام الضغط الشخصى وغير الرسمى ، وثالثا ان يقدم مطالب محددة للحكومة المصرية (على شكل انذار) ٠

واوضح لويد أن السبيل الاول لا يمكن ان يكون فعالا ، لان الحكومة المصرية قد صح عزمها على اقامة الجيش المصرى القوى مهما كلفها الأمر ٠ اما السبيل الثانى فان نتائجه غير مضمونة ، وهكذا لم يتبق من سبيل لحل الازمة سوى السبيل الثالث ٠ واردف لويد انه من الواضح « انه ليس لدينا خيار سوى ارسال المطالب البريطانية الى الحكومة المصرية بدون تاخير وبشروط حاسمة وبصيغة ودية ٠٠ على أن ندعم مطالبنا بكل قوة ممكنة ٠٠ واذا ما فعلنا ذلك ، فان هذا التدعيم سوف يحقق كل الظروف الممكنة لحل الازمة دون عنف ، وذلك بالمقارنة بما قد نضطر الى أن نفعله فى وقت لاحق » (١) ٠

وقد وافق تشمبرلن على أراء لويد السابقة ، مع التأكيد على ان أى سياسة يتم اختيارها بالنسبة للعلاقة مع الحكومة المصرية ،

---

(١) PR.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

يجب أن يكون معقولة وبناءة طبقـا لمـا تسـمح به الظروف (١) ٠

ويبدو ان لويـد كان يحاول فى هـذه المرحلة وضع حل شـامل للازمة ، لانه فى ٩ مارس ١٩٢٧ أوضح أن مخططـاته لا ترمى فقط الى منـع الارتباك القـائم فى السياسـة البريطانيـة تجاه زيادة الجيش المصرى عـددا وعدة ، بل ايضـا لتقديم اسس تسوية نهائيـة ، عندمـا تكون هـذه التسوية محتملة الوقوع ٠

وبدأ لويد فى ابراز خططه القادمـة لحل الازمة مركزا على أن اسس الحل الشـامل انما تستند على مبدأ (الأخذ والعطاء) امـا الاخـذ البريطانى فانه يرتكز على الاسس الآتية :

١ ـ المحافظة على سلطـات ومكانة المفتش العـام ، مـع التذكير بانه عند تاسيس قـوة الدفـاع السودانيـة فى ينايـر ١٩٢٥ ، فان هدلستون باشـا ـ طبقـا لتعليمـات اللورد اللنبى ـ فوض كل سلطانه الى المفتش العـام وانه قـد تم ابلاغ الحكومـة المصريـة بذلـك ٠٠٠ الا أن هـــذه الحكومـة لـم تعتبر المفتش العام أبدا ممثلا للسردار ، رغم اضطلاعـــه باختصاصات منصب الآخير منذ ذلك الوقت ٠ كمـا اقترح لويـــد منـح المفتش العـام رتبة الفريق وزيـادة مناسبة فى راتبة ، كمـا اوضـح ان استجابة الحكومـة المصريـة لهذه المطالب تعنى اعترافهـا بأن وزيـــر الحربية هو فقط القنـاة الرسميـة الادارية لرفـع توصيـات لجنـة الضباط الى الملك (٢) ٠

٢ ـ تعيين ضابط بريطانى عظيم فى القيـادة المصريـة ، ليحـل محل المفتش العـام اثناء غيابه ٠ (٣) ويمكن أن يلقب هـذا الضـابط بمساعد المفتش العـام ، لانـه لا يمكن عمليـا الاعتمـاد على ضـابط تنفيذى واحد ٠

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) No. 80
(J. 601/ 184/16 No. 67 Sir A. Chamberlain t. Soid Sioyd F.O. March 11/ 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 (J 601/184/16)
No. 75 Lord Dioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, March, 9, 1927.

واستخلص لويد ان المفتش العام سيسعده بطبيعه الحال الاعتراف الرسمي بالسلطات المفوضة له من قبل هدلستون باشا ، وكذلك تعيين مساعد له ، وانه بمكنه بهذا الاسلوب تحقيق الاهداف البريطانية بالنسبة للجيش المصرى لفترة غير محدودة ، باعتبار أن مكانة سبنكس فى الجيش المصرى هى - من وجهة النظر البريطانية - اهم نقطة فى المسألة كلها .

٣ - وضع مصلحة الحدود - التى سوف يتم ادماجها مع خفر السواحل - تحت السيطرة المباشرة للمفتش العام ، مع استمرار (الوضع الراهن) بالنسبة لهذه المصلحة ... لانه سيكون على حسابنا تحولها الى الادارة الوطنية ، على اننى لا الح على ضرورة اعادة تعيين مدير عام بريطانى لها ، بشرط ان لا يعمل ضابط بريطانى تحت امرة ضابط مصرى الا كمستشار » (١)

كما اعترض لويد على اقتراح تشبرلن الخاص بفصل مصلحة الحدود عن وزارة الحربية لان هذا الاقتراح - فى رايه - اذا ما تم تنفيذه ، فانه سيؤدى بالسلطات البريطانية الى ان تفقد رقابتها على الحدود المصرية ، وتحول هذه المصلحة الى وضع جديد كلية ، هذا بالاضافة الى أن القبائل فى المناطق النائية هى أسلس قيادة للانجليز تحت الحكم العسكرى عن الحكم المدنى كما أوضح لويد أنه من الخطورة بمكان معاملة مصلحة الحدود وكأنها منفصلة عن المشكلة كلها (٢) .

وكان هذا - فى راى لويد - هو (الاخذ) البريطانى الذى يرتكز على البنود الثلاثة السابقة ... وانه فى مقابل موافقة الحكومة المصرية على تلك البنود ، او بالاحرى على ذلك (الأخذ) البريطانى ، فانها تستحق (العطاء) البريطانى ايضا ، وذلك على شكل حصولها

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op, cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

على تدعيم بالاسلحة المتطورة لكتائب المشاة التسعة ، وتخفيض فترة التجنيد الاجبارى من ٥ الى ٣ سنوات ، والبدء فى تشكيل قوة جوية مصرية (١) . الا ان لويد - من ناحية أخرى - عبر عن اعتقاده فى انه يجب عدم السماح للحكومة المصرية - فى تلك المرحلة - بالحصول على ٢٢ مدفع آلى (رشاش) والتى كان قد وعد بها اللورد اللنبى ، لأن مثل هذه الزيادة فى تسليح الجيش المصرى - فى رايه - ستؤدى ببريطانيا الى ضرورة تدعيم جيش الاحتلال ، وعدم تمركز اى قوات مصرية على طول قناة السويس ، او على خط مواصلات القاهرة - الاسماعيلية (٢) . وعلاوة على ذلك ، وطبقا لرأى قائد عام قوات الاحتلال ، فان اى حكومة (انسانية) تستبعد استخدام الاسلحة الآلية ، « لأنه اذا ما قام صراع ضد الاسرة الحاكمة - والذى نرغب بعض قطاعات من حزب الوفد فى القيام به - فان الجندى الوطنى قد ينضم الى الثائرين ، وانه اذا كان مسلحا بسلاح آلى ، فانه سيصبح من الصعب كثيرا على قواتنا المحافظة على النظام دون اراقة دماء كثيرة » (٣) .

الا ان لويد - لاعتبارات كثيرة - عاد واقتنع بوجهة نظر تشمبرلن بخصوص بيع المدافع الآلية الى الجيش المصرى ، فى مقابل تنفيذ المطالب البريطانية ، وان كان قد وضع بعض الاجراءات الوقائية لتنفيذ هذه العملية . « فهذه الاسلحة يمكن تقديمها فقط للجيش المصرى فى مقابل تعيين ٤ ضباط بريطانيين كخبراء ، وبواقع ضابط واحد لكل لواء من الوية المشاة الاربعة ، وان الحكومة المصرية ستجد نفسها مضطرة الى قبول هذه الخبرة » .

واضاف لويد ان المفتش العام بحصوله على السلطات الفعالة سيشعر بالثقة ، ويستطيع بذلك ان يسيطر على استخدام هذه المدافع الآلية ، والتقليل من خطورة استخدامها (٤) .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

وقد وافق الجنرال هوكنج - قائد قوات الاحتلال - بالتالى على تدعيم الجيش المصرى بهذه المدافع الآلية ، بشرط ان توافق الحكومة المصرية على الترتيبات السابقة كاجراء وقائى بالنسبة لامن قوات الاحتلال فى مصر ٠

وأتفق أيضا كل من لويد والمفتش العام وكذلك قائد قوات الاحتلال فى أن الطريق المؤكد لابعاد الجيش المصرى عن السياسة فى تلك المرحلة من التطور ، هو تحقيق السيطرة البريطانية على الترقيات والتعيينات والاوسمة على خطوط سليمة ٠٠٠ اما العمل على استبعاد الضباط البريطانيين عن الجيش المصرى - وهو المبدأ الذى كان يعتنقه السير لى ستاك - فامامه اعتراضات قوية من وجهة النظر البريطانية :

١ - ان تعهد مصر بالضمانات التى تطالب بها بريطانيا سيصبح من الصعب تحقيقه ٠

٢ - ان الجيش المصرى سيتحول بسرعة الى جهاز سياسى

٣ - انه بالنسبة لمصلحة الحدود ، فان بريطانيا ستفقد نفوذها على القبائل فى المناطق النائية بدون الحصول على اى تعويض فى مقابل ذلك (١) ٠

واكد لويد - فى هذا السياق - ان بريطانيا تتعامل مع حكومة رفضت السماح بشرعية التحفظات الاربعة ، وانه يمكن التعامل مع اى حكومة مصرية تتمسك بالموافقة على هذه التحفظات ٠٠٠ « لا انه مع وجود برلمان معها فانه لا يمكن لاى حكومة مصرية اتخاذ سياسة ايجابية مع بريطانيا » (٢) ٠

وفى ٢٢ مارس ١٩٢٧ اقترح لويد كعملية (تكنيكية) الاتصال بالحكومة المصرية على الخطوط التالية :

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 op cit

« نحن نطالب تسوية ودية مع مصر ، وايا كانت هذه التسوية ، فانها سوف تساعدنا فى حماية مصالحنا الحيوية ، ومن بين هذه المصالح حماية مواصلاتنا الامبراطورية ، وحماية مصر من العدوان الاجنبى ونحن نتمنى ان يتحول الجيش المصرى الى قوة حديثة ذات كفاءة ، وتشكل جزءا مكملا لخطتنا الدفاعية ، ونحن مستعدون ان نمنح مصر كل المعاونات لتشكيل مثل هذه القوة طبقا لشروط خاصة طالما هى متعاونة معنا . ويجب أن يتم تدريب هذه القوة المصرية الحديثة على الخطوط البريطانية ، مع توافر العدد الادنى من الضباط (الخبراء) البريطانيين اللازمين .

« ونحن قد جذبنا الانتباه مؤخرا - اكثر من مرة - الى اتجاه غير مريح من جانب الحكومة المصرية لجعل الجيش المصرى أداة سياسية ، وهذا ما ادى الى انهيار جيوش عديدة فى مناطق كثيرة . قد صاحب ذلك مجهودات لالغاء سلطات المفتش العام والضباط القليلين الذين لا يزالون يعملون فى خدمة وزارة الحربية . وهذه الاتجاهات سوف تقضى على فرص التسوية الودية للمسالة . وانا ارجو مخلصا التوفيق فى دفع اساس الحل المرضى لكلا الدولتين ، ولذلك اطلب من مصر اعادة النظر فى موقفها .

« ومن اجل التوصل الى تسوية مؤقتة Modus Vivendi فنحن من جانبنا مستعدون للموافقة على اقتراحات معينة فى صالح مصر ، على ان تقوم مصر بالمقابل بمراعاة مصالحنا .

« واذا لم توافق الحكومة المصرية على هذه المقترحات ، فلا بد أن ان يكون واضحا انه ليس امامنا خيار ، بل إعتبار الجيش المصرى كعدو محتمل لنا ، وفى هذه الحالة سوف نضطر الى اتخاذ اجراءات وقائية بدون تأخير لحماية حقوقنا ومصالحنا » (١) .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

الا ان هذه السياسة - فى راى لويد - لا يمكن ان تكون سوى حل موقت لان الحكومة المصرية سوف تفضل فى النهاية ان تقدم استقالتها • الا ان مستشارى لويد ابلغوه ان قسما كبيرا من رجال حزب الوفد لن يعارض المطالب البريطانية ، ومع ذلك سجل لويد ان سعد زغلول هو حجر الزاوية فى الموافقة او الرفض بالنسبة لهذه المطالب (١) •

كما اضاف لويد « انه من المحتمل ان يتحقق سعد زغلول من ان مصر قد تفقد اكثر بالمخاطرة باثارة ازمة مع بريطانيا فى هذه الفترة ، لانه من المتوقع ان تجد مصر نفسها لفترة غير قصيرة بدون وزارة •••• وفى مثل هذه الحالة ، فان تسلط القصر على مجريات الامور السياسية سيكون امرا محتما » (٢) •

وعبر لويد عن اعتقاده بانه فى امكان تشمبرلن الدفاع عن مقترحاته فى مجلس العموم رغم انها بمثابة تسوية مؤقتة للمسألة ، (٣) وانه يمكن تلخيص المسالة امام الحكومة البريطانية ببساطة ، بانه لا يمكن التعامل مع اى حكومة مصرية مهما كانت متعاطفة مع الانجليز مع وجود برلمان معها ، وانه لا بد من وقفة بريطانية صلبة ضد المشروعات المصرية لاقامة الجيش المصرى القوى (٤) •

كما عبر لويد عن استيائه بالنسبة لعلاقاته مع رئيس الوزراء المصرى (ثروت) فبعد أن كانت هذه العلاقات ودية ، فانها ساءت كنتيجة حتمية لتمسك المندوب السامى بالدفاع عن المصالح البريطانية ، وان الجيش المصرى هو أخطر نقطة فى هذه المصالح (٥) •

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 79 op cit

(٥) P.R.O. F.O. (407-204) b No 87 op cit

وقد علق تشمبرلن على آراء لويد بانه من المهم - من وجهة النظر البريطانية - جعل الحكومة المصرية توافق على ممارسة الجنرال سبنكس وغيره من الضباط البريطانيين لسلطاتهم ، وان الحصول منها كتابة على هذه الموافقة بعد امرا ملزما فى انتظار عقد اتفاق نهائى بالنسبة للتحفظات الواردة فى تصريح ١٩٢٢ ٠

كما ركز تشمبرلن على اهمية تنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى للدفاع عن مصر ، وان « مزايا ذلك واضحة ٠٠٠ فاننى اقلل من المخاطرة التى قد نواجهها لو ان مصر نجحت فى دخول عصبة الامم ٠ والواقع ان ضعف موقفنا يرجع بصفة رئيسية الى ان منظمة دولية مثل محكمة العدل لن تعترف بان التحفظات الاربعة تجعل وجود جيش الاحتلال فى مصر امرا مشروعا (قانونيا) ، الا انه باتفاق عسكرى مكتوب يمكن وضع اساس للمشاركة وبموافقة كلا الطرفين ٠ كما ان مثل هذا الاتفاق بطبيعة الحال سيدعم شيئا ما مسالة ابعاد الجيش المصرى عن المسرح السياسى » (١) ٠

كما عبر لويد عن قلقه من ان يصدر البرلمان المصرى فى هذه الفترة قرارات خاصة بالجيش المصرى يضع بها بريطانيا امام الأمر الواقع Faits accompli واوضح ان مثل هذا العمل سوف يجعل اتصالاته مع الحكومة المصرية اكثر صعوبة ، وسلم بان أمله الوحيد يتركز فى محاولة اقناع رئيس الوزراء بالعمل دون ان يستسلم للضغوط من جانب الوفد والبرلمان ٠

كما طلب لويد من تشمبرلن ان يمنحه السلطة فى اتخاذ اية اجراءات ضرورية فى حالة فشله فى اعاقة البرلمان عن اتخاذ قرارات متطرفة من وجهة النظر البريطانية - وانه فى مثل هذه الظروف « ٠٠٠ فاننى ساقدم الى مجلس الوزراء فرصة للتعاون اليدى على الخطوط العامة للمذكرة

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 84 (J. 720/184/16)
Mr. Murray to Sir W. Tyrell (in Cairo) F.O. March 26, 1927.

التى سبق ان اقترحتها فى ٢٦ مارس » (١) واسترسل لويد موضحا « ان رفضه لهذا العرض البريطانى سوف يساعدنى فى اتخاذ الحل الذى اراه » (٢) ٠

وقد وافق تشمبرلن على مقترحات لويد السابقة ، كما اكد على لويد بأن لا يصور للمسئولين المصريين بأن الدافع الآلية هى مرتقبة الوصول الى مصر (٣) ٠

والواقع ان خطط لويد ومقترحاته وآراءه فى كيفية حل ازمة الجيش المصرى فى هذه المرحلة ستكون اساسا للطريقة التى عالج بها هذه المسألة الشائكة - من وجهة النظر البريطانية - وستكون كذلك اساسا لاتصالاته المكثفة فى هذا الصدد ، عملا على حل الازمة باقل قدر من الخسائر فى جانب بريطانيا وباقل قدر من التدخل فى الشئون المصرية ٠

اتصالات لويد لحل الأزمة :

فى اوائل مايو ١٩٢٧ ، بدأ لويد اتصالاته المكثفة مع المسئولين المصريين لاجهاض تلك الفورة الوطنية من اجل بناء الجيش المصرى القوى ، فهو بعد الدراسات التى اعدها ، والمراسلات العديدة التى تبادلها مع المسئولين فى وزارة الخارجية البريطانية ، بدأ خطة العمل بهذه الاتصالات ٠ فبدأ فى بداية مايو ١٩٢٧ بمقابلة مع الملك فؤاد ، وتطرق الحديث بينهما عن ازمة الجيش المصرى ٠ وقد امتدح الملك التدخل الانجليزى فى شئون جكشه ، واوضح ان هذا التدخل ليس فقط خطوة متعقلة بل انها متأخرة ايضا ٠ واعتبر لويد ان اراء الملك معقولة ومعتدلة ٠ ثم سعى المندوب السامى بعد ذلك - واثناء مقابلته مع الملك - فى

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit

(٢) P.R.O. F.O. (407 204) b No. 85 (J. 743/184/16
No. 98 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, March 27, 1927.

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No. 88 (J, 922/184/16)
No. 101 Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd (Cairo) F.O. April 13, 1927.

تمميق الهوة بين الملك وحزب الوفد باشارته الى أن من اهداف الوفد الاطاحة بالاسرة المالكة • وفى النهاية استخلص لويد من الملك وعدا بان يبذل جلالته كل مساعيه لضمان الموافقة على المطالب البريطانية ، كما اوضح بان ثروت باشا (رئيس الوزراء) سوف يسعى للموافقة عليها ، ولكنه شكك فى موقف سعد زغلول •

اما ثروت فقد أوضح ـ اثناء مقابلة له مع المندوب السامى فى نفس الفترة ـ عن امله فى أن يكون قادرا على تلبية الرغبات البريطانية ، الا انه طلب جعل هذه المسألة شخصية وغير رسمية حتى يجد الفرصة لمناقشتها مع الملك وفى اجتماع مجلس الوزراء ، وقد وافق لويد على ذلك ، ولكنه علق بانه سوف يؤكد بأن الحكومة البريطانية لن توافق على سياسة التسويف وأن موقف المفتش العام يجب أن يتحدد فى القريب العاجل (١) •

ويبدو أن ضغط ازمة الجيش كان كبيرا على الحكومة البريطانية ، حتى انها قامت بعدة اتصالات دولية بخصوص هذه الازمة ، ففى ١٠ مايو ١٩٢٧ استدعى المندوب السامى السفير الفرنسى فى القاهرة ، المسيو جيلارد Gaillard وابلغه باتجاهات الحكومة البريطانية بالنسبة لأزمة الجيش المصرى ، وقد ابدى الممثل الفرنسى موافقة حكومته الكاملة على السياسة البريطانية ، كما عبر عن وجهة نظره فى ان الحكومة المصرية قد تفضل الموافقة على المطالب البريطانية على المخاطرة برفضها (٢) •

كما ان السنيور موسولينى ارسل الى سفيره فى القاهرة فى نفس الفترة ، يطلب ابلاغ المندوب السامى تعاطفه واستعداده لبذل أى مساعدة بالنسبة للصعوبات التى تواجه بريطانيا مع الحكومة المصرية بالنسبة

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 90 (J. 1217/184/16)
No. 172 Lord Lioyd to Sir Austen Chamerlain. Cairo, May, 9, 1927.

(٢) P.R.O. F.O.(407-204) b No 91 (J. 1222/184/16)
No. 175 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 10, 1927.

لأزمة الجيش (١) .

واستمر لويد فى اتصالاته المكثفة مع المسئولين المصريين ، فقابل ثروت باشا مرة اخرى فى ١٢ مايو ١٩٢٧ وعرض عليه خطة للتعاون الودى فى الامور الحربية بتعليمات من الحكومة البريطانية . الا ان رئيس الوزراء اوضح بأن المطالب البريطانية غير معقولة ، وأبرز شكوكه بالنسبة لمساعدة سعد زغلول فى الموافقة على هذه المطالب . واضاف رئيس الوزراء انه سوف يزور سعدا فى مزرعته بالريف ويناقش معه تطورات الازمة . كما تساءل ثروت عما اذا كانت بريطانيا ستوافق على مقترحاته الخاصة كجعل الضباط الانجليز فى الجيش المصرى على شكل بعثة عسكرية ، فأجاب لويد بأن الحكومة البريطانية مستعدة للموافقة على هذه المسألة الشكلية لمساعدته امام البرلمان وامام الرأى العام المصرى ، ولكن مع ضمان السلطات والاختصاصات الضرورية للمفتش العام . ولم يستطع لويد ان يستخلص شيئا من كلمات ثروت باشا ، ولكنه استنبط أن ثروت سوف يزور سعد زغلول فى منزله الريفى ومعه كل اعضاء مجلس الوزراء لمناقشة الازمة (٢) .

وبدا أن سعدا هو حجر الزاوية فى الموافقة او عدم الموافقة على المقترحات البريطانية .

ولم يهدأ لويد ، بل قابل الملك فؤاد مرة أخرى فى منتصف مايو ١٩٢٧ ، واوضح الملك انه يبذل قصارى جهده لاقناع رئيس وزرائه بالموافقة على المطالب البريطانية ... الا ان لويد سجل بانه قد تبين له مدى تقييد الدستور المصرى للملك ... هذا بالاضافة الى انه لو قام الملك بتدعيم موقف البريطانيين فانه سوف يتهم بالخيانة العظمى وقد يمنعه المتطرفون من السفر الى لندن لكى لا يزيد من هذه الخيانة ،

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No No 95 (J, 1346/8/16)
No. 195 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain, Cairo, May 22, 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 92 (J, 1268/184/16)
No. 80 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 13, 1927.

هـذا بالاضـافـة الى ان الملك نفسـه ـ طبقا لكلمـات لويـد ـ كـان متمسكـا بعدم اجراء اى عمل منـاف للدستور ٠

وفى المقابلة التاليـة مـع ثروت ، فهم لويـد أن ثروت لـم يقم بزيـارة سعد فى منزله الريفى ، وأن كل رجـال الوفـد كانوا فى بيت سعـد ما عـدا وزيـر الحربيـة الجديـد ٠ وفسر رئيس الوزراء سبب عـدم زيارته لسعد، بانه لم يرد أن يفهم العـامة بأن الزيـارة تمت بنـاء على استدعـاء سعد له ٠ هـذا بالاضـافـة الى ان موقفه سيكون صعبـا عنـد مناقشـة ازمة الجيش وهو فى قبضـة رجـال حزب الوفـد ، وانه يفضـل اتخاذ قـراره مستقلا ٠

ومع ذلك ، اكـد ثروت باشـا اهمية مقابلة سعد زغلول بوصـفه رئيس الأغلبية فى البرلمان ، وانـه سيدعوه الى مقابلته عند عودتـه من منزله الريفى الى القاهرة ٠ وترجع اهمية ذلك ـ فى راى رئيس الوزراء ـ الى انه سوف تثور فى البرلمان مناقشـات حامية ضـد المقترحـات البريطانية ، وكذلك ستثور مناقشات بالنسبة للعلاقة بين هذه المقترحـات وتصريح ١٩٢٢ ، ونظارية المسئولية الوزاريـة ٠ واضـاف رئيس الوزراء انـه لا يستطيع انكـار ان مذكرة سوف تقـدم الى مجلس النواب توصى بالغـاء السردارية واستبعاد المفتش العـام من مجلس الجيش ، وان هـذه المذكرة يظاهرهـا عـدد كبير من اعضـاء البرلمان الوفديين ٠ وعبر رئيس الوزراء عن قلقـه الشديد امـام هذه الأزمـة وانه يتوق الى حل سريـع لهـا حتى يمكن تلافى اية مشكلات فى المستقبـل ، لان البرلمان مستعد تماما لمهاجمـة اى عمـل من جانب الحكومـة يقدم « العمـل الودى » كعمـل ممكن تجـاه بريطانيا ٠

واضـاف رئيس الوزراء ـ خلال لقـائه مـع لويـد ـ بأنه سيبذل جهده كى يستميـل اعضـاء البرلمان الى جانبه ، وانه اذا استطاع ان يهـزم سـعد زغلول فانه يكون قـد كسب نصف المعركة ٠

الا ان لويـد ابرز للملك فؤاد ولثروت باشـا خطورة تأخـر حـل الأزمة ، وان المفتش العـام يعمـل بلا عقـد منذ أول ابريـل ١٩٢٧ ، وانه

ـ اى المندوب السامى ـ اذا كان يعالج الازمة بطريقة غير رسمية ، فانه يجب عدم اغفال ان كل المراسلات بينه وبين ثروت هى كلهـا مراسلات رسمية • وهنا أوضح ثروت انه بعد مقابلته لسعد زغلول يمكنه أن يجيب على المطالب البريطانية فى ضوء هذه المقابلة • الا أن لويد علق على ذلك بقوله « ان رئيس الوزراء المصرى لم يعط اى تأكيدات، وانه قد يكون مماطلا ، ويسعى لكسب الوقت » (١) •

ولم ينس لويد ان يقابل وزير الحربية جعفر والى باشا فى ١٩ مايو ، الا أنه لم يدخل معه فى تفصيلات المطالب البريطانية بخصوص الجيش المصرى لأن ثروت باشا كان قد طلب منه ترك المسألة له ليحلها هو بطريقته الخاصة • وقد رحب الوزير بالسياسة البريطانية القائمة ، باعتبارها موجهة ضد حزب الوفد ، كما الح فى وجوب الاعتماد عليه لضمان تحقيق حل للأزمة يتفق مع رغبات الحكومة البريطانية ، وانه قد عقد علاقات حسنة مع المفتش العام (٢) •

وفى بداية الاسبوع الاخير من شهر مايو ، قابل المندوب السامى الملك فؤاد مرة اخرى ، وأوضح الملك انه حث رئيس الوزراء بقوة للموافقة على المطالب البريطانية الخاصة بالجيش المصرى ، وانه مع وجود صعوبة جانبية بالنسبة لاختصاصات السردارية ، فان كل شىء يسير سيرا حسنا (٣) •

كما قابل لويد رئيس الوزراء مرة اخرى فى نفس هذه الفترة ، وشعر انه يماطل من اجل كسب الوقت ، فأرسل له مذكرة تلخص مطالب الحكومة البريطانية ، ومبنية على مذكرته التى سبق أن ارسلها

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 93 (J. 1310/184/16)
No. 186 Lord Lioyd to Sir Austen Chamerlain. Cairo, May 17, 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 94 (J, 1322/184/16)
No. 188 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 19, 1927.

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 96 (J, 1337/184/16)
No, 201 Lord Lioyd to Austen Chamberlain. Cairo, May 24, 1927.

الى وزارة الخارجية البريطانية فى ٢٢ مارس ١٩٢٧ (١) ٠

واكد لويد لثروت باشا مرة اخرى ان الحكومة البريطانية ترحب بفرصة وضع المطالب البريطانية فى خطة أكبر للتعاون ، حيث يمكن للجيش المصرى أن ينسق مع القوات البريطانية فى مصر لوضع خطة شاملة للدفاع عن البلاد وأنه يرحب بأى مقترحات مصرية فى هذا الصدد ٠

كما أورى لويد - انه اذا ما رغب ثروت - فانه يمكنه مقابلة سعد زغلول والتباحث معه للتوصل الى حل للأزمة ، ولكن ثروت باشا طلب منه ارجاء هذه المقابلة حتى يمكن له مقابلة سعد باشا اولا وطبقا لكلمات لويد ، فان موقف ثروت بدا يرثى له أمام تأثير سعد زغلول الساحق على نواب البرلمان ٠

ولم يلبث ان عاد ثروت وابلغ المندوب السامى بأن سعد زغلول فضل تأجيل مقابلته الى ما بعد تسوية ازمة الجيش بطريقة مريحة ٠٠ وفى وسط هذه الدوامة من المقابلات والاتصالات والمراسلات ، سجل لويد « أن الجو العام سيىء جدا وان المناخ السياسى ملىء بالغيوم السوداء » واضاف لويد « ان البلد يبدو هادئا ، الا ان الحكومة البريطانية يجب ان لا تنسى أن احداث ثورة ١٩١٩ قد وقعت وهى فى غفلة عنها » ٠

وعلى أية حال ، فقد عاد ثروت مرة أخرى وقدم اقتراحا مضادا وافق عليه سعد زغلول يقضى بأنه عند الغاء السردارية . فانه يمكن استحداث وظيفة رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى على ان يحتلها ضابط بريطانى ، بالاضافة الى المفتش العام البريطانى ايضا ، فطلب لويد من ثروت تقديم هذا الاقتراح كتابة ، الا ان ثروت لم يقدم هذا الاقتراح مكتوبا ٠٠ ولكنه عاد مرة اخرى وقدم عرضا جديدا يقضى بان يكون كل من رئيس هيئة أركان حرب الجيش والمفتش العام - وكلاهما انجليزى - فى رتبة واحدة ٠ وأن يحل الاول محل السردار ، ويستحوذ على كل سلطاته ٠ الا أن لويد اثناء مناقشة هذا العرض ،

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No 82 op cit.

اوضح ان العمل لا بسير حسنا بين ضابطين بنفس الرتبة ، الا ان رئيس الوزراء اجاب على ذلك بان مستشاريه العسكريين ليس لديهم اعتراض على ذلك ، باعتدار أن الاقدم فى نفس الرتبة يعطى التعليمات للأحدث فى نفس الرتبة ، وبمعنى آخر ان يكون رئيس هيئة أركان حرب الجيش اقدم من المفتش العام رغم انهما فى رتبة واحدة ·

ورويدا رويدا بدا ثروت باشا يكشف عن رايه بصراحه ، وكذلك راى الزعماء السياسيين ·· فاوضح « أن هناك بعض المسائل القانونية قد تؤدى الى بعض الصعوبات ، وان بعض الزعماء قد اثاروا مسالة ان الجيس المصرى لا يدخل فى اطار التحفظات الاربعة ·· واكثر من ذلك ، فان المادة السابعة من قرار تشكيل مجلس الجيش تعطى لوزير الحربية الحق القانونى الواضح للتدخل فى كل التعيينات والترقيات والأوسمة ، وبتوصية من لجنة الضباط ، وان الحكومة المصرية لا يمكنها ان تسلم فى هذا الحق » كما اضاف ثروت انه ليس هناك اى امل فى اقناع البرلمان بتعديل ذلك القانون ، كما انه غير قادر على اقناع الوزراء بالموافقة على تغيير تبعية مصلحة الحدود وجعلها تحت الاشراف البريطانى · فاوضح المندوب السامى لثروت باشا عن خيبة امله ، وانه حتى بالنسبة للاقتراح الخاص بتعيين رئيس لاركان حرب الجيش المصرى، فانه لا يوجد ضابط بريطانى يحترم نفسه يتقبل هذا المنصب فى مثل هذه الظروف ·

وعلق لويد على هذه المقابلة مع رئيس الوزراء بان « علينا أن نتخذ خطوات اخرى لتأمين مصالحنا » كما ابرق الى تشمبرلن بأن « رئيس الوزراء المصرى مماطل » (١) ·

وفى الاسبوع الاخير من مايو شعر لويد ان سعد زغلول يتدخل فى المسالة عن طريق وزراء الخارجية والاشغال العمومية والمواصلات ، الذين اختاروا وجهة نظر وطنية فى مواجهة المطالب البريطانية الخاصة بالجيش

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 96 op cit

المصرى • وقد ارجع لويد هذا التحول Volta Fare من جانب هؤلاء الوزراء بعد ان كانوا قد وافقوا على هذه المطالب البريطانية الى خوفهم من الاتجاه المعارض للنواب الوطنيين ، والى اقتناعهم بأنه ليس فى امكانهم التصدى للعاصفة التى سوف تثيرها موافقتهم على المطالب البريطانية فى البرلمان • ويجب ان نشير فى هذا الصدد الى انه فى اجتماع لحزب الوفد فى بداية الاسبوع الاخير من مايو ، كرر سعد زغلول عزمه على رفض المطالب البريطانية ، ووافق الحاضرون على رايه بالاجماع (١) •

ولم ينس لويد - غمرة تحركاته - مقابلة عدلى يكن ايضا فى ٢٤ مايو ، وناقش معه ازمة الجيش ، وعبر عدلى عن جهله الكامل بالموضوع رغم ان عملاء لويد السريين كانوا قد أبلغوه - طبقا لكلماته - ان عدلى كان قد قام بمباحثات فى الموضوع مع ثروت وسعد قبل مقابلته للويد ببضعة أيام • وعلى اية حال ، سجل لويد ان عدلى « كان وديا اثناء المقابلة ، وانه سيبذل كل جهده لاقناع الحكومة بأنه من الحماقة معارضة اقتراحاتنا » •

وتطورت الامور بسرعة ، ففى ٢٤ مايو تسلم لويد مذكرة خاصة من رئيس الوزراء تمسكت فيها الحكومة المصرية رسميا بالنقط التالية على اسس قانونية :

١ - ان الجيش المصرى لا يدخل ضمن اى من التحفظات الاربعة الواردة فى تصريح ١٩٢٢ ، وان لمصر مطلق الحرية بالتالى للعمل فى هذا القطاع •

٢ - ان توصيات لجنة الضباط خاضعة لموافقة وزير الحربية •

٣ - ان الاقتراح الذى قدمه رئيس الوزراء بتعيين رئيس لهيئة اركانحرب الجيش المصرى هو نابع اساسا من الرغبة فى تلبية احتياجات

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b No, 97 (J, 1383/184/16)
No. 202. Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 25,1927.

الجيش وابعاده عن اية اعمال لها طبيعة سياسية . ومن ثم تام المندوب السامى بمقابلة الملك فؤاد وابلغه بما جاء فى مذكرة رئيس الوزراء ، وقد انزعج الملك كثيرا من هذا النبأ ، خصوصا وانه كان على شفا سفر الى لندن ، وقد تعهد الملك بتدعيم المطالب البريطانية ، وعلق لويد على ذلك « ليس هناك من شك فى ولائه ، فهو افضل المساعدين لنا » (١) وعلى أية حال ، جاءت الانباء الى لويد بأن البرلمان سوف يناقش مشروع ميزانية الجيش المصرى للعام التالى فى يوم ، ٢٥ مايو ، (٢) فقرر ارسال مذكرة خاصة يكرر فيها المطالب البريطانية المعروفة طبقا لراسلاته السابقة فى هذا الصدد . (٣) .

المذكرة البريطانية الى الحكومة المصرية :

من التسلسل السابق ، يتضح أنه فى الاسبوع الاخير من مايو ١٩٢٧ وقعت احداث خطيرة بالنسبة لازمة الجيش ، فقد وجه ثروت باشا بصفته الشخصية مذكرة رفض فيها اى حق قانونى للحكومة البريطانية فى التدخل فى شئون الجيش المصرى ، كما ان البرلمان المصرى امتلا بمناقشات عنيفة معادية لبريطانيا ، وتضمنت هذه المناقشات مطالب باعادة تشكيل مجلس الجيش واستبعاد المفتش العام من عضويته . وبدا أن البرلمان سوف يبحث المسالة برمتها فى الايام الاخيرة من شهر مايو ... واعتبر لويد انه من الاهمية بمكان القيام بعمل مضاد وبطريقة فورية . وهكذا اعد مشروع مذكرة يحتوى على المطالب البريطانية للتصديق عليه (٤) . ولا يختلف هذا المشروع عما

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No 99 (J. 1388/184/16)
No. 203 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 24,1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b No 101 (J 1389/184/16)
No. 207 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain Cairo May 25, 1927.

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b No 99 (J. 1334/184/16)
No. 204 Lord Lloyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 24, 1927.

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b No 174 Memorandum reviewing
the Egyptian Army Crisis. C.M. Palairet. F.O. June 29, 1927.

سبق ان أرسله من مذكرات تطالب بمكانة كبرى للمفتش العام وتعيين مساعد له ، والسيطرة البريطانية على لجنة الضباط وعلى مصلحة الحدود (١) ٠

وقد اجابت وزارة الخارجية البريطانية على المندوب السامى بثلاث برقيات توضح فيها وجهة نظرها ، ففى البرقية الاولى ، وافقت وزارة الخارجية من ناحية المبدأ على مشروع المذكرة الذى كان لويد قد رفعه اليها ، الا ان تشمبرلن لم يوافق موافقة صريحة على كل ما جاء فى المذكرة ، فقد أوضح أنه قد فهم من مراسلات لويد السابقة أن الحكومة المصرية غير قادرة على مواجهة البرلمان « ٠٠ لأنه لن يوافق بحال على مطالبنا ، وان علينا أن نطلب من الملك فؤاد حل البرلمان ، وأن نعتمد نتيجة لذلك على جلالته فى تشكيل حكومة نستطيع التعامل معها ٠٠٠ وانه فى مثل هذه الظروف ستكون هناك فرصة للتوصل الى تسوية شاملة افضل من التى نطالب بها الآن » (٢) ٠

ثم بدا تشمبرلن يعدل فى مشروع المذكرة التى اقترح لويد ارسالها الى الحكومة المصرية (٣) ٠ واخيرا ارسل تشمبرلن فى برقيته الثالثة مذكرة تمكن لويد من ارسال مذكرة الحكومة البريطانية على ضوئها الى الحكومة المصرية ٠ وقد ركز تشمبرلن فى هذه المذكرة على اهمية صياغة اتفاق بين الحكومتين ، تتعهد الحكومتان بمقتضاه على تنسيق التعاون بين الجيش المصرى ، والجيش البريطانى للدفاع عن مصر ضد اى عدوان خارجى ٠ كما نصت المذكرة ايضا على مسئولية الحكومة البريطانية عن تدعيم الجيش المصرى بالخبراء البريطانيين اللازمين ، هذا بالاضافة الى مسئولية الحكومة البريطانية عن امداد الجيش المصرى بالأسلحة والذخائر ، على أن لا تحاول الحكومة المصرية الحصول

---

(١) P.R.O. F.O (407-204) b, No. 82 op. cit.

(٢) P.R.O. F.O (407-204) b No 102 (J 1389/184/16)
No. 153 Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd. F.O May, 27, 1927

(٣) P.R.O. F.O (407-204) b, No. 103 (J. 1389/184/16)
No. 154 Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd. F.O. May 27, 1927

على هذه الاحتياجات من مصدر آخر غير بريطانيا (١) .

وقد علق لويد على فكرة مشروع الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية ، بأنه « يحقق حلا ممتازا ، وانني سأبذل كل جهودى لضمان تحقيقه » (٢) .

وبعد ذلك اعد لويد مذكرة مطولة تضم كل المطالب البريطانية من الحكومة المصرية ، وارسلها الى تشمبرلن كى يحصل منه على الموافقة النهائية حتى يمكنه ارسالها الى الحكومة المصرية (٣) . وبعد دراسة عميقة لمسودة هذه المذكرة ، اجاب تشمبرلن بملاحظات عليها بالنسبة لبعض النقط وحاول التقليل من عنف كل ما بها ، (٤) واضافة بعض المقاطع اليها ، مع تعديل البعض الآخر ، مع تبيان ان تنفيذ المطالب البريطانية الواردة فى هذه المذكرة ، سوف يؤدى الى صالح الطرفين (٥) .

وحاول لويد فى غضون هذه الفترة أن يصور لتشمبرلن الموقف المضطرب والمعادى للبريطانيين فى مصر .. ففى ٢٧ مايو قدم مجلس الجيش توصياته القاضية بالغاء السردارية لتعارضها من ناحية المبدأ مع المسئولية الوزارية ، وأوصى المجلس كذلك باعادة تشكيل مجلس الجيش مع استبعاد المفتش العام (الانجليزى) من عضويته ، وكذلك الغاء لجنة الضباط . هذا بالاضافة الى أن حزب الوفد ابرز عن سلوكه المعادى تماما للانجليز ، وحاول مقاومة المطالب البريطانية باى ثمن ومهما كلفه الامر Coûte que Coûte وسجل لويد انه فى مثل هذه الظروف، فاننا لا يجب أن نعطيهم اى انطباع عن خوفنا من هذا التحدى : فاى

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 105 (J. 1389/184/16)
No. 156 Sir Austen Chambreain to Lord Lioyd, F.O. lMay 27, 1927.
(٢) P.R.O. F.O (407-204) b. No. 115 (J. 1466/8/16)
No. 211 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 31,1927
(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 (J. 1392/184/16)
No. 206 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 25,1927
(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 103 op. cit.
(٥) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 105 op. cit.,

تصرف قد يفهم منه انه ضعف من جانبنا سيؤدى لا محالة الى فرص الالتجاء الى العنف (١) .

كما ابلغ لويد تشمبرلن ايضا فى ٢٨ مايو انه فى اجتماع للهيئة التنفيذية لحزب الوفد فى منزل سعد زغلول فى يوم ٢٧ مايو ، قرر المجتمعون عدم التراجع عن اى بند من بنود مشروع ميزانية وزارة الحربية التى سبق واعترض عليها المندوب السامى ، كما قرروا مقاومة المطالب البريطانية مهما كانت النتائج ، (٢) وتنظيم المقاومة عند التصويت فى البرلمان . واشار بعض المتحدثين فى هذا الاجتماع الى ان سياسة الاعتدال القائمة قد وضعت حزب الوفد فى حالة فقدان السمعة ، وان الوقت قد حان للعودة الى السياسة التقليدية ، اى العداء الشديد للبريطانيين .

وفى يوم ٢٨ مايو ـ وفى انتظار وصول موافقة الخارجية البريطانية على مشروع المذكرة التى اقترح المندوب السامى ارسالها الى الحكومة المصرية ـ قام لويد بمقابلة الملك فؤاد لمعرفة مدى جهوده لاقناع رئيس الوزراء بالاستجابة للمطالب البريطانية ، وطبقا لما كان قد وعد به جلالته . ولكن لويد سجل بان اسلوب الملك كان متخاذلا ، وانه عبر عن فشلة فى اقناع ثروت بالاستجابة لهذه المطالب ، وان سعد زغلول متصلب تماما فى رأيه القاطع بالرفض ، لان حزب الوفد يسعى لاستعادة مكانته التى اخذت فى الهبوط ـ طبقا لكلمات الملك ـ وذلك باستغلال مسألة الجيش المصرى كذريعة لتفجير العداء مع انجلترا . كما استفسر الملك عما يجب ان تفعله الحكومة المصرية فى حالة رفض المطالب البريطانية .. هل سيطلب منه حل البرلمان ؟ وهنا حذر الملك بانه فى مواجهة حزب الوفد فانه سيجد انه من الصعوبة بمكان ان يفعل ذلك .. وان هذا الطلب هو

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 108 (J. 1421/184/16)
No. 213 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 28, 1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 110 (J. 1422/8/16)
No. 214 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 28,1927

بمثابة دعوته الى ارتكاب انتحار سياسى . وسجل لويد أن الملك بدا خائفا تماما ، وان كانت صداقته مؤكدة لبريطانيا (١) .

وظلت الأزمة تشتد وتمتد ، وطلب لويد من تشمبرلن ارسال سفينتين حربيتين الى الاسكندرية وسفينة حربية الى بور سعيد كنوع من الارهاب عن طريق مظاهرة بحرية مسلحة ، واكد لويد أن هذا الاجراء سيكون له تأثير فعال ، وأنه سيسمح بتأمين النفوذ البريطانى فى الميناءين فى حالة حدوث أى اضطرابات مفاجئة « تخطط لها الآن بلا شك قطاعات مختلفة من حزب الوفد » (٢) .

وفى هذه المرحلة ، طلب تشمبرلن من لويد نصح الملك فؤاد بعدم مغادرة الاراضى المصرية – بعد أن كان مزمعا السفر الى لندن – حتى يتم حل الازمة (٣) .

والواقع ان موقف الملك فؤاد كان صعبا .. اذ لم يكن من المتوقع منه ان يوافق فى ذلك الوقت على المطالب البريطانية الا فى حالة من الحالات الآتية :

١ – أن تقع مسئولية حل البرلمان على كاهل الانجليز ، وبذا يبدو الملك وكأنه قد خضع لقوة قاهرة ، وانه غير مسئول عما حدث .

٢ – أن تمنحه بريطانيا ضمانات مؤكدة بمساعدته فى كل الظروف

٣ – أن تسمح له بريطانيا بالغاء الدستور .

والاعتراض على الحالة الثانية – من وجهة النظر البريطانية – هو ان الملك فؤاد غير محبوب من شعبه ، وان اعتماده على التأييد البريطانى لضمان مكانته ، سيزيد بلا شك من كراهية الشعب المصرى له ، بل

---

(١) P.R.O. F.O. F.O. (407- 204) b. No 111 (J 1423/8/16) No. 215 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 28,1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 112 (J. 1424/8/16) No 216 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, May 28,1927

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 113 (J. 1423/8/16) No. 162 Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd F.O. May 30, 1927

سيجعله مكروها » بينما نظل نحن (الانجليز) نحمــل الطفـل » To carry the boy حسب التعبير الانجليزى ٠

اما الاعتراضات بالنسبة للحالة الثالثة من وجهة النظر البريطانيــة فهى أكثـر « لأنه اذا أخذنـا فى حسـابنـا موقف الفئـات السياسية المنظمة

فقط ، ولم نأخـذ فى الاعتبار تلك الوطنيـة المفرطـة لدى باقـى المجتمع المصرى ، فسـيكون تقديرنـا خاطئا ، لان المشـاعر الوطنية عند العـامة مضـافة الى الاهتمام الشخصى لدى السـياسيين المحترفين ، وجـدت هدفهـا فى الدستور ٠ والمصريون قـد يشتكون من البرلمان ، ولكنهم اذا ما حرموا منه ، فانهم سوف يتحدون فى ثورة عارمـة لاعادته ٠ وستكون تلـك الثورة موجهـة ضدنـا (الانجليز) لاننـا منعناه عنهم ٠ ومن المحتمل جـدا انه فى مثـل هـذه الظروف ان نلجـأ الى استخدام اجراءات عنيفـة للمحافظة على النظـام ، وفى نفس الوقت ، اذا ما كنـا مرتبطين باى تعهـد تـم منحه للملك ، فلن نكون فى موقف يســمح لنـا بأن نعبـد الحيـاة النيابية ٠٠٠ والواقـع انه ليس امامنـا سوى السير طبقـا للسبيل الاول ، ولكن علينـا أن نكون مستعدين لمواجهـة حالة من اضطرابـات والقـــلاقل فى مصر » (١) ٠

وهكذا نستخلص من التحليـل السابق ان الوضع الامثل لحل الازمـة - من وجهـة النظـر البريطانيـة - انما يرتكز على اضطلاع الانجليز وحدهم بالحل عن طريق حل البرلمان او التلميح بذلك ، مما يؤدى الى خـــوف السياسيين من الغـاء الدستور ، ومن ثـم تراجعهم عن الموقف المتصلب الذى وقفوه امـام المطالب البريطانية ٠

وعلى اية حـال ، تم فى ٣٠ مايو ١٩٢٧ تســليم مذكـرة الحكـومة البريطانيـة الى الحكومـة المصريـة بعـد تنقيحهـا وتعديلهـا عـدة مرات طبقـا للمراسلات المتبادلة بين لويـد وتشمبرلن ٠ وقـد ابلغ لويـد ثروت باشـا بأن « المذكرة كمـا سوف يرى قـد صيغت طبقـا لاكثـر الشروط

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

ودية ، وانها اعدت باسلوب يسهل عليه الحصول على الموافقة عليها ... » وحكومة جلالة الملك - الواثقة من مشاعره الودية تجاهها - تعتمد عليه فى بذله لكل جهوده لضمان الموافقة الكاملة عليها فى مجلس الوزراء والبرلمان ، وأن اتجاه آخر سوف يؤدى الى ازمة خطيرة جدا فى العلاقات بين البلدين » .

وقد قرا ثروت باشا المذكرة جيدا ، وأوضح بأن لهجتها الودية سوف تساعدة كثيرا فى التصدى لموقف الوفد المناوئ Vis avis واكد للمندوب السامى بانه سيبذل كل جهوده لاحتواء الازمة التى بزغت .

واذا كان لويد لم يضع حدا زمنيا لاجابة رئيس الوزراء على المذكرة ، فانه اكد له بأن الاجابة عليها ملزمة تماما .

وعلى اية حال سلم لويد ثروت باشا نص المذكرة فى ٣٠ مايو طبقا لما سجله لويد فى مراسلته لتشمبرلن فى ٣١ مايو من ان « ثروت قام بزيارتى أمس (٣٠ مايو) وقد سلمته مذكرة حكومة جلالة الملك بخصوص الجيش المصرى » (١) وان كان عبد الرحمن الرافعى قد ذكر أن تسليم المذكرة للحكومة المصرية كان يوم ٢٩ مايو ، (٢) كما ذكر الزميل والصديق الاستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان أن تسليم هذه المذكرة للحكومة المصرية كان يوم ٣١ مايو ١٩٢٧ (٣) .

وقد نصت تلك المذكرة الخطيرة على سلسلة من الاجراءات الخاصة بالجيش المصرى بهدف فى التوصيل الى تسوية ودية مع مصر بالنسبة للأمور المختلفة القائمة بين الدولتين (٤) وانه أيا كانت هذه التسوية ، فان الحكومة البريطانية ترى انه يجب على مصر ان تساعد بريطانيا على الدفاع عن مصر من العدوان الاجنبى ، وعلى حماية المواصلات

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 114 (J. 1553/8 /16)
Sir Austen Chamberlain to Lord Lioyd. F.O. June 2, 1927

(٢) عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية جـ ١ ص ٢٧٣

(٣) د . عبد العظيم رمضان - الجيش المصرى فى السياسة ص ٢٣٤

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op cit

الامبراطورية ، كما نصت المذكرة ايضا على رغبة الحكومة البريطانية فى جعل الجيش المصرى قوة حديثة تتحلى بالكفاءة ، وتشكل جزءا من خطة الدفاع عن البلاد ، وهى لذلك مستعدة لان تقدم كل مساعدة ممكنة على ايجاد مثل هذه القوة ، بشرط ان تكون مدربة طبقا للقواعد البريطانية وباقل عدد من (الخبراء) البريطانيين لان هذه القوة ستدعى لتنسيق التعاون مع القوات البريطانية فى مصر ٠

الا ان المذكرة — من ناحية اخرى — اوضحت انه قد لوحظ فى الأيام الاخيرة أن هناك اتجاها مقلقا يرمى الى اقحام النفوذ السياسى فى الجيش المصرى ، وأن هذا الاتجاه برز باشكال مختلفة ، وانه قد تم جذب انتباه رئيس الوزراء المصرى الى خطورة هذا الامر عدة مرات ، كما سبق جذب انتباه سلفه واضافت المذكرة أن الاتصالات مع رئيس الحكومة المصرية فى هذه المسالة كانت غير رسمية ، الا انه نتيجة لقلق الحكومة البريطانية أمام تهديد مصالحها بطريقة مباشرة ، فانها فضلت التدخل بادنى درجة من درجات التدخل — طبقا لما تسمح به الظروف — فى الشئون المصرية ٠

وهذا الاتجاه — اقحام النفوذ السياسى فى الجيش — ادى الى فشل جيوش عديدة من قبل ، واخيرا ارتبط هذا الاتجاه بمحاولات فعالة لتقليل اختصاصات المفتش العام للجيش ، وكذلك الضباط البريطانيين القلائل الذين يعملون فى المصالح المختلفة التابعة لوزارة الحربية ٠ وهذه المحاولات لقيت مؤخرا تأييدا فى بعض ما اوصت به لجنة الحربية البريطانية فى تقريرها الذى نشر حديثا ، وسيطرح للمناقشة قريبا فى البرلمان ، وترى الحكومة البريطانية ان الموافقة على هذه التوصيات تقلل كثيرا من الفرص التى تتهيأ للتسوية الودية لهذه المسالة الهامة بين مصر وبريطانيا ، ولذلك فانها تدعو الحكومة المصرية الى اعادة النظر فى موقفها بغير ابطاء ٠

كما اوضحت المذكرة ان الحكومة البريطانية — من اجل التوصل الى التسوية الودية — مستعدة للموافقة على توصيتين : الاولى بخصوص تخفيض الخدمة العسكرية الاجبارية من ٥ الى ٣ سنوات ، رغم أن هذه التوصية كانت هناك معارضة معلنة بالنسبة لها بخصوص زيادة الاحتياط المدرب ، وثانيا رفع كفاءة ٩ كتائب مشاة الى تدعيم أفضل ، وتحقيق زيادة

سريعة فى قوات المشـاة (حملة البنادق) فى الجيش اصرى بأكثر من ١٦٠٠ جندى والمساعدة من جانب الحكومة البريطانية لمصر من اجل تشكيل قوة جوية مصرية ٠

وفى المقابل ، طلبت الحكومة البريطانية ـ طبقا لنص المذكرة ـ تحقيق الآتى :

١ ـ وجوب تمكين المفتش العام للجيش المصرى من ممارسة الاختصاصات التى سبق ان فوضها له هدلستون باشا فى يناير ١٩٢٥ ، اذ هى لم تلغ قط ، وانه لهذا الغرض يجب ان يمنح رتبة الفريق ورواتبه ومخصصاته ، وان يوقع معه عقد لمدة ثلاث سنوات على الاقل وبصفة فورية ٠

٢ ـ اذا بقيت لجنة الضباط على شكلها الحاضر ، فيجب على وزير الحربية أن لا يتأخر فى ان يرفع الى صاحب الجلالة ملك مصر توصيات هذه اللجنة فيما يتعلق بالتعيينات والترقيات والاوسمة ، والامور الخاصة بالضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى بصفة عامة ٠

٣ ـ أن يعين ضابط بريطانى كبير برتبة لواء ليكون مساعدا للمفتش العام ينوب عنه فى غيابه ، ويقوم بالاعمال التى يقوم بها المفتش العام نفسه ٠ وهذا الضابط ـ مساعد المفتش العام ـ يحل محله فى غيابه ، أو عندما يكون قائما بأعمال المفتش العام أقدم ضابط بريطانى يكون موجودا فى ذلك الوقت ٠

٤ ـ يجب ان تكون مصلحة الحدود (ومصلحة خفر السواحل اذا نفذ الادماج الذى تقرر اخيرا) تحت اشراف المفتش العام البريطانى للجيش أو نائبه فى غيابه ٠ ويمكن بدلا من ذلك ان يكون المدير العام لهذه المصلحة ضابطا بريطانيا ، كما كان الحال حتى ابريل ١٩٢٥ ٠

٥ ـ أن تظل المراكز التى يشغلها الآن ضباط او موظفون بريطانيون فى المصالح التابعة لوزارة الحربية ، وكذلك فى مصلحة خفر السواحل اذا

ما ادمجت فى مصلحة الحدود محفوظـة فى ايـد بريطانية ، ولا يبنغى أن تمس اختصـاصاتهم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ٠

٦ ـ فيما يتعلق بالاختصـاص القضـائى ، تظل الحالـة الحاضرة على ما هى عليه فى الجهـات الداخلة فى اختصـاص مصلحة الحدود ، أى يبقى النظـام العرفى فيها (١) ٠

وانتهت المذكرة بالتاكيد على أن هذه المطالب هى الحد الادنى الممكن لبريطانيـا ان ترضى به ، كمـا اضافت ان الحكومة البريطانية تامل فى أن ترسل لها الحكومة المصرية مقترحاتهـا من أجل تنسيق التعاون فى خطـة الدفـاع عن مصر (٢) ٠

ويتضح من المذكرة البريطانية السابقة أن الحكومة البريطانية كانت مقتنعة بان الحل المناسب للازمـة ـ وجهة نظرهـا ـ هو توقيع اتفاق بين بريطانيا ومصر ، « وان الحكومة البريطانية مستعدة للدخـول فـورا فى مباحثات من أجل تحقيق هـذا الغرض ، وهى لا تستبعد احتمال اجـراء بعض التعديلات فى مطالبهـا كجزء من التسوية ٠ الا انه فى انتظار توقيع هذه التسويـة ، فانه ليس امامهـا سوى أن تطلب من الحكومـة المصريـة تنفيذ الاجراءات (الواردة فى المذكرة) والسابق بيانها » (٣) ٠

وقد حلل المندوب السامى الموقف فى حاله اختيار الحكومـة المصريـة لاتجاه معارض لبريطانيـا بالنسبة لازمـة الجيش موضحا انه طبقا لمراسلة جرانفيل (No. 61 in 1884) فانـه « لا يمكن الدفـاع عن مكانتنا الممتازة فى مصر طالمـا لا نملك القوة على اسقاط الوزارة القائمـة والمتحدية لمصالحنا» واضـاف لويـد انه من ناحية اخرى يجب عـدم الغـاء النظـام الديمقراطى للحكومة بدون تقديم اسباب معقولة ٠ لان هـذا الالغاء متعارض مع التقاليد

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op. cit

انظر ايضا : ـ عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٢٧٣ ، ص ٢٧٤

د ٠ عبد العظيم رمضان ـ المصدر السابق ص ٢٣٤ ـ ص ٢٣٦

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 100 op cit.

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

البريطانية . هذا بالاضافة الى أن حل البرلمان (المادة ٣٨ من الدستور المصرى) أو تعطيل أعماله (المادة ٣٩ من الدستور) فان القرار الملكى فى كلا الحالين يتطلب موافقة رئيس الوزراء .

الا أن تعطيل البرلمان لا يعد اجراءا كافيا لتحقيق الاهداف البريطانية لان مدة تعطيل اعمال البرلمان لا تستمر سوى لشهر واحد ، ولا يمكن تجديده بدون موافقة المجلسين . وهكذا تبين ان حل المجلس (النواب) هو الاجراء الاكثر فعالية - من وجهة النظر البريطانية - لان أعضاء مجلس النواب الجدد سينتخبون فى شهرين أكثر قليلا ، كما ان البرلمان سيدعى للاجتماع بعد هذا الانتخاب بأكثر من عشرة ايام (المادة ٨٩ من الدستور) واسترسل لويد « اننا ما دمنا لا ننتظر اجابة فى صالحنا من رئيس الوزراء .. فان الحل الامثل عند رفض الحكومة المصرية للمطالب البريطانية هو حل البرلمان » (١) وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه الآراء ، (٢) لأنه فى هذه الحالة ، ليس امامها سوى اجبار الملك فؤاد على حل البرلمان ، والاعتماد على جلالته فى تشكيل حكومة بمكنها التعامل مع الحكومة البريطانية ... « وانه من المعلوم اننا قد نضطر الى اعادة اعلان الاحكام العرفية ، حتى يمكننا التعامل مع القلاقل والاضطرابات المحتملة الوقوع » (٣) .

الرد المصرى على المذكرة البريطانية :

فى يوم ٣ يونيو ١٩٢٧ جاء الرد المصرى على المذكرة البريطانية ، وهو لا يقبل من المطالب البريطانية سوى المطلب الخاص بموافقة وزير الحربية على آراء لجنة الضباط ، وجاء هذا الرد المصرى منمقا سيطر عليه الشكل اكثر من المضمون ، فهو لم يوافق على باقى المطالب البريطانية ولكنه لم يرفضها تماما .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 115 op. cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 128 (J. 1477/8/16)
Sir Austen Chamberlain to Lord Lloyd F.O. June 2, 1927

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

وعلى اية حال نصت المذكرة المصرية على أن الحكومة المصرية تشاطر المندوب السامى وجهة نظره فى منع اقحام السياسة فى الجيش، وانها راغبة تماما فى ابعاد هذا الاتجاه عن الجيش المصرى ، ولم يكن ليفوتها اجراء التحقيق اذا قدمت لها حوادث معينة · واوضحت المذكرة المصرية ان التقرير الذى أشار اليه المندوب السامى فى مذكرته ليس من عمل اللجنة الحربية البرلمانية ، بل ان لجنة فرعية منها تألفت لبحث مرسوم سنة ١٩٢٥ الذى انشأ مجلس الجيش ولجنة الضباط ، فكلفت اثنين من اعضائها بوضع تقرير فى الموضوع ، وأن مشروع هذا التقرير هو الذى نشر بغير ان يقدم للجنة الحربية او للجنة الفرعية نفسها ، واضافت المذكرة ان الحكومة المصرية على استعداد لان تستقبل بكل ترحاب الاقتراح الذى ينحو نحو المفاوضة لايجاد الترتيبات التى من شأنها ان تسهل التعاون المذكور ، ولكن فى انتظار الوقت الملائم للقيام بهذه المفاوضات ، ترى الحكومة المصرية انه حتى تعمل هذه الترتيبات ، فانه يمكن أن تحتفظ بالموقف فيما يتعلق باداء مامورية الجيش المصرى كما كانت حتى الآن وبغير عائق ، وأنه منذ اعلان مرسوم سنة ١٩٢٥ المذكور آنفا ، والذى ادخل المفتش العام فى عضوية مجلس الجيش ولجنة الضباط فان الخدمات المختلفة فى الجيش تسير سيرا عاديا · ومع ان بعض خلافات قد نشأت حول توصيات لجنة الضباط ، الا انها كانت نادرة وعرضية ، وكانت تدور غالبا حول مدة الترقية الوقتية · على انه يمكن القول بأن الوزير سيقبل بصفة عامة آراء اللجنة التى تم تشكيلها لمساعدته على القيام بواجباته ·

اما فيما يتعلق بمسالة مد خدمة المفتش العام من سنتين الى ثلاث سنوات ، فان الحكومة المصرية ترى أن عقد المفتش العام لم يكد يبدأ مدته ، ومن ثم فان هذه المسالة الشخصية ليس لها اهمية حالية ، ومثل هذا يقال عن اقتراح الانعام عليه برتبة الفريق ورفع راتبه ، على ان الوزير سيبحث من جهة اخرى مسالة تعيين ضابط بريطانى عظيم ليكون مساعدا للمفتش العام على اداء اعباء منصبه او ليحل محله عند غيابه · وما دامت حاجة العمل تقتضى هذا التعيين ، فلن يتأخر عن القيام به فى

حدود السلطة المخولة لـه لتعيين اجنبى فى منصب فنى • وهـذا الضابط سيحل محله متى دعت الحاجـة اثنـاء غيابه او نيابته عن المفتش العـام اقـدم ضابط بريطانى فى مصر •

وفيما بختص بمصلحة الحدود ، فان هذه المصلحة التى تقوم بأعمال الادارة الداخلية البحتة ومنع التهريب قـد الحقت بوزارة الحربيـة بمرسوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٢ • وبمقتضى مرسوم سنة ١٩٢٥ الذى انشـا مجلس الجيش ، فان المديـر العام لهذه المصلحة أصبح عضوا فى هذا المجلس بحكم وظيفته • هـذا الى انه ما دامت المسائل المرتبط بالدفـاع عن البلاد داخلة فى اختصـاص مجلس الجيش ، مان هناك ما يدع ـى الثقة بأن شئون مصلحة الحدود المتصلة بالمسـائل العسكرية ستتم بكل مـا يرغب فيه من ضمان ، وطبقا لاقتضيـات الخدمـة • وفوق ما تقـدم ، فان الضباط البريطانيـين الذين يشغلون مناصب فى هـذه المصلحة قـد انتفعوا بالقـانون رقم ٢٨ لسنة ١٩٢٣ ، ونظـر مجلس الوزراء فى ينـايـر الماضى فى مسألة هؤلاء الضباط عندما انتهت مـدة عقودهم ، فقرر – لمصلحة العمـل – ان يسـتبقيهم فى فى مناصبهم ، وقـد اعطيت لهم عقود جديدة لمدد تتراوح بين سنة وسنتين ، وهذه العقود تثبتهم فى الاعمـال التى كانوا يقومون بهـا ولا يزالون مستمرين فى القيـام بهـا ، وانمـا يكون عند انتهـاء هذه العقود البحث فى هل يبقى هؤلاء الضباط فى مراكزهم أم لا ، وعند بحث هذه المسألة سـتكون الحكومة المصرية طبعـا خاضعة لمصلحـة العمـل فقط لا لاى اعتبار آخـر مهمـا كان • أمـا النظـام القضائى المطبق فى المناطق الواقعة تحت سلطـة مصلحـة الحدود ، فهو ليس فى الواقـع اكثـر من تطبيق المبادىء التى وضعتها الحكومة المصرية سنة ١٩١١ لشبه جزيرة سيناء قبل الحاقهـا بمصلحة الحدود ، حتى شـمل هذا التطبيق مثـل هذه المناطق جميعهـا • ومرسـوم سنة ١٩٢٢ يقضى ببقاء هذا النظام الى الوقت الذى يمكن ان يحل محله نظام اوفى ، ومنذ هـذا الوقت لم تدع الاسباب الحكومـة المصريـة الى النظـر فى وضع النظـام الجديد ، ويرجع على الاقـل الى اسباب تتصـل بالاحوال الخاصة ودرجة التقدم فى منطقة العريش التى تتبع منطقة الحدود الشرقية وان الحكومة تدرس مسألة اعـادة محكمـة اول درجـة باختصاصهـا ، وهـذه المحكمة هـى التى كانت موجودة فى الاصـل قبل وجود الادارة محل البحث •

واعرب دروت باشا فى ختام رده عن رجائه فى ان الايضاحات والتاكيدات السابقة ، سوف تنهى كل سوء تفاهم بين الحكومتين بالنسبة لمسألة الجيش المصرى ، وعن رغبة الحكومة المصرية فى ان تقوى العلاقات بين البلدين يوما بعد يوم ، وان يظل حسن التفاهم بينهما ، وان تكلل بالنجاح مجهودات الطرفين فى الوصول الى اتفاق يدعم روابط الصداقة التى تربط بين البلدين ويؤمن مصالحهما (١) ٠

تضارب الآراء بين المندوب السامى ووزارة الخارجية البريطانية :

وصف لويد الرد المصرى على المذكرة البريطانية بانه « وثيقة سرفية تماما ، وانها يمكن أن تتلاءم مع اى سياسة تقررها الحكومة المصرية ٠ فى وقت لاحق » (٢) وفى نفس الوقت قرر لويد أن هذا الرد المصرى ٠ مرفوض تماما ، واقترح انه فى حاله فشل المفاوضات النهائية ارسال انذار الى الحكومة المصرية لكى تستجيب للمطالب البريطانية فى مدى ٤٨ ساعة فقط ٠

الا ان وزارة الخارجية البريطانية لم تستصوب آراء المندوب السامى ٠ فان المذكرة المصرية رغم انها لم توافق الا على مطلب واحد من المطالب البريطانية ، فهى فى نفس الوقت لم ترفض تماما كل المطالب ، كما ان لهجة المذكرة ودية فى مظهرها ، وان بدت متمسكة بالوضع الراهن ، ولا يتضح من المذكرة اتجاه الحكومة المصرية الى اصدار قرارات معادية لبريطانيا ،

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 132 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June 3, 1927.

انظر أيضا النص الفرنسى الموجه من ثروت باشا الي اللورد لويد :
P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 161.

وانظر أيضا :
P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

وانظر ايضا : عبد الرحمن الرافعى ـ المصدر السابق ص ٢٧٤ ـ ص ٢٧٦ ٠

وكذلك : د ٠ عبد العظيم رمضان ـ المصدر السابق ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 (J. 1553/8/16
No. 250 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June, 7, 1927.

واخيرا فانهـا تبدو موافقة على مبدأ التفاوض بالنسبة لمبدأ التعاون العسكرى بين الجيشين المصرى والبريطانى ، والذى ركزت عليه المذكرة البريطانية (١) والذى جاء فى تقرير المستر تشمبرلن فى مجلس العموم (٢) ٠

وبالوصول الى هذه النتيجة ، تبين ان المصالح البريطانية – فى راى وزارة الخارجيـة البريطانيـة – يمكن الحفاظ عليها بالآتى :

١ – عـدم الدخول فى تصادم خطير مع مصر ، مـع نتائجه الخطـيرة المحتملة ، الا اذا فشلت كل الوسائل الاخرى فى تحقيق المطالب البريطانية ٠

٢ – انه اذا كان الصدام حتميـا ، كما يـ ٠٠ الموقف الآن ، فانه لا داعى للدخـول فيه الا :

(ا) باتباع اسلوب يحقق المطالب البريطانية تماما وبدرجـة معينة من الاستمرار ٠

(ب) وبنتيجة مفهومـة وجاهزة ومتجـاوبـة مـع الراى العـــام المصرى بصفة عـامة ٠

الا ان خطة لويـد المقترحة لحل الأزمة كانت متعارضة مع الحالتين السابقتين ، فبالنسبة للحالة الاولى ، فان الاتجاه المقرر لكل من الحكـومة المصرية وحزب الوفـد لـم يقدم اى ضمان بان الانذار البريطانى سوف يوافق عليه ٠ وبالنسبة للحالة الثانية ، فهناك من الاسباب ما يؤكـد ان المصريين لن يبدأوا بتقديم تنازلات ، وأنهم حتى لو اذعنوا – تحت الضغط – لمطالب الحكومة البريطانية ، فأنهم سيبداون فورا فى الدوران حولها واحباطها ، ونجاحهم فى هذا الاتجاه فى فروع اخرى من الادارة – طبقا لوجهة نظـر وزارة الخارجية البريطانية يؤكد ان الورقـة الخاصـه بالموظفين الانجليز هى ضمان غير كاف امام المناورات المصريـة ٠ امـا بالنسبة للحالة الثانية ، فان المطالب المقدمـة للحكومـة المصريـة ، والتى يمكن الحكم عليهـا من

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit,

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 149 (J. 1553 /8/16
No. 179 Sir W. Tyrell (For the Secretary ofState) to Lord Lioyd. F.O. June 10 1927.

الاشـارات الحديثة للصحافة المصريـة ، مانهـا لا يمكنيـا بحـال ان تحوز على موافقـة الراى العام المصرى على سياسة قـد تؤدى الى الغـاء الدستور واعـادة الاحكام العرفيـة واحتمـال التدخل العسكرى البريطانى (١) ٠

وامام هذا التعارض الكبير بين وجهتى نظـر المندوب السامى ووزارة الخارجية البريطانية ، ارسل رئيس الوزراء البريطانى فى ٦ يونيو تعليماته المحددة الى لويد فى كيفية التعامـل مع الحكومة المصرية ، وان عليه ان يرسل الى ثروت باشـا مذكرة خاصـــه توضـح ان الحـكومـه البريطانية قد اهتمت كثيرا بالمذكرة المصرية ، وانها ترحب بالتنازلات التى قدمتهـا الحكومـة المصرية للتفاوض بهـدف تنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى ، ومن ناحية اخـرى فان الحكومة البريطانية لا ترغب فى الانفراد بالحل النهائى لامور مختلفـة ، والتى يمكن ارجاؤهـا للتسوية بالمفاوضات ٠٠ الا ان التحركـات الاخيرة قـد اوضحت خطورة عـدم تحديد امور تحكم طبيعة وحجم التعاون المصرى مـع الاحتلال فى امور تؤثـر على الدفـاع عن الدولة ، وانه من الضرورى تحقيق بعض التفاهم بين الحكومتين المصرية والبريطانية بالنسبة لهذه الامور ، انتظارا للمفاوضـة على التسوية النهائية وطبقـا لهـذا المفهوم ، اعدت الحكومـة البريطانيـة مشروع اتفاق عسكرى مؤقت ، ويجب على الحكومـة المصريـة عـدم التردد فى الموافقـة على هـذا المشروع طبقا لما جاء فى المذكرة المصريـة ٠ كمـا اوضحت مذكـرة رئيس الوزراء البريطانى الى لويـد والمقترح ارسالهـا الى الحكومـة المصريـة ان الترتيبات التفصيلية الخاصـة بمسـائل الادارة والخبرة والامداد سوف تكون على شكل ملحق يرفق بالاتفـاق ، وان الحكومـة البريطانيـة مستعدة لمناقشـة هـذه الترتيبـات مـع الحكومـة المصريـة ، وهى لا تستبعد احتمال ادخال بعض التعديلات فى مطالبهـا السابقـة بشرط ان تكون الحكومة المصرية مستعدة تماما للموافقة وبدون تأخير على هذا العرض الجديد ٠

واضـاف رئيس الوزراء البريطانى فى برقيته الى لويـد ان اهم شىء فى الموقف هو الحصول على موافقة الحكومـة المصرية على الاتفـاق ، وانه اذا رفضت الحكومـة المصريـة ذلك ، فان « علينـــا ان نبحـث عن اعنف

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204 b. No. 174 op cit.

الاجراءات » (١) .

وقد ارسل رئيس الوزراء البريطانى فى نفس اليوم (٦ يونيو) برقية اخرى الى المندوب السامى ، اوضح فيها انه فى حالة موافقة الحكومة المصرية على الاتفاق ، فانه يلحق بالمفاوضات النقط التى وافقت عليها الحكومة المصرية فعلا ، يضاف اليها الشروط التى يمكن الحصول عليها ومنها :

١ - المفتش العام البريطانى ونائب له . وحقه فى عضوية مجلس الجيش .

٢ - تصرف وزير الحربية بمشورة مجلس الجيش .

٣ - حصول كل الضباط البريطانيين العاملين فى الجيش المصرى على عقود لمدة ثلاثة اعوام .

٤ - بقاء الشئون القضائية فى اقاليم الحدود على ما هى عليه .

٥ - استمرار الضباط العاملين فى مصلحة الحدود فى ممارسة وظائفهم ، وحصولهم على عقود لمدة عامين .

كما نبه رئيس الوزراء البريطانى فى برقيته بأن على لويد - فى هذه المرحلة - عدم الالحاح على تحديد تام لسلطات واختصاصات الجنرال سبنكس وزملائه ، لان الاهم هو التوصل الى عقد الاتفاق المؤقت علاوة على ملحق بنتابه الغموض (٢) وهكذا - وطبقا لوجهة نظر الحكومة البريطانية - فانه اذا ما قدر المصريون صعوبة مواجهة بريطانيا ، فانهم قد يفضلون التوقيع على اتفاقية قد تمنحهم فرصة للتراجع وحفظ ماء

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 140 (J. 1514/8/16)
No. 174 Sir W. Tyrell (for the Secretary of State) to Lord Lloyd. F.O. June 6. 1927.

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 141 (J. 1514/8/16)
No. 175 Sir W. Tyrell (for the Secretary of State) to Lord. Lloyd F.O. June 6, 1927.

الوجه ، وانهم اذا ما وافقوا على الاتفاق والملحق الخاص به ، فان ذلك لا يعد استجابة للمطالب البريطانية فقط ، بل انه سينظم الاحتلال البريطاني لمصر ، والذى ظل بلا اساس لاكثر من اربعين عاما . كما انه سيكون مقدمة لاتفاقيات اخرى تعد بريطانيا فى أمس الحاجة اليها ، اما اذا قرر المصريون المقاومة ورفضوا الاتفاق ، فانهم بذلك العمل سوف يوضحون ان سلوكهم غير ودى تجاه بريطانيا ، وهكذا « يكون لنا الحق الكامل فى اتخاذ اساليب عنيفة ضدهم » (١) .

وعندما وصلت هاتان البرقيتان الى لويد فانه ابرق فى ٧ يونيو الى المستر تشمبرلن ولمعلومية رئيس الوزراء البريطانى موضحا الموقف السياسى فى مصر فى هذا الوقت المضطرب ، وان انباء قد وصلته بأن كل كبار قادة حزب الوفد قد اجتمعوا فى منزل سعد زغلول فى يوم ٦ يونيو ، وان سعدا قد اقترح الاذعان مؤقتا لكل المطالب البريطانية ، مبينا بأن هذا الاتجاه هو للحفاظ على الدستور من الالغاء ، وكذلك لكسب الوقت من أجل الاستعداد لصراع حاسم . واوضح سعد زغلول للمؤتمرين بأنه يجب تعيين وكيل وزارة جديدة للداخلية من بين اعضاء الوفد ، ليمكنه استخدام سلطاته لضمان تدعيم نفوذ الوفد فى البلد ، وخاصة عن طريق العمد . وكذلك بث الدعاية بين ضباط الجيش المصرى من اجل جعلهم فى خط واحد مع حزب الوفد ، وقال سعد بثقة ان الجيش المصرى - عندما يحين الوقت المناسب - سيظهر شجاعة لا تقل عما فعله السودانيون فى عام ١٩٢٤ ، واضاف سعد بانه ينظم لهجوم على لويد شخصيا عن طريق الصحافة البريطانية ، وفى مجلس العموم من أجل ايقافه عند حده مبكرا . الا انه بينما لقى اقتراح سعد بالهجوم على لويد ترحيبا من الحاضرين ، فان اقتراحاته الخاصة بالاذعان المؤقت للمطالب البريطانية بخصوص الجيش المصرى لقيت معارضة عنيفة ، ولم يصل المجتمعون الى اتفاق بشانها (٢) .

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 143 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain No. 249. Cairo, June 7, 1927.

وفى نفس اليوم (٧ يونيو) ابرق لويد الى المستر تشمبرلن ولمعلومية رئيس الوزراء البريطانى وجهات نظره بالنسبة لمذكرة الحكومة البريطانية والمقترح ارسالها الى الحكومة المصرية ، والتى يتضح منها محاولة عدم تصعيد الموقف مع المصريين • وقد انزعج لويد جدا من الآراء الواردة فى مذكرة الحكومة البريطانية واعتبرها بمثابة لطمة قاسية له وأورى أنه يكرر هو ومستشاروه ان اجابة الحكومة المصرية هى بصفة عامة غير كافية ، وان كلماتها الودية تبدو بلا قيمة ، وانه إذا كان رئيس الوزراء المصرى مستعدا للموافقة على المطالب البريطانية ، فانه خائف من أزمة برلمانية ، وان هذا هو الذى دفعه الى هذه الاجابة المراوغة من اجل كسب الوقت ، وكرر لويد قوله ان تلك الاجابه المصرية هى اجابة شرقية تماما ، وانها صالحة لاى سياسة يمكن ان تتخذ فى اى وقت لاحق • واكد لويد أنه ليس هناك اى احتمال للتفاوض بين الدولتين ، وانه شخصيا يقوم بمباحثات مع ثروت باشا منذ فترة من أجل التوصل الى تسوية عن طريق اتفاق ، وان هذه المباحثات انتهت بارسال ثروت باشا بخطاب له ينكر فيه أى حق بريطانى فى التدخل فى مسألة الجيش المصرى على الاطلاق •• واضاف لويد مرضحا « •• اننى لا اتعامل حقيقة مع ثروت باشا أو حتى مع سعد زغلول باشا ، بل مع الأعضاء (المتطرفين) فى حزب الوفد الذين يسيطرون فى النهاية على الاثنين » • واستخلص لويد من ذلك أن الطريقة الوحيدة والمؤكدة للتعامل مع هؤلاء المتطرفين هى التلويح لهم بخطورة فقدانهم لمكاسب سياسية ومادية كثيرة يمنحها لهم الدستور عن طريق البرلمان • واشار لويد فى برقيته الى أن مخطط هؤلاء (المتطرفين) من اعضاء حزب الوفد ينحصر فى استغلال المشكلات القائمة - ومنها ازمة الجيش المصرى - لخلق موقف يؤدى الى اضطرابات عامة ضد الاحتلال البريطانى عندما يحين الوقت المناسب • وعلق لويد بأن الذى تطلبه الحكومة البريطانية سوف يفسره المصريون على أنه ضعف بريطانى ، وهذا التفسير قد يؤدى الى مخاطر كبيرة بالنسبة للأمن العام ، واسترسل لويد موضحا وجهة نظره • •

« فنحن مؤخرا قد تعرضنا لهجوم فى البرلمان ، وهذا الهجوم الذى أيقظ المشاعر العميقة للسخط ضد الاحتلال ، ليس فقط بين قطاعات كبيرة من المصريين ، بل ايضا فى بعض المستعمرات البريطانية ، هذا الهجوم

يجعل من المرغوب فيه تماما عدم الاستسلام بالنسبة لازمة الجيش المصرى، واى تخاذل فى موقفنا سيكون حافزا لازمات اخرى مما يؤدى بسرعة الى فقداننا لمكانتنا فى مصر ، كما ان علاقاتى بالملك ستصبح صعبة جدا » (١) ٠

وأوضح لويد موقف الأجانب فى مصر من ازمة الجيش المصرى ، فقال أنه تلقى كل معاونة قلبية من السفراء الفرنسى والايطالى والبلجيكى واليونانى ، الذين يمثلون اهم اربع جاليات فى مصر ٠ كما ان السفير الفرنسى - على وجه الخصوص - والذى له دراية واسعة بالشرق اوضح للويد بان اى تراجع فى موقف بريطانيا من الازمة سيكون له خطورة سياسية كبرى ، (٢) لان اى تخاذل بريطانى سوف يشجع كل الفئات حتى غير المتطرفة على مشايعة المتطرفين ٠ وانه حتى اذا ما تغلبت بريطانيا على الصعوبة القائمة (ازمة الجيش) فانها سوف تواجه حتما ازمات اخرى اكثر خطورة ٠

كما عبر لويد عن استيائه من مذكرة الحكومة البريطانية المقترح ارسالها الى الحكومة المصرية ، بتسجيله انه لم يفهم كيفية تنفيذ الاجراء المطلوب ، وخصوصا مسالة الملحق الذى سوف يلحق بالاتفاق ٠ واضاف لويد انه تصرف فى الامور فى حدود السلطة المخولة له من وزير الخارجية ، وان موقفه بهذا الشكل سيكون حرجا جدا ، لان المباحثات مع الحكومة المصرية لن تؤدى الا الى ذرائع جديدة ونتائج هزيلة ٠ واعاد لويد الى الاذهان ان الموقف البريطانى يرتكز على تصريح ١٩٢٢ ، وانه هل من المفروض ان تسلم بريطانيا بكل شىء لان البرلمان المصرى يرفض الاعتراف بالتصريح ، وانه هو المحرك الأكبر لرفض المطالب البريطانية ، وانه اذا كانت الحياة البرلمانية فى مصر متعارضة مع المصالح البريطانية الحيوية ، فان على بريطانيا ان تقبل التحدى ان عاجلا أم اجلا ٠٠

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 op. cit

(٢) P.R.O. F.O.(407-204) b. No. 122 (J. 1475/8/16
No. 228 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, May 31,1927

« وان الازمــة الحالية تقــدم العاجل الذى بمكن ان نستغله فورا » (١) وان اى تأخير فى حســم هــذه الازمــة « ســيقلل من فرص نجاحنــا فى هــذا الخصوص » (٢) ٠

واحتدم الخلاف فى الرأى بين وزارة الخارجية البريطانية والمندوب السامى ، حتى أن الوزارة رأت أن آراء المندوب الســامى الاخيرة لم تقــدم جديدا ، ولكنهــا توضح أن المندوب السامى لم يفهم جيدا التعليمات المرسلة له من الحكومــة البريطانية ، فقــد بدا من كلماته انه يتصور ان « حكومة جلالة الملك لا ترغب فى معاونته . او انهــا تود التقهقــر عن الموقف الــذى انفجر فعلا » (٣) وهكذا أرسل رئيس الوزراء البريطانى برقية اخرى الى المندوب السامى فى ١٠ يونيو تحتوى على تفسيرات اكثــر وتؤكــد التعليمــات الســابقــة ٠

وقد نصت هذه المذكرة الجديدة على ان الحكومــة المصرية لن تسعى لتحقيق اهدافهــا الفعليــة الا اذا دفعت لاجراء ذلك ، وان تنفيذ تعليمــات الحكومــة البريطانية سيؤدى الى امــر من اثنين ، اما ان ثروت سوف يوافق على عقــد الاتفاق او انه سيرفض ذلك ، وانه اذا وافق فانه يكــون بذلــك قد استجاب للمطالب البريطانية أما اذا رفض الاتفــاق فانه يكون بذلك قــد رفض مبدأ التعاون مع البريطانيين فى الدفــاع عن مصر ، وبذلــك يكشف الستار عن الاتجــاه الحقيقى للحكومــة المصريــة ٠ وهــذا التصرف المعــادى لبريطانيــا « سيعطينــا الحق امــام العالم فى اتخــاذ الاجراءات العنيفــة التى نراها ضرورية لتأمين موقفنــا فى مصر » واسترســل رئيس الوزراء البريطانى فى مذكرته للويــد موضحــا انه يجب جعل الامــر واضحــا لثروت « واننــا لن نعطيه سوى بضعة ايــام للموافقة او الرفض على الاتفاق ، مــع التلميح لــه بالنتــائج الشــديدة الخطورة والمحتمــة التى ســوف تتــلو رفضــه » (٤) ٠

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 144 op. cit

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 115 op cit

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op cit.

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 149 op cit.

ولا يفوتنـا أن ننوه هنـا أن الليفتنانت جنرال السير هوكنج الذى عاد الىْ انجلترا فى ١٠ يونيو بعـد أن انتهت مدة قيادته للقوات البريطانية فى مصر ، قـد تمت استشارته فى مسـألة ازمـة الجيش المصرى ، وقد ابدى هوكنج موافقته الكاملة على مذكرة رئيس الوزراء الاخيرة والمقترح ارسالهـا الى الحكومـة المصريـة ، وقـد ابرق الى لويد بهذا المعنى (١) ·

ورغم هـذا الضغط من جانب الحكومـة البريطانية على لويـد ، فانه ابرق الى تشمبرلن لمعلوميـة رئيس الوزراء البريطانى فى ١١ يونيـو طالبا اعـادة النظـر فى التعليمـات الصـادرة اليه من الحكومة البريطانية ، ففى رأيه أن الاختلاف شديد بين مقترحاته ومقترحات الحكومة ، لان هنـاك صعوبات خطيرة امـام ضمان موافقة الحكومـة المصريـة على الاتفـاق المقترح من جانب الحكومـة البريطانية ، وانه لا يمكن انجاز هـذا الاتفـاق الا بموافقة البرلمان · وان رئيس الوزراء بينمـا يرفض الموافقـة على هـذا العرض لذلك السبب ، فانه لن يرفضه تماما ، ولكنه سيماطل فى محـاولة منه لتدعيم موقفه ، وان الامـر سيظل معلقـا هكذا حتى الخريف ، وانـه فى ذلك الوقت سيرسل الامـر كله الى مجلس النواب طالبا التفاوض على الملحق قبل الاتفـاق ، وانه ليس هناك ادنى امـل فى ان البرلمان سيوافق على الاتفـاق أو الملحق بأى شكل من الاشكـال · واضـاف لويـد أنـه فى غضون ذلـك الوقت ستواجه بريطانيـا مشـكلات خطيرة فى مصر لهـا طبيعة اخرى ·· « وانا ارجو ان يكون معلومـا اننى لـم يغمض لى جفن بالنسبة لمحاولاتى الحصول على كافـة التفاصيل المنشورة عن الازمـة و « أن اولى المشكلات الملحة هى موقف المفتش العام ، الذى من غير المتوقـع ان يستطيع ممارسة سلطـاته التى ستظل بلا تحديـد · وانه اذا مـا رأى ان موقفه غير محتمـل وتخلى عن منصبه ، فان باقى الضباط البريطانيين الذين يعملون فى الجيش المصرى سوف يتبعونه فى هـذا السبيل · وهكـذا سوف تواجه بريطانيـا مأزقـا تفقـد فيه كل سيطرة لهـا على الجيش المصرى فى ظروف بالغة الصعوبة » · واضـاف لويـد « أنى عندما استحسنت اجراء المفاوضـات باعتبارهـا حـلا أمثـل ، فاننى فضلتهـا باعتبار أنهـا

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op. cit

ستحدث ونحن فى موقف قوى ، أما محاولة اتفاق الان طبقا لرغبتك ، فانها لن تؤدى الى تسوية المسألة ، بل ستؤدى فقط الى تخير حلها ، وقد استنتجت من ذلك انك ترغب فى (تعليق) الازمه المصرية » واردف لويد انه حتى لو استطاعت الحكومة البريطانية بشكل ما ضمان الموافقة المصرية على العمل العسكرى المشترك ، ودعوة الحكومة المصرية للتفاوض على اجراءات تنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى على قدم المساواة ، فان الامر سيكون خطيرا - من وجهة النظر البريطانية - لأن بريطانيا لن تستطيع الانفراد بالاشراف الفردى على القوات ٠ وأكد لويد أنه طيلة الازمة لم يطمع سوى فى حل سلمي ولكن الحل الذى تقترحه الحكومة البريطانية - فى رايه - سيؤدى الى الاضطرابات وسيجعل المكانة البريطانية غير محسوبة فى المساومة ، ثم انهى لويد برقيته بأنه قد يكون قد اخطأ فى تصوير الجو السياسى فى مصر ، ولكنه يجب ان يكون مفهوما ان الرأى العام المصرى والصحافة كلها قد ركزت على الازمة القائمة ، وأن الحكومة البريطانية قد تعرضت لهجوم شديد فى مجلس النواب ، وأن حزب الوفد كان يعانى فى تلك المرحلة من هبوط فى اسهمه فى مصر ٠ وان سعد زغلول باشا مرة اخرى تكلم فى جلسة عاصفة فى مجلس النواب موضحا انه اذا مارست بريطانيا ضغطا كبيرا على الحكومة المصرية ، فان على المجلس الموافقة على المطالب البريطانية من اجل انقاذ الدستور ، » والحقيقة ان الحكومة المصرية تنتظر منا القيام بضغط شديد عليها ، وانها سوف ترضخ لهذا الضغط ٠٠ أما تغيير موقفنا فى مثل هذه الظروف ، فانه سيؤدى الى عواقب وخيمة » (١)٠

تراجع الحكومة المصرية ومجلس النواب :

وسط ذلك التضارب فى الآراء بين رئاسة الوزراة البريطانية ووزارة الخارجية من جانب والمندوب السامى من جانب آخر ، ووسط البرقيات والمذكرات المتعارضة بين الجانبين ، ابرق اللورد لويد فى ١٢ يونيو الى وزارته موضحا انه بعد جلسة طويلة وعاصفة لمجلس الوزراء ، فان

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 155 (J. 1579/8/16)
No. 262 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo June 11, 1927.

ثروت باشا اعد مذكرة - وافق عليها سعد زغلول - لتسوية ازمة الجيش ويؤكد لوبد أن هذا التراجع المصرى كان نتيجة للمباحثات التى بداها المستر انتونيوس Antonius فى ٨ يونيو مع بركات باشا ، وان هذه المباحثات كانت شخصية وغير رسمية ، ولكنها ادت تحت التوجيه السرى لها من جانب المندوب السامى الى تلك النتائج المرضية من وجهة النظر البريطانية - فقد وصل الامر بثروت باشا الى أن يقوم بعرض مسودة المذكرة الجديدة على المندوب السامى بحضور الملك فؤاد ووزير الحربية لازخال اى تعديلات عليها » وان خوف الحكومة المصرية كان الميزة الواضحة للمذكرة الاخيرة » وكانت خلاصة هذه المذكرة الاخيرة ان الحكومة المصرية قد قررت وبتحديد كامل ان اختصاصات السردار كما فوضها الجنرال «دلستون باشا فى سنة ١٩٢٥ ، قد أدت الى سوء تفادم بالنسبة للامور التائمة ، وان الحكومة المصرية مستعدة للحفاظ على هذه الاختصاصات دون مساس ، كما تم تفويضها للمفتش العام • كما انه بالنسبة لمنصب نائب المفتش العام ، فان الحكومة المصرية مقتنعة تماما بالحاجة الى هذه الوظيفة ، التى يجب ان يعين فيها ضابط بريطانى فورا • اما بالنسبة لتوصيات لجنة الضباط ، فانها ترفع فى الخلافات الاستثنائية جدا من «وزير الحربية الى ملك مصر كما كان الحال قائما • كما ان الحكومة المصرية سوف تبدى اهتماما سريعا بالنسبة للامور المدنية والقضائية التى تتكفل بها مصلحة الحدود وكذلك الامور التى تؤثر فى الدفاع عن البلد ، واية موضوعات اخرى هامة •

كما اضافت المذكرة ان المفتش العام سيمنح رتبة الفريق وراتبه فى غضون اسبوع ، وان مساعد المفتش العام سوف يصدر قرار تعيينه فى ظرف اسبوع من ترشيح اسمه ، وان المنصب الثانى فى مصلحة الحدود سوف يحتله ضابط بريطانى - وهو مساعد مدير خفر السواحل - عند ادماج المصلحتين •

وهكذا وافقت الحكومة المصرية على كل المطالب البريطانية الحيوية . وانهت ازمة الجيش بسرعة فائقة ولصالح الحكومة البريطانية تماما ، ووافقت ايضا على اجراء المفاوضات من اجل التوصل الى اتفاق بين

الحكومتين لتنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى للدفاع عن مصر وطبقا لما سبق ان طلبته الحكومة البريطانية ، وقد صيغت المذكرة المصرية الجديدة بعبارة وعلى خطوط جعلت رجوعها الى مجلس النواب امرا غير ضرورى • وهذه المذكرة مثل المذكرة الاولى ، لم تحدد شكل التعاون العسكرى بين الجيشين المصرى والبريطانى ، رغم انها رحبت بمثل هذا التعاون •

واكد ثروت باشا اهمية الموافقة الفورية على المذكرة المصرية الجديدة قبل ان يغير سعد من موقفه ويسحب موافقته عليها • وبطبيعة الحال ابلغه لويد شكر الحكومة البريطانية على مجهوداته فى تعديل وجهة نظر الحكومة المصرية والاتجاه بالسياسة المصرية الوطنية بخصوص ازمة الجيش اتجاها جديدا مواليا للاحتلال • ومن ناحية اخرى طلب لويد برقيا من وزارة الخارجية البريطانية الموافقة الفورية على المذكرة المصرية الجديدة ، حتى لا يحصل (المتطرفون) على اى فرصة للضغط على سعد زغلول حتى يتراجع عن موقفه ، واضاف انه سينتظر اجابة الحكومة البريطانية حتى الساعة الرابعة من مساء يوم ١٣ يونيو ، وانه فى حالة تأخر الرد ، فاننى سأتحمل المسئولية الكاملة فى الموافقة على المذكرة المصرية بصفتى الشخصية ، وان كنت افضل وصول رد الحكومة البريطانية لكى اعفى نفسى من هذه المسئولية (١) •

الا انه فى نفس اليوم (١٢ يونيو) صدرت التعليمات من لندن الى لورد بالموافقة على المذكرة المصرية الجديدة ، وهكذا ارسل لويد مذكرة الى ثروت باشا يبلغه فيها ان الحكومة البريطانية قد اسعدها ان تجد مشاركة كاملة من الحكومة المصرية بالنسبة للاخطار الناتجة عن السماح باقحام السياسة فى الجيش المصرى ، كما اسعدها ايضا موافقة الحكومة المصرية على الاحتفاظ بدون اى مساس بسلطات السردار كما فرضها هدلستون باشا الى المفتش العام ، وضمان رتبة ومرتب الاخير طبقا لاختصاصاته • وانهى لويد مذكرته الى ثروت باشا

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 156 (J. 1584/8/16)
Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June12, 1927

بشكر رئيس الوزراء المصرى على اللهجة الودية التى سادت المذكره المصرية ، وأن هذه اللهجة تنبىء بما ستكون عليه العلاقات المستقبله بين الدولتين • واستمرت الحكومة المصرية فى تراجعها الكامل عن الموقف المتصلب السابق ، فأرسلت فى اليوم التالى (١٣ يونيو) ردا على المذكرة البريطانية يحتوى على بعض التفسيرات والتفصيلات ، أوضحت المذكرة الجديدة انه طبقا لمرسوم يناير ١٩٢٥ - الذى كان للجنرال سبنكس دور كبير فى اعداده - فانه تم التنسيق بين مطالب الخدمة فى الجيش وتنظيمات الدستور بانشاء مجلس الجيش ولجنة الضباط ، وقد اثبت المجلس واللجنة نجاحا فى عملهما فى تنسيق كامل مع اختصاصات المفتش العام المفوضة اليه فى عام ١٩٢٥ • والحكومة المصرية لا تعترض على عقد اتفاق محدد بين الدولتين لعدم تغيير نظام اثبت نجاحه تماما • ومن ناحية اخرى ، دام الحكم البرلمانى فى مصر ، والذى قام هذان العنصران (مجلس الجيش ولجنة الضباط) بواجباتهما بانسجام عن طريقه ، يرتكز على مسئولية كل وزير عن أعمال فروع وزارته ، ومن المؤكد - فى راى المذكرة المصرية - ان الحكومة البريطانية لم تكن ترغب فى السير ضد هذا المبدأ • ولكن الحكومة المصرية متأكدة أيضا من وجوب احترام سلطات القادة العسكرين ، وفى مثل هذه الظروف ، فان الحكومة المصرية تؤكد بأن من مسئولية وزير الحربية الموافقة على توصيات لجنة الضباط • كما ان تعيين ضابط عظيم لمساعدة المفتش العام فى ممارسته لاختصاصاته ، وليحل محله اثناء غيابه ، يدخل ضمن سلطات الوزير ، كما يدخل ضمن سلطاته ايضا كل المسائل المتعلقة بالرتبة والراتب ومدة عقد هذين الضابطين التابعين للسلطة المصرية ، والحكومة المصرية لن تجد صعوبة فى التوصل الى الحل المرضى لكل هذه المسائل • واضحت المذكرة المصرية إن مجلس الوزرا المصرى قد منح - منذ يناير ١٩٢٧ - عقودا جديدة للضباط البريطانيين الذين يعملون فى مصلحة الحدود لمدد تتراوح بين عام وعامين • وانهى ثروت باشا هذه المذكرة بالاشارة الى ان الحكومة المصرية - مع مراعاتها للمصالح المشتركة بين الدولتين وعدم المساس بحقوق البرلمان - قد استطاعت باستخدام السلطات الواقعة دستوريا على كاهل مجلس الوزراء ان تجد الحلول

الممكنة لانهاء كل سوء تفاهم فى موضوع الجيش المصرى (١) .

ولو قارنا المذكرة المصرية الاخيرة (١٣ يونيو) بالمذكرة المصرية الاولى (٣ يونيو) لوجدنا أن الاختلاف بينهما ينحصر فى كلمتين : التحدى والتراجع .

وقد لاحظ لويد ان هدف رئيس الوزراء كان الحصول على حل للأزمة يمنح لبريطانيا ما تشاء ، وفى نفس الوقت يساعده للدفاع عن نفسه امام البرلمان ، وان ثروت باشا كان ماهرا فى كل ذلك ، وطبقا لكلمات لويد كان « ثروت بدون شك يرغب فى استغلال الفرصة للحصول على انتصار على سعد زغلول والوفد ، وتسديد ضربة قوية (للمتطرفين) وان هدفه الاساسى هو تدعيم نفسه عند حكومة جلالة الملك كشخص يمكنه التفاوض على تسوية عامة للمسألة المصرية البريطانية . وانا لا استطيع سوى أن أشجع ثروت للسير فى هذا الاتجاه ، لان نجاحه فى السيطرة ، وضغطه المتزايد على (المتطرفين) امتد على سعد زغلول نفسه » .

وقد تحدث ثروت باشا مع لويد بصراحة عن سعد زغلول مؤكدا انه فى النهاية « امكننى تقييد يديه وقدميه » وامعن ثروت باشا فى المناورة، بأن الح على لويد عدم نشر المذكرات الاخيرة والخاصة بالازمة ، الا بعد أن يبدأ مجلس النواب عطلة الصيف ،والتى ستبدأ بعد عشرة ايام ، وأورى . بأنه سيتقدم للمجلس بيانا فى يوم ١٥ يونيو بخصوص الازمة ، واقترح على لويد أن يتكلم بطريقة عامة تماما ، وان يقدم امتنانه للصداقة مع الحكومة البريطانية ، وانه ليس من المستحسن نشر المذكرات حتى يصل الرد البريطانى على المذكرة المصرية الاخيرة .. وهو بطبيعة الحال لم يكن يتوقع اى رد على تلك المذكرة .

وقد علق لويد على تراجع سعد زغلول السريع عن موقفه الاول المتصلب بأنه يرجع فقط الى تأكده بان البديل الوحيد هو انذار

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 174 op cit.

سريع وحل البرلمان (١) ٠

وقد عرض ثروت باشا مسودة بيانه الى مجلس النواب على المندوب السامى لاستطلاع رأيه ، وقد تم تعديل بعض الفقرات فى هذا البيان المقتضب طبقا لآراء اللورد لويد ، وتحدد موعد القاء هذا البيان بعد ظهر يوم ١٥ يونيو لاعطاء سعد زغلول الوقت الكافى (لتلقين) النواب واقناعهم بالموافقة ٠

وكان مجلس النواب صامتا تماما اثناء القاء رئيس الوزراء لبيانه وفى النهاية رحب النواب مع تصفيق (رسمى) ٠ ثم تكلم ثلاثة من النواب من اعضاء الحزب الوطنى بالتتالى ، فطالب الاول بتسليم المذكرات المتبادلة للمجلس لدراستها ، وهدد الحكومة بالعواقب الوخيمة لاستسلامها الكامل لبريطانيا ٠ كما كانت مناقشات العضوين الآخرين على نفس المنوال ، وان كانت أقل عنفا ٠

وقد انجز سعد زغلول الموقف بمهارة ملحوظة - من وجهة النظر البريطانية - حتى أن النواب الوفديين المتطرفين - ومن بينهم احمد ماهر والنقراشى واتباعهما - لم يمتنعوا فقط عن مهاجمة رئيس الوزراء عند القائه لبيانه فى المجلس ، بل عارضوا كذلك المتحدثين من نواب الحزب الوطنى باشارات تهكمية ، واستقبلوا اجابات ثروت باشا بالترحيب ٠ وفى النهاية اعلن سعد زغلول انه ليس هناك خلاف بين اعضاء المجلس على بيان رئيس الوزراء وان الموافقة شبه اجماعية ٠ وهكذا تمت الموافقة على بيان ثروت باشا ، ولم تستمر المناقشة بخصوصه اكثر من اربعين دقيقة ٠

وقد رفع رئيس الوزراء هذه الموافقة بسرعة الى مجلس الشيوخ ، حيث اعاد قراءة البيان ٠٠٠ وقد استقبل الاعضاء هذا البيان بالصمت

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 162 (J. 1625/8/16
No. 268 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, June 14,1927

الرهيب (١) ٠

ومن المفيد ان نشير الى ما جاء فى بيان رئيس الوزراء للمجلسين ، فقد جاء فيه أنه لسوء التفاهم القائم بين الحكومتين المصرية والبريطانية بخصوص المطالب البريطانية الخاصة بالجيش المصرى ، فان الحكومة البريطانيه تقدمت بطلب لتسوية المسائل المعلقة بطريقة ودية ولتحقيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى ، كما دعيت الحكومة المصرية لاجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية بهدف توقيع اتفاق لوضع أسس هذا التعاون ٠ والحكومة المصرية - لاعتبارات مختلفة - توصلت فى بدية شهر يونيو الى ان المطالب البريطانية الواردة فى المذكرة البريطانية تمس السيادة المصرية والسلطة التشريعية للبرلمان ، وان مجلس الوزراء ليس لديه السلطة للموافقة على اى شىء يتعارض مع الدستور ٠ وهكذا لم يوافق المجلس على المطالب البريطانية بالشكل الذى قدمت به ٠ الا أن مجلس الوزراء من ناحية اخرى ، ورغبة منه فى تلافى اى أسباب لسوء التفاهم بين الدولتين ، قرر تسوية المسألة بطريقة لا تمس الحقوق الدستورية ، وتدخل ضمن سلطاته ٠ وهكذا درس مجلس الوزراء موقف الجيش المصرى ، ووجد أنه من الممكن الموافقة على بعض المطالب البريطانية وخصوصا ما يتطرق منها لمسائل التدريب والضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى ، كما قرر المجلس الموافقة على بعض المطالب الاخرى لتلافى سوء الفهم ٠ وقد وافقت الحكومة المصرية على التمسك بالوضع الراهن فى الجيش ومصلحة الحدود ، مع التحفظات الضرورية بخصوص السلطة الدستورية لوزير الحربية وصيانة مبدأ المسئولية الوزارية امام البرلمان ٠

وانه لما كانت المذكرة المصرية الاخيرة قد وصلت الى المندوب السامى اول أمس فقط (١٣ يونيو) فالحكومة المصرية مراعاة منها للاسلوب الديبلوماسى ، تعتذر بأنها لا تستطيع اعطاء تفصيلات اخرى أمام

---

(١) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 163 (J. 1650/8/16)
No. 270 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June16, 1927

البرلمان فى الوقت الحاضر (١) ٠

وهكذا وافق البرلمان على ميزانية وزارة الحربيــة ، وتضمنت هــذه الميزانية بندا لشراء عدد من المدافــع الآلية (٢) وفى ١٧ يونيو وافق الملك فؤاد على منح المفتش العام للجيش المصرى رتبة الفريق (٣) وجــاءت التهانى من رئيس الوزراء البريطانى الى اللورد لويــد لنجاحه فى حل ازمــة الجيش المصرى بمــا يحقق الحفاظ الكامــل على المصالح البريطانية ، ذلك رغــم تعارضهمــا فى الراى بالنسبة لكيفيــة حل هــذه الازمــة فى مرحلــــة سابقة (٤) ٠ وقــد أجاب لويــد بامتنانه العميق على هذه التهانى (٥) ٠

وهكذا انتهت ازمــة كبرى ـ خاصــة ببنــاء الجيش المصرى الــوطنى القوى ـ كادت تؤدى الى مواجهة شاملة بين مصر وبريطانيــا ٠٠ انتهت لصالح بريطانيــا لتقاعس السياسيين المصريين عن التمسك بالوطنيــة المفرطــة التى كانت نبراســا لمصر أثنــاء ثورة ١٩١٩ ، وتمسكــا بمقاعدهم سواء فى الوزارة او فى البرلمان ، وخوفــا منهم من الغــاء الدستور ٠ والواقــع ان مهارة المندوب الســامى اللورد لويــد ، وتفهمــه الكامــل لدقائق الحياة السـياسية فى مصر فى تلك الفترة ، مكنته من اختيار الاسلوب المناسب لحل هــذه الازمة الخطيرة ، بما يحقق فى النهاية الحفاظ على المصالح البريطانية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان تراجــع السياسيين المصريين اساســا لتأخر بناء الجيش المصرى ٠

---

(١) P.R.O. (407-204) b. No. 164 (J. 1655/8/16)
No. 271 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain Cairo, June 16.1927

(٢) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 170 (J. 1718/8/16)
No. 285 Lord Lioyd o Sir Austen Chamblreain Cailro, June 23,1927

(٣) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 166 (J. 1639/8/16)
No. 273 Lord Lioyd to Sir Austen Chamberlain. Cairo, June 20,1927

(٤) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 168 Sir W. Tyrell
(for the Secrtaery of State) to Lord Lioyd No. 186. F.O. June 16.1927
Austen Chamber-lain. No. 280. Cairo June 20, 1927.

(٥) P.R.O. F.O. (407-204) b. No. 169 Lord Lioyd to Sir
Austen chamberlain No. 280 Cairo June 20,1927

عقد معاهـدة ١٩٣٦ : (٢٦ أغسطس ١٩٣٦)

توفى سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، وأنتخب مصطفى النحاس رئيســا للوفـد ٠ وراس النحـاس وزارة ائتلافية ، الا ان المندوب السامى دأب على التدخل فى شئون مصر وارسال الانذارات ، الى ان أقال الملك فؤاد هذه الوزارة فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ ٠

وجاءت وزارة محمد محمود وهى من الاحرار الدستوريين مصممة على تعطيل الدستور ٠ فالواقع أنه رغم كون الملك فـؤاد محبا للفنون والآداب ، الا أنه كان فى الوقت نفسه حاكما مستبدا ، لذلك كان أهم ما كان يشغله هو تعطيل الدستور وحل البرلمان والحكم حكمـا مطـلقا ٠ ولذلك لجأ الى احزاب الاقليـــات التى تضم بعض المستقلين المرتبطين بالقصر أكثر منهم ذوى رصيد شعبى واضح ، ولم يكن بامكان هؤلاء أن ينفذوا المهمة الصعبة التى وكلت اليهم الا باللجوء الى تعطيل البرلمان أولا لمدة شهر ثم باصدار قرار بحل مجلس النواب فور انتهاء مدة التعطيل (١) ٠

وبعد وزارة محمـد محمود شكل عدلى يكن وزارة لعقد الانتخابات ، وحصل الوفد على أغلبية كبيرة ، والف مصطفى النحاس وزارته الثانية فى اول ينايـر ١٩٣٠ ، ولكن لم يطل الامد بهـذه الوزارة ، اذ قدمت استقالتها لتعنت الملك فؤاد معهـا ، وسـارع الملك من جانبه بتكليف اسماعيـل صدقى بتشكيل الوزارة ٠

وفى ٢٢ اكتوبر ١٩٣٠ أعلن صـدقى الغاء الدستور القائم (دستور ١٩٢٣) ووضع دستورا جديدا ٠

ولم يعترف الوفد والاحرار الدستوريون بهذا الدستور الجديد ٠ وفى سبتمبر ١٩٣٣ استقال صـــدقى بعد فترة من الحكم المطلق ٠ ثم توالت الوزارات ٠٠٠ وزارة عبد الفتاح يحيى ثم محمد توفيق نســـيم ٠

---

(١) مارسـيل كولومب ـ تطور مصر ١٩٢٤ ـ ١٩٥٠ ترجمة زهـير الشايب ومراجعة د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى مكتبة سعيد رافت ـ جامعة عين شمس ١٩٧٠ ص ٤٤

وفى ديسمبر ١٩٣٥ تأسست الجبهة الوطنيـــة من كل الاحزاب ومن المستقلين وطالبت الملك باعادة دستور ١٩٢٣ .

ولما كان الملك فؤاد قد أصبح مريضا جدا ، فانه رغب فى أن تعقب وزارة نسيم باشـا وزارة ائتلافية ، ولمـا فشـلت المساعى فى هـذا الاتجاه ، كلف الملك على ماهر باشـا - وكان رئيسـا للديوان الملكى بمهمة تأليف الوزارة فألفها فى ٣٠ يناير ١٩٣٦ ، وهى وزارة محايدة تماما .

وفى ٢٦ مارس ١٩٣٦ صـدر المرسوم بدعوة الناخبين الى انتخاب أعضـــاء مجلس النواب ، وحدد يوم ٢ مايو لاجراء الانتخابات . الا أن الملك فؤاد توفى فى ٢٨ ابريل ١٩٣٦ ونودى بابنه وولى عهد فاروق ملكـــا على مصر (١) .

على أية حال أجريت الانتخابات حـــرة لم تتدخل فيها الحكومة ، واسفرت عن أغلبية للوفد ، ومن ثم كلف مصطفى النحاس بتأليف الوزارة الجديدة ، فألفها فى ١٠ مايو ١٩٣٦ وهى وزارته الثالثة .

وجرت المفاوضـــات من أجـل عقـد معـاهدة مصرية بريطانية منـذ أواخر عهد الملك فؤاد ، وكانت هيئة المفاوضات المصرية مؤلفة على النحو التالى : مصطفى النحاس رئيسا . محمد محمود . اسماعيل صدقى . عبد الفتاح يحيى . واصف بطرس غالى . الدكتور أحمد ماهر . على الشمسى . عثمان محرم . محمد حلمى عيسى . مكرم عبيد . حـافظ عفيفى . محمود فهمى النقراشى . أحمد حمدى سيف النصر أعضاء ، أما هيئة المفاوضـــة البريطانية فكانت مؤلفة من السير مايلز لامبسون المندوب السامى البريطانى فى مصر يعاونه كل من : الاميرال السير وليم فيشر قائد الاسطول البريطانى فى البحـر المتوسـط . واللفتنت جنرال السير جورج وير القائد العـــام للقوات البريطانية فى مصر وقتئذ . ومارشال الطيران الاول السير روبرت بروك بوبهام قائد قوات الطيران البريطانيية فى الشرق الاوسط . والمستر كيلى مستشـار دار المندوب السـامى . والمستر سـمارت السكرتير بهـا .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية جـ ٢ ص ٢٥١ .

وبدأت المفاوضـــات فى القـاهرة يوم ٢ مارس ســنة ١٩٣٦ بقصر « الزعفران » ثم استمرت فى الاسكندرية منذ أواخر يولية بقصر «انطونيادس» وانتهت بوضع مشروع المعاهدة التى وقعت فى لندن بقاعة « لوكـارنو » التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ (١)

مـواد المعاهدة :

المـادة الأولى :

أنتهى احتلال مصر عسـكريا بواســطة قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور ٠

المـادة الثـانية :

يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والامبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر وبتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سـان جيمس سـفراء معتمدون بالطرق المرعية ٠

المـادة الثـالثة :

تنوى مصر الانضمام الى عضوية عصبة الامم وبما أن حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة تعترف بان مصر دولة مستقلة ذات سيادة فانها ستؤيد اى طلب تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الامم بالشروط المنصوص عليهـا فى المـادة الاولى من عهـد العصـبه ٠

المـادة الرابعة :

تعقـد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصــداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما ٠

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ فى أعقاب الثورة المصرية ج ٣ ط ١٩٥١ ص ١٧ ٠

المادة الخامسة :

يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الاجنبية موقفا وتعارض مع المحالفة وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية ٠

المادة السادسة :

اذا افضى خلاف بين احد الطرفين المتعاقدين ودولة أخرى الى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة تبادل الطرفان المتعاقدان الرأى لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقا لاحكام عهد عصبة الامم أو لأى تعهدات دولية أخرى تكون منطبقة على تلك الحالة ٠

المادة السابعة :

اذا أشتبك احد الطرفين فى حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فأن الطرف الآخر يقوم فى الحال بأنجاده بصفته حليفا وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتى ذكرها ٠

معاونة صاحب الجلالة ملك مصر فى حالة الحرب او خطر الحرب الداهم و قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها فى أن يقدم الى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الاراضى المصرية ومع مراعاة النظام المصرى للادارة والتشريع جميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك أستخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات ٠

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التى لها أن تتخذ جميع الاجراءات الادارية والتشريعية بما فى ذلك أعلان الاحكام العرفية واقامة رقابة وافية على الانباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة ٠

المادة الثامنة :

بما أن قنال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق اساسى للمواصلات بين الاجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالى أن يحين الوقت الذى يتفق عليه

الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع فى الاراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحددة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها ولا يكون لتلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الاحوال ٠

كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية ٠

ومن المتفق عليه أنه اذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحددة فى المادة السادسة عشر على مسألة ما اذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضروريا لان الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها ان يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة فان هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الامم للفصل فيه طبقا لاحكام عهد عصبة الامم النافذة وقت توقيع هذه المعاهدة أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقا للاجراءات التى قد يتفق عليها الطرفان ٠

المادة التاسعة :

يحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع من أعفاء وميزات فى الوسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى تكون موجودة فى مصر طبقا لاحكام هذه المعاهدة ٠

المادة العاشرة :

ليس فى أحكام هذه المادة ما يمس او يقصد به أن يمس بأى حال من الاحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التى قد تترتب لاحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الامم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليها فى باريس فى ٢٧ اغسطس سنة ١٩٢٨ ٠

المادة الحادية عشرة :

١ — مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقيات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقية ١٩ يناير ، ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن

ادارة السودان ستستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين .

والطرفان المتعاقدان يتفقان على أن الغاية الاولى لادارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين . وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان .

٢ ـ بناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة ، التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء .

٣ ـ يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام الدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين .

٤ ـ تكون هجرة المصريين الى السودان خالية من كل قيد الا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام .

٥ ـ لا يكون هناك تميز فى السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين فى شئون التجارة والمهاجرة او فى الملكية .

٦ ـ اتفق الطرفان المتعاقدان على الاحكام الواردة فى ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التى تصبح الاتفاقيات الدولية سارية فى السودان

المادة الثانية عشرة :

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبرطور بان المسئولية عن أرواح الاجانب وأموالهم فى مصر هى من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهى التى تتولى تنفيذ واجباتها فى هذا الصدد .

المادة الثالثة عشرة :

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بان نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد بلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة • ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر فى الغاء هذا النظام دون ابطاء • وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن فى ملحق هذه المادة •

المادة الرابعة عشرة :

تلغى المعاهدة الحالية جميع الاتفاقيات أو الوثائق القائمة التى يكون استمرار بقائها منافيا لاحكام هذه المعاهدة ، ويجب أن يعد باتفاق الطرفين المتعاقدين اذا طلب أحدهما ذلك بيان بالاتفاقيات والوثائق الملغاة وذلك فى مدى ستة اشهر من نفاذ هذه المعاهدة •

المادة الخامسة عشرة :

اتفق الطرفان المتعاقدان على ان اى خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق أحكام المعاهدة الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى احكام عهد عصبة الامم •

المادة السادسة عشرة :

يدخل الطرفان المتعاقدان فى مفاوضات بناء على طلب أى منهما فى اى وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة. وذلك بقصد اعادة النظر بالاتفاق بينهما فى نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك فاذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التى اعيد نظرها يحال الخلاف الى مجلس عصبة الامم للفصل فيه طبقا لاحكام عهد العصبة النافذ وقت هذه المعاهدة أو الى اى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقا للاجراءات التى يتفق عليها الطرفان المتعاقدان •ومن المتفق عليه أن أى تغير فى المعاهدة عند اعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقا للمبادىء التى تنطوى عليها المواد (٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) • ومع ذلك ففى اى وقت بعد انقضاء مدة عشرة سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن

الدخول فى مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد أعادة النظر فيها كما سبق بيانه (١) ٠

وقد هاجم الحزب الوطنى حضر ، المعاهدة هجوما شديدا ، لانها تقبل بالصداقة والتحالف مع الانجليز وهم لا يزالون يحتلون مصر بينما اعتبرتها باقى الاحزاب اساسا جيدا للبناء عليه ٠

والواقع ان التحالف العسكرى بين مصر وانجلترا واعتراف مصر بالحكم الثنائى فى السودان هو الثمن الذى دفعته مصر فى مقابل السيادة التى اضفاها عليها تمتعها بعضوية عصبة الامم ، والغاء الامتيازات الأجنبية طبقا لاتفاق مونتريه ، وكانت معاهدة ١٩٣٦ وليدة اصطناع القوة ، اذ أن انجلترا بسبب وجود قواتها العسكرية فى الشرق الاوسط ، كانت قادرة على الاستمرار فى احتلال مصر والسودان رغم أنف المصريين . وعلى ان تدافع عن مصر سواء اشتركت مصر فى هذا الدفاع أم لم تشترك وكانت انجلترا على يقين من ان باستطاعتها ان تقوم بذلك ، وكان المصريون يعلمون ذلك ويدركون حقيقة الموقف الدولى فى شرق البحر المتوسط ، ولهذا تنازلوا عن نصف مطالب مصر فى سبيل الحصول على النصف الآخر (٢) ٠

وكان من الواضح ان هذه المعاهدة قد وضعت نهاية لفترة فى العلاقات المصرية البريطانية ، بدأت بضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ (٣) ثم بلغت درجة شديدة من التوتر والعنف سنة ١٩١٩ ثم انتقلت الى طور الصداقة سنة ١٩٣٦ ٠

على ان معاهدة ١٩٣٦ تسجل نقطة انتقال حاسمة فى تاريخ مصر المعاصرة ٠ فقد اقنع الزعماء الوفديون الشعب بأنهم قد أحرزوا له « الشرف والاستقلال » ، ولهذا انحسر المد الوطنى الصاعد الذى كان ذخيرة مصر

---

(١) د ٠ عبد العزيز الشناوى ـ د ٠ جلال يحيى ـ وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ـ دار المعارف ١٩٦٩ ص ٧٤٣ ـ ٧٧٠ ٠

(٢) د ٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ ٠

(٣) John Marlowe op. cit., p. 307

المعنوية منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر وتوهم المصريون انهم قد حصلوا على الاستقلال ، وانصرموا وصرفتهم الاحزاب الى النضال المرتبط بتقلبات الحكم (١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يوليو

من الملاحظ أن الحركة الوطنية فى مصر قد قلت حماستها كثيرا فى عام ١٩٢٤ بالقياس الى عام ١٩١٩ ويرجع ذلك الى ان الحركة الوطنية قد لقيت الكثير من عنت سلطات الاحتلال ، ومن تدخل القصر فى الحكم والانتهازية والحزبية التى طغت على وحدة الأهداف الوطنية (٢) .

وكانت « المفاوضة » هى الاداة التى اتخذها قادة الرأى فى مصر لوضع العلاقات المصرية البريطانية على اساس يحقق لمصر امانيها القومية ، والمفاوضة اخذ وعطاء ، فكان هم المفاوض المصرى الا يعطى انجلترا ما يتنافى مع جوهر الاستقلال ، واختارت الحكومة الانجليزية هى أيضا المفاوضة اداة لوضع علاقاتها بمصر على اساس يتقبله المصريون راضين تماما أو راضين بعض الرضا ، ويحقق لانجلترا الاغراض التى من اجلها سيطرت على مصر . والمفاوضة اخذ وعطاء ، فكان هم المفاوض الانجليزى أن يسخو فى الصيغ العامة وأن يدقق كل التدقيق فيما يمس المصالح التى ادعتها بلاده لنفسها (٣) .

وهكذا انتقلت المسألة المصرية من مرحلة الثورة الى مرحلة جديدة هى مرحلة المفاوضات السلمية . وبدأت المفاوضات الاولى بين سعد زغلول ومكدونالد بلندن فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، الا أن المطالب التى تقدم بها سعد لم تجد موافقة من حكومة العمال ، وانتهت المفاوضات برفضها .

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى – المصدر السابق ص ٢٠٢ .
(٢) د . جاد طه – الصراع الاستعمارى فى حوض النيل ص ٨٩
(٣) محمد شفيق غربال – تاريخ المفاوضات المصرية – البريطانية ١٨٨٢ – ١٩٣٦ القاهرة ١٩٥٢ ص ١ .

وكانت المفاوضات التالية بين عبد الخالق ثروت الذى راس الحكومة الائتلافية فى مصر فى ابريل سنة ١٩٢٧ وتشمبرلن وزير الخارجية البريطانية البريطانية فى حكومة المحافظين ، ووصل الطرفان الى مشروع معاهدة تحقق لبريطانيا فيه كل ما تهدف اليه من نفوذ وسيطرة ، الا ان الوفد والوزارة رفضا هذا المسروع ومن ثم لم يعرض على البرلمان ، وانتهى الامر بتأجيل النظر فى هذا المشروع ·

وفى عام ١٩٢٩ بدأ محمد محمود رئيس الوزارة المصرية الدور الثالث للمفاوضات مع آرثر هندرسن وزير الخارجية البريطانية فى حكومة العمال ، الا ان مشروع المعاهدة الذى أسفرت عنه المفاوضات كان يتلخص فى الاحتفاظ بالآحتلال البريطانى الدائم للبلاد ، وبفصل مسالة السودان عن المسالة المصرية ··· ولما أعلن نص المشروع سقطت وزارة محمد محمود (١) وفى ٢٦ أغسطس عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى تكلمنا عنها سبقا ·

وتميزت الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٥٢ بانها شهدت انهيارا سياسيا واسع المدى ، فعلى الرغم مما كان يتمتع به حزب الوفد من مساندة جماهيرية الا ان الحزب بدأ يتفتت نتيجة لمؤثرات داخلية وخارجية ، فقد كان الاستعمار والسراى يخشيان من الحزب على اساس انه يجمع ويكتل قوى الشعب ، فبدأ الامر بسلخ بعض عناصره القوية ، وهى التى شكلت بعد ذلك حزب الاحرار الدستوريين · ولما بدأ حزب الوفد يقوى مرة أخرى ، قامت محاولة جديدة لتمزيقه بخروج السعديين منه · وكان السعديون يمثلون العناصر الرأسمالية الجديدة التى ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى · وقد حاول الوفد أن يتحول منذ عام ١٩٤٥ الى حركة اشتراكية باتجاهه الى الى التشكيلات العمالية ، ولكنه فشل فى ذلك · حقيقة كان فى وسع الوفد دائما أن يعتمد على قوته فى كسب الانتخابات ، ولكنه ما ان يكسبها فى أى مرة من المرات حتى تتفرق وحدة الهدف التى سادت

---

(١) د · حامد طه ـ المصدر السابق ص ٩٠ ·

أعضاءه أثناءها وحتى بركن الى الاسترخاء ، وكثيرا ما كان يلجأ القصر الى اقالة وزارة جديدة تم انتخابها أو الى حل البرلمان وتعطيل الدستور عملا بنصيحة بريطانيا أو بدونها اذا رأى أن النذر السياسية غير مواتية له ، وهكذا كانت تنطلق الانتهازية والمصالح الخاصة حرة طليقة فى ظل مثل هذه الاوضاع .

وكان أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة هم الذين يسيطرون على السياسة كليا ، وكانوا فى غالبيتهم من الغائبين عن أرضهم ، وممن يصرفون أيامهم بين القاهرة والاسكندرية وأوربا . ومع ذلك ، فقد كان بامكانهم أو بامكان وكلائهم أن يضمنوا لهم الفوز فى الانتخابات البرلمانية باستخدام وسائل غير مشروعة فى جملتها ، وكان من العادات المألوفة أن يكون هناك سماسرة لشراء أصوات الناخبين .

ولقد تقدمت الصناعة والتجارة فى مصر بعد عام ١٩٢٢ ، ولكن هذا التقدم لم يخلق مع ذلك طبقة قوية من رجال الصناعة والتجارة تستطيع ان تتحدى السلطان السياسى لفئة كبار الملاك ، فلقد كان الشطر الاكبر من الصناعة الجديدة ومن التجارة ملكا للاجانب وتحت اداراتهم ، وكان الأجانب يملكون فى عام ١٩٤٨ نحو ٦١٪ من مجموع رؤوس الأموال فى الشركات المساهمة ، يضاف الى هذا ان الفئة الممتازة من كبار الملاك كانت هى التى خططت شكل المجتمع المصرى ، ورسمت له خطاه وحياته العامة منذ أمد طويل ، بحيث أجبر المصريون الذين ارتقوا عن طريق الصناعة والتجارة الى الظهور بمظهر التبعية للطبقة الأرستقراطية من الملاك .

وعكست البرلمانات التى سيطر عليها الوفد فى الفترة بين عامى ١٩٢٢ ١٩٥٢ الخصائص السياسية للاتجاه السياسى . وقد يكون صحيحا ان البلاد خطت خطوات واسعة فى حقل التعليم العام ، وان البرلمان قد اقر فى عام ١٩٤٢ قانونا هاما لتنظيم الحركة النقابية ، وحقق للبلاد تقدما عام ١٩٥٠ تشريعا هاما للضمان الاجتماعى ، والحقيقة ان كبار الملاك فى داخل الحكومة أو فى خارجها كانوا يتسامحون فى هذه

الاجراءات ... الاصلية عن امسن بها والغالبية نرى قبيب وسيلة لامتصاص الثورة ، ومع ذلك فلم يكن فى استطاعة أى برلمان فى مصر بين عامى ١٩٢٢ ، ١٩٥٢ أن يسن قانونا للاصلاح الزراعى ، بل ورفضت البرلمانات الاقتراحات التى قدمت لها فى عامى ١٩٤٥ ، و ١٩٥٠ بتحديد الملكية الزراعية .

وظل سكان مصر فى التزايد المستمر ، وارتفع تعداد السكان من ١٣,٠ مليونا سنة ١٩٢٢ الى ٢١ مليونا فى عام ١٩٥٢ ، وتبع ذلك هبوط فى مستوى دخل الفرد . واخذ الكيان السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى مصر ينهار سنة بعد اخرى ، وفقد الوفد قدرته على اجتذاب الألوف من العاطلين ومن ذوى الاجور الضئيلة من خريجى الجامعات .

وشهدت الفترة من ١٩٢٢ الى ١٩٥٢ ظهور جيل جديد من الشباب القلق نستطيع ان نقرا قصته فيما كتبه الرئيس جمال عبد الناصر فى كتابه فلسفة الثورة ، فقد كان هذا الجيل يتكون من المتعلمين من خريجى الجامعات ومن الذين يعملون فى المهن المختلفة والطبقة الوسطى عموما التى كانت بمثابة الأرض الخصبة التى اخذت تترعرع فيها الافكار الجديدة التى سادت العالم عقب الحرب العالمية الاولى ، وكانت هذه الطبقة تؤلف حاجزا طبقيا بين الاغنياء والفقراء ، ولكن هذا الحاجز لم يكن يملك من الثروة او الوفرة العددية والتنظيم السياسى والمكانة الاجتماعية ما يمكنه من تحدى النظام القائم تحديا جديا . وظل هذا الحاجز يؤلف طبقة تعيش فى حيوية قلقة بين هؤلاء الذين يمسكون بزمام السلطان وبين اولئك الذين يقبعون عاجزين فى شقائهم .

وادى التحول السريع فى حياة المدن الى ظهور طبقة عمالية جديدة، وان كانت قد ظلت تفتقر الى حد كبير الى التنظيمات الفعالة للطبقة العاملة .

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها ، حتى كان السخط ظاهرة عامة وخاصة بعد قيام اسرائيل وما صحبها من مأساة حرب فلسطين . ونمت فى عقول أبناء هذا الجيل رغبة شديدة لا تكتفى

بالاصرار على تصفية كل سيطرة جنبية فحسب ، بل تتطلع الى الحيلولة دون تمكن أية دولة من الدول الكبرى من عقد تحالف مع أى جزء من أجزاء الوطن العـربى ٠

وكان النظام الجمهورى مطلبا متأصلا فى سعى هـذا الجيل الى الاصلاح الاجتماعى وأخذت الاشتراكية والديموقراطية تجتذبان هـذا الجيل بدرجة متزايدة ، ولكن النظـام الداخلى الذى كان يتحكم فى البلاد كان بطبيعـة الحال يعارض هذه الأفكار وهو فى هذا متفق تماما مع سياسة الاحتلال ، ومن هنا بدأ التحدى لهاتين القوتين معا ، ومع ذلك لم تنشأ حركة سياسية تعكس كل هذه الآراء وتتصـدى لمقاومة التد .ت التى كان من المفروض أن تواجهها ، وبالتالى لم تقم أحزاب متماسـكة فى أهدافهـا نشيطة فى عملها لتعكس هـذه الآراء ٠

والواقـع أن الشعب المصرى كان يعيش فى السنوات السـابقة للثورة فى حالة يأس شديد نتيجة لتدهور الاوضـاع الاقتصـادية ولبقاء جيش الاحتلال ، وكان لا بـد من تغيير سريـع ، وكان من المستحيل أن تقـوم الأحزاب السياسية فى مصر بمهمـة هـذا التغيير بعـد أن فقـدت الجماهير ثقتها بتلك الأحزاب ، وأخذت تبحث عن شىء جديد ينير معـالم الحياة فى البلد ، فالوفد الذى كانت تلتف حوله الغالبية العظمى من أفراد الشـعب قد فقد ثقة واحترام المثقفين لتسرب الفساد الى الصفوف الأولى من قادته وكانت الأحـزاب السياسية الأخرى كحزب الأحرار الدستوريين وحـزب السعديين قـد بدات تفتح أبوابهـا لنفوذ الرأسماليين ، بينمـا كان الحزب الوطنى يتكون من مجموعـة من المثقفين الذين انعزلوا انعزالا يكـاد يكون تاما عن الشعب ٠ وكان الموقف يتطلب ظهور قيادة غير قيادات الأحـزاب القائمـة ، فى الوقت الـذى كان فيه الوعى القومى للشعب قـد ازداد ارتفاعا ، بفضـل الاتجاهـات الثوريـة الشعبيـة الجديدة ، وبفضـل تطـور الأحداث العالمية ، وبفضل التجارب الثورية التى خاضتها بعض الشـعوب الآسيوية ، واثبت هـذا الوعى وجوده فى مظـاهـرات فبرايـر ١٩٤٦ وفى المعارك المسلحـة فى القنال سنة ١٩٥١ ٠

وكانت حرب فلسطين ، والكشف عن مخازى القصر ابذانا بارتفاع صوت الشعب بالمطالبة بالقضاء على الملكية ، وظهرت المقالات فى الصحف ضد الباشوات ابذانا بالقضاء على الاحتكار ·

ولم يكن الجيش بمعزل عن الشعب ، فقامت فى صفوفه تنظيمات سرية · وقد بدات حركة الضباط الأحرار سنة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ وبالذات اثناء محاولة الغزو الالمانى لمصر ، وبدأت الحركة تظهر فى أوساط الجيش لمقاومة محاولة التدمير التى أزمع الانجليز القيام بها عند انسحابهم امام الألمان · واستمر الارتباط قائما بين جماعة الضباط الاحرار ، وبدأ الاتجاه السياسى يظهر فى التنظيم ، وتجاوب التنظيم السياسى فى مفاهيم هؤلاء الضباط الذين دخلوا الجيش بعد معاهدة ١٩٣٦ عندما زيد عدد الجيش ، وكانت اكثريتهم من العناصر الشعبية بينما كان الجيش من قبل وقفا على عناصر معينة · وكانت هذه الفئات الجديدة هى الطلائع الثورية لثورة يوليو ، ولعل ذلك يذكرنا بموقف يكاد يكون مشابها · كان الثورة العرابية قد تزعمتها ايضا فئات من العناصر الشعبية التى دخلت الجيش اثر ما تقرر زيادة عدده فى عهد الخديو اسماعيل · وقد أخذت تنظيمات الضباط الاحرار تقوى بعد عام ١٩٤٨ نتيجة لما لمسه الضباط بأنفسهم فى حرب فلسطين من مقدار الفساد فى الفئة الحاكمة ، وأصبح الشعور الحقيقى بان المعركة الاساسية لا تكون فى فلسطين بل فى مصر نفسها ، ولذلك أخذ التنظيم يدخل مرحلة جديدة بعد ١٩٤٨ · وبعد عودة الجيش من فلسطين كانت السلطات متنبهة الى ذلك فبدات عملية تشتيت واسعة ، ولكن الأفكار الثورية كانت مع ذلك تزداد قوة ، لأن الظروف التى كانت تمر بها البلاد انعكست على التنظيم نفسه · وقد اعطت معركة الكفاح المسلح فى القنال فرصة لزيادة قوة التنظيمات التى اقامها الضباط ، وصبح من المستحيل أن يبقى الجيش كما أريد له أن يكون اداة صماء فى يد القصر ·

وبعد نكسة فلسطين سنة ١٩٤٨ وقعت فى مصر سلسلة من الاحداث ادت الى اضطراب امور البلد ، فقد نشب صراع دموى بين بعض الاحزاب المتصارعة على الحكم ، ووقعت عدة حوادث اغتيالات وانفجارات

فى ارجاء القاهرة والاسكندريه ، واهتزت مكانة الوزارات فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٤٨ - ١٩٥٠ .

وشعر الملك انه فى حاجة الى وزارة قوية تستطيع أن تعيد الامن الى البلاد ففكر أن يعيد الوفد الى الحكم ، وفعلا أجريت الانتخابات فى عام ١٩٥٠ وحصل الوفد على الأغلبية البرلمانية ، الا أن الوفد غير سياسته ، واخذ يتقرب من السراى لان مدة ابعاده عن الحكم دفعت رجاله الى التفاهم مع السراى لعلهم يستمرون فى الحكم مدة اطول ، وحتى لا يتعرضوا للاقالة مثلما حدث فيما سبق .

وقد حاولت حكومة الوفد أن تستعيد ثقة الشعب ، فحاولت ان تصدر مشروعا للضمان الاجتماعى ، كما منحت علاوات للموظفين وزيادات فى اجور عمال الصناعة ، ولكن هذه الخطوات أدت الى غلاء الاسعار . وحاولت حكومة الوفد ان تلجأ الى طرق اخرى لاستعادة الثقة بها فدخلت فى مفاوضات مع الانجليز على أمل انهاء الاحتلال وعندما فشلت هذه المفاوضات اعلنت الحكومة الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وكان ذلك فى ٨ اكتوبر سنة ١٩٥١ .

وقد استقبلت البلاد الغاء المعاهدة بالغبطة والحماسة ، وابدت استعدادها للبذل والتضحية شأنها فى الاوقات العصيبة ، واستعدت الامة بمختلف هيئاتها وطوائفها للكفاح ، وتجاوبت مع الحكومة فى مجاهدة الانجليز فى القنال ، وتجلت فى الشعب الروح الوطنية الثائرة التى ظهرت فى ثورة ١٩١٩ .

لقد كان الغاء المعاهدة بداية مرحلة جديدة من مراحل الكفاح الوطنى، وكان ايضا الفرصة السانحة لتوحيد الصفوف وجمع الكلمة وازالة اسباب الفرقة والانقسام .

وكان واجبا على الوفد ان يكون هو الداعى الى توحيد الكلمة والعامل على تحقيق هذه الغاية لانه كان يتولى الحكم حينذاك ، ووزارته هى التى اعلنت الغاء المعاهدة واتخذ هذا الالغاء شكل اعلان الحرب على الاحتلال . ولكن مصطفى النحاس لم يفعل شيئا من هذا ، فلا هو دعا معارضيه الذين

ايدوه فى الغاء المعاهدة الى التعاون معه بشكل جدى ، ولا هو صبغ وزارته بالصبغة القوميــة ٠

كما أعلن مصطفى النحــاس ان الوزارة قــد أعــدت لكل شىء عدتــه فيما ستواجهه مصر من مشــاق الجهاد ، وانهــا امضت الشهور فى الاستعداد الكفــاح ، وأن المصلحة العــامة تقتضى أن تظل الخطوات المقبلــة فى طى الكتمان الى ان تعلن فى الوقت المناسب ٠ وسرت الحماسة الى نفــــوس المواطنين ، واخذوا يستعدون للكفاح ضــــد الانجليز فى القنال ويعدون له عدته من تلقــاء انفســهم ، وكان فى الحق كفاحا مجيدا ، كفــاح شــعب اعزل من السلاح أمام قوات غاصبة مسلحة بأحدث معدات الفتك والدمار ٠

وتجلت بطولات الفدائيين فى مهاجمــة المعسكرات والمخافر والمنشآت البريطانيــة فى منطقة القنــال ممــا تردد صداه فى صحف العالم ، وكان من اقوى الدعايات لمصر ضــد الاحتلال (١) ٠ ورغم تأكيــد حكومة الوفــد بأنهــا قــد أعدت لكل شىء عدته ، فقــد حدث فى ٢٥ ينــايــر ١٩٥٢ أن هاجــم الانجليز محــــافظة الاسماعية بالمدافــع والدبابات ولم يكن يدافــع عن المحافظــة سوى عدد قليــل من جنود الشرطة (بلوكات النظــام) الذين لا يحملون ســوى البنادق العادية ، ومن ثم أبيد معظمهم ٠

وفى اليوم التالى خرجت جماعات من الطلبة ورجــال الشرطة فى مظاهرة احتجاج ضخمــة ضــد ذلك العدوان الوحشى ، وكانت النفوس ثائرة ضــد حكومــة الوفــد المتخاذلة ، وانتهزت بعض الجماعات المتطرفة هــذه الفرصة للاساءة الى الحركــة الوطنية ، فكان حريق القاهرة فى ٢٦ ينايــر ١٩٥٢ ، وكان لذلك الحريق اثــر كبير فى تقديم موعــد الثورة ، وفى ذلك يقول الرئيس جمال عبد الناصر : « حرقت القاهرة وحرق معها كفاحنا فى القنال ٠ ومن ذلك اليوم بدانــا نفقــد الصبر وآثرنــا أن نصرع الفســاد قبل أن يصرعنا » والحقيقة انه كان هناك تفكير بأن يقوم الجيش بحركته بعــد ان نزل الى

---

(١) عبد الرحمن الرافعى مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ١٨ - ٢١ ٠

شوارع القاهرة فى ٢٦ يناير واحتل الاماكن الرئيسية • ولكن الظروف لم تكن مواتية فى ذلك الوقت •

وبدات الاحداث تتوالى بسرعه ، ففى نفس ذلك اليوم أعلنت الاحكام العرفية وأقيلت وزارة الوفد فى اليوم الثالث للحريق ، وحلت محلها وزارة على ماهر ، ثم جاءت بعدها وزارة نجيب الهلالى الاولى فحلت البرلمان ورفعت شعار « لا تحرير قبل التطهير » ، وكان هدف هذا الشعار تمييع حركة الكفاح الشعبى وادخال البلاد فى معركة أخرى ••• معركة التطهير داخل الاجهزة الحكومية وكان المقصود بهذه العملية صرف نظر الشعب عن عملية الكفاح •

ولما بدأ الهلالى فى عملية التطهير يمس فى تحقيقاته بعض المتصلين بالسراى كان لا بد من ابعاده ، وتمادى الملك فى تعيين وزارة واسقاط أخرى حتى انه كلف اثنين بتأليف الوزارة فى وقت واحد دون أن يعلم أحدهما بامر الآخر •

وفى ٢٢ يوليو ١٩٥٢ استقالت وزارة حسين سرى بعد ١٩ يوما وكلف الملك نجيب الهلالى تأليف وزارة جديدة وفرض الملك عليه عددا من الوزراء ليكونوا اداة للملك فى السيطرة على الجيش بوجه خاص نتيجة لنشاط الضباط الاحرار •

وبينما القيادة العليا للجيش تبحث فى تلك الليلة (٢٢ يوليو) الوسائل التى يجب اتخاذها لتنفيذ ارادة الملك ، قام الجيش بالثورة •• والحقيقة ان الشعب المصرى كان قد بدأ ثورته على الوضع ، ولكنه كان بحاجة الى قيادة منظمة توجه نشاطه وتنظم صفوفه ، فلما قامت الثورة لم تكن تمثل فقط غضبة رجال الجيش ، وانما كانت تعبر عن رغبة شعبية عميقة ، وهكذا التقت ارادة الجيش وارادة الشعب ، فلما تحرك الجيش فى صباح يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لم يجد أمامه مقاومة •

اسباب ثورة ٢٣ يوليـو :

ان البيانات التى اصدرتهـا الثورة فى بدء قيامهـا لـم توضح سـوى الاسباب الظاهريـة ، أو الاسباب الجزئيـة ، وخلاصـة هذه البيانـات أن قادة الثورة وكلهم من ضباط الجيش ضد ثاروا على فسـاد نظام الجيش ، ذلك الفساد الذى كان من أسباب الهزيمة فى حرب فلسطين ، وأنهم اعتزموا تطهير الجيش من عوامـل الفسـاد والرشوة والخيـانة ثـم متابعـة التطهير فى جميـع مرافق البلاد ، ورفـع لواء الدستور ، وقـد راوا ان الملك بتصرفاته السيئة وعبثه بالدستور من اسباب الفسـاد الذى سيطر على اداة الحكم ، مما ادى بالتالى الى الفوضى الشاملة التى عمت جميع المرافق وأساءت الى سمعة مصر فاعتزموا خلعه وخلعوه فعلا فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ (١) ٠

والواقـع ان هـذه العوامل هى بعض أسباب الثورة لاكلهـا ، فاسبابها اهم واعمق من ذلـك ، فهى ليست خاصـة بالجيش ، وانمـا كانت قياداتها تعبر عن أحاسيس الشـعب واتجاهاته وتترسم خطواته فى تحديد أهدافه ، ولذلك لا تختلف هـذه الثورة عن الحركـات الشعبيـة التى سبقتهـا باستثنـاء الثورة العرابيـة الا فى اتخـاذ الجيش أداة العمـل والتنفيذ ، وقد كانت هذه القوة فعلا هى السبيل لنجاح الثورة ولولاهـا لانتهت بالنكسة والاخفـاق ٠

ويمكن ان نرجع اسباب ثورة يوليـو الى عوامـل سياسية واقتصادية واجتماعية ، ولذلـك فان الثورة فى معالجتهـا لتلك الاسباب ثورة سياسية واقتصـاديـة واجتماعية ، ممـا يميزهـا عن الحركـات الشعبيـة الاخرى التى قامت ٠

الاسباب السياسية :

كانت الثورة تعبيرا عن سخط الشعب ٥٠ الاحتلال البريطانى الـذى جثم على صدر البلاد سنوات طويلة ، كمـا كانت تعبيرا عن سـخط الشعب

---

(١) د ٠ جاد طه ـ ثورة ٢٣ يوليو ص ١٤٤ ٠

لاستغلال المستعمر للبلاد سياسيا واقتصاديا ، ونقضه المتواصل لمواعيد الجلاء ، والمراوغة فى تعويق الجلاء بمفاوضات منكررة . كما عمل الانجليز بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ على تدبير المؤامرات واسقاط الوزارات واقامتها ، واستحداث الازمات لتحقيق أغراضهم الاستعمارية . وأدرك الضباط الاحرار ان الواجب أن يكون لهم الدور المرتقب فى الجهاد لانهم يمثلون القوة المسلحة التى يستطيع الشعب أن يستند اليها فى التخلص من مساوىء سيطرة المحتل .

الاسباب الاقتصادية :

كانت الحالة الاقتصاديه فى أوائل سنه ١٩٥٢ مما يحفز النفوس الى الانتفاض والثورة والعمل على تحرير البلاد من عوامل الفقر التى كانت تتردى فيها .

حقا ان البلاد قد خطت خطوات متوالية منذ الحرب العالمية الاولى فى سبيل التقدم الاقتصادى ، واطرد هذا التقدم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وتعددت المنشآت الصناعية ، الا أن مصر ظلت بصفة عامة من البلاد المتخلفة اقتصاديا ، وكان من مظاهر هذا التخلف ظهور العجز فى ميزانها التجارى ، هذا الى ما كان من سيطرة الاستعمار والنفوذ الاجنبى بصفة عامة على مقدرات البلاد ، وكان هذا النفوذ يمتد الى المحيط السياسى ، وكانت الغالبية العظمى من أفراد الشعب تشكو الفقر وسوء الحالة الاجتماعية بما يصحبها من انخفاض فى المستوى المعيشى ، وافتقرت البلاد الى آفاق جديدة تزيد من الانتاج القومى ومن دخل الافراد كالتنمية الزراعية او الصناعية ، وكان ذلك من العوامل التى ادت الى التطلع نحو تغيير شامل فى نظام الحكم قد يساعد على اصلاح ما اختل من شئون البلاد المالية والاقتصادية .

الاسباب الاجتماعية :

لقد كانت الحالة الاجتماعية تدعو ايضا الى الثورة ، واهم مظاهرها فقدان العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب . ان العدالة الاجتماعية من

مقومات المجتمع المتقدم ، وأساسها أن لا تتحيف طبقة حقوق طبقة أخرى ، وأن تقل الفوارق الشاسعة بين الطبقات ، وأن تعمل الدولة على تحسين حالة الطبقات الفقيرة من الوجهة الاقتصادية والصحية والثقافية ، وبذلك يتحقق التضامن الاجتماعى بين أفراد الامة ٠

وقد كانت الفوارق فى الثروات بين أفراد المجتمع تتخذ طابعا خطيرا ، وكانت البلاد تشكو من سوء توزيع ملكية الاراضى الزراعية ، وان سوء توزيع هذه الملكية فى مصر ظاهر توزيع ملكية الاراضى الزراعية ، وان سوء توزيع هذه الملكية فى مصر ظاهر من القاء نظرة على عدد الملاك ومقدار ما يملكون ، ونسبة صغار الملاك الى كبارهم فى مجموع هذه الاراضى ٠ ويوضح هذا الاحصاء هذه الحقيقة فيما يلى :

ان مساحة الارض المنزرعة قبل الثورة كانت ٥ر٩٦٦٢ر٦٦٢ فدانا ، وكان مجموع ملاكها ٢ر٧٦٠ر٦٦١ مالكا ٠

فاذا نظرنا الى الملكيات الصغيرة فاننا نجد أن :

١ ـ ١ر٤٥٩ر١٦٧ مالكا يملك كل منهم لغاية نصف فدان ، مجموع ملكياتهم ٤١٣ر٥٥١ فدانا ٠

٢ ـ ٥٢٢ر١٦٢ مالكا يملك كل منهم أكثر من نصف فدان الى فدان ومجموع ملكياتهم ٣٥٦ر٦٩٥ فدانا ٠

٣ ـ ٣٢٧ر٦١٢ مالكا يملك كل منهم أكثر من فدان الى فدانين ومجموع ملكياتهم ٤٤٩ر١٨٦ فدانا ٠

٤ ـ ١٥٣ر٢٩٣ مالكا يملك كل منهم أكثر من ٢ لغاية ٣ افدنة ومجموع ملكياتهم ٣٠٤ر٨٥٥ فدانا ٠

٥ ـ ٨١ر٣٦٦ مالكا يملك كل منهم اكثر من ٣ لغاية ٤ افدنة ومجموع ملكياتهم ٢٤٧ر٠١٧ فدانا ٠

٦ — ٥٨٩ر٥٦ مالكا بملك كل منهم اكثـر من ٤ لغـاية ٥ افدنة ومجموع ملكياتهم ٠٠٠ر٢٤٧ فدان ٠

واذا نظرنا الى الملكيات الكبرى فاننـا نجد ان :

١ — ٦١ مالكا يملك كل منهم اكثـر من ٢٠٠٠ فـدان ومجموع ملكياتهم ٢٥٨ر٢٧٧ فدانا ٠

٢ — ٢٨ مالكا يملك كل منهم من ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ فـدان ومجمـــوع ٢١٦٠ر١٢٢ فدانا ٠

٣ — ٩٩ مالكا يملك كل منهم أكثر من ١٠٠ — ١٥٠٠ فدان ومجموع ملكياتهم ٢١٦ر١٢٢ فدانـا ٠

٤ — ٩٢ مالكا بملك كل منهم اكثـر من ٨٠٠ الى ١٠٠٠ فـدان ومجموع ملكياتهم ٤٨٣ر٨٦ فدانا ٠

ومعنى ذلك ان ٢٨٠ مالكا يملكون ٤٠٠ر٥٨٣ فدان ، اى ان ١ عـلى ١٠٠٠٠ من الملاك يملكون حوالى ١٠٪ من الارض

واذا نظرنا الى الملكيات التى تزيد عن ٢٠٠ فدان ، فاننا نجـد ان ٢٢١٥ مالكـا يملكون ٤٩٣ر٢٠٨ر١ فدانـا ، اى ان ٨ على ٠٠٠ر١٠ من الملاك يملكون ١٩٪ من الارض (١) ٠

وواضح من هذا الاحصـاء مبلغ سوء توزيـع الملكيـة الزراعية ، وهذا التوزيع السيء جعل الغالبية العظمى من صغار الملاك الزراعيين يملك الواحد منهم نحو ربع فدان ، وهو مقدار لا يكفى لسد حاجة هذه الفئة من السـكان اذ لا يزيد دخل الفرد منهم عن مبلغ تافه لا يكفى للقوت الضرورى للمالك وعـائلتـه ٠

ولكن السعى الى تحديد الملكية الزراعيـة قـد باء بالفشـل فى عهد النظام الملكى ، وكانت كل محاولة من هذا القبيل مقضيا عليها بالاخفـاق

---

(١) هذا الاحصاء مأخوذ عن المذكرة التفسيرية لقانون الاصلاح الزراعى انظر عبد الرحمن الرافعى — مقدمـات ثورة ٢٣ يوليو ص ١٧٠ ٠

ولقد بذلت فى عهد فاروق فى سنة ١٩٤٥ محاولة تشريعية لتحديد الملكية الزراعية ولكنها انتهت بالاخفاق • ولم يكن ممكنا فى ظل النظام الملكى ان تحدد الملكية الزراعية ، وكان لا بد من ثورة لتحديد الملكية الزراعية فحالة البلاد الاجتماعية من هذه الناحية كان لها دخل كبير فى قيام الثورة (١) •

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٢ •

الفصل التاسع

من متاحف مصر الحديثة

ترجع فكرة انشـــاء المتاحف فى مصر الى الملك فؤاد ، الذى أراد أن ينشىء متاحف متخصصة • وفى هذا الفصل سنحاول الاشـــارة الى بعض متاحف مصر الحديثة ، لأن المتاحف عديدة ومتنوعة كمتحف الاحياء المائيه بالاسكندرية ومتحف التعليم ومتحف قناة السويس والمتحف الحربى والمتحف الزراعى ومتحف الرى ومتحف الامير محمـــد على ومتحف الركايب ومتحف السكة الحديد ومتحف البريد ومتحف مختار ومتحف احمد شوقى ، ومتاحف القصور الملكية والمنتشرة فى كل مكان ، •• الخ فهذه الدراسة قد تشـــحذ الهمة عند البعض معرفتى بقلة رواد هذه المتـــاحف التى تقص قصـــة الحضارة فى مصر الحديثة •• واذا كنا لم نفصل الكلام هذه المرة عن كـل متاحف مصر الحديثة ، ففى الطبعة القادمة من الكتاب سـوف نتلافى هذا النقص بمشيئة الله ، لاننا آثرنا هـذه المرة اعطاء لمحة سريعة عن المتحف الزراعى والمتحف الحربى ومتحف المركبات الملكة ومتحف الرى ومتحف الامير محمد على

اولا : المتحف الزراعى

رأى الملك فؤاد الاول أن مصر وهى أعرق البلاد فى الزراعة يجب أن يكون لها متحف زراعى يقوم بنصيبه فى نشر المعلومات الزراعية والاقتصادية فى البـــلاد •

فقامت الحكومة فى ذلك الوقت بتحقيق هذه الرغبة واشترت لهذا الغرض قصر سمو الاميرة فاطمة اسماعيل الذى تبلغ مساحته بما يحيط به من أراض

حـــوالى ١٢٥٠٠٠ م مربع وأجرت فيه من الاصلاحات ما جعله لائقـــا بمتحف زراعى • وقد روعى فى انتخاب هـــدا القصر وقوعه على مقربة من وزارة الزراعة بالدقى لتنعكس فيه جهود اقسامها المختلفـة •

وقد رؤى فى بادىء الامر الاسترشاد برأى خبيراجنبى لادارته فعينت الحكومة المسيو الاجوس دى بيكرت فى أواخر يناير سنة ١٩٣١ ـ وكان مديرا لمتحف بودابست الزراعى ـ غير انه استقبال من الخدمة فى سنة ١٩٣٢ ، وعين بدلامنه الدكتور ايفان ناجى فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٣ وكان ايضـــا مديرا لمتحف بودابست الزراعى وسار فى اعداد المتحف حتى انتهى عقد تعيينه فى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٦ وعهدت ادارة المتحف الى حضرة صـــب العزة المرحوم محمد بك ذو الفقار من ٢٢ فبراير ســـنة ١٩٣٦ الى ٨ يونيه سنة ١٩٣٨ وخلفه فى ادارته حضرة صاحب العزة حامد سرى بك والذى فى عهده اكتمل المتحف ، فسمى متحف « فؤاد الاول الزراعى ثم غير اسمه بعـد الثورة الى المتحف الزراعى •

والغرض الاول من المتحف الزراعى هو تمثيل الزراعة المصرية فى مختلف نواحيها بشكل ملموس وذلك بعرض مختلف الحاصلات الزراعية التى تخرجها التربة المصرية ونتائج الابحاث الفنية التى توصل اليها الاختصاصيون فى مختلف تجاربهم العلمية وكيفية تنسيق الحـدائق والبســاتين والصناعات الخاصة بها ، وطريقة تعبئة الفاكهة وتصديرها واختيار البذور وتنظيفهـا والفلاح وحياته والامراض التى تنتابه وطرق الرى والصرف بالبلاد والصحارى والواحات ، وما يوجد بها من زراعات وصناعات وغيرها ، والاحصاء الزراعى لبيان حالة الحاصلات فى البلاد ، ومدى تقدم انتاجها ، وابحاث التربة وتكون الارض المصرية ، وانواعها ، والاسمدة والمخصبات التى تستعمل لتعويض المواد الغذائية التى تفقدها التربة ، والظواهر الجوية ، وطـرق تربية الحـيوان والدواجن ومنتجاتها ، وما يتبعها من صناعات ، الاسماك والطيور النافعة والضارة وحيونات الصيد والقنص وطرق صيدها ، والادوات المستعملة فى ذلك ، وتربية النحل واستخراج العسل ، والنباتات التى بتغذى عليهـا ، وتربية دودة القـز والآلات المستعملة فى نسخ الحرير وغيرها ، والمجموعات الحشرية ومقاومة الآفات وغير ذلك مما له علاقة بالحشرات •

والمتحف اذ يضم الآن بين جدرانه من طرائف المعروضات ذات القيمة العلمية النافعة يعد معهدا يسترشد به المسترشدون فى شتى الشئون الزراعية وكل ما له علاقة بها ، ويستفيد منه المشاهدون بما لا يمكن الاستفادة به بالقراءة الطويلة والبحث العميق ٠

فهو ليس متحفا بالمعنى الصحيح فحسب ، بل مدرسة علمية وعملية يقتبس منها كل زائر ٠

ولقد حرص المتحف على جمع كل حديث وقديم فأضيفت الى مجموعته الأثرية القيمة عاديات مصلحة الاثار المصرية التى لها علاقة بالزراعة والحوان ، فأتاح بذلك للزائر فرصة مشاهدة اطوار الزراعة فى العصور الحاضرة والغابرة اى منذ ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا ٠

كما عنى المتحف بالحياة والفنون الريفية ، حيث بعرض صناعة الفخار فى مصر ، والذى حظى باهتمام المصرى القديم فى صناعة الاوانى الفخارية التى احتفظ بها فى مقابره ، وصناعة الزجاج والسلال والاطباق من الخامات الزراعية ، مثل سيقان القمح وخوص النخيل كذلك يوضح المتحف صناعة الكليم والسجاد وكذلك الازياء المختلفة للنساء والعمارة الريفية والزخارف والتصوير الريفى على الحوائط وغيرها من مظاهر الحياة الريفية للفلاح المصرى ٠

كذلك اهتم المتحف الزراعى بالنماذج (الماكتات) التى توضح المحاصيل المختلفة التى تزرع على مجرى النيل ومناطقها ، وحصيلة كل سنة منها ٠ كذلك اهتم المتحف الزراعى بتوضيح القناطر المختلفة التى انشئت على النيل لتنظيم عملية الرى والتى منها قناطر أسنا وديروط والقناطر الخيرية وظروف بنائها كما هناك قاعة خاصة بالسد العالى ٠

كذلك يوضح المتحف الزراعى البيئة الحيوانية التى تعيش فى مصر وفى العالم الخارجى ٠ وهناك قاعة خاصة بالافات التى تهدد المحاصيل الزراعية الرئيسية فى مصر منها دودة القطن والجراد وكيفية التغلب عليها ٠ كذلك يهتم

المتحف بالثورة الحيوانية كالابقار والماعز واهم الامراض التى تهدد تلك الثورة وكيفية التغلب عليها كذلك يوضح مختلف أنواع الطيور التى يربيها الفلاح المصرى وكذلك الثورة السمكية بمصر وحياة الصيادين مع توضيح مختلف أنواع الاسماك الموجودة بالبحر الاحمر والبحر المتوسط ونهر النيل ٠

كذلك يهتم المتحف الزراعى بالقطن الذى تشتهر به مصر والجهود التى تبذل فى زراعته وتطور صناعة الاقمشة القطنية بمصر وجهود محمد على فى ذلك المجال ٠

ويعتبر القمح من أهم المحاصيل الغذائية ، لذلك نجد أنواعا مختلفة منه كالقمح جيزة ١٣٥ والطنطاوى والقناوى والمنباوى وغيره وتطور كل نوع واهميته لاستخراج الدقيق ، ودرجاته المختلفة فنجد طرق تقشيره أولا ، ثم استبعاد القشرة والاعواد وكيفية طحنه ثم استخداماته المختلفة لانتاج أنواع كثيرة من الخبز مثل الابيض والاسمر وغيره ٠

وتعتبر الذرة من المحاصيل الزراعية الرئيسية فى مصر ، فاستخداماته عديدة بالنسبة للانسان كخبز ، وللحيوان كعلف ٠ أما عن الارز فبجانب كونه غذاء حيوى للانسان فهناك صناعات كثيرة تقوم عليه مثل صناعة الحبال من قشه أو أعواده والحصر والورق والسماد ٠ وأيضا يوضح المتحف الزراعى طرق زراعته بالشتلات وطرق تقشيره وفحص التقاوى وطرق تخزينه وأيضا نماذج مجسمه لمضارب الارز ٠

ويوضح المتحف كيفية تصنيع واستخلاص السكر من القصب والعسل الاسود (الاسمر) والكحول والورق من مخلفات القصب بعد عصره ٠

الاقسام المختلفة التى يتضمنها المتحف الزراعى : -

يضم المتحف الزراعى ستة ابنية مختلفة :

المبنى الأول : **الزراعة المصرية القديمة** ٠

المبنى الثانى : **المجموعات العلمية** ٠

المبنى الثالث : **لمجموعات الثروة النباتية** ٠

المبنى الرابع : **الكتبة وقاعة اجتماعات** •

المبنى الخامس : **صناعة القطن** •

المبنى السادس : **الادارة** •

مبنى الزراعـة المصرية القديمة

يعرض بهذا المبنى معروضـــات للزراعة المصرية القديمة ، وقد روعى فى عرضها ان تكون فى نطاق واسع بحيث تشمل الحيوان والحاصلات والازهار والآلات الزراعية والاسماك وادوات صيدها وبعض الادوات المنزلية التى كانت تستعمل فى مختلف العصور القديمة ، وادوات الغزل والنسيج ، وعينات من المنسوجات وبعض المناظر الملونة المأخوذة من المقابر لتمثيل طرق الزراعة ، وبعض الصناعات المتصلة بها ، ليتمكن الباحثون فى تاريخ الزراعة من تتبع الاطوار المختلفة والوقوف على ما يتصل منها بابحاثهم العلمية •

نموذج لبيت الفلاح المصرى القديم :

بنى المصريون القدماء بيوتهم فى عصر ما قبل التاريخ من الطـين على شكل بيضاوى صغير الحجم ابوابها من اعلى وكانوا يصعدون اليها بواسطة سلالم خشبية اما فى العصور التاريخية التالية فقد عرفوا قوالب الطوب من الطين ، فتمكنوا من بناء البيوت بالمعنى المعروف ، وكانت بيوتهم فى جملتها مكونة من طابق واحد ، نوافذها من اعلى وبها فناء بعضها مسقوف على عمدان واستعملوا الجريد والبوص واخشاب النخيل فى حمل السقف وهو يشبه الى حد كبير بيت الفـــلاح الحديث •

مبنى الجمـوعات العلميـة

يتكون هذا المبنى من طابقين :

الطـابق الارضى ـ الجنـاح الجنوبى :

حجرات الواحـات : ـ

تمثل الحالة الزراعية بالواحات المصرية ، وما يتبعها من صناعات تقليدية كمصـنع الســـلال والمقـاطف والحــصر والاكلمــة والملابس والآلات •

المستعملة فى الزراعة والحياة فى هذه النواحى ممثلة احسن تمثيل بالحجم الطبيعى كما لو كانت حقيقية ٠

حجرة الصـــحراء : -

وبها مناظر مجسمة تمثل الطبيعة الصحراوية وتضم كثيرا من نباتات الصحراء ، وتوجد بها خرائط ورسومات أخرى تبين اكتشـــاف الصــحراء فى الأزمنـة المختلفـة ٠

حجرات الحيـاة الاجتماعية فى الريف

توجد فى هـــذه الغرف بعض أنواع حجرات استقبال الزائرين لـدى الطبقة الغنية من الزراع فى الريف وكذلك العرس الريفى وكيفية الاحتفـال به وليلة الحنة وغيرها من العادات الريفية ٠

حجرة المســـاحة : -

وبها مجموعة كاملة من الادوات والاجهزة التى تستعمل فى مسح الارض وطريقة استعمالها وخرائط مساحية مختلفة وطريقة التسجيل ٠

حجرة المخصبات :

ويبين بها اهمية استعمال الاســـمدة لتعويض المواد الغذائية التى تفقدها التربة وطرق حفظ الاسمدة والنباتات المســتعملة فى التســمبد والادوات المستعملة لتقديم المواد الغذائية اللازمة للتربة وعينـات لمختلف المخصبات والصخور التى تستخرج منهـا الاسـمدة الصناعية والكيمائية ، وروسومات بيانية عن تاثير الاسمدة فى بعض الزراعات ، وكيفية صناعـة السماد (البلدى) من مخلفات الحقـل ٠

حجرة الظواهر الجـوية :

وبها أجهزة لتسجيل التقلبات الجوية والتكهن بأحوال الطقس ، ورسومات مختلفة عن الظواهر الجوية ، وتوزيع الامطار ودرجات الحرارة فى مختلف انحاء القطـر ٠

حجرة الاراضى المصرية :

وبها الصخور المكونة للطمى وتكوين الاراضى المصرية ، وقطاعات لانواع الاراضى المختلفة وبحث فى طبيعة الارض وجزئياتها والبكتريا المختلفـــه واصلاح الاراضى المالحـــة ٠

بهو حيـــاة الفـــلاح :

يوجد بهذا البهو نماذج من التماثيل للفلاح المصرى فى جلسات طبيعية ومناسبات مختلفة وهذه التماثيل وما حولها من رسومات زيتية كبيرة وعينات من الاثاث فى بيت الفلاح وآلات الطرب واللهو التى يستعملها الفلاح المصرى فى حياته وتماثيل للمرأة المصرية بازيائها المختلفة التى تطبع بطابع المحافظه وهى تصور الحياة الريفية أصدق تمثيل وهى من صنع المرحوم المثال الكبير مخـــــتار ٠

حجرة ميـــاة الشرب :

ويعرض بها مختلف عينات المياة المصرية المستعملة للشرب والجراثيم والديدان التى تلوثها ومصادرها وطرق التعقيم والتخلص منها ٠

حجرات الرى والصرف :

خصص لهذا القســم حجرتان وبهو كبير وعرض بالحجرات نمــاذج لبعض الخزانات والطلمبات والآلات المستعملة فى توزيع مياة الرى والصرف ، وعينات من الاعشاب والحشائش التى تعوق سير المياه فى الترع والمصارف ، وبهـــا أيضا ماكتات لبعض القناطر وخزان أسوان والسد العالى ومصادر مياه الرى المياه الجوفية ، والنيل ، والامطار ، والمصارف ٠

الطابق العلوى ـ الجناح الجنوبى :

المدخـــل :

وبه الواح متحركة لصـــور بعض الطيور والواح من الجبس والزيت لمناظر طيور قديمة وحديثة وتمثال لجواد اصيل من البرونز ٠

حجـرة الوراثة :

ويعرض بها لوحات وبيانات عن علم الوراثة فى الحيوان ٠

حجـرة الركائب :

وتضم الأدوات المستخدمة فى الركوب وطرق معالجة الحيوانات ونماذج للحوافر السليمة والمصابة ٠

حجـرة الخيـل :

ويعرض بها تماثيل لاجود الخيول ولوحات زيتية تمثلها من مصرية واجنبية وبيانات عن انساب بعضها وصور (فوتوغرافية) ونماذج للاسطبلات المصرية ، وقد زينت جدران هذه الحجرة بصور لاهم انواع الخيل فى العالم ٠

حجرة البقر والجاموس :

يعرض بها نماذج لاشهر هذه السلالات من مصرية واجنبية وتضم نموذجا لمعمل البان مصرى وصورا ورسومات والواحها وبيانات وخرائط خاصة بهذه الحيوانات ٠

حجرة الجمـال :

يعرض بها نماذج للجمال المصرية وعينه من صوفها وبيانات وخرائط ورسوم وصور مختلفة خاصة بها ٠

حجرة المعلومات العـامة :

ويعرض بها نموذج للبرسيم وعينات من العلف ونباتات المراعى والنباتات السامة للماشية وغير ذلك من المعلومات الاخرى ٠

حجرة البحيرات المصرية :

تشتمل على نماذج لانواع الاسماك المختلفة التى تعيش فى البحيرات المصرية ونبذ عن بعضها وخريطتان لبحيرة المنزلة والبرلس تبين المدن

والقرى ومراكز الصيد بها وصورا فوتوغرافية زجاجية تبين صائدى الاسماك فى البحيرات ، وبناء السفن للصيد وحياة صائدى السمك فى المناطق الساحلية

حجرة الألبـــان :

ويعرض بهما الآلات المستعملة فى صناعة منتجات الالبان ونماذج مجسمة لحظائر المواشى ونماذج شتى لاهم تلك المنتجات ورسومات بيانية عنها ٠

حجرة أمراض الحيـوان :

ويعرض بها نماذج وعينات طبيعية تبين الاجزاء المصـابة بالامراض المختلفة التى تصيب الحيوانات بمصر لايضاح هذه الآفات والامراض . وكيفية الوقاية منها وطرق علاجها ٠

حجرة الهياكل العظيمة :

ويوجد بها عينات للهياكل العظمية لمختلف الحيوانات التى لها علاقة بالزراعـة اصرية ٠

حجرة اللقاحـات والامصـال :

وبها عينات مختلفة من اللقاحات والامصال التى تستخدم فى وقاية وعلاج بعض الامراض التى تصيبب الحيوانات الزراعية والدواجن ٠

الأبهـــاء

بهـو التاريخ الطبيعى :

وبه تمثال مصغر لجمل افريقى يعلوه رجل بيده حربة ، ومجموعة من الزواحف وهيكل غظمى لحوت هائل قذفت به المياه الى السـواحل المصرية ، وآلات الصيد والقنص قديمها وحديثها ومجموعة محنطة لانواع الحيوانات وهياكلها وجلودها وبعض الجماجم ، ومجموعة لانواع الطيور ٠

بهو الاســماك :

وبه أنواع حية تعيش فى أحواض زجاجية تمثل أسماك نهر النيل ٠ وانواع محنطة ورسومات ولوحات للاسماك التى تعيش بالمياة المصريـة

ونماذج لمراكب الصيد والآلات المستعملة لهذا الغرض ، وعينات للاصداف والاسفنج ، وأسماك محنطة منذ عهد الفراعنة ، وأنواع الشباك المختلفة المستعملة فى الصيد وخرائط بيانية وصور (فوتوغرافية) عن كل ما له علاقة بالاسفنج والسمك ، ومجموعات كاملة من الاصدف والمحار والمرجان الموجودة بالشواطىء المصرية والصناعات المتعلقة بها .

بهو الحيوان :

وبه نماذج وصور رسومات لانواع الحيوانات البرية والمفترسة التى تعيش فى الصحارى المصرية ، وعلى ضفاف النيل،والواحات،وكيفية معيشتها، والآلات المستعملة فى صيدها .

بهو الطيور :

ويضم مجموعات كبيرة من الطيور المصرية والطيور الرحالة وطرق صيدها .

الطابق العلوى ـ الجناح البحرى

حجرة المجموعة الحشرية :

تمثل معروضات هذه المجموعة الفصائل المختلفة للحشرات المصرية مرتبة تبعا لتقسيمها العلمى.ووضع على أحد الجدران التقسيم العلمى للمملكة الحيوانية مع الممثل لكل قسم منها بلوحة زيتيه رمز فيها الى اشهر حيوانات هذا القسم . وعلى الجدار المقابل له وضعت فصائل للحشرات ، ورمز لكل فصيلة منها . كما يحتفظ فى وسط هذه الحجرة بالمجموعة الحشرية التى أهداها الملك فاروق للمتحف .

الحجر الزراعى :

يوجد بها نماذج للاجهزة المستعملة لتطهير النباتات الزراعية الواردة للقطر المصرى ، وكذلك المستعملة فى معالجة بذور القطن بالمحالج ، ولوحات وخرائط وبيانات ونماذج لاهم الآفات الممنوع دخولها للقطر مع الواردات ،

ورسـومات بيانية عن مقادير الواردات الزراعية من الفاكهة وفوائد الحجز وتأثيره فى مقادير هذه الواردات .

حجرة (مقاومة الآفات) وتربية النحل ودودة القـز :

تحتوى على عينات ونماذج ومنتجات ولوحات توضح طرق تربية دودة القز والنحل ، والاجهزة المستخدمة والآلات المستعملة لاستخراج العسـل ، النباتات التى تعيش عليها هذه الحشرات ، والاجهزة المستعملة فى نسـج الحرير ، والامراض والافات التى تصيبها وطرق المقاومة وصناعة الايتار (الخيوط) من الديدان وقد نجحت مصر فيها نجاحا كبيرا .

حجـرات الاحياء المائية ومنتجاتها :

ويعرض بأحداها عينات مجففة ، ونماذج لبعض أنواع الاسماك التى تعيش فى الميـاه المصرية ومنتجاتها من الاصـداف وصـور (فوتوغرافية) مختلفة لبيان طرق صناعة هذه المنتجات ، وبالاخرى منظر لصيد الاسفنج بالبحر ويوجد بالغرفة الثالثة مجموعة للاسماك المصرية وصورها ، والتى تعيش بالمياه المصرية وبعض البيانات والصور الخاصة بهـا .

حجرة الاغنام والمـاعز :

ويوجد بها نماذج للاغنام المصرية والاجنبية والماعز المصرية ، وعينات لاصوافها ومنتجاتها ، كما يعرض بها جهازان لاختبار متانة الصوف ، وهياكل عظيمة لرءوس الاغنام والماعز منذ عهد الفراعنة . وخرائط وصور ونماذج مختلفة ، علاوة على عينات من الفرو الثمين .

حجرة الدواجن :

ويعرض بها أنواع من الدواجن المصرية المختلفة ، الى جانب مجموعة اخرى من الدواجن الاجنبية ، ونماذج لابراج الحمام القديمة والحديثة وحظائر لتربية الدواجن ، وطرق التفريخ قديمها وحديثها والاجهزة والالات والادوات والنماذج المختلفة التى تتعلق بذلك . ويوجد بها كذلك أنواع من البيـض والتفريخ لوحات وخرائط خاصة بالدجاج وانواعه .

مبنى المجموعات النبـاتية

يتكون هذا المبنى من طابقين ، كل طابق مقسم الى جناحين : الجناح الجنوبى والجناح الشمالى • وفى الطابق الارضى بالجناح الجنوبى سـبع حجرات اما الجناح الشمالى فمقسم الى خمس حجرات أما الطابق العلوى فمقسم الى جناحين الجنوبى ثمانى حجرات أما الشمالى فست حجرات • وفيما يلى شرح لكل حجرة على حدة •

الطابق الارضى (الجناح الجنوبى) :

حجرة القمح والشـعير « زراعـة » :

تضم هذه الحجرة الاصناف المختلفة لمحصول القمح والشعير واطوار نموهما والآلات المستعملة فى اختبارهمـا والمعلومات الخاصـة بزراعتهما والامراض التى تصيبهما واحصاءات مختلفة عنهما

حجرة القمح والشـعير « صناعـة » :

تضم هذه الحجرة نماذج للمطاحن الحديثة ، والمخابز القديمة والحديثة والاجهزة المستعملة فى اختبار البذور ، وعينـات الدقيق المختلفة ، ونماذج لانواع الخبز المختلفة (والمكرونة والبسكويت) ورسومات بيانية ، كمـا يوجد بها بيانات واحصـاءات أخـرى •

بهو خزن الحبـوب :

ويضم نماذج لمخازن الحبـوب قديمهـا وحديثها ، وطرق تطهيرها ، وعينات الحبوب المصابة ، والمواد المستعملة فى علاجها والحشرات المختلفة التى تصيب الحبـوب •

حجـرة الذرة : -

وتضم بيانات لمختلف انواع الذرة ، وطرق زراعتها ، واطوار نموها، والآفات التى تصيبها ، وبعض منتجاتها ونماذج لطواحين هوائية ومائية

ورسومات بيانية واحصائية ، وصوراً (فوتوغرافية) مختلفة وعينات من الزيت المستخرج من الذرة ٠

حجـرة الارز : ـ

وبها معلومات عن زراعة الارز ، وعينات محفوظة لبيان ادوار النمـو حتى النضج ، وعينات من اصنافه ودتيقه ومنتجاته ، وصناعة النشـا ، وعينات لنباتات مصابة ، وكذا لوحات مثبتة عليها الحشـائش الضـارة ونموذج لطريقة زراعة الارز بالشتل ، والآلات التى تستعمل فى ذلك ومنها ما هو من تصميم الاستاذ حامد البلتانى استاذ علم الزراعة بكلية الزراعة جامعة فـؤاد الاول فى ذلك الوقت (القـاهرة) وكذا نموذج لمصنع تبييض الارز ٠

حجـرة البصـل والثوم : ـ

وفيها تمثل اطوار نمو هذين المحصولين واصنافهما ، ونماذج لاصناف البصل الجيد والصالحه للتصدير ، ولوحة ملونة خاصة بفرز البصـل وارشـادات زراعيـة ٠

كما تضم الحجرة عينات للبصل المجفف ونبذة عن عملية التجفيف ـ وكذلك نماذج وعينات طبيعية محفوظة لاهم الامراض الفطرية التى تصيب هذين المحصـولين ٠

الطـابق الارضى ـ الجنـاح الشمالى

حجرة القطن « معلومات تاريخية وعلمية »

وبهـا بيانات عن تاريخ القطن ونبذة عن اصنافه قديمهـا وحديثهـا وعينات محفوظة لاجزاء نباتية ولوزات لمختلف نباتات القطن فى العالم ،وكذا عينات زهر وشعر للاصناف التجارية والسلالات الحديثة وكذا رسـومات بيانية وايضاحات مختلفة ، وصور تبين الصفة التشريحية لاجزاء نبات القطن ، وبعض اجهزة لاختيار التيلة ٠

حجرة القطن « زراعـة » :

وبها معلومات عن زراعة القطن وتسميده ورية ، والحشائش التى تصيبه وآفاته الحشرية والفطرية وطريقة التهجين والانتخاب ، وكل ماله علاقة بالقطن وهو بالحقل •

صـالة الآلات الزراعيـة :ـ

وبها مجموعة نماذج المحاريث الزراعية المستعملة فى العالم ، ويؤدى هذا المنعطف الى صالة فخمة تحوى الآلات الزراعية باحجامها الطبيعية وبيانات كافيـة عنهـــا •

حجرة القطن « صناعة » :

وهى خاصـــة بالقطن بعـد خروجه من الحقل ودخـــوله فى المحـالج وبها نماذج حديثة لدواليب الحلج والمكابس والمغازل ، كما توجد خريطتان كبيرتان بارزتان تناران بالكهرباء لتبيان محصول القطن العالمى ، والجهـات التى يصدر اليها القطن المصرى ، كما توجد بها صور ولوحات خاصة بصناعة الغزل والنسيج وغير ذلك •

حجرة القطن « تجـــارة » :

ويعرض بها طريقة فرز تيلة القطن ، وعينات لبعض رتبه وطريقة نقله برا وبحرا ، وعينـــات مختلفة لمنتجاته ، وعينـــات لمنتجات بذرة القطن ، ويتوسط هذه الحجرة نموذج بارز لمصنع الغزل والنسيج التابع لشركة مصر بالمحلة الكبرى • كما توجد بها خرائط احصائية وبيانات وصـور مختلفة ومعلومات عن البورصـــــة •

الطابق العلوى ـ الجنـاح الجنوبى

حجرة الاليـــاف :ـ

ويعرض بها عينات نباتات الالياف من جوت وكتان بذرة وشـــعر ممشط ومصنوعات كتانية اثرية واخرى حديثة وكذا نموذج لمعطنة بعلوها صور لشرح عملية التعطين البلدية وصور وبيانات أخرى مختلفة عن طرق الزراعـة •

حجرة الزيـوت : ـ

وبها عينات بذور ونباتات للحاصلات التى تنتج الزيوت وعينات منها ورسوم بيانية تبين نسبة الزيت والرطوبة فى مختلف البذور الزيتية ونماذج للمعاصر البلدية والحديثة ومعمل الزبد الصناعى وعينات صـابون وكسب ومخلفـات العصير ، وكذا بيانات كيمائيـة مختلفـة •

حجـرة القصب :

وبها مجموعة من اصناف القصب الشهيرة التى تزرع بمصر ، وعقـل محفوظة فى محاليل تبين بعض الامراض التى تنتاب القصب ، وطريقة قطعه ونقله ، ونماذج لصناعة مختلف انواع السكر ، واقماع من قوالب الفخار لصناعة السكر الاحمر (الجلاب) وبها نموذج لمكبس قش القصب وعينات من انواع السكر المختلفة ، والفضلات الناتجـة من صناعته كالعسل الاسود وصناعات أخرى تعمل من السكر وبها خرائط وصور مرسومة •

حجـرة الكحـول :

تعرض بها عينات من جميع ثمار الحاصلات الزراعية واجزائها التى يستخرج منها الكحول وبها نماذج لمصنع السكر بنجع حمادى ولمختلف الاجهزة التى تستعمـل فى التقطير •

حجرة ادارة المزارع :

تبين بما الطرق المختلفة فى ادارة العزب وطرق امساك دفاترها ونماذج لمـا يستعمل منها فى الدوائر الكبيرة كالاوقاف الملكية ومصلحة الاملاك وبيانات عن ادارة العزب فى المسـاحات المختلفة وذلك قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ قبل ظهور الاصلاح الزراعى والقوانين الزراعية التى تخدم الفلاح •

حجرة آلات الحديقـة :

وبها بعض الآلات المستعملة فى فلاحه البسـاتين ورشاشات وعفارات تستعمـل فى مقاومة الافات كما توجد بهـا بعض انواع السلال وغيرها •

الطابق العلوى ـ الجناح الشمالى

حجرة البســـاتين « خضروات » :

تعرض بها البذور ونماذج لخضروات مختلفة واخرى لاصناف البطاطس السليمة والمصابة وصور خاصة بآفاتها الفطرية والحشرية •

حجرة البســـاتين « فاكهة » :

تعرض بها نماذج لمختلف ثمار المانجو والموز والموالح وطريقة معالجـة الاخيرة بالتدخين مبينة بالصور الملونة ، وطرق التطعيم المختلفة واصناف البلح وبذور الازهـار والثمار وبيانات فنيـة •

بهو الاخشـــاب :

وبه عينات لاخشاب مصرية متحجرة من غابة العباسية المتحجرة وغيرها وكذا عينات من قطاعات الاخشاب التى يمكن زراعتها بمصر كما توجد بـه لوحه عرض عليهـا قطاعات لاخشاب اجنبية واخرى مصرية مصقولـة •

حجـرة البسـاتين « تجـارة » :

وتعرض بها منتجات البساتين كالمربى والفاكهة المحفوظة والروائح العطرية وتقطيرها،ونماذج لاجهزةتجفيف البذور ومجموعة من مختلف الصناديق الخاصة بتعبئة الخضر والفاكهة وبها كثير من البيانات التى تتعلق بصناعة منتجات الخضر والفاكهة •

حجـرة فحص البذور وتنظيفهـا :

تعرض بها عينات من انواع الحبوب والبذور والاجهزة والادوات التى تستعمل لتنظيفها من الشوائب وتقدير نسبة الرطوبة بها وقوة حيويتها فى الانبات الى غير ذلك مما له علاقة بهذه العملية •

ثانيـا : المتحف الحربى :

يرجع التفكير فى انشاء المتحف الحربى الى عام ١٩٢٨ • ولكنـــه لم ينفذ الا فى عام ١٩٣٧ ، حينما خصصــت غرفتان من مبنى وزارة الحربية

لتجمع فيهما المقتنيات الاولى ، ولتكوين مكتبه صغيرة ومصنع . وفي مستهل عام ١٩٣٩ اختير مبنى مؤقت (فيلا) بالقرب من كوبرى قصر النيل وفيه جمعت مجموعات السلاح والملابس العسكرية واللوحات والنماذج . وبجلاء القوات البريطانية عن قلعة صلاح الدين فى عام ١٩٤٧ ، انتقل المتحف الحربى الى قصر الحرم بالقلعة .وكان قد بدىء فى اصلاحه واعداده ليكون لائقا لعرض المحتويات ثم أخذ القائمون بأمر المتحف تحت اشراف العقيد عبد الرحمن زكى بترتيب المجموعات وتنظيم المعروضات بما يليق بالنظم الحديثة المتبعة وافتتح رسميا فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩٤٩ .

وفى حديقة المتحف الآن ، توجد مدافع الهاون والميدان التى صنعت فى مصر واستعملها الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر .

أقسام المتحف الرئيسية واهم محتوياتها : -

روعى فى ترتيب معروضات المتحف التسلسل التاريخى والموضوعى .

فالقسم الأول : يعرض فيه التطورات المتعاقبة للمعدات الحربية كالمدفعية والذخيرة بأنواعها ، والاسلحة النارية والبيضاء ، والملابس .

والقسم الثانى : يوضح تاريخ مصر العسكرى منذ عصر الفراعنة الى العصر الحديث .

والقسم الثالث : خصص للسلاح البحرى والسلاح الجوى وبعض اسلحة الجيش .

وتاريخ مصر العام ، فى الواقع هو تاريخ جيشها منذ قامت الوحدة بين اقليمى مصر بفضل الملك مينا ، وقد امكن للمتحف أن يبين أحوال الجيش المصرى القديم وتسليحه ومعاركه فى اثناء حكم الاسرات المصرية .ومعروضات هذا القسم تنطق بأمجاد جيش مصر فى لوحات ونماذج سجلت عليها انتصاراته فى اهم المعارك ومنها ، مجدو ، وقادش ، وذلك نقلا عن نقوش الآثار فى معابد الاقصر ، ومدينة هابو وابو سمبل ، وغيرها .

أما قسم مصر الاسلامية فحافل بالامجاد ، منذ أن دخل مصر عمرو ابن العاص سنة ٦٣٩ م حتى الحملة الفرنسية ١٧٩٨ .

ففى هذا القسم ، لوحات من الجص ، أوضحت أهم معارك الفتوح الاسلامية منذ عصر النبى وخلفائه الراشدين : معارك بدر ، واحد ، واليرموك والى جانبها صنعت نماذج لآلات القتال ، كالمنجانيق ، والسيوف ، والسهام ... وفضلا عن ذلك ، فتوح العرب فى شمال افريقيا والاندلس • ويلاحظ كثرة النماذج التوضيحية فى هذا القسم ، منها حصون القاهرة وأسوارها وأبوابها فى أيام الدولة الفاطمية ، ونموذج قناطر الماء التى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون (٧١٠ هـ - ١٣١٠ م) التى زودت منطقة القلعة بالماء من فم الخليج • ونموذج قلعة صلاح الدين بأبراجها ومبانيها ومساجدها • ونموذج دار ابن لقمان بالمنصورة حيث أمضى الملك الفرنسى لويس التاسع مدة أسره عقب معركة المنصورة (١٢٥٠ م) ، والى جانبها لوحات خشبية جميلة نقشت عليها بعض المواقف فى الحروب الصليبية • ونشاهد أيضا فى هذا القسم عدة لوحات لاهم المعارك الاسلامية التى خاضعها المماليك ضد الصليبين ، وضد المغول •

وهناك فى حجرة صغيرة مجموعةمن الصور والخرائط التى توضح احداث مصر الهامة فى أثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) بقيادة بونابرت وكليبر ، ومينو •

اما القسم الخاص بجيش مصر اثناء القرن التاسع عشر ، فحافل بالذكريات المجيدة • انتصارات القوات المسلحة فى معارك لا حصر لها فى شبه الجزيرة العربية ، وبلاد اليونان ، والسودان ، وسوريا والاناضول ، وكريت وغيرها • والحق ان كلها معارك تشهد ببطولة الجندى المصرى فى ظروف القتال المختلفة •• وفى جبال وسهول ، وصحراوات ووديان ، وبحار •

لقد سجل المتحف الحربى تلك الذكريات اللامعة بترتيبها التاريخى وباسلوب واضح • وعرضت كذلك أعمال الجيش فى مناطق السودان فى شرقه وغربه وجنوبه ... وتعرض عدة لوحات زيتية انيقة لكبار القادة

الذين قادوا جيش مصر الى النصر (١) ٠

وعنى المتحف الحربى بابراز الاحداث العسكرية فى مصر فى اثناء الثورة العرابية (١٨٨١ - ١٨٨٢) فى شتى المعارك : الاسكندرية ، كفر الدوار ، والتل الكبير ٠ وخلد المتحف مواقف البطولة النادرة فى لوحات زيتية ، وفى تماثيل نصفية ، ونقوش جصية ٠

جناح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهو من اهم اقسام المتحف التى تتناول التاريخ المعاصر ، فتعرض ثورة واحداثها ، فى صور وديورامات ، ومنها ديوراما تمثل رحيل الملك فاروق على الباخرة الشهيرة المحروسة ، وحصار قصر راس التين ، والمنتزة ، وعابدين ٠

وفى هذا القسم نشاهد مئات الصور الفوتوغرافية التى تبين التطورات التى لحقت بالقوات المسلحة ، فى اسلحتة وعتاده ، وما حققته ثورة يوليو من جليل الاعمال فى مختلف الميادين ، وفى طليعتها السد العالى ٠

وعنى المتحف ايضا بالجانب العسكرى لقضية فلسطين منذ حملة ١٩٤٨ / ١٩٤٩ ، والعدوان الثلاثى فى اعقاب تأميم قناة السويس (١٩٥٦) ومعارك بور سعيد الباسلة وجهاد شعبها ضد المعتدين ٠

قاعة الاعلام والنياشين ، وفيها نماذج للاعلام المصرية والعربية منذ نشاة العلم ، فضلا عن اعلام دول الجامعة العربية والاعلام الرمزية للمحافظات ثم اعلام القوات المسلحة المصرية ، كذلك نماذج للنياشين التى كانت تمنح وتهدى للقادة فى المناسبات والانتصارات المختلفة ٠

جناح حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ويعكس لنا نماذج من اسلحة الجيش فى هذه الحرب الخالدة ، وتسليح الافرع الرئيسية ٠

المكتبة : وهى من اهم اقسام المتحف ، وتضم عدة آلاف من المراجع العربية والاجنبية فى شتى الفنون الحربية والتاريخ الحربى القديم والمعاصر

---

(١) انظر الفصل الثانى (عصر محمد على) ٠

ويبلغ عدد الكتب بها نحو خمسة آلاف مجلد ، بالاضافة الى قسم الدوريات العسكرية • أما قسم الخرائط العسكرية فغنى بمجموعته النادرة التى رسمها ضباط أركان حرب الجيش المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٢ : فى شرق أفريقيا ووسطها ، وفى صحارى مصر حتى سواحل المحيط الهندى وتقرأ على هذه الخرائط أسماء راسميها •

ويضم المتحف كذلك قاعة للعرض السينمائى ، الى جانب أقسام الرسم والتصوير ، وقسم النماذج ، وقسم النجارة ، وقسم اصلاح الاسلحة • ومكتبة زاخرة •

ثالثا : متحف السكة الحديد

يقع متحف السكك الحديدية بامتداد مبنى محطة القاهرة خلف محطة كوبرى اللمون ويطل على ميدان رمسيس • ويمكن الوصول اليه اما بالسير بمحاذاه المبنى من الخارج فتجده على اليسار ، أو عن طريق باب يفضى اليه من الرصيف رقم ١ الخاص بقطارات الاسكندرية •

نشأة فكرة انشا المتحف :

نبعث فكرة انشا متحف السكة الحديد من احساس بالحاجة الى متحف فنى وعلمي يتوج الاحتفال بالمؤتمر الدولى للسكك الحديدية الذى عقد عام ١٩٣٣ ، وقد استكمل بناؤه فى السادس والعشرين من أكتوبر ١٩٣٢ وتم أعداده وفتحه للزوار فى ١٥ ينايـر ١٩٣٣ ، ولقد اتاح ذلك الافتتاح لاعضاء المؤتمر فرصة زيارة أول متحف من نوعه فى الشرق •

ويعرض فى المتحف حوالى ٦٠٠ موديل هذا الى جانب مجموعة من الوثائق والخرائط والدراسات ، وكلها تحكى تطور وسائل النقل وكذلك خطوط السكك الحديدية •

نشأة السكك الحديدية فى مصر :

تعتبر سكك حديد مصر ثانى خط سكك حديدية فى العالم ، اذ انشئ سنة ١٨٥٢ بعد أن استخدم فى انجلترا سنة ١٨٢٥ ••• وتعتبر سكك حديد

مصر اول خط فى افريقيا باسرها سابقة بذلك أيضا أول خط انشىء فى آسيا بعام اذ افتتح فى عـام ١٨٥٣ وتلته خطوط استراليا ١٨٥٤ ٠ علمـا بـان هذا المشروع ناقشته بريطانيـا مـع محمد على بواسطة المهندس الانجليزى جالوس ، الا ان فرنسـا تدخلت وأوعزت الى محمد على بأن بريطانيـا تريد عزل مصر عن العالم الاسلامى ، وفى الواقع كان غرض فرنسا حفر قناة السويس وبالتالى رفض محمد على كلا المشروعين ٠

وبعد وفاة محمد على عادت بريطانيا لتناقش المشروع مع عبـاس الاول - المعروف بميله لانجلترا وتركيـا وكرهه لفرنسـا ، واتفقا على ان تقوم شركـة جورج ستيفنسن بالاشراف على اقامة خط سكك حديدية بين القاهرة والاسكندرية ٠٠٠ وقد وقع عقد الاتفاق على ذلك فى ١٢ يوليو ١٨٥١ وبدأ العمل فى سبتمبر ١٨٥١ ٠ وكانت شركـة ستيفنسن مسـئولة عن التخطيـط واقامة الاعمال على القناطر والسدود على طول الطريق ، والامداد بالمهندسين ومساعديهم والعمال وكذلك تقديم الخبرة الفنيـة والمساحين ومعداتهم وكذلك أى معدات اخرى تكون مطلوبة لتصميم المشروع وتنفيذه ٠

وفى مقابل ذلك كان على عباس باشا ان يدفع مبلغ ٥٦٫٠٠٠ جنيـه انجليزى بالتقسـيط ، اول قسط ١٦٫٠٠٠ جنيه يسدد فى اغسطس والباقى على اقساط نصف سنوية فى فبراير واغسطس من كل عام ٠ ووضع شرط جزائى بمبلغ ٨٫٠٠٠ جنيه يدفعها عباس اذا تعطل المشروع من قبله كذلك ان يمد المشروع بالاطباء والادوية والخيام اللازمة للعمال ٠ وتم الانجـاز كمـا يلى : -

١ - فى عام ١٨٥٣ تم ربط الاسكندرية بكفر الزيات ٠

٢ - فى عام ١٨٥٧ امتد الخط الى القاهرة - بعد انشاء كوبرى كفر الزيات - ثم الى السويس ٠ وبعد افتتاح قناة السويس تم رفع الخط ١٨٧٩ واعيد تركيبه فى ١٩٣٤ ٠

٣ - وفى عام ١٨٦٠ استكمل اول جزء من الخط الذى يربط بين بنهـا وبورسعيد ووصل حتى الزقازيق بطول ٣٥ كم . وفى عام ١٨٦٨ امتد هذا الخط حتى الاسماعيلية بطول ٧٩ كم .

٤ - وفى عام ١٨٩١ انشأت شركة قناة السويس خطا فرديا يصل بين الاسماعيلية وبور سعيد ، وكان مملوكا للشركة . وفى ١٩٠٢ أخذته الحكومة وحولته الى خط رئيسى عام ١٩٠٤ .

٥ - وفى عام ١٨٦٧ بدأ العمل فى خط الصعيد ، وفى عام ١٨٩٨ وصـل الى الاقصر ثم امتد الى أسوان بخط فردى ضيق . وفى عام ١٩٢٦تم رفـع الخط السابق وأبدل بخط اعلى كفاءة يصل بين الاقصر وأسوان .

٦ - وفى الفترة ما بين ١٩٠٠ - ١٩٣٦ انشىء خط الاسكندرية - مطروح وفى عام ١٩٤١ مـد هذا الخط حتى طبرق الليبية الا انه فى عام ١٩٥٢ أصبح ينتهى عند السلوم .

٧ - فى عام ١٩١٨ وصل خط حديدى لسيناء يبدأ من القنطرة وينتهى عند حيفا بطول ٤١٤ كم ... منه ٢٠٢ كم داخل الاراضى المصرية فى منطقة الحدود رفح - والقنطرة .

وتعتبر السكة الحديدية من أهم وسائل النقل فى مصر ويبلغ طـول شـبكة الخطوط ٤٣٥٨ كم الى جانب ٣٠٠٠ كم خطوط فرعية ومخازن كما توجد ٧٦٤ محطة رئيسية وفرعية .

تقسـيم المتحف :

ينقسم المتحف الى قسمين كل قسم فى طابق وهما كما يلى :

أ - الطـابق العلوى :

يضم الطابق العلوى بعض النماذج لوسائل النقل فى فجر التـاريخ وبخاصـة أيام الدولة المصرية القديمة واجمل هذه المعروضات هو نموذج

يبين كيف أمكن للفراعنة القدماء أن ينقلوا تمثالا يزن ٦٠ طنا مستخدمين فى ذلك الواحا من الخشب فى نظام بديع • الى جانب وسائل مبسطة للنقل تعتمد على القوى العضلية للانسـان والحيوان •

كما يضم هذا الجناح مجموعة كبيرة تشرح تطور أول قاطرات فى العالم وفى مصر ، ومن بين هذه القاطرات نموذج ذو أهمية تاريخية خاصة لانه يعرض لاول قاطرات فى العالم سنة ١٧٨٤ وهناك نموذج آخر يعرض أول قاطرة جالت فى الطرق المصرية عـام ١٨٥٤ تلك التى بناها روبرت ستفنسن وشركاه وسلمت لمصر ١٨٥٢ •

كما تعرض مجموعـة متنوعة من النماذج المختلفة للقاطرات وعربـات السكك الحديدية وكذلك عربات الصالون فى شكلهـا القديم والحديث ، تحكى لنا تطور سكك حديد مصر منذ انشـائها حتى بزوغ قاطرات الديزل الكهربائيـة •

وتعرض القاعـة نموذجا لقاطره أكسبريس قام يصنعها نلسن وشركاه فى سنة ١٨٦٢ وعملت على خطوط سكك حديد مصر الى أن كسرت فى سنة ١٨٩٥ • كما يعرض نموذج لقاطرة بخارية دخلت الخدمة فى مصر عام ١٩٥١•

وبعـد ثورة ١٩٥٢ دخلت القـاطرات التى تستخدم الديزل بدلا من القاطرات البخارية • ولدينا نموذج لجرار ديزل كهربائى للخطوط الرئيسية استورد من المانيا (هنشل) ودخل الخدمة فى مصر سنة ١٩٥٧ •

وأيضا هناك نماذج لناقلات المازوت والمياه وكذلك نموذج لعربة بهـا اول صالون سنة ١٨٧٠ للركاب صنعت من الخشب •

هذا بالاضافة الى نماذج لعربات لنقل الدبابات صنعت فى المصـانع الحربية بالاشتراك مع سيماف وذلك لنقل العتاد الى جبهات القتال •

قطـــار الخـديو

صنع هذا القطار فى مصر فى بولاق والقبارى وهو يتكون من ست وحدات، وصممت القاطرة فى لندن سنة ١٨٥٩ على يد روبرت ستفنسن اما العربات فقد صنعت فى مصر ٠

والعربة الاولى بعد القاطرة خصصت للضباط وصنعت فى مصر سنة ١٨٦٨ واستمرت فى الخدمـة حتى سنة ١٩٢٩ ٠

والعربة الثانيـة خصصت للاميرات وصممت بواسطة رايت وشركـاه سنة ١٨٥٨ وغشيت من الداخل بالطنافس والحرير ولكن جسم العـربة (كهن) سنة ١٩٢٤ والاطار الداخلى استخدم لعربة اخـرى ٠

العربة الثالثة خصصت للصالون الرسمى وبناها مانســـــون فى أمريكـا سنة ١٨٥٨ ٠

والعربة الرابعـة صنعها رايت ١٨٥٥ وخصصت للصالون العـائلى

والعربة الخامسـة خصصت للعائلة المالكـة وصنعها أيضا رايت عام ١٨٥٥ ٠

العربة السادسة خصصت صالونا للوزراء وصنعت فىمصر فى عام ١٨٧٢ وهذا الصالون (كهن) سنة ١٩١٣ ٠

فى عام ١٩٣٥ دخل الى مصر اول ديزل كهربائى صنع بانجلترا بأمـر الملك فؤاد واستخدم للدرجـة الاولى والثانية ٠

ب ـ الطـــابق الارضى :

يعرض هذا الجناح نموذجا بالحجم الطبيعى يتكون من جزئين يوضح الاجزاء الداخلية المختلفة للقاطرة ٠

وفى جناح منفرد هناك مجموعة من الاشارات القديمة والحديثة توضح كيف كانت توجه القطارات يدويا فى ايامها الاولى وعملية التطور التى لاحقت ذلك حتى أصبحت القطارات توجه اليوم عبر الطرق المختلفة بالوسائل الميكانيكية وكيفية تفادى المخاطر والحوادث وأخيرا يوضح ذلك القسم النظام الجديد لكهربة وسائل الاشارات الحديثة ٠

وفى قسم المحطات والكبارى هناك نماذج وصور للمحطات القديمة ومنها محطة القاهرة التى جددت عام ١٩٥٨ ومحطة سيدى جابر التى بنيت عام ١٩٤٨ ٠٠ ومحطة بورسعيد قبل العدوان الثلاثى والمبنية عام ١٩٥٥ ٠

كما تعرض فى هذه القاعة نماذج للكبارى التى تخدم السكك الحديدية ومنهـــا :

- كوبرى امبـابة — بنى عـــام ١٩٢٤
- كوبرى كفر الزيات الجديد — بنى عـــام ١٩٥٠
- كوبرى قناة السـويس — بنى عـــام ١٩٥٤
- كوبرى المرازيق — بنى عـــام ١٩٥٨

رابعـــا : متحف البريـد

يرجع الفضل فى انشاء هذا المتحف للملك فؤاد الاول ٠ وقد تم انشاؤه سـنة ١٩٣٤ ٠ ويقع المتحف فى الطابق الاول بمبنى الادارة العامة للبريد بالقاهرة ، ويتكون من قاعتين وبهو وصالة مستطيلة ٠

اهم المقتنيات :

- نسخة مقلدة من لوحة نارمر ٠ وعليها اقدم كتابة مفهومة ويرجع تاريخها الى عهد الاسرة الاولى ٠

- محبرات من العهد الفرعونى ، والرومانى ، والقبطى ٠

- ورقة بردى خالية من الكتابة ، واخرى مكتوبة ٠

- نماذج اختام مصرية قديمة ، وخاتم مصرى قديم كتب عليه اسم صاحبه بالهيروغليفية ٠

صورة خطاب باللغة الديموطيقية يرجع تاريخه الى سنة ١٤٠٠ ق م ٠

- تمثال للكاتب فى عهد الدولة القديمة ، وآخر للكاتب فى عهد الدولة الحديثة ، وآخر للكاتب وجد فى تل العمارية ٠

- صورة من حجر رشيد ٠

- نماذج تمثل : احدى رسائل البريد فى عهد الفراعنة ، وتسليم الرسائل الى احد ملوك الفراعنة ٠

- صورة فوغرافية لوثيقة الحيبة التى يرجع تاريخها للقرن الثالث قبل الميلاد ، وهى من اقدم الوثائق البريدية ، وقد جاء بها ما يثبت انتظام البريد السريع فى مصر فى عهد البطالة ٠

- صورة فوتوغرافية لورقة بردى اكسيرهينوس ٧١٠ ويرجع تاريخها الى سنة ١١١ ق م ، وورد بها ذكر عدد موظفى احد مكاتب البريد فى بلد بالفيوم ٠

- نماذج لخطابات على فخار ، وجلد ، وعظمة جمل ٠

- نموذج خطاب ذكر فيه اسم صاحب البريد سنة ٩١ هـ ٠

- خطاب من عصر المماليك .

- عقد بين شركة البوستة الاوربية وقناة السويس .

- عقد بين شركة البوستة الاوربية ومصلحة البريد فى سنة ١٨٦١ م .

- عقد امتياز لشركة البوستة الاوربية فى سنة ١٨٦٢ .

- عقد استلام الحكومة المصرية لشركة البوستة الاوربية .

- اعلان عن تصفية أعمال شركة البوستة الاوربية .

- أول منشور لمصلحة البريد فى عهدها الحكومى .

- اعلان عن استعمال طوابع البريد الاولى فى سنة ١٨٦٦ .

- اعلان عن وضع صناديق البريد فى الشوارع فى سنة ١٨٦٦ .

- خريطة الاسكندرية فى سنة ١٨٧٧ وعليها مواقع مكاتب البريد المصرية والاجنبية .

- خريطة لطرق نقل البريد فى برزخ السويس .

- منشور مدير البوستة فى خلال الثورة العرابية سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ .

- صاحب البريد ورسول البريد فى العصر العربى .

- ميدالية تذكارية من موظفى البريد لموتسى بك اعترافا بخدماته .

- تمثالان ، أحدهما للملك فؤاد ، والاخر للخديوى اسماعيل الذى تأسست فى عهده مصلحة البريد .

٢ - قسم طوابع البريد :

- قوالب واكلشيهات والواح لصنع طوابع البريد المصرية والاوراق المدموغة .

- مجموعة نماذج خطوات العمل فى صنع طوابع البريد المصرية

- اسطونات لطبع العلامة المائية على طوابع البريد ٠

لوحات لصنع طوابع البريد من الفئات المختلفة ٠

- مجموعة طوابع البريد المصرية منذ الطوابع الاولى سنة ١٨٦٦ وحتى الآن ٠

- مجموعة طوابع البريد السودانية ٠

- لوحة بالطوابع تمثل الاهرام وابو الهول ٠ مساحتها ٤×٣ مترا ٠

- لوحة بالطوابع تمثل زفاف الملك فاروق ٠

- لوحة بالطوابع تمثل الرئيس الاسبق جمال عبد الناصر ٠

٣ - القسم الاوربى : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الاوربية ، كل بلد على حده ٠

٤ - **القسم الافريقى** : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الافريقية ، كل بلد على حده ٠

٥ - **القسم الامريكى** : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الامريكية ، كل بلد على حده ٠

٦ - **القسم الآسيوى** : ويضم مجموعات الطوابع للبلاد الآسيوية ٠

٧ - **القسم الاسترالى** : ويضم مجموعات الطوابع ٠

قسم أدوات البريد :

ويضم مجموعات سنج وموازين ، أهمها موازين لوزن الجنية الاسترلينى ، والعملة الذهب والعملة الفضة ٠ وبه سلال وحقائب جلدية لاغراض بريدية مختلفة ، ومحافظ ، واعلام ، وشمعدانات . وفوانيس ، وضواغط للأختام ، واكياس لنقل البريد المسجل والمستعجل والجوى ، ومفاتيح لصناديق الخطابات بانواعها المختلفة ٠ وساعات ٠ وصناديق الخطابات المختلفة فى مصر وبعض الدول الاوربية ، وأختام مختلفة ، وأختام تذكارية ٠

٩ قسـم المـلابس .

• ويضم الملابس التى استحضرها « موتسى بك » سنة ١٨٦٦ ليرتديها كبـار موظفى البريد فى الحفـلات الرسمية والتشريفات الخديوية ، وصغارهم فى حالة زيارة الخديوى لادارة البريد • كذلك نواع الملابس فى سنوات ١٨٦٦، ١٨٨٧ ، ١٨٩٥ على التوالى ثم فى السنوات التالية •

١٠ ـ قسـم مبانى البريـد :

ويضم نماذج (ماكيتات) لبعض مبانى البريد الكاملة •

١١ ـ قسم الاحصائيات والرسوم البيانية والخرائط والصور الفوتوغرافية

ـ ويضم الى جانب الاحصـائيات والرسوم البيانية ، خريطة خطوط الحمام الزاجل فى مصر فى عصر المماليك ، وخريطة مكاتب البريـد فى سنة ١٩٣٢ •

١٢ ـ قسـم النقـل :

ويضم نماذج مختلفة للوسائل المتنوعة لنقل البريد •

١٣ ـ قسم البريد الجـوى :

ويضم نماذج لسفينة نوح ، وبرج حمـام الزاجل والمنطاد ، ونمـاذج لطائرات مختلفة ، و واول خطاب جوى ورد للاسـكندرية من لندن فى ١٧ اغسطس سنة ١٩٢٩ ، واول خطاب جـرى ورد من كراتشى فى الخط الجـوى بين مصر والهند •

١٤ ـ البريد الأجنبى :

ويضم مجموعات صور للبريد فى دول مختلفة •

خامسـا : متحف المركبـات الملكية

يقع هذا المتحف فى شـارع ٢٦ يوليو رقم ٨٢ من جهـة جامع ابى العلا• وقد تم افتتـاح هـذا المتحف فى ٥ يناير سـنة ١٩٨٢ ، وكـان فى الأصـل « عربخانة » الخديو اسماعيل • ويتكون مبنى المتحف من طابقين :

الطابق الأول يعرض فيه بعض المركبات الملكية التاريخية .

. الطابق الثاني : لعرض الملابس وأطقم الخيول .

الطابق الاول الارضى

نلاحظ أولا الفناء الكبير وهو احد فناءين - كانت تعد فيهما المركبة وتجهيزها - أما واجهة المتحف : فهى عبارة عن تشكيلات معمارية يمتزج فيها الفن والجمال مع البساطة ، وهى تماثل تماما واجهة قصر عابدين وفى وسطها كورنيش كبير بارتفاع ٥ أمتار . وهو عبارة عن خطوط ومنحنيات أفقية بالاضافة الى حليات هندسية راسه ، عبارة عن تكوين منحوت بارز يضم فى وسطه حرف F. كرمز الى الحرف الاول من اسم الملك « فؤاد » . وفى اعلى الواجهة كرنيش آخر أعلاه نحت بارز جميل على شكل دائرة حجرية تتكون من هلال و ٣ نجوم شعار العلم المصرى فى ذلك العصر - يحيط بها زخارف من أفرع واوراق نباتية وفى اعلاه التاج الملكى المجسم . وعلى أسفل الكورنيش مباشرة ثبتت عشرة نماذج لرأس حصان يظهر فيها التشريح العضلى ويحلى عنق كل رأس حلقة من الاوراق النباتية والزهور .

● الشكل الداخلى من المبنى : كما سبق الذكر يتكون من طابقين :صالة الدور الارضى الرحبة ذات النوافذ الزجاجية العديدة والتى تضم المركبات والبانوراما المتحفية .. أما الطابق العلوى الذى تصله عن طريق سلم فهو عبارة عن صالة أصغر مساحة من الدور الارضى - ذات نوافذ زجاجية عديدة وتشمل : الفتارين والدواليب الزجاجية التى تحوى الأطقم الخاصة بالخيل والملابس ومستلزماتها بالاضافة الى تابلوه عرض ملابس التشريفات .

● **محتويات المتحف :**

بالمتحف ٧٨ عربة ملكية ذات قيمة تاريخية فريدة هى تشكل اثنين وعشرين نوعا كان معظمها هدايا من دول أوربية لحكام مصر السابقين ابتداء من عصر الخديوى اسماعيل باشا . وحتى عصر الملك فاروق الاول .

ومن أهم هذه العربات عربة الآلاى الكبرى الخصوصى والتى أهداها نابليون الثالث والملكة أوجينى للخديوى اسماعيل عند افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ اضف الى ذلك البانوراما المتحفية الواقعة فى نهاية الصالة والتى

تمثل شكلا بديعا للعربة الآلاى سابقة الذكر وهى مزدانة بألوانها وتذهيبها واقفة على حصوات من الزلط الملون . ويؤدى القائمون بالعمل عليها عملهم فى حركة جميلة ورشيقة بالكرابيج او العصوات بملابسهم الجميلة زاهية الالوان .

وتغطى خليفة البانوراما بالكامل لوحة كبيرة ملونة . ولضيق مساحة العرض المتحفى اكتفى بتمثيل اثنين من الخيول كاملى الطاقم والزينة بدلا من خيول العربة التسعة .

● الطابق الثانى (العلوى) :

يحتوى على ٧ فتارين ، ٢٤ دولابا صفت من الخشب والزجاج لحفظ انواع الملابس الخاصة بالتشريفات والاطقم الجلدية المختلفة الاشكال والاسماء ومستلزماتها من ادوات الزينة الخاصة بالخيل ، وكل هذا يعرض بطريقة متحفية رائعة هذا بالاضافة الى تابلوهات ملونة بالزيت او بالالوان ، ومجموعات نادرة من رسومات هندسية تبين التركيبات الهيكلية لبعض العربات مع بعض قطاعات لاجزائها . اما تابلوه عرض الملابس فهو عبارة عن اطار كبير من الخشب يحوى داخله ثمانية نماذج آدمية من الجص بالحجم الطبيعى والذى الرسمى .

● مصادر العربات :

عرفنا أن ادارة الاسطبلات الملكية كانت تحوى مجموعة نادرة ومتنوعة من العربات ، وعرفنا ان بعض هذه العربات كانت تصل الى مصر من دول اوربية فى شكل هدايا او تصل اليها عن طريق الاستيراد فى شكل هياكل .. ومع ذلك لم يكن اسلوب الاستيراد أو الهدايا المصدر الرئيسى لجلب العربات الى مصر .. فقد كان هناك مصدر آخر وهى اللجان المختصة ، حيث تقدم اللجنة بعمل جولات .. بالمرور على ورش مشاهير التجار المصريين .. وانتقاء العربات ذات المواصفات المحددة . واللجنة حق تحديد سعر الشراء المناسب ، وما كان على البائع الا أن يبيع وهو راض سعيد . لما سوف يناله من شهرة وتقدير . وبعد الشراء تسحب العربة داخل ورش ادارة الاسطبلات الملكية فتعدل هياكلها احيانا ..

وتجدد فراشاتها دائمـا ٠٠ وتدهن بالطلاء اللازم ثم توضع عليهـا التيجان الملكية الجاهـزة ٠٠ او ترسم عليهـا ٠ وتصبح بعـد ذلك معـدة للاستعمـال ٠٠ وتحفظ عربات مصلحة الركائب بمبنى ادارة الاسطبلات الملكيـة داخل عنابـر رحبة نظيفة حيث ترتب فيـه حسب اهميتهـا وتغطى كل عربة بغطاء من التيل مرقم يكسوها تماما ولا ينـزع الا عند الـلزوم ٠

سادسا : متحف الرى (الثـورة) :

يقع فى منطقة القناطر الخيرية وسط حديقة جميلة ٠ ويتكون المتحف مـن طابقين ٠ والطـابق العلوى مخصص لتصوير مشروعات الرى ٠ اما الطابق الاول فيتكون من قاعتين كبيرتين (١ ، ٧) وقاعات جانبية صغيرة ٠

والقاعة (١) هى قاعة كبيرة ، وهى اول ما يصادف الزائر عند دخوله المتحف ، حيث يجد خريطة كبيرة فى مواجهـة باب الدخـول تملأ الحائط ، وهى خريطة مجسـمة لشـمال الدلتا توضح البحـر المتوسط من الشـمال ، وبحيرة المنزلة من الشرق ، وبحيرة مريوط من الغـرب ٠

وتوضح الخريطة بطريقة مجسمة الطلمبات والمحولات ومحطات الكهرباء، واسفل هذه الخريطة نرى خريطة أخرى صغيرة من الزجاج الشفاف مرسوم عليها شبكة شمال الدلتا وتوصيلها بشبكة شمال القاهرة ٠

ويتجه الزائر الى اقصى الشـمال وذلك عند دخوله المتحف ويبدا رحلته من هناك حيث يجد مكانا مرتفعا قليـلا (قاعة ١) يصعد اليه الزائر حيث توجـد بضعة سلالم من الشمال واليمين ويوجد بهذا المكان نموذج لسواقى هدير الفيوم ، ويحتوى هذا المكان ايضا عن ثلاثة رسومات فى الثلاث جهات٠ الرسم الاول يوضح كلا من الوجهين القبلى والبحرى حيث يقف رجلان من كل منهما لتأكيد الوحدة بين شطرى الوادى وذلك عند قدماء المصريين ، اما الرسم الثانى فيوضح الصيد عند قدماء المصريين ، والرسم الثالث يوضح الزراعة عند قدماء المصريين ٠

ثم ينزل الزائر من هذا المكان المرتفع وهو مازال فى القاعة (١) حيث يجد النماذج والخرائط الاتية فى هذه القاعة :

- خريطة مجسمة لبركة قارون ٠

- نموذج للطنبور : وهو آلة للرى فى العهد التركى وتستخدم حتى الان فى الريف المصرى ، لرفع المياه من مكان مرتفع قليلا ٠

- نموذج للصرف المغطى ، لصرف المياة الزائدة عن حاجة النبات : وهو عبارة عن مجرى مائى يحيط بمساحات منزرعة صغيرة المساحة وهذا المجرى ينخفض قليلا عن مستوى الارض المزروعة حتى يسمح بتسرب المياه الزائدة

- نموذج للمراوح الهوائية ٠

- نموذجين لقناطر اسيوط والتى انشئت عام ١٩٠٢ م وتمت تقويتها عام ١٩٣٨ م ٠

- نموذج لشبكة محولات كهربائية للضغط العالى ٠

- نموذج لقناطر أسنا والتى أنشئت عام ١٩٠٦ وتمت تقويتها عام ١٩٤٧ م

- نموذج لقناطر زفتى التى نشئت عام ١٩٠٢ وتمت تقويتها عام ١٩٥٤ م

- خريطة مجسمة لحوض النيل من بدايته حتى نهايته ومصبه بمقياس رقم ١ : ٢٠٠٠٠٠٠ ٠

يتجه الزائد بعد ذلك الى القاعة(٢)ليجد منظرا عاما لمنطقة القناطر الخيرية ونموذجا لقناطر الدلتا الجديدة بما فيها فرع دمياط وقناطر فرع رشيد وقد أقيمت قناطر الدلتا الجديدة فى عام ١٩٣٩ كبديل للقناطر الخيرية التى بناها محمد على ، حيث أنها لم تعد تستطيع حجز المياة لانها مبنية بالطوب العادى ، وقد مضى عليها زمن طويل ٠ اما القناطر الجديدة فقد تم انشاؤها بحجر الجرانيت ٠

والهدف الاساسى من وجود القناطر الخيرية الان هو كونها أثر سياحى أثرى ولكنها لا تستخدم فى شىء من مجالات الرى فى مصر ٠

ومن المعلومات الظريفة أنه من الاسباب التى دعت محمد على لانشاء القناطر الخيرية هو احتمال قدوم الفرنسيين مرة أخرى الى مصر عن طريق النيل ولذلك أقام القناطر على شكل قلعة حربية يحتمى فيها الجنود ومنها يستطيعون ضرب أى سفينة معادية قادمة من الشمال ٠

وهناك صيانة دورية سنوية من جانب وزارة الرى للقناطر الخيرية ٠

وعند اتجاهنا شمالاً للقاعة رقم (٤) نجد فى منتصفها نموذجا رائعا للسد العالى ، وهناك منظر مجسم للسد العالى على الحائط ايضا ٠

ومن القاعة رقم (٤) يتجه الزائر مباشرة الى القاعة (٥) حيث يوجد نموذج لخزان أسوان وهو يمثل ثلاثة قطاعات فى خزان أسوان المقام على مجرى النيل جنوبى القاهرة وعلى مسافة ٩٤٦ كيلو مترا منها ٠ ويمثل القطاع الاول الخزان عند انشائه عام ١٩٠٢ م وكان منسوب التخزين ١٠٦ م ، وسعة الخزان مليار م ٣ ٠ والقطاع الثانى يمثل الخزان بعد التعلية الاولى التى تمت فى عام ١٩١٢ م حيث رفع منسوب التخزين الى درجة ١١٣ م وزادت سعته الى ٢ر٨ مليار م ٣ - والقطاع الثالث يمثل الخزان بعد العلية الثانية التى تمت فى عام ١٩٣٣ م فرفعت منسوب التخزين الى درجة ١٢١ م ووصلت سعته ألى ٥ ميار م ٣ ٠ وقد تمت اخيرا عملية تدعيم حائط السد بحقنه بالاسمنت ٠ ويتكون الخزان من ١٨٠ فتحة عرض كل منها متران ، وتختلف مناسيب اعتابها باختلاف مناسيب قاع المجرى الصغرى ، وهو مزود بخمسة اهوسة بالجهة الغربية منه لتيسير الملاحة من حوض الخزان بالامام الى مجرى النهر بالخلف ٠

ثم يتجه الزائر من القاعة (٥) الى القاعة (٦) حيث يجد نموذجين فى هذه القاعة :

- نموذجا للرى بالرش : يوضح فيه كيفية زراعة الارض (خاصة الصحراوية) عن طريق استخدام الرى بالرش ٠

نمونجا لقنطرة مصرف فنيشة : وبوضــح كيفية استعمال البوابات وذلك بمقيــاس رسم ١/٢٥ ٠

ثم يرجع الزائر مرة أخرى الى القاعة (٥) متوجها الى القاعة (٧) حيث توجـد النماذج والخرائط :

- خريطة مجسمة لمصر عليها موقــع كل من :

السد العالى / خزان أسوان / قناطر أسنا / قناطر نجع حمادى / قناطر اسيوط وادى الريان / قناطر الدلتا / قناطر زفتى / قناطر ادفينا / منخفض القطارة

- نموذج بالخشب لخزان سنار الموجود بالسودان وهو أول خزان على النيل خارج حدود مصر ، وقـد انشىء عام ١٩٢٥ على النيل الازرق ٠

- نموذج لصوامع الغلال بالاسكندرية ٠

- نموذج لقناطر الدلتا فى ازمنة مختلفة بمقياس رسم ١/٥٠ ٠

- نموذج للســد العالى ٠

- نموذج لمحطة طلخا لتوليد الطـاقة الكهربائية ٠

- ثلاثة نماذج (حجم كبير) لخزان اسوان كل واحد منها يبين مرحلة من مراحل انشاء خزان أسوان (ثلاث مراحل) ٠

ثم يتجه الزائر الى القاعة (٨) حيث يجد الخرائط والرسومات الخاصة بمصلحة المساحة ٠

ويجد الزائر ايضا فى هذه القاعة (٨) رسما مجسما لمشروع سحارة تحت قناة السويس فهذه السحارة تأتى من ترعة الاسماعيلية ومن النيل فرع دمياط، وتتكون من ستة مواسير قطر كل منها ١٥٠ سم ٠

وعن طريق توصيل مياه النيل الى سيناء سيتم استصلاح نحو مليون فدان ٠

سابعا : متحف قصر الامير محمد على بالنيل ٠

صاحب القصر :

هو الامير محمد على ابن الخديوى توفيق ، وشقيق الخديوى عباس حلمى الثانى ، ولد بالقاهرة عام ١٨٧٥ وتوفى خارج مصر فى مارس عام ١٩٥٤ ٠٠ وكان وصيا على العرش فى الفترة ما بين وفاة عمه الملك فؤاد الاول وجلوس ابن عمه الملك فاورق الاول على عرش مصر بعد بلوغه السن القانونية فى ٢٨ ابريل ١٩٣٦ ، ثم أصبح وليا للعهد الى ان أنجب فاروق الامير احمد فؤاد ٠

اشتهر الامير محمد على بشدة تدينه ، وحبه للفنون الرفيعة ، خاصة الاسلامية منها ٠ وقام بجولات عديدة حول العالم ٠٠ وكان احد أشهر هواة تربية الخيول فى عصره ، كذلك كان شغوفا بجمع التحف الثمينة ٠ واذا أضفنا الى هذه الصفات تلك الحادثة التى وقعت له عندما سقط من فوق صهوة جواده عندما كان صبيا ، فحرمته من الانجاب ٠٠ نجد أن الامير قد ركز كل جهوده على قصره كى يحمل اسمه عوضا عن النسل ، فخرج قصرا فريدا فى نوعه ليس فى مصر فقط بل فى العالم اجمع ٠

انعكست اذن صفات الامير السابقة على قصره فشيده متميزا عن قصور أقرانه من أمراء وأفراد الاسرة العلوية ٠ وفى حقيقة الامر فان الامير قد وضع فى اعتباره عند البدء فى تشييد قصره أن يجعله متحفا فى حياته ويحمل اسمه بعد مماته كما جاء ذلك فى وصيته عام ١٩٢٥ ٠ وفى نفس الوصية أوقف للقصر جزء من أملاكه من الاراضى الزراعية للصرف منها عليه ٠

القصر :

تبلغ المساحة الكلية للقصر ٧١١و٦١ مترا مربعا ، وتبلغ مساحة السرايات المقامة داخل القصر ٥٠٠٠ متر مربع ، وتبلغ مساحة الحديقة ٠٠٠ ٣٤ متر مربع ، ومساحة الطرق والمنشآت الخاصة بالحديقة ٧١١و٢٢ مترا مربعا ويتكون القصر من :

١ - سراى الاقامة ٠٠ وهى السراى الرئيسية وأول مبنى يقام داخل القصر وكان ذلك عام ١٩٠١ ٠٠ وتتكون السراى من طابقين ، الارضى قاعات للاستقبالات الخاصة وحجرة للطعام ومكتب الامير ومكتبته ٠ وفى الدور العلوى توجد حجرات النوم وملحق بها حجرة خاصة بالمجوهرات والتحف الثمينة ٠ وملحق بالسراى برج يشرف على كل القصر والحديقة والنيل والاهرامات والمقطم وجزء كبير من القاهرة ٠

٢ - سراى الاستقبال : وتقع فوق المدخل الرئيسى للقصر وهى تتكون من طابقين الارضى وبه قاعتين واحدة للتشريفات ، والاخرى لاستقبال بعض الشخصيات الهامة التى كانت تأتى لصلاة الجمعة مع الامير ٠ أما الطابق العلوى فيتكون من قاعتين كبيرتين ، احداهما على الطراز المغربى والاخرى على الطراز الشادى ٠٠ اى ان الامير جمع جناحى الوطن العربى فى احدى سريان قصره ٠

٣ - برج الساعة : وقد شيده الامير على طراز ابراج المغرب الاقصى ، ووضع فى اعلاه ساعة من نفس طراز الساعة التى وضعها الخديوى عباس حلمى فى محطة مصر والموجودة حتى الان ٠

٤ - المسجد : رغم صغر مساحته الا انه يعتبر آية من الفن الرفيع سواء من الناحية المعمارية أو الزخرفية على الطراز العثمانى ٠

٥ - سراى العرش : لم يعترف الامير محمد على بجلوس كل من عمه السلطان « حسين كامل » او عمه الملك فؤاد الاول أو ابن عمه الملك فاروق على عرش مصر ، وأعتبر ذلك اغتصابا لحقه الشرعى فى تولى حكم مصر بعد اقصاء أخيه عباس حلمى عن العرش٠٠ولتذكير هؤلاء بذلك قام بتشييد سراى للعرش خاصة به وقد شيدها على نفس نمط قاعة العرش الخاصة بجدة الاكبر « محمد على باشا » بقصر الجوهرة بالقلعة ،وقد زين القاعة بصور الذين حكموا مصر فى اسرته ابتداء بمحمد على وابراهيم باشا - والد جده - فعباس الاول، فسعيد باشا ، فالخديوى اسماعيل - جده - فالخديوى توفيق - والده ثم شقيقه عباس حلمى الثانى ٠٠ ولم يضع صورا لمن جاءوا بعد أخيه لعدم اعترافه بهم ٠

وفوق قاعة العريش ، يوجد طابق ثان عبارة عن قاعات جلوس شرقية شتوية تطل على النيل أهمها حجرة الابيسون الفريدة ٠

٦ ـ المتحف الخاص : عرف عن الامير شغفه الشديد بجمع التحف خاصة التحف الاثرية الاسلامية بالدرجة الاولى ٠٠ ولذا فقد قام ببناء متحف خاص به لعرض ما جمعه من تحف ومقتنيات وهذا المتحف يتكون من ١٥ قاعة ٠٠ وما بها من مقتنيات تكاد تتساوى في الكم بما هو موجود بالمتحف الاسلامي الذى شيده شقيقه الخديوى عباس حلمى الثانى ٠٠ وتمتلىء قاعات المتحف بأنواع نادرة من السجاد والمنسوجات والمخطوطات واعداد كثيرة من المصحف الشريف ، النادر منها من النوع النادر، ولوحات زيتية وتحف مصنوعة من الكريستوفل أو الفضة أو الذهب هذا بجانب التحف الزجاجية ومن الكريستال والعاج والخشب المشغول او المطعم وغيرها من التحف لا يتسع المجال لاستعراضها ٠

٧ ـ القاعة الذهبية : وهى تحفة لا يوجد لها مثيل ، فرغم أنها تكاد تكون خلوية من التحف أو الاثاث بالقياس بالسرايات الاخرى ، الا انها تعتبر تحفة قائمة بذاتها ٠٠ فأسقفها وجدرانها وأعمدتها محلاة بالزخارف البديعة المذهبة علاوة على الايات القرآنية وأسماء الله الحسنى وبردية البوصيرى فى مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى تزين الاسقف والجدران ٠٠ وكانت القاعة تستخدم فى الحفلات الرسمية ٠

٨ ـ متحف الصيد : استغل الفنان « أحمد خالد درويش » مراقب عام المتاحف التاريخية الاسبق وجود ممر مغطى ملاصق للسور الشمالى للقصر وحوله الى متحف للصيد حيث عرض به الحيوانات والطيور والزواحف المحنطة وغيرها وجميعها مجموعات خاصة بالملك « فاروق » جلبت من استراحته بانشاص ٠ والمجموعة والخاصة بالامير يوسف كمال ٠٠ وأهم ما يميز هذا المتحف الدخليل على القصر ، هو وجود مجموعات من الفراشات والحشرات النادرة ٠٠ وهو فى محصلة عامل جذب للزائرين ٠

هذه نبذة مختصرة للغاية عن سرايات القصر ٠٠ أما الزائر للقصر فيقع فى حيرة ايشاهد الزخارف البديعة التى تملأ كل ركن من أركان السراى هل

ينظر الى الارضيات أم ينظر الى الاسقف المصنوعة بأساليب فنية بديعة، أم يشاهد الاثاث والمقتنيات والتحف المنتشرة فى كل ركن من اركان كل قاعة .

الحـــديقة :

حديقة قصر الامير « محمد على » فريدة من نوعها .. وكانت فى عصره ذات شهرة عالمية ، وما زالت .. فقد جمع فيها الامير نباتات من جميع المناطق المناخية ... منها نباتات من مناطق استوائية ومدارية جنبا الى جنب مع نباتات من مناطق معتدلة او مناطق باردة .. واهم تلك النباتات على الاطلاق هى اسجار الفيكس ، والتى تغطى احداها ٣٠ مترا مربعا ، وانواع نادرة من الصبار كان قبل اقامة الشاليهات الخاصة بالفندق تبلغ اكثر من ٧٠ نوعا بجانب انواع النخيل واهمها النخيل الملكى . هذا غير الاشجار والنباتات المثمرة ، مانجو وبرتقال ويوسفى وانواع الياميش والعنب والجوافة والتفاح ، بل أن بعض الفاكهة المزروعة بالقصر غير معروفة فى مصر .. وغير ذلك كثير .. وكانت الحديقة فى عهد الامير محل دراسة للعلماء من جميع انحاء العالم خاصة لنباتات الصبار .. كما كان يؤمها طلبة الفنون الجميلة ، الذين كان الامير راعيا لكليتهم .

ويحيط بسرايات القصر ومنشآته وحديقته سور ضخم شيد على نمط اسوار الحصون والقصور فى العصور الوسطى .. وهو يتكون من اربعة أضلاع ، كل ضلع يواجه جهة من الجهات الاربعة الرئيسية .. والباب الرئيسى للقصر يقع فى النهاية الشرقية للسور الشمالى .. كما يقع باب آخر فى فى منتصف السور الغربى .. وفى اعلى الباب الرئيسى للقصر وضع الامير اللوحة التأسيسية للقصر حيث كتب عليها (انشأ هذا القصر الامير محمد على باشا نجل المغفور له الخديوى محمد توفيق احياء للفنون الاسلامية واجلالا لها) .

« تم بعون الله »

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الايـداع ٥٢٦٤/٨٥
الترقيم الدولى ٤ ـ ٠١٨٨ ـ ١٠ ـ ٩٧٧